العقيدة والأخلاق في الإسلام

تأليف
الدكتور/ سامى عفيفى حجازى
أستاذ العقيدة والفلسفة
بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر

مكتبة الإيمان
٤ شارع أحمد سوكارنو - العجوزة
ت: ٣٤٥٢٣٠٢ فاكس: ٣٠٤٤٨٤١

رقم الإيداع ٥٢٦٦ / ٢٠٠٦م
الترقيم الدولي **I.S.B.N.**
977-5260-50-7

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

لقد تعلمنا علي مائدة الاسلام أنه من لم يشكر الناس لم يشكرالله

ومن هنا فإننى أتوجه إلى الله سبحانه بالثناء والحمد على ما أولانيه من فضل واسع، وعون سابغ، لإتمام هذا البحث، راجيا منه تعالي أن يهدينى إلى اخلاص النية له، وأن يتقبل عملى مخلصا لوجهه الكريم.

ولما كان أصل هذه الدراسة رسالة جامعية لنيل درجه التخصص (الماجستير) في موضوع: العلاقة بين العقيدة والأخلاق في الإسلام قدمت إلي قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين- جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة، وقد أشرف عليها الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الفيومي الأستاذ بالكلية والأستاذ الدكتور قنديل محمد قنديل المشرف المتابع علي البحث.

وقد أسند قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين مناقشة الرسالة إلي الأستاذ الدكتور عوض الله جاد حجازى رئيس جامعة الأزهر الأسبق والأستاذ الدكتور محمد مصطفي الأستاذ بكلية أصول الدين بالقاهرة.

وقد نال الباحث درجة التخصص (الماجستير) بتقدير ممتاز.

وأنه لايقتضيني واجب الوفاء والعرفان- أن أقدم خالص تقديرى وشكرى لما أبدوه من مناقشات وتوجيهات في بيان العلاقة بين العقيدة والأخلاق في الإسلام وأضرع إلي الله العلى القدير بالدعاء لهم جميعا بقدر ما قدموا من عطاء الله لهم في حقل العلم والمعرفة.

واعترافا بفضلهم ووفاء بالعرفان لهم أهدى ثمرات هذا البحث لهم جميعاً.

المقدمـة

الحمد لله رب العالمين الذى هدى المسلمين إلى اليقين وهيأ لهم عقيدة تسمو بهم إلى مراقى الفلاح والسلوك المستقيم، وصلاة وسلاماً على المبعوث رحمة للعالمين، الذى كان خُلُقه القرآن فى كل أمر من أمور الحياة.والدين.

أما بعد:-

فإن لكل مقصد وسيلة، ولكل غاية بداية.. وعلى قدر عظم المقصد والغاية، تكون الوسيلة والبداية.

ولقد كانت العقيدة التى جاء بها الإسلام للمسلمين هى النافذة التى يطل منها المسلمون على العوالم الحية، بكل شعب هذه العوالم كما كانت العقيدة الإسلامية ذاتها هى المنظار الذى ترى بواسطته كافة حقائق الحياة والسلوك، ويفسر الانسان على (ضوء) هذه العقيدة مجرى حياته ومرساها.

إن مصدر الفاعلية فى عقيدة جاء بها الإسلام كان الأساس الفكرى والروحى لإطار أخلاقى سلوكى يحدد لإنسان العقيدة المؤمن بها، والمؤتمن على سيادة قوتها أسلوب التعامل مع الحياة والمجتمعات.

وبنظرة إلى الواقع الذى نعيش فيه نرى أن الانسانية تعيش فى هذا العصر أزهى فترات تقدمها الصناعى وازدهارها المادى، وانتصارها العلمى.

فالظاهرة العالمية فى عصرنا هذا أنه عصر المادة وسيطرتها حيث بلغت الحضارة المادية فى عصرنا هذا حدا لم يسبق له مثيل، والانسانية فى نفس الوقت الذى تعيش فيه أزهى عصور التقدم المادى والعلمى، تعيش أشد فترات تاريخها شقاء وتعاسة.

وهذه حقيقة لايستطيع أن ينكرها عاقل ولا يجادل فيها منصف ونتيجة لهذه الظاهرة تفككت الأسر والمجتمعات وأظلم الجانب الروحى فى الانسان إظلاما شديداً

حال بينه وبين السعادة النفسية، والطمأنينة القلبية ولم يجده شيئا ذلك التقدم المادى المذهل نظرا لاختلال التوازن فى استكمال عناصر القوة المادية والروحية جميعا من حيث هما معا العنصران الأساسيان فى خلق الانسان.

وكان لعدم التآلف بين هذين الأمرين نتيجة بالغة الخطر أجمع عليها المفكرون وهى: أن عضلات العالم اليوم أضحت أقوى من عقله وبصيرته.

ومن هنا نرى أن واقع الإنسانية يؤكد مرارة المعاناة وفساد السلوك ولاخروج للبشرية من ذلك إلا إذا صحت عقيدة الناس واستقام سلوكهم.

إن التركيز علي موضوع العقيدة يضع اللبنة الأولى فى بناء الفرد الذى يُكَوِّن المجتمع المتكافل الجدير بالسمو والتمكين له فى الأرض، فالمسلم يؤمن بدينه أقوى مايكون الايمان ويثق فيه أعظم ماتكون الثقة، ويوقن يقينا لايداخله ريب أن الإسلام هو النظام الذى به تصلح الحياة والأحياء وأنه لاصلاح للحياة إلا بتطبيق حكم الله والخضوع لعقيدته وشريعته والتجمل بقيمه وأخلاقه.

ولكن مع كل هذا الإيمان، وهذه الثقة، وذلك اليقين، يجد المسلم نفسه يحيا فى ظل نظم تخالف مخالفة صريحة بل تتناقض تناقضا واضحا مع دينه الذى يؤمن به، ومبادئه التى يثق فيها ويعتنقها. فمن شأن هذه الحالة أن تفقد المسلم ثقته فى نفسه وفى المجتمع الذى يعيش فيه، ومن شأنها أن تفقده الشعور بالمسئولية فى كل ما يأخذ من أمور الحياة ومايدع، وهذه الحالة فى نفس الوقت من شأنها أن تفقده الشعور بالإلزام والإلتزام الأخلاقى، فهو يأخذ ما يأخذ بلا إيمان ويدع ما يدع بلا اقتناع، ومن شأن هذا ان ينتج انحلال السلوك والعراء عن القيم الخلقية.. وإذا ما تساءلنا عن السبب الذى يكمن وراء ذلك الشقاء وتلك التعاسة وجدنا الإجابة تنحصر فى جانبين:

الجانب الأول: عدم الحكم بما أنزل الله، وعدم تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى المجتمعات المسلمة، والاحتكام إلى الدين عقيدة وشريعة وأخلاقاً، وهذه دعوة قديمة وملحة ومستمرة لأنها التعبير الصادق المعبر عن الأمل الحقيقى الدائم لدى كل الأمم المسلمة بل وغير المسلمة ممن تنشد العدل والسلام، هذه الدعوة ليست حديثة ولا

يمكن أن تكون كذلك، ولكنها اكتسبت فى السنوات الأخيرة قوة والحاحا لأمور كثيرة منها:

١ – حالة الانفصام التى يحياها المسلم، والتى يسببها الحكم بغير ما أنزل الله.

٢ – اتجاه كثير من المفكرين للعودة إلى الدين والتمسك به.

الجانب الثانى: وهو مترتب على الجانب الأول وهو بعد الإنسانية عن العقيدة الصحيحة والأخلاق وهذا ناتج عن انحلال البشر من عرى العقيدة والدين.

ولبيان أثر العقيدة فى تقويم السلوك نستطيع أن نقرر أن العقيدة تقوم فى جوهرها على بناء الإنسان عقلا وفكرا وروحا وسلوكا.

بناء عقله بالعقيدة، وفكرة بالثقافة الراشدة، وروحه بافساح المجال أمامها لترتوى من كوثر الله وسلوكه بالاقتداء بالرسول ﷺ وذلك بالامتثال لما أمر به الحق تبارك وتعالى، والابتعاد عما نهى عنه، ويبين ذلك المعنى القرآن الكريم. والكلام للدكتور محمد عبد الله دراز فيقول: «والقرآن الكريم من حيث كونه حافظاً لما سبقه واستمراراً له، فقد تميز عنه بذلك الامتداد الرحب الذى ضم فيه جوهر القانون الأخلاقى كله، وهو الذى ظل متفرقا فى تعاليم القديسين والحكماء من المؤسسين والمصلحين، الذين تباعد بعضهم عن بعض، زماناً ومكاناً وربما لم يترك بعضهم أثراً من بعده يحفظ تعاليمه..»[1]

فليس يكفى فى الواقع لكى نبين أثر العقيدة فى تقويم الأخلاق أن نقول إنها حفظت تراث الأسلاف ودعمته، وإنها وفقت بين الآراء المختلفة التى فرقت أخلاقهم، بل ينبغى أن نبين الحقيقة فى أن العقيدة قد رفعت ذلك البناء المقدس وجملته. ومن هنا نستطيع أن نقول:

إنه لامكان للأخلاق بدون عقيدة، وذلك لأن العقيدة تتصل بالأخلاق ذاتها وهى معناها الايمان بالحقيقة الاخلاقية التى تسمو بالفرد.

---

(١) راجع دكتور محمد عبد الله دراز- دستور الأخلاق فى القرآن الكريم ص٨ ط. الأولى ١٩٧٣م.

وعلى ذلك فالأخلاق التى أقصدها هنا فى هذا البحث– ليست هى آراء الفلاسفة التقليدية التى تدرس حاليا وتسمى بالأخلاق الاسلامية فإن هذه الأخلاق الأخيرة تعتبر فى نظرى أخلاق فلاسفة المسلمين وليست أخلاقا إسلامية حقا، لأنها كما رأيتها أمشاج من الآراء والأفكار البشرية التى تمثل آراء الفلاسفة المسلمين ممن تأثروا بالنظريات الأخلاقية الاجنبية وبالفكر الاسلامى، وربما اخترعوا نتيجة لهذا وذاك آراء خاصة بهم، ومن هنا ينبغى أن نسميها بأخلاق الفلاسفة لا بالأخلاق الاسلامية فالأخلاق الإسلامية الحقة والجديرة بهذا الاسم والتى أقصدها فى بحثى هنا هى التى تنبع من صميم الاسلام نفسه ومن عقيدة الانسان الصحيحة.

فارتباط الاخلاق بالعقيدة هو الأساس الذى قام عليه جوهر وحقيقة الإنسان، فالإنسان إنما يكون إنسانا حقا بقدر ما يعتقد اعتقاداً سليماً وبقدر ما يسلك سلوكا قويما، إذن فإذا ما أردنا أن نحدد مكانة الأخلاق الإسلامية بين الأخلاق الأخرى، فمن الضرورى أن تكون هذه الأخلاق الإسلامية هى التى تنبع من مصدرها الحقيقى وهو العقيدة الاسلامية، لا تلك التى نجدها عند فلاسفة الأخلاق، وذلك بأن نجعل أرضية دراستنا للعقيدة والأخلاق من حيث المصدر هى البدء بالبحث عن الحل فى النصوص الاسلامية أى فى القرآن الكريم والسنة الشريفة.

وهذان المرجعان: هما الأصل الذى يدور حوله البحث لاستخراج مضمون العلاقة، فمن مميزات الاسلام تلك المعجزة الكبرى القرآن الكريم الذى أنعم الله به على العالمين، فكان القرآن وبجانبه الحديث الشريف باعثين إلى ترسيخ قواعد السلوك الخلقى ومن هنا توثقت العلاقة بينهما ولذلك فقد آثرت ألا أنتهى بقول الفلاسفة المسلمين وفكرهم، لان الاسلام شئ وهؤلاء وافكارهم شئ آخر، فهم لا يمثلون بآرائهم الاسلام وآراءه، ولذا فيجب علينا ونحن على أبواب البحث أن نحدد موقفنا من دراسات السابقين بأن تكون وسيلة من وسائل الفهم والفكر فلا نتخذ دراستهم بداية نبدأ بها ولا نهاية ننتهى إليها، وإنما تكون واسطة بين البداية والنهاية، على أن يكون هدفنا الأساسى هو بيان أثر العلاقة بين العقيدة والأخلاق من حيث المصدر؟ لا من حيث الأخلاق التقليدية.

لأننا لو سلكنا هذا المسلك التقليدى لما خدمنا الأخلاق الإسلامية الحقيقية، وإنما نكون قد خدمنا فلسفة وأخلاق هؤلاء الرجال، وتركنا بيان أخلاق الاسلام ونحن أشد حاجة اليه فى العصر الحديث الذى نعانى فيه وذلك ماثل فى الواقع الملموس الذى نعيشه فى هذا العصر والواضح فى أزمة الإنسانية التى حلت بالجنس البشرى إلا القليل، وإننى أرى أن السبب فى ذلك هو فقد الجنس البشرى المجتمع للقدوة فى العمل، فغالبية أفراد البشر على معرفة بالحق نظريا دون الالتزام العملى فى السلوك فلقد ساد التحلل المسرف من الإيمان ومن قواعد الأخلاق التى رسمتها العقيدة الإسلامية للجنس البشرى، إذ من المتفق عليه أن الذين يقومون بسياسة التوجيه والإرشاد ينبغى أن يكون سلوكهم تطبيقا عمليا لما ينادون به من مبادئ، وإذا حدث هناك تناقض بين القول والعمل فإن الإنسان سرعان ما يفقد الثقة فى كل ما يقوله هؤلاء، وإذا فقد الإنسان الثقة فيمن يقومون بتوجيهه وإرشاده فان أى جهد يبذلونه فى سبيل ذلك سوف يكون عبثا لاجدوى منه، ولخطورة هذه القضية نجد القرآن الكريم قد حذرنا منها فقال سبحانه ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾(1)

ومن هذا المنطلق اخترنا منهجنا فى كتابة هذا البحث:

«العلاقة بين العقيدة والأخلاق فى الاسلام»

فالعقيدة أس الحياة وروحها، والاخلاق مشعل يضئ سبل الحياة وينيرها، ومن هنا كانت العقيدة والشريعة والأخلاق عناصر متكاملة متآلفة يقاس كمال المجتمعات الإنسانية بمدى تعاضدها وتعاونها، فالأخلاق ليست نباتا منقولا إلى النفس الإنسانية وإنما هى جزء لايتجزأ من فطرة الإنسان، فمتى إتفقت العقيدة مع الشريعة ومتى تآلفت الأخلاق معهما كان المجتمع أقرب إلى الكمال الإنسانى، وذلك أن صلة العقيدة بالأخلاق تقضى بضرورة التكامل بينهما، ومن هنا كان لابد من الرجوع للقرآن الكريم الذى شمل العقيدة والأخلاق، وعلى ذلك فمن يقرأ قول الحق تبارك وتعالى ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(2) يشعر فى قرارة

(1) سورة البقرة بعض من الآية ٤٤.
(2) سورة الرحمن الآيات من ١ - ٤.

نفسه أن تعليم القرآن يرشد إلى الطريق المستقيم.. ذلك المعنى هو الينبوع الذى تنطلق منه العقيدة... إنه الفرقان الذى تظهر انطباعاته فى سلوك الإنسان. والقرآن من ناحية ثانية مادة الأخلاق فالعقيدة إذن والأخلاق ينتسبان إلى أصل واحد، وذلك الأصل الإيمانى بكل أبعاده هو الأساس الذى كان تكريم الإنسان بتعلمه ولما كانت الأخلاق الفاضلة، والسلوك القويم مظهرين من مظاهر رسوخ العقيدة وثباتها فإن هذا البحث سيحاول تبيين الصلة الحقيقية بين العقيدة والأخلاق فى الاسلام.

ومن هنا حاولت بيان العلاقة بين العقيدة والأخلاق على اعتبار أن الثانية ترجمة عملية للأولى فإن الإنسان إنما يكون إنسانا بقدر ما تصح عقيدته وبقدر مايجمل خلقه ويستقيم سلوكه.

وقد كان توفيق الله تعالى أن اعاننى على جمع المادة العلمية وتنسيقها على نحو يجمع السياق الموضوعى إلى جانب العرض والمناقشة وفى كل ذلك ما يشعر بأهمية الموضوع ويدعو إلى اختياره للبحث.

منهج البحث:

موضوع الرسالة هو: العلاقة بين العقيدة والأخلاق فى الإسلام ولذلك كانت كتابتى عن العلاقة بينهما وقد رأيت أن يكون الباب الأول عن العقيدة الإسلامية: وقسمته إلى فصول ثلاثة وكان الفصل الأول: لبيان مفهوم العقيدة والحاجة إليها ووحدة العقيدة وما تشتمل عليه وكون العقيدة هى دعوة الرسل جميعا وأثرها فى السلوك. ومن هنا كانت حاجة الإنسانية إليها. ولما ذكرت مفهوم العقيدة ووحدة العقيدة وذلك ببيان الارتباط الزمنى بين أنبياء الله ورسله تطرقت إلى الحديث عن أركان العقيدة وجعلته الفصل الثانى، وأما الفصل الثالث والذى عنوانه: العقيدة الإسلامية والفطرة فقد اشتمل على أمرين.

الأول: العوامل النفسية لتكوين العقيدة متمثلة فى العقل والإرادة والوجدان.

الأمر الثانى: خصائص العقيدة الإسلامية، وإن كانت خصائص العقيدة أكثر من أن يحيط بها بحثنا إلا أننى أخذت الخصائص التى بها أستطيع أن أقف على بيان العلاقة بين العقيدة والأخلاق.

ثم انتقلت إلى الحديث عن الخُلُق وجعلته الباب الثانى من البحث وقسمته إلى فصلين: أما الفصل الأول فقد تناولت فيه بيان مفهوم الخُلُق والغاية منه، وترتب على ذلك بيان ضرورة الأخلاق. ثم تكلمت عن أهمية الأخلاق الإسلامية وجعلته الفصل الثانى وكان ذلك ببيان المعيار الخلقى وسمات الأخلاق الإسلامية ومما دعانى إلى التفصيل فى البيان للمعيار الخلقى أن الفرق كبير جداً بين أن يقدم الإنسان على شئ يجهل جميع جوانبه وبين أن يقدم عليه وهو يدرك ماهيته وحدوده وثمرته التى يجنيها من دراسته، ففى الجانب الأول الاضطراب والايهام وفى الآخر الوضوح والالتزام.

وكل هذه النقاط وإن كانت شاملة للإنسان فى جانبيه المادى والروحى إلا أننا رأينا لبيان العلاقة ان نعقد الباب الأول للعقيدة كما قلت سابقا ثم يليه الباب الثانى للأخلاق ثم عقدت الباب الثالث لبيان مظاهر العلاقة بين العقيدة والأخلاق وقسمته إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول تحدثت فيه عن بنية الأخلاق الإسلامية، وذلك فى جانب الايمان ثم فى جانب العمل والسلوك. ثم تناولت بالبيان الكلام عن الضمير وفصلت القول فيه فى نظر الأخلاقيين والصورة التى رسمها القرآن الكريم للإلزام الخلقى ومجالاته.

وفى الفصل الثانى تكلمت عن المسئولية الأخلاقية وأقسامها الثلاث الدينية والاجتماعية والقانونية، وأرجعتها إلى المسئولية الخلقية والقانونية.

وفى الفصل الثالث تكلمت عن الجزاء الخلقى.

ثم كانت الخاتمة.

اما طريقتنا فى عرض القضايا ومعالجتها فكثيرا ما كنا نذكر الإستشهاد بالكتاب مقدما على السنة، وأحيانا كانت تغلب علينا طبيعة المعالجة فنذكر الإستشهاد بالسنة ثم نتبعها بما يؤيدها من القرآن وأحيانا أخرى نستشهد بأحدهما وذلك لمقتضى المقام فى القضية محل البحث.

ولقد كانت النية ان أحصى جميع النصوص التى تتعلق بالموضوع فقمت بجمع النصوص من الكتاب والسنة وأعددتها فى بطاقات لهذا الغرض لكن سرعان ماتبين لى أن هذا الإتجاه سوف يتسع بالبحث إتساعا كبيرا يحوله إلى عدة مجلدات، ومن هنا فلقد وجدت نفسى أمام احتمال مخيف وشاق وهو أن يفضى بى التتبع والجمع للنصوص فى هذه الرسالة المطولة إلى نسخة أخرى من أى كتاب جامع للعقيدة والأخلاق مع مجرد اختلاف يسير أو كثير فى تنسيق الموضوعات وتقسيمها.

والسبب الموضوعى لهذه النتيجة التى توقعتها هو شمول العقيدة والأخلاق سواء فى الكتاب أو فى السنة لكل أفعال المكلفين، فقلما نجد نص من القرآن الكريم أو حديثا لا يتصل بموضوعهما أى الاعتقاد أو العمل والسلوك.

ولذلك كان لابد من تعديل الاتجاه الاستقرائى إلى إتجاه اكتفى فيه ببعض النصوص الدينية ذات الصلة بالقضية محل البحث، من أجل ذلك رجعت إلى المصادر الأصلية، وفى الوقت ذاته لم أنسى ما كتبه المحدثون، كما أننا لم نلجأ فى كثير إلى الاحالة على المصادر لأننا نثق أن النصوص والأدلة مهما تشابهت فلابد أن تتفاوت، ومن ثم آثرنا تكثيف النصوص ولم نلجأ إلى الاحالة إلا حين نجد أن المعنى يتطابق والتكرار لايفيد وعلى ذلك قمت بتبويب الآيات والأحاديث حسب خطة البحث.

- أعتمدت قدر استطاعتى فى كل ماكتب على القرآن الكريم والسنة الشريفة، مع الرجوع إلى كتب التفسير والاعتماد على كتب اللغة.
- ذيلت كل صحيفة برقم الآية أو تخريج الحديث أو ذكر المرجع والصفحة والطبعة وتاريخها إن وجد. واسم المؤلف كل ذلك فى المرة الأولى لذكر المرجع. ثم اكتفيت بعد باسم الكتاب ورقم الصفحة.
- وضحت المراجع فى النهاية مرتبة ترتيبا أبجديا مقرونة بأسماء المؤلفين وتاريخ الطبع إن وجد. واسم المطبعة أيضا حتى يمكن الرجوع والتحقيق فى يسر وسهولة للقضيه محل البحث.. تلك هى الركائز الأساسية لمنهجى فى البحث ارتضيتها وعلى أساسها جمعت كل ذلك وفحصته ومحصته، وعلقت

على البعض منها، ووقفت من كل ذلك على بيان العلاقة بين محكة العقيدة ومحكة الأخلاق.

ومن هنا كان هذا البحث بعون الله وتوفيقه الذى اشتمل على ثلاثة أبواب ومقدمة وخاتمة.

خطة البحث:

قامت خطة البحث فى هذا الموضوع على النقاط الآتية:

أولا: المقدمة:

ذكرت فيها أهمية الموضوع، والحاجة إليه والأسباب الملحة لبحثه، ثم منهجى الذى سرت عليه فى معالج هذا الموضوع، وخطة البحث.

ثانيا: الباب الأول:

وعنوانه: «العقيدة الإسلامية» ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مفهوم العقيدة والحاجة اليها:

- تمهيد.

(١) مفهوم العقيدة.

أ- فى اللغة.

ب- فى الاصطلاح الشرعى.

جـ- وحدةالعقيدة.

(٢) ما يشتمل عليه الإسلام.

(٣) حاجة الانسانية إلى الإسلام.

الفصل الثانى: أسس العقيدة الاسلامية:

- الإيمان بالله.

- الإيمان بالملائكة.

- الإيمان بالرسل.

- الإيمان بالكتب.
- الإيمان باليوم الآخر.
- الإيمان بالقدر.

الفصل الثالث: العقيدة الإسلامية والفطرة:

أ- العوامل النفسية لتكوين العقيدة:

(١) العقل.

(٢) الإرادة.

(٣) الوجدان.

ب- خصائص العقيدة الاسلامية.

ثالثا: الباب الثانى:

وعنوانه «الأخلاق الإسلامية ومعيارها» ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: مفهوم الأخلاق غايتها وضرورتها.

١- مفهوم الاخلاق.

أ- فى اللغة.

ب- فى الاصطلاح.

جـ- فى الاسلام.

٢- غايتها.

٣- ضرورتها.

الفصل الثانى: المعيار الخلقى ومصدره فى الإسلام:

أ- المعيار الخلقى فى الاتجاهات الفلسفية.

ب- معيار الأخلاق الاسلامية.

جـ- سمات الاخلاق الاسلامية.

رابعا: الباب الثالث:

مظاهر العلاقة بين العقيدة والأخلاق:

الفصل الاول: بنية الأخلاق الاسلامية:

- بين العقيدة والأخلاق.
- بين الشريعة والأخلاق.
- الضمير.
- القلب لا الضمير.
- الإلزام الخلقى فى الإسلام.
- مجالات الإلزام الخلقى.

الفصل الثانى: المسئولية الخلقية.

الفصل الثالث: الجزاء.

خامسا: الخاتمة:

وتشتمل:

- أهم النتائج التى أسفر عنها البحث.
- أهم التوصيات التى يراها الباحث.

وأخيرا فلست أجرؤ على الزعم بأن ذلك البحث قد بلغ ماكنت أرجو له من كمال، أو أوفيت فى كل ذلك على المقصود، كل المقصود فالكمال لله وحده.

يضاف إلى ذلك أن العلاقة بين العقيدة والأخلاق بحث واسع متعدد الاتجاهات والزوايا. وفيه مجال واسع لجهود العلماء والباحثين.

ومع اعترافى بسعة مجال البحث وحاجته إلى جهود وجهود فحسبى أننى قد بذلت كل الجهد وحاولت ماوسعتنى المحاولة كى يكون بحثى هذا لبنة فى صرح المعرفة المتصلة بالدين، وهى أشرف المعارف وأسماها بلا نقاش.

والله سبحانه أسأل أن يقدم له بالقبول ويختم له بالتقدير.

وهو حسبى ونعم الوكيل.



الباب الأول

العقيدة الاسلامية

ويشتمل على الفصول التالية:

الفصل الأول: مفهوم العقيدة والحاجة إليها.

الفصل الثاني: أسس العقيدة الإسلامية.

الفصل الثالث: العقيدة الإسلامية والفطرة.



الفصل الأول

مفهوم العقيدة والحاجة إليها

ويتضمن هذا الفصل الموضوعات الآتية:

- تمهيد.

١- مفهوم العقيدة.

أ- فى اللغة.

ب- فى الإصطلاح الشرعى.

جـ- وحدة العقيدة.

٢- ما يشتمل عليه الإسلام:

أولا العقيدة.

ثانيا: الشريعة.

ثالثا: الأخلاق.

٣- حاجة الإنسانية إلى الإسلام.

«تمهيد»

لا يخفى على الإنسان ما للعقيدة من أهمية بالغة فى تأثيرها على الفرد فى جميع مراحل حياته، وكذلك أهميتها البالغة فى تأثيرها على المجتمع بل على الجنس الإنسانى منذ ظهوره على الأرض، وسيبقى هذا العمل ظاهرا فى حياة الإنسان، فحياة الجنس البشرى المصورة لنا فى التاريخ فى عمره المديد خير صورة لأثر العقيدة الدينية حيث تمتد جذور العقيدة فى أعماق التاريخ امتداد الانسان نفسه فقد نشأت معه، وارتبط وجودها بوجوده، فهى خاصة من خواصه ولازمة من لوازمه، وذلك هو ما قرره الفيلسوف أجوست سباتيه فى كتابه فلسفة الدين حين يقول:- لماذا أنا متدين إنى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا وأرانى مشوقا للإجابة عليه بهذا الجواب وهو أنا متدين لأنى لا أستطيع غير ذلك، فالتدين لازمة معنوية من لوازم ذاتى.[1]

ولم تعرف الإنسانية فى تاريخها الطويل أمة عاشت بلا عقيدة دينية وذلك هو ما دعا الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون إلى أن يقول: لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغيرعقيدة دينية.[2]

فالعقيدة كمعنى أمر قائم بنفس المعتقد وعندما يرجع الانسان إلى نفسه بالتأمل تنكشف له ظاهرة باطنية ترتبط كل الارتباط بكيانه، وتكون مقوما ضروريا لطبيعته.[3]

والدعامة التى تقوم عليها وحدة العقيدة الإسلامية السمحة وما يتفرع عنها من فروع تحصنها وتحميها من جراثيم الفساد الفكرى وتبعدها عن الخرافات والأوهام والوثنية دليلنا عليها قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[4].

---

(١) الاستاذ محمد عبد القادر العماوى. هذا هو الاسلام ص٦٠ ط الثالثة دار الفكر الحديث للطباعة والنشر عام ١٩٧٣م.

(٢) الاستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز. كتاب الدين ص١٤٢ط السعادة.

(٣) راجع الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار. العقيدة والاخلاق واثرهما فى حياة الفرد والمجتمع ص١٤ط الرابعة عام ١٩٧٣ الانجلو المصرية.

(٤) سورة الروم الآية (٣٠).

وهذا الدين الذى حمله الأنبياء هو الاسلام. قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[1].

كما أنه علم على هذا الدين الذى ارتضاه الله لعباده. والذى قال عنه ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[2] وقال تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[3].

وعلى ذلك فان مهمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لم تكن هى إحداث الميل الدينى فى النفس البشرية، لأن هذا الميل فطرى فى كل إنسان وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾[4].

ويكفى ذلك دليلا على أصالة العقيدة الدينية حين تحتفظ بنضارة الوحى الالهى ولم تمتد اليها يد التحريف.

فالعقيدة الدينية لازمة للبشر لزوم الماء والهواء للإنسان وإذا كانت العقيدة الدينية هى الخاصة اللازمة للانسان منذ كان.

فنرى لزاما علينا أن نتبين معنى كلمة العقيدة فى الإسلام ليتعرف المسلم على أهميتها فى حياته. «فمنذ قامت دعوة التوحيد على يد خاتم أنبياء الله ورسله بقيت العقيدة تستمد قدسيتها من وحى الله وتعاليم السماء، وتعتمد أول ماتعتمد على الكتاب والسنة وتتجه فى الدرجة الأولى إلى تربية الملكات، واعلاء الغرائز وتهذيب السلوك كى ترفع الإنسان إلى السمو اللائق بكرامته، وتجعل منه قوة ايجابية فى الحياة[5].

فالعقيدة الاسلامية هى الخاصة اللازمة للإنسان منذ كان، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكن ما مفهوم العقيدة بالمعنى العام.؟

---

(٢) سورة آل عمران جزء من الآية (١٩).
(٣) سورة آل عمران الآية (٨٣).
(٤) سورة آل عمران جزء من الآية (٨٥).
(٥) سورة الأعراف جزء من الآية (١٧٢).
(١) راجع الاستاذ السيد سابق. العقائد الاسلامية ص١٣ ط الثانية دار النصر للطباعة عام ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

مفهوم كلمة العقيدة فى اللغة:

العقيدة من عقد بمعنى معقودة بمعنى اسم المفعول. تقول العرب عقد الحبل والبيع والعهد. يعقدة: شده. والعقد: العهد.(١)

فكأن العقيدة هى العهد المشدود والعروة الوثقى ،وذلك لاستقرارها فى القلب ورسوخها فى الأعماق، تعنى بهذا الارتباط الوثيق والالتزام القوى حسيا كما فى الأول أو معنويا كما فى الثانى والثالث،(٢)

فكلمة العقيدة مأخوذة من العقد وهوالجمع بين أطراف الشئ ويستعمل ذلك فى الأجسام الصلبة كعقد البناء، أعقدت البناء جعلت له عقودا، والتعاقد التعاهد. والمعاقد المعاهد. واليعقد عسل يعقد بالنار، وأعقدت العنب اذا أغليته حتى غلظ. ثم يستعار للمعانى نحو عقد البيع والعهد وغيرهما كأنك ربطت بين أجزاء التصرف، أى الايجاب والقبول بعضهما ببعض.(٣)

ومن خلال هذا البيان اللغوى يستبين لنا أن لفظ العقيدة بمشتقاته المختلفة يدور حول الإحكام والتوثيق والإبرام.

ومن هنا ساغ لنا اطلاقها على ربط القلب بفكرة أو رأى معين يدور حوله ويتصرف بمقتضاه. ويكون منطلقا لسلوكه، وكلمة العقيدة من الألفاظ الكلية التى لا يحدد مفهومها إلا بما تضاف إليه، غير أنها من حيث اشتقاقها تدل على مفهوم عام لكل ما يعقد المرء عليه عزمه، ويجعله مناط تصميمه مهما كلفه من أمر(٤).

يقال عاقدته، وعقدته، وتعاقدنا، وعقدت يمينه قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾وقرئ عاقدت ايمانكم. ومنه قيل لفلان عقيدة(٥).

---

(١) القاموس المحيط ص٣١٥ جـ١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) دكتور منصور رجب. نظام الاسلام ص٤٦ط الانجلو المصرية ١٩٦٢م.

(٤) راجع دكتور سعد الدين الجيزاوى. دور العقيدة فى شخصية الفرد والامة- مجلة الازهر عدد ٣٤ ص٢٠٦ القاهرة.

(٥) دكتور منصور رجب نظام الاسلام ص٤٦ والآية (٣٣) من سورة النساء،

وقد وردت مادة العقد فى القرآن الكريم عدة مرات[1]. ولم ترد بصيغة العقيدة لا فى القرآن، ولا فى معاجم اللغة[2] إلا فى المصباح المنير، فقد ذكر فيه الفيومى أن «العقيدة ما يدين الإنسان به. فهى الايمان بحقيقة معينة إيماناً قطعيا لا يقبل الشك أو الجدل.[3]

وقد ذكر المعجم الوسيط: «أن العقيدة هى الحكم الذى لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، ويرادفها الاعتقاد والمعتقد، وجمعها عقائد وتطلق فى الدين على ما يؤمن به الانسان ويعتقده»[4]

ومما يؤيد ما استنتجناه من خلال الاستعمال اللغوى ورود هذا اللفظ بمشتقاته فى القرآن الكريم على النحو الذى أشرنا اليه أقصد التوثيق والإحكام، فهى مشتقة من العقد تقول: عقدت الحبل اذا شددته وأحكمت فتله، بحيث اذا تركته لا ينتقض. فالعقيدة تعنى الارتباط والاستقرار وهذه السمات توحى بها كلمة عقيدة أكثر مما توحى به كلمة عقد أو عقدة.

ولأجل هذا نرى عبارة العروة الوثقى لم تأت فى القرآن الكريم الا مرتين، وكلتاهما فى مجال التعبير عن العقيدة الصحيحة التى جاء بها الاسلام حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[5].

هكذا صورت الآية الارتباط الصحيح بالايمان بالله بأنه استمساك بعروة محكمة وأنها بهذه الصورة لايتصور ان تضعف أو تحل. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[6]

---

(١) وردت فى سورة البقرة ﴿الذى بيده عقد النكاح﴾ جزء من الآية ٢٣٧. وفى سورة طه ﴿واحلل عقدة من لسانى﴾ آية ٢٧. وفى سورة المائدة ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان﴾ جزء من الآية ٨٩ وفى سورة النساء ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ جزء من الآية ٣٣.

(٢) كالصحاح. والاساس. واللسان. والتاج. فى مادة «ع ق د».

(٣) المصباح المنير جـ٢ ص٥٧٠.

(٤) المعجم الوسيط جـ٢ ص٦١٤ مجمع اللغة العربية بالقاهرة ط. الثانية.

(٥) سورة البقرة الآية (٢٥٦). (٦) سورة لقمان جزء من الآية (٢٢).

وقـال تعـالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١) وقال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ﴾(٢) والى هذه الوسائل الايمان والعمل الصالح يشير النبى ﷺ فيقول: قل آمنت بالله ثم استقم(٣). ويقول: «أكمل المؤمنون إيمانا أحسنهم أخلاقا»(٤).

فالعقيدة هى العروة الوثقى التى تلتقى فيها الأواصر البشرية. ومن مجمل التعريفات اللغوية للعقيدة نستطيع أن نلمح معنى يربط بين ما يؤمن به الإنسان ويراه عن اقتناع قلبى أكيد وبين معنى العقد. «فالعقيدة هى المعتقد النفسى الذى تطمئن إليه النفس ويمتلئ به القلب»(٥) وعلى ذلك تكون العقيدة متفقة مع جوهر الدين، وقد تكون مناقضة له إلا أنها تملأ القلوب وتلفظ ماعداها وتوجه حياة الانسان فى طريق معين يتفق معها فتجعل الانسان يتصرف ويتحدث ويعاشر ويقاطع ويحب ويكره إنطلاقا مما تمليه عليه هذه العقيدة(٦).

ومن منطلق العقيدة يكون السلوك، لأن العقيدة التى يدان بها لها من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ويلتزم اتباعها.

العقيدة والاعتقاد:

والاعتقاد مصدر اعتقد كذا أى اتخذه عقيدة له بمعنى عقد عليه القلب ودان الله به. وأصله من عقد البيع ثم استعمل فى التعميم.

والاعتقاد الجازم: يطلق على التصديق وعلى ما يعتقده الانسان من أمور الدين(٧) وقيل العقيدة هى الضابط الذى يحكم التصرفات ويوجه السلوك فهى دماغ

---

(١) سورة النحل الآية (٩٧). (٢) سورة الكهف جزء من الآية (٨٨).

(٣) صحيح مسلم جـ١ كتاب الايمان- باب جامع اوصاف الاسلام ص٦٥ ط عيسى الحلبى.

(٤) صحيح المستدرك للحاكم النيسابورى جـ١ ص٥٣ مطابع النصر الحديثة بالرياض.

(٥) الدكتور محمد يوسف موسى العقيدة وخطر الانحراف ص٣٠ سلسلة الثقافة الاسلامية عام ١٩٦٣م.

(٦) الدكتور عبد الغنى عبود: العقيدة الاسلامية والايدلوجيات المعاصرة ص١٨ ط الأولى دار الفكر العربى عام ١٩٨٠م.

(٧) الكواشف الجلية عن معانى الواسطية للسلمانى ص٣٠ نقلا من العقيدة السلفية بين الامام أحمد بن حنبل والامام ابن تيمية. ص٢٨ للدكتور سيد عبد العزيز.

التصرفات.[1] وقيل العقيدة هى مايجب شرعا اعتقاده فالجامع بين العقيدة والمعتقد هو التسليم والاطمئنان، لان المعتقد يوجد أمنا عند صاحبه، فيستقر بمعتقده لمطابقة باطنه لظاهره، وموافقة اعتقاده لعمله فيتحقق له الأمن والاطمئنان.

واذا كان لفظ العقيدة فى لسان العرب وفى محكم التنزيل له هذه الابعاد السامية فماذا ينبغى للانسان؟

ينبغى للإنسان أن يبذل أكبر الجهد فى تصحيح الاعتقاد وأن يكون اعتقاده أهلا لذلك. لله الحق ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

والمعنى الذى نخلص إليه من كل هذا ان كلمة العقيدة فى لغة العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له، فالمادة كلها تدور حول لزوم الانقياد فهي ما يتمسك به الإنسان ويلتزمه فى سلوكه فلا يؤمن إلا بها ولا يخضع إلا لها ولايأخذ إلا بتعاليمها ولا يحيد عن سننها وهديها.

ويبين ذلك صاحب كتاب الخلق الكامل فيقول: «إن أهل العقيدة الصحيحة وذوى العقول السليمة يعتقدون أن للخير نتائج باقية، وأن هذا الاعتقاد هو الذى يحبب إلى الجندى بذل روحه في خدمة وطنه، وهو الذى يبعث المحسنين إلى بذل أموالهم فى سبيل البر، وهو الذى يدفع دعاة الإصلاح وهداة الأمم إلى استعذاب ما يقاسون من أنواع العذاب»[3].

---

(١) العقيدة للشعراوى ص١٣ نقلا من المرجع السابق.

(٢) سورة الجاثية الاية ٣٦ - ٣٧.

(٣) وجملة القول انها تشير إلى علاقة بين طرفين كما قلنا. يعظم أحدهما الاخر ويخضع له فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعا وانقيادا. وإذا وصف بها الطرف الثانى كانت أمر وسلطانا وحكما والزاما.

واذا نظر بها بين الرباط الجامع بين الطرفين كانت هى الدستور المنظم لتلك العلاقة. وتقوم على معنى الالتزام والإلزام. فبالنسبة إلى المعبود الزام لعابده. وبالنسبة إلى العابد التزام بالخضوع وبالنسبة للعلاقة بينهما المبدأ الذى نظم الالتزام بين العابد والمعبود. هذا عن كلمة العقيدة نقلا عن الدكتور محمد عبد الله دراز. كتاب الدين ص٢٧ ط السعادة والدكتور محمود مزروعة دراسات فى العقيدة الإسلامية والأخلاق.

فكلمة العقيدة كما تدور فى اللغة حول لزوم الانقياد والتصديق الذى لا يخالطه شك أو ريبة، فهى أيضا قوة فى كيان الجماعة تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم[1].

والعقيدة بهذا المعنى حاجة نفسية لابد من تلبيتها، فهى قوة دافعة لايقف شئ أمامها متى كانت صادقة خالصة لايشوبها نفاق أو انحراف[2] وبها كان ما عرفنا وعرف التاريخ كما قلنا من الايمان بالتضحية والاستشهاد فى سبيل ما يعتقده المرء حقا، وبها كانت التضحية أمرا عذبا تقبل عليه النفس فى فرح واستبشار.

فالعقيدة هى العهد. والعروة الوثقى وذلك لاستقرارها وثبوتها فى القلب.

العقيدة فى الاصطلاح الشرعى:

هى مجموعة من قضايا الحق البدهية المسلمة بالعقل والسمع والفطرة يعقد عليها الإنسان قلبه، ويثنى عليها صدره جازما بصحتها، قاطعا بوجودها وثبوتها، لايرى خلافها أنه يصح أو يكون أبدا. وذلك كاعتقاد الانسان بوجود خالقه وعلمه به، وقدرته عليه ولقائه به بعد موته ونهاية حياته. ومجازاته إياه على كسبه الاختيارى وعمله غير الاضطرارى وكاعتقاده بوجوب طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهيه من طريق كتبه ورسله، طاعة تزكو بها نفسه، وتتهذب بها مشاعره وتكمل بها أخلاقه وتنتظم بها علاقته بين الخلق والحياة،[3].

فالعقيدة هى الجانب النظرى الذى يطلب الإيمان به أولا وقبل كل شئ إيمانا لا يرقى إليه شك. وهى أول ما دعا إليه الرسول ﷺ وطلب من الناس الإيمان به ومن ثم لن تكون العقيدة كاملة ولن يكون الانسان صاحب عقيدة إلا إذا كانت أعماله وسائر ضروب حياته صادرة عن هذه العقيدة ومعبرة تماما عنها، وبذا ترى السر فى أن القرآن الكريم قد خصص العقيدة باسم الايمان كما سبق فى عرضنا لتعريف العقيدة حيث قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[4] وقال

(١) راجع الأستاذ محمد جاد المولى بك- الخلق الكامل جـ٢ ص٨.
(٢) دكتور محمد يوسف موسى- العقيدة وخطر الانحراف ص٧ ط الأولى.
(٣) راجع الاستاذ ابو بكر الجزائرى. عقيدة المؤمن ص١٩ ط الحلبى بالقاهرة.
(٤) سورة الرعد الآية ٢٩.

تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(١) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾(٢) وكذلك كان التعبير النبوى الشريف عن هذا الجانب فقد روى البخارى عن ابى هريرة رضى الله عنه أنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرنى عن الاسلام؟ فقال رسول الله ﷺ الإسلام: ان تشهد أن لا اله لا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت اذا استطعت اليه سبيلا: قال صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه.

ثم قال: فأخبرنى عن الايمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت.. الخ(٣)

«فالمبادئ التى لابد للمؤمن أن يؤمن بها ذكرها القرآن الكريم وكلف المؤمنين الإيمان بها. فهى أحكام شرعية نحن مطالبون بالايمان بها. كما أننا مطالبون بما أمر الله فالاعتقاد لعمل دينى أمر شرعى»(٤).

وقد عبر مؤرخو الفكر العقدى عن مسائل العقيدة فى الاسلام باسم أصول الدين فنرى الشهرستانى يقول: «قال بعض المتكلمين الأصول معرفة البارى تعالى بوحدانيته وصفاته، ومعرفة الرسل بآياتهم وبنياتهم وبالجملة كل مسألة يتعين الحق فيها بين المتخاصمين فهى من الأصول ومن المعلوم أن الدين إذا كان منقسما الى معرفة وطاعة والمعرفة أصل والطاعة فرع فمن تكلم فى المعرفة والتوحيد كان أصوليا، ومن

---

(١) سورة المائدة الآية (٩).

(٢) سورة الكهف الآية (٣٠).

(٣) صحيح مسلم جزء ١كتاب الايمان- باب بيان الايمان والاسلام والاحسان ص٣٩. تحقيق محمد فؤاد بعد الباقى ط. عيس الحلبى. والبخارى جزء ١ ص٢٩ كتاب الايمان من باب سؤال جبريل ط. الحلبى.

(٤) دكتور محمد هشام سلطان. العقيدة الاسلامية. الندوة الأولى للدراسات الاسلامية بجامعة أم درمان بالسودان ص٤٢٥ بتصرف ط. دار الفكر.

تكلم فى الطاعة والشريعة كان فروعيا والأصول هى موضوع علم الكلام. والفروع هى موضوع علم الفقه»[1].

كما أشار ابن خلدون فى مقدمته عن عقائد الاسلام التى هى موضوع الايمان فقال: «واعلم أن الشارع وصف لنا هذا الايمان الذى هو فى المرتبة الأولى، الذى هو تصديق وعين أمورا مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا، واعتقادها فى أنفسنا مع الاقرار بألسنتنا وهى العقائد التى تقررت فى الدين»[2].

فالعقيدة هى الجانب النظرى الذى يطلب الايمان به أولا وقبل كل شئ، إيمانا لا يرقى إليه شك كما قلنا فهى أول ما دعا إليه الرسول ﷺ وطلب من الناس الايمان به، وإقبال النفس عليه.

والعقيدة كعلم مختص بالجانب الاعتقادى أوضحها أيضا سعد الدين التفتازانى أحد أقطاب علماء العقيدة فى شرحه للعقائد النسفية فى عبارته التالية وهو بصدد تقسيمه للحكم الشرعى. وأعلم أن الأحكام الشرعية منها ما يتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعية وعملية، ومنها ما يتعلق بالاعتقاد وتسمى أصلية واعتقادية والعلم المتعلق بالأولى يسمى علم الشرائع والأحكام وبالثانية علم التوحيد والصفات[3]. ومعنى ذلك أن الحكم سواء تعلق بالاعتقاد القلبى أو بأعمال المكلفين فهو حكم شرعى ويوضح الايجى موقفه من علم الكلام شارحا أن مهمة هذا العلم بيان العقيدة فيقول: «والكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه والمراد بالعقائد مايقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد -عليه السلام-»[4] ومن خلال تعريفات مؤرخى الفكر العقدى للعقيدة، وتخصيص القرآن الكريم للعقيدة باسم الايمان وأنها أصل الدين نخلص الى أن: الاعتقاد هو العلم وأن العلم أعلى درجات المعارف فإذا تأصل فى النفس وامتزج بدم الانسان وانعقد عليه

---

(١) الشهرستانى الملل والنحل. جزء ١ ص٥١ هامش الفصل.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٣٩٤ ط. كتاب التحرير ١٩٦٦ القاهرة.

(٣) سعد الدين التفتازانى- العقائد النسفية ص٧ ط. الحلبى.

(٤) المواقف للايجى. الموقف الاول- المقصد الاول- المرصد الاول ط. الاولى عضد الدين الايجى بشرحه المحقق للسيد الشريف الجرجانى على بن محمد ص٣٤- ٣٨. مكتبة كلية أصول الدين القاهرة.

قلبه واطمأنت إليه نفسه سمى عقيدة وهذا المفهوم متناسب ومترابط مع المفهوم اللغوى السابق للعقيدة.

كما أنها تتسع فى المحيط الإسلامى لتدل على فعل «الاعتقاد» نفسه حيناً، ولتدل على محتوى الاعتقاد وموضوعاته حيناً، وتدل على «العلم» الذى يتكفل ببيان الأمرين جميعاً حينا آخر.

ففيما يتعلق «بفعل الاعتقاد» نفسه فإن الاعتقاد الصحيح يجب أن يكون مصحوباً بالجزم والتيقن والإذعان، وأن يتخلص من شوائب -الظن- الذى يعنى التردد بين طرفين، ثم الميل إلى الطرف الراجح منهما، ومن شوائب -الشك- الذى يعنى التردد بين طرفين، دون ميل إلى أحدهما، ومن شوائب -الوهم- الذى يعنى التردد بين طرفين، ثم الميل إلى الطرف المرجوح منهما.»[1]

وحين يتخلص الاعتقاد الصحيح من هذه الشوائب -بما تعنيه من اهتزاز وارتياب. فإنه يكون مقترناً بإذعان العقل، وسكون النفس، وانشراح الصدر. ومن هنا يكون هذا الاعتقاد باعثا لصاحبه على أداء الكاليف بجانبيها الإيمانى والعملى: كالصلاة والصيام... فى طواعيه ويسر، كما يكون دافعاً لصاحبه على الالتزام الخُلُقى والسلوك السوى، مصحوباً بمراقبة الله تعالى فى السر والعلانية حتى يبلغ ذلك الاعتقاد بصاحبه إلى مرتبة الاحسان التى وقفنا عليها فيما تقدم.

ونرى فى نهاية هذا المقام أن هناك صلة بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى فى مفهوم العقيدة، فالعهد، والحكم. والإيمان كلما أشتد فى القلب كان عقدا. والعقد والعقيدة هى الشئ الموثق فى القلب مع الجزم واليقين. والعقيدة هى: مايجب شرعا اعتقاده والتصديق به تصديقا جازما لاشك فيه. وعلى ذلك نرى لزاما علينا أن نتبين وحدة العقيدة الاسلامية. فعلى بركه الله.

---

(١) شرح السنوسية ا لكبرى للسنوسى ص٢ وراجع شرح العقائد النسفية للإمام النسفى جـ١ ص١٠ نقلا عن الموسوعة الإسلامية العامة ص٩٨٣ بحث معنى العقيدة للدكتور محمد عبد الفضيل. ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٢٠٠٢م.

عقيدة التوحيد فى الاسلام دعوة الرسل جميعا:

الحديث عن العقيدة الدينية يحتاج إلى توضيح بعض المفاهيم التى تدور حول هذا المعنى، والتى يعبر عنها بألفاظ مختلفة كالايمان والاعتقاد- والدين.

جاء فى المصباح المنير: «دان بالإسلام دينا بكسر الدال أى تعبد به، وتدين به كذلك فهو دين، وقال: اعتقدت كذا: أى عقدت عليه القلب والضمير حتى قيل فى التعبير عن ذلك العقيدة «مايدين الانسان به»[1] وصريح هذا أن الدين هو العبادة التى توجهها العقيدة والطاعة التى يدعو التصديق إليها، والانقياد الذى يمضى الإيمان عليه فهو نتيجة مقدمات الاعتقاد والإيمان.

وكما أن الأشياء تختلف صورها. وتكون من مادة واحدة فكذلك الدين والاعتقاد. والايمان كلها من جوهر واحد وان جاز اختلافها فى الظاهر[2] وعلى ذلك فالاسلام علم على الدين الذى جاء به سيدنا محمد ﷺ كما نص القرآن الكريم- فالإسلام دين الله أوحاه الى جميع رسله، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء «فالديانات السماوية أساسها جميعا الإيمان بالله واليوم الآخر. ولم تكن هذه التسمية عن اجتهاد من الرسول ﷺ وانما كانت من الله تبارك وتعالى ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[3] فالدين حقيقة مركبة من عنصرين عنصر نظرى هو الاعتقاد وهذا هو الايمان. وعنصر عملى هو ثمرة الاعتقاد. وذلك هو الإسلام[4].

وقد تناول مدلول كلمة الاسلام فى القرآن الكريم معانى منها: الخضوع الكامل لأمر الله سبحانه وارادته. قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[5]

---

(١) المصباح المنير ص٥٧٠ جزء ٢.
(٢) وذلك بمعنى أن الدين يطلق على ما يشمل الاسلام والايمان والاحسان كما فهم من حديث ابن عمر عن صحيح البخارى حين جاء جبريل فى صورة دحية الكلبى وسئل الرسول ﷺ عن الاسلام والايمان والاحسان فأجابه الرسول عنها. وبعد انصرافه قال الرسول لأصحابه هذا جبريل جاء يعلمكم أمور دينكم. أخرجه البخارى عن عبد الله بن عمر والحديث سبق تخريجه.
(٣) سورة المائدة الآية (٣).
(٤) راجع الاستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز نظرات فى الاسلام ص١٣ ط. الأولى عام ١٩٥٨.
(٥) سورة آل عمران الآية (٨٣).

ووردت أيضا بمعنى الدين بجميع أقسامه وتفريعاته، كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[1] وفى الحديث الشريف كما ورد ذلك فى حديث جبريل -عليه السلام- اذ سأل رسول الله ﷺ عن أهم مسائل الدين، ومنها الاسلام. فقال رسول الله ﷺ أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»[2].

ومن هذا البيان يتضح لنا أن الكلمة الجامعة للعقيدة الإسلامية هى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. ولمقامها فى دلالتها على أركان العقيدة الاسلامية نقول: إنها تضمنت أن المعبود الحق فى الاسلام واحد لا يشاركه أحد، فهو واحد فى الخلق فلا يشاركه فى إنشاء هذا الكون وما فيه ومن فيه أحد، وهو فى ذاته وصفاته لا يماثله أحد، وفى العبودية لا يستحق العبادة سواه. فلقد تضمنت نفيا واثباتا. «أشهد أن لا إله إلا الله»، وتضمنت قصرا وتخصيصا. تضمنت نفى الألوهية عن غيره. وتضمنت بالاستثناء بعد النفى إثبات الألوهية له، والألوهية هى استحقاقه العبادة وحده»[3].

ومن هنا نرى أن كلمة الإسلام بمعناها القرآنى ليست اسما لدين خاص وإنما الاسلام اسم للدين المشترك الذى هتف به كل رسالات الأنبياء وهذا واضح من العموم والشمول والحصر فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[4] وعلى ذلك يكون المسلم الحقيقى فى حكم القرآن من كان خالصا من شوائب الشرك بالرحمن، مخلصا فى أعماله مع الايمان من أى ملة كان. فى أى زمان وجد ومكان[5] وهذا هو المراد بقوله تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[6] هذا من ناحية كما أنه من ناحية أخرى يتضح أن وصف الإسلام ليس منصبا على كل من آمن بدعوة سيدنا محمد ﷺ فى عهده أو من بعده

(١) سورة آل عمران الآية (١٩).
(٢) أخرجه البخارى عن عبد الله بن عمر وسبق تخريجه.
(٣) راجع فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة العقيدة الاسلامية كما جاء بها القرآن الكريم ص٨ ط. مجمع البحوث الاسلامية عام ١٩٦٩م.
(٤) راجع دكتور محمد عبد الله دراز كتاب الدين ص١٨٢ والآية من سورة آل عمران (١٩).
(٥) الشيخ أحمد الدرديرى. اعرف دينك ص٣. ط المطبعة السلفية عام ١٣٧٤.
(٦) سورة آل عمران الآية (٨٥).

فحسب، بل هو وصف ولقب أطلقه الله من قبل على كل من آمن برسوله الذى بعث فى زمنه، وبكل من وحد ربه وأسلم وجهه وقلبه وأمره كله لله رب العالمين[١]

والمستتبع لآيات القرآن الكريم يجد: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[٢] فان أسلموا فقد اهتدوا وقد أطلق القرآن الكريم هذا المعنى على المؤمنين والكافرين جميعا. لأنهم خاضعون لله ومنقادون له بحكم خلقتهم رضوا أم كرهوا. وذلك حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[٣] والمعنى هنا أى خضع لامر الله وأطاع، ثم قصرت فى الاستعمال على من أسلم وجهه لله طوعا فكأن المسلم هو الذى رضى بإطاعة الله فاجتمعت فيه الطاعة الطبيعية والطاعة بالإرادة. ولذا كانت الرسالات السماوية والكتب التى أنزلها الله على الرسل بيانا لحقيقة عقيدة التوحيد. وذلك حتى لا يضل عقل الإنسان فى طريقه إلى الله «فالإنسان له وعى يقينى بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ولا يخلو من وعى يقينى بالوجود الأعظم، والوعى والعقل لا يتناقضان وإن كان الوعى أعم من العقل فى إدراكه لأنه مستمد من كيان الانسان كله»[٤] وعلى ذلك فعقيدة الانسان مركوزة فى فطرته ولما كان الوعى أعم من العقل فى إدراكه لأنه مستمد من كيان الإنسان كله ظاهره وباطنه كان اعتماد الإنسان على الوعى الذى تبعثه فطرته أعظم من اعتماده على الأدلة العقلية وحدها. ولما كانت العقيدة فطرة فى الانسان فلا تحتاج عند المؤمن إلى دليل أو برهان فان العقل مع ذلك يقف مع الايمان على أرض واحدة فى الطريق إلى الله. ومن هنا فقد أخذ الاستاذ عباس محمود العقاد فى بيان معنى الوعى فقال: «هو ملكة قابلة للترقى والاتساع لأن الحقائق التى تقبل الفهم فى الكون لاتزال على اتساع وارتفاع يفوقان كل وعى ترقى إليه بنو الانسان»[٥] ولذلك فلو لم تكن الفطرة الدينية هكذا لعز على الأنبياء والمرسلين تبليغ الوحى الإلهى لمن أرسلوا

---

(١) دكتور محمود بن الشريف. الاديان فى القرآن ص٣٨ ط. دار المعارف ١٩٧٠م.
(٢) سورة الحج جزء من الآية ٧٨.
(٣) سورة آل عمران الآية ٨٣.
(٤) الاستاذ عباس محمود العقاد كتاب حياة قلم ص٢٥٦ ط. دار الهلال.
(٥) الاستاذ عباس محمود العقاد المجموعة الكاملة لمؤلفاته المجلد ٢٩، ص٣١ ط. دار الكتاب اللبنانى.

إليهم. وبعبارة ادق ،لكان تثبيت هذا الوحى فى قلوب من يبشرونهم به أمرا عسيرا كل العسر عليهم،[1] ولكن الواحد من هؤلاء الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم- لم يكن عليه إلا أن يبين لهم العقيدة الصحيحة حتى يصل بهم إلى الاعتقاد فى الله الواحد الأحد، ومن هذا المنطلق كان الوحى الإلهى للرسول ﷺ ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] من أجل ذلك كله يكون لنا أن نقرر أن نشر العقيدة الصحيحة ليس معناه حدوث الميول الدينيه التى لم تكن من قبل، بل معناه توجيه هذه الميول الوجهة الصحيحة لتصل إلى الدين الحق[3] ويتمثل الحق فى العقيدة الصحيحة ولذلك نجد القرآن الكريم يطلق اسم الحق على الاسلام قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[4] ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[5] والاسلام فى تقرير هذا المعنى مكمل لرسالة الرسل جميعا فقد كانت دعوة الحق دعوة الأنبياء قاطبة قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[6].

ولتوضيح هذه الحقيقة أكثر نرى آيات القرآن الكريم توضح لنا ماسمى به هؤلاء الرسل الكرام عقيدتهم فتقول على لسان كل واحد منهم أنه سمى دينه الاسلام. ولقد بين الله تعالى فى كتابه الكريم أن نوحا والرسل والنبيين من قبله كانوا يعتنقون عقيدة الاسلام وأن هذا مصرح به فى قول الحق تبارك وتعالى للرسول الكريم خاتم النبيين ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ

(١) دكتور محمد يوسف موسى. الاسلام وحاجة الانسانية إليه ص١٩. ط دار الفكر العربى ١٣٧٩هـ.
(٢) سورة النحل جزء من الآية (١٢٥).
(٣) دكتور محمد يوسف موسى الاسلام وحاجة الانسانية إليه ص١٨.
(٤) سورة الفتح الآية (٢٨).
(٥) سورة الاسراء الآية (١٠٥).
(٦) سورة البقرة الآية (٢١٣).

﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(١) وفى قول نوح عليه السلام– ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ دليل على أن الاسلام كان دين من كان قبله. وأن ما قاله سيدنا نوح هو عين ما قاله سيدنا محمد ﷺ رسول الله وخاتم النبيين إذ قال: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢) فقد أمر خاتم النبيين أن يكون من المسلمين كالذين سبقوه من المؤمنين بعقيدة الاسلام كنوح– عليه السلام– والنبيين من قبله ومن بعده فلقد كان ابراهيم –عليه السلام– ممن حمل عقيدة التوحيد من بعد نوح عليه السلام ويتبين ذلك فى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾(٣) وقال عن ابراهيم –عليه السلام– أيضا ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصـالحين. ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٤) ولقد حمل اسماعيل عليه السلام رسالة الإسلام مع أبيه ابراهيم عليه السلام كما يفيد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٥) كما ذكر الحق تبارك وتعالى أن لوطا –عليه السلام– آمن بعقيدة الإسلام التى آمن بها إبراهيم –عليه السلام– قال تعالى ﴿فآمن له لوط﴾(٦) فهذا أبو الأنبياء إبراهيم الخليل وابنه اسماعيل –عليهما السلام– يتجهان إلى ربهما مبتهلين ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾(٧) ويأخذ الخليل العهد على أبنائه أن يظلوا من بعده مسلمين ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٨) فهم أولاد الأنبياء وبصلاحهم صلاح كل الناس وهم قدوة المجتمع.

(١) سورة يونس الآية (٧١، ٧٢).
(٢) سورة النمل الآية (٩١).
(٣) سورة الصافات الآية (٨٣).
(٤) سورة البقرة الآية (١٣١).
(٥) سورة البقرة آية (١٢٨).
(٦) سورة العنكبوت جزء من الآية (٢٦).
(٧) سورة البقرة جزء من الآية (١٢٨).
(٨) سورة البقرة الآية (١٣٢).

وصرح الله تعالي بأن دين لوط عليه السلام هو الاسلام فى قوله تعالى فى مناسبة اهلاك قريته ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1] وأبناء يعقوب –عليه السلام– يجيبون أباهم عند وصيته لهم: ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2] فيجيبونه ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[3] وكان يوسف عليه السلام مسلما يدعو ربه أن يميته على الاسلام قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[4] كذلك النبى موسى –عليه السلام– يقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[5]وذكر الله ان فرعون حين أدركه الغرق قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[6].

وذكر الله أن أنبياء بنى اسرائيل يدينون بعقيدة الاسلام، وهو قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾[7] فتبين الآية الكريمة أن الربانيين والأحبار كانوا كذلك مسلمين والحواريون يقولون لعيسى عليه السلام ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[8] ليس ذلك فحسب بل إن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن قالوا ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾[9].

وداود وسليمان –عليهما السلام– يدعوان إلى عقيدة التوحيد حيث يقول الحق ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾[10] ثم ذكر جل شأنه أن سليمان عليه السلام بعث إلى أهل اليمن يدعوهم إلى عقيدة التوحيد وذلك فى رسالة أرسلها إلى ملكتهم بلقيس وأخبر الله أن ملكة سبأ تلت هذه الدعوة على قومها قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[11] فلما

(١) سورة الذاريات الآية ٢٥، ٣٦.
(٢) سورة البقرة الآية (١٣٢).
(٣) سورة البقرة الآية (١٣٣).
(٤) سورة يوسف الآية (١٠١).
(٥) سورة يونس الآية (٨٤).
(٦) سورة يونس الآية (٩٠).
(٧) سورة المائدة الآية (٤٤).
(٨) سورة آل عمران الآية (٥٢).
(٩) سورة القصص الآية (٥٣).
(١٠) سورة النمل جزء من الآية (١٦).
(١١) سورة النمل الآية (٣١).

رأت نعمة الله وعظيم فضله على سليمان هتفت قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] وأرسل الله تعالى المسيح عيسى بن مريم -عليه السلام- بعقيدة التوحيد فكان يدعو قومه إلى عقيدة الاسلام. فلم يكن نصرانيا يدعو إلى النصرانية ولم يأت بدين جديد ليس باسمه فيقال المسيحية. وإنما المسيح مسلم جاء يدعو إلى عقيدة التوحيد فيستجيب له الحواريون ويشهدونه على إسلامهم ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2] وقد ظل الحواريون يدعون الناس إلى عقيدة التوحيد معتنقين للدين الإسلامى مؤمنين بالله الذى لا إله إلا هو ويتوارثون هذه العقيدة الصحيحة جيلا بعد جيل حتى لحقهم زمن خاتم النبيين. ولقد صرحت الجن أن منهم من كان يعتنق الدين الاسلامى قبل الرسالة المحمدية حسب ما جاءت به الرسل من قبل، وأنهم وجدوا فى الرسالة المحمدية مالايتنافى مع ماصدقوا به، فاستمروا على إسلامهم وآمنوا بالقرآن الكريم وذلك واضح فى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[3] ولقد نزل القرآن الكريم على الرسول الكريم حاملا رسالة الاسلام وهو قول الحق تبارك وتعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[4].

والرسول ﷺ ولو أنه أول المسلمين فى قومه الا أنه بالنسبة للعلاقة الدينية بينه وبين جده إبراهيم كان معتنقا لعقيدة الاسلام التى كان يعتنقها كذلك ابراهيم -عليه السلام- من قبل قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

(١) سورة النمل الآية (٤٤).

(٢) سورة آل عمران الآية (٥٢).

(٣) سورة الجن الآية (١٥) وراجع الدكتور محمد وصفى الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل ص٢٥١ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة، والدكتور محمود مزروعة دراسات فى النصرانية ص١٩ ط الأولى عام ١٩٧٩م.

(٣) سورة البقرة الآية (٢٨٥).

حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1] فالرسول الكريم مع أنه خاتم النبيين وبرسالته أكمل الله الدين إلا أنه حسب العلاقة بينه وبين جميع النبيين والمرسلين من قبله يكون الإسلام هو دين التوحيد الذى فرضه الله على الجنس البشرى منذ خلق الانسان على وجه الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر أن كل انسان- منذ فجر التاريخ الانسانى- آمن برسوله فى الزمن الذى أرسل فيه هذا الرسول هو مسلم ولهذا تطلق كلمة مسلم على كل من خضع لله وأطاع أى نبى من الأنبياء[2] فلفظ الاسلام هو عقيدة التوحيد التى تضم بين طياتها جميع ما أرسل به المرسلون والنبيون عبر التاريخ قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[3].

فالخطاب كما هو واضح لعامة المؤمنين بالاعتقاد والعمل. وقدم الإيمان بالله سبحانه وتعالى لأنه أول الواجبات ولانه بتقدم معرفته تصح معرفة النبوات والشرعيات[4] وأخيرا فإن رسالة الاسلام التى جاء بها خاتم النبيين كانت خاتمة الرسالات جميعا وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[5] أى أنه جاء ليكمل بناء الأنبياء ويختم رسالات السماء للأرض قال: ﷺ «إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون ويتعجبون له ويقولون: هلا وضعت اللبنة قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[6].

(١) سورة الأنعام الآيات (١٦١، ١٦٢، ١٦٣).

(٢) راجع الأستاذ عفيفى عبد الفتاح طباره. روح الدين الاسلامى ص ١٤، ط بيروت عام ١٩٨٠م وراجع الدكتور محمد وصفى الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل ص ٢٥٥ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية.

(٣) سورة البقرة الآية (١٣٦).

(٤) راجع تفسير القرآن العظيم للألوسى جـ١ ص٣٩٤.

(٥) صورة الأحزاب جزء من الآية ٤٠.

(٦) صحيح مسلم «كتاب الفضائل باب كونه ﷺ خاتم النبيين. حديث رقم ٢٠ عن أبى هريرة- الترمذى كتاب المناقب. باب فضل النبى جـ٥ ص ٥٨٦ عن الطفيل عن أبى بن كعب عن ابيه وهو بهذا الاسناد حسن ط. مصطفى الحلبى تحقيق ابراهيم عطوه وصحيح البخارى فتح البارى جـ٦ كتاب المناقب باب خاتم النبيين ص٥٥٨ ط. المطبعة السلفية تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.

ونستطيع ان نذكر لتعدد الأنبياء أسبابا منها:

اختلاف البيئات والظروف وتطور عقول البشر وتجاربهم وتحقيق التدرج فى التشريع. فالبيئات الإنسانية ليست واحدة. والظروف التى يمر بها الإنسان متغيرة. هذا من ناحية كما أنه من ناحية أخرى يتبين أن مدارك البشر وعقولهم فى تطور مستمر لنماء التجربة الإنسانية من هنا كانت الحكمة الالهية. كما أن التدرج فى التشريع أمر لازم ليحدث تأثيره وليطبق تطبيقا سليما. وهكذا فان مايناسب بعض الناس فى ظرف معين أو زمان ما قد لايناسب الناس فى ظرف أو زمان آخر وهذا ملاحظ فى جميع نواحى النشاط الإنسانى فليس معنى تعدد الرسالات الإلهية أن هناك تناقضا بين هذه الرسالات وإنما هى رعاية الخبير بحال البشرية الذى يقدم لها فى كل حين ما يتناسب مع مداركها. فرسالات السماء طب للعقول والنفوس كطب الأجسام والأبدان، وكما يراعى الطبيب فى اعطاء الدواء سن المريض وحالته ويمنعه من تناول الدواء جرعة واحدة لأنه قد ينقلب سما مميتا فكذلك شأن النبوات والرسالات الإلهية تحتاج إلى قدر معين من التطور الوجدانى والادراك العقلى[1] كما أن ارسال الرسل يكون إما لأن الامة لم يسبق فيها رسول من قبل أو لأن رسالة النبى السابق اصابها التصحيف والتحريف. أو لأن تعاليم الرسالات السابقة لم تكن شاملة فى دعوتها كاملة فى مضمونها. وقد قدر الله بسابق حكمته وعلمه أن الانسانية قد وصلت إلى رشدها فى عصر سيدنا محمد ﷺ وأنه بالتالى يمكن أن تختم الرسالات الإلهية وتتوج بالرسالة الأخيرة[2] فالشريعة السماوية لم تنزل إلى الانسانية دفعة واحدة فى صورتها الكاملة لأن ذلك فوق طاقة البشر وفوق استطاعتها وذلك واضح على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية ولذلك نرى القرآن الكريم يجمع هذه القضايا كلها فى قضية واحدة يوجهها إلى قوم سيدنا محمد ﷺ ويبين لهم فيها أنه

(١) راجع دكتور عبد الكريم عثمان معالم الثقافة الاسلامية ص٥٠ ط: ٣ نشر مؤسسة الانوار- الرياض.

(٢) وليس معنى تقدم العلوم والصناعات المستمر أن الانسانية لم تبلغ رشدها العقلى منذ ذلك الحين. اذ أن هذا التقدم ليس إلا نتيجة طبيعية لنمو الخبرة ونضوجها ورقى الآلات التى يستخدمها الإنسان. وإلا فان الأساس العقلى والفكرى واحد لا يتغير. فعقيدة الاسلام هى العقيدة التى جاء بها النبيون وقد بعثهم الله للبشر على ممر القرون والعصور مع اختلاف البيئات وتغير عقليات الناس. راجع المرجع السابق للدكتور عبد الكريم عثمان ص٢٢.

لم يشرع لهم دينا جديدا وإنما هو دين الأنبياء من قبله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1] ثم نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم فى سلك واحد ويجعل منهم جميعا أمة واحدة لها إله واحد كما لها شريعة واحدة ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[2] ويقول ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[3] وعلى ذلك يتبين أن الوحى الإلهى المتتابع يمثل نهرا تكونت له روافد وتفرعت عنه جداول تروى ما يذبل من أيات العقيدة ومايجف من أعواد الفضيلة وقد انتهى مصب هذا الماء برسالة خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ فالاسلام بمعناه القرآنى الذى وصفناه لايصلح أن يكون محلا للسؤال عن علاقة بينه وبين سائر الأديان السماوية. إذ لا يسأل عن العلاقة بين الشئ ونفسه فها هنا وحدة لا انفصام فيها ولا اثنينية[4] ولقد أوضح القرآن الكريم أن ملة ابراهيم هى التى بنى عليها الإسلام ونوه بذكر عدد من الأنبياء والمرسلين الذين لم يذكروا فى التوراة والانجيل كهود وصالح وذى القرنين ولقمان. وإذا جاز أن ينسب إلى كل واحد من أولئك الأنبياء ملة مناسبة لبيئته فالأديان السماوية على ضوء هذا البيان لا تنحصر فى اليهودية والنصرانية والاسلام بل تشمل أديان سائر الأنبياء الذين ذكروا فى القرآن الكريم. ولذلك نرى أن اسس رسالات الرسل ومبادئ دعوتهم واحدة لانهم رسل مرسل واحد فلا خلاف فى العقائد التى دعوا إليها ولا خلاف فى روح العبادات التى أمروا بها كما لا خلاف فى الأخلاق التى نادوا بها[5].

وعلى ذلك فعلاقة الاسلام بالنبوات السابقة علاقة تصديق وتكميل لقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[6]

(١) سورة الشورى الآية (١٣). (٢) سورة الانبياء الآية (٩٢).
(٣) سورة البينة الآية (٥).
(٤) دكتور محمد عبد الله دراز كتاب الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الاديان ص١١٤ ط. السعادة عام ١٩٦٩.
(٥) الاستاذ عبد الرحمن حنبكه الميدانى العقيدة الاسلامية وأسسها جـ٢ ص٢٣٧ ط. الأولى ١٩٦٩ وراجع دكتور سعد محمد محمد الشيخ المرصفى معالم فى السلوك الاسلامى ص٨١ ط دار الشعاع للنشر ١٩٨١.
(٦) سورة البقرة الآية (١٣٦).

والذى يقتضى التنبيه إليه أن قول الله تبارك وتعالى: ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ يشير الى حقيقة هامة وهى وحدة الرسالات السماوية فيما تهدف إليه من هداية الانسان واقامة التسليم بالعقيدة، فهى ليست إلا حلقات متتابعه فى سلسلة واحدة ولبنات متساندة متعاونة يشد بعضها إلى بعض شدا قويا فى بناء واحد هو الوحى الإلهى وكأن الرسول ﷺ هو آخر هذه اللبنات، ورسالته هى الحلقة الأخيرة والرسالة الخاتمة.

أما علاقة القرآن بالكتب السماوية السابقة خصوصا التوراة والانجيل فهى علاقة تصديق مانزل من الله وهيمنته على ما انحرف بأيدى الناس، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[1] وقال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2] ولقد دعا القرآن الكريم أهل الكتاب إلى حقائق يتفقون عليها معه بعد أن تبين أنهم خرجوا عن الحق ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[3] ويقول أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه مدخل إلى القرآن الكريم «ولقد ركز القرآن الكريم على هذه الفكرة تركيزا كبيرا وأكد صراحة أن جميع الأنبياء أمة واحدة مجتمعة تحت لواء الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[4] ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[5] وأن هذه الوحدة كانت تجمع سائر الناس فيما مضى وإنما الأجيال اللاحقة هى التى بذرت الخلاف والفرقة ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾[6] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾[7] وذلك إما بنسيان حظ من التعاليم الربانية ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[8] أو نتيجة الأسباب الرديئة التى عرضت لها ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[9] أو بدافع الغرور والمصالح الذاتية. قال

(١) سورة المائدة الآية (٤٨).
(٢) سورة النمل الآية (٧٦).
(٣) سورة آل عمران الآية (٦٤).
(٤) سورة الأنبياء الآية (٩٢).
(٥) سورة المؤمنون الآية (٥٢).
(٦) سورة يونس الآية (١٩).
(٧) سورة البقرة الآية (٢٥٣).
(٨) سورة المائدة الآية (١٣).
(٩) سورة البقرة الآية (٧٥).

تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1] ومن هنا أمر الله رسوله محمدا بدعوة اليهود والنصارى إلى الوحدانية الخالصة[2].

وما دامت الانسانية واحدة فى أصلها وطبيعتها، والمصير الذى ستنتهى إليه واحد فإن من الطبيعى أن تنزل عليها رسالة واحدة، وأن تترتب عليها تكاليف متشابهة وان تطالب بعبادة الواحد الأحد، وأن يكون ما فى هذا الكون والحياة للناس سواء فى التمتع بما فيه أو فى تدبر آياته أو فى اعتباره طريق عبور إلى الآخرة وما فيها من حياة خالدة من هذا المنطلق توجه القرآن الكريم إلى البشرية عامة بالتدبر والتأمل للوصول إلى اكتشاف حقيقة الكون والحياة قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾[3] من أجل ذلك أمرهم جميعا بعبادة الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[4] كما أنه من أجل ذلك أيضا كانت دعوته إليهم جميعا بالاستمتاع بما خلق الله لهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا﴾[5] فالناس أمة واحدة وعقيدتهم واحدة والأمة هى المجموعة من البشر تربط بينهم العقيدة. ولذلك فقد رفع الإسلام درجة الجماعة الإنسانية عن أن يكون تجمعها راجعا إلى غير المثل العليا فجعل العقيدة هى الوحدة المشتركة بينهم والروح السارية فيهم. يقول الاستاذ «سيد قطب» فى كتابه هذا الدين، وجاء الاسلام فوجد الناس يتجمعون على آصرة الجنس أو يتجمعون على آصرة الأرض أو يتجمعون على آصرة المصالح والمنافع الغريبة وكلها عصبيات لا علاقة لها بجوهر الإنسان. إنما هى أعراض طارئة على جوهر الإنسان الكريم. فقال الإسلام كلمته الحاسمة فى هذا الأمر الخطير الذى

(١) سورة البقرة آية (١٤٦).

(٢) فعقيدة التوحيد هى الدين الكامل الذى أراده الله للبشرية من يوم أن خلق الأرض ومن عليها. وإنما جاء هذا الدين أخيرا لأن الفترة السابقة عليه من تاريخ البشرية كانت بمثابة تمهيد له وارهاص به. وإنما كانت الأديان السابقة هى الممهدة له المبشرة به وعندما كمل رشد الانسانية وأصبحت قادرة على تلقى الدين كاملا وحمل الأمانة مستوفاة أكمل الله لها الدين وأتم عليها النعمة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ المائدة الآية ٣. فالقرآن الكريم يقدم لنا الواجبات الأساسية وعلم الحقيقة على أنها دعوة السابقين وسبيلهم المستقيم فقد حمل جميع رسل الله ميزان العدل والقسط، راجع دكتور دراز كتاب الدين ص٩٠. والمدخل إلى القرآن الكريم ص٧٢.

(٣) سورة آل عمران الآية (١٩٠).

(٤) سورة البقرة جزء من الآية (٢١).

(٥) سورة البقرة جزء من الآية (١٦٨).

يحدد علاقات الناس بعضهم ببعض تحديدا أخيرا فقال: انه لا لون ولا جنس ولا نسب ولا أرض ولا مصالح ولا منافع هى التى تجمع بين الناس أو تفرق. إنما هى العقيدة إن آصرة المجتمع هى العقيدة، لأن العقيدة هى أكرم خصائص الروح الانسانى[1]. فهى فضلا عما تحدثه فى القلب من تطهير وجدانى وتنقية داخلية للنفس فإنها تقيم الوحدة الإنسانية المتآخية وبذلك ربطت الإنسانية بخالقها. وجعلت الإنسان جديرا بأن يكون خليفة الله فى أرضه فى يده كتاب الله ومعه سنه رسول الله ﷺ .

وعلى ذلك فمن تأمل مقاصد الاسلام كعقيدة. وشريعة. وأخلاق عرف أنها تهدف إلى طهارة النفس وكمالها قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾[2] فالتوحيد عقيدة الأنبياء جميعا وكما إتفقت كلمتهم جميعا -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- فى اسم الدين. اتفقت كلمتهم جميعا فى جوهر الدين، فقد كان توحيد الله وهو أول ما يواجه به هؤلاء المرسلون أقوامهم ولقد قالوها جميعا ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[3]. وكما إتفقت كلمتهم فى الإيمان بالله إتفقت كلمتهم كذلك فى الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر. فالعقيدة الاسلامية تدور حول محور واحد واضح وصريح هو التوحيد.

ولذلك نستطيع أن نقول إن أثر الأنبياء فى أممهم ينقسم إلى قسمين:

الأول: أثر تركوه فيهم هو قدر مشترك بين جميع الأمم لا تخلو منه رسالة رسول. وهو العقيدة والعبادة وبعض مكارم الأخلاق. فكل رسول جاء بعقيدة التوحيد وهذا بلا فارق بين الجميع، كما أن كل رسول اتى بألوان من عبادة الله تبارك وتعالى كالصلاة والزكاة والصيام والحج. إلا أنه قد تختلف من رسول لآخر فى طريقة الأداء كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[4].

---

(١) الأستاذ سيد قطب كتاب هذا الدين ص٨٨ ط دار الشروق عام ١٩٧٩م.

(٢) سورة الصر الآيات من (١ - ٣). (٣) سورة الاعراف الآية (٦٥).

(٤) سورة الحج الآية (٣٤، ٣٥) وقال تعالى فى سورة البقرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة (١٨٣).

الثاني: أثر خاص بكل أمة وهو نتيجة لمعالجة انحراف[1] عرفت به فهى حكمة الحكيم فى إرسال الرسل تترا للامم. فكان كل رسول يعطى قومه من مكارم الأخلاق ما يبقى عبر الأجيال تمهيدا لرسالة خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ المتممة لمكارم الأخلاق والجامعة لها فلولا هذا التمهيد لصعب على الناس اتباع هذه الرسالة الكاملة التامة. وهذه قدرة الله وارادته أن ينزل من الاسلام على رسله بقدر ما يستطيع البشر تحمله وعلى حسب ما يحتاجون إليه فى كل زمان ومكان ذلك تمهيدا منه تعالى لتنزيل الاسلام كاملا على الرسول محمد ﷺ وبذلك كان النداء الإلهى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[2].

وخلاصة القول:

ان دعوات الرسل جميعا قد تلاقت فى جوهر العقيدة وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب كما تلاقت باسم العقيدة وهو الإسلام. واتفقت فى أصول العبادات والأخلاق والتهذيب النفسى قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[3] وعلى ذلك نستطيع أن نقول.

أولا: أن القرآن الكريم قد قرر أنه لم تخل أمة من رسول يدعوها إلى الإيمان بالله وحده. وإلى العمل بشريعته التى هى طريق السعادة فى الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[4].

ثانيا: وحدة الرسالات الإلهية من حيث الأصول وذلك أنه قد تتابعت رسالات الله تعالى فى نزولها على الأنبياء والرسل طوال تاريخ الإنسانية إلى أن كان ختامها على يد خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ.

---

(١) وذلك كما جاء فى قصة لوط عيه السلام من قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ الاعراف(٨٠). وكما جاء فى قصة شعيب عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الاعراف (٨٥).

(٢) سورة المائدة الآية (٣). (٣) سورة الأعلى الآية (١٨، ١٩).

(٤) سورة النحل الآية (٣٦) جزء منها وراجع الاستاذ سيد سابق العقائد الاسلامية ص٢٠٠.

ورسالات الله تعالى وان تعددت بتعدد الأنبياء والرسل فهى تختلف فقط باختلاف الشرائع أما من حيث العقائد فهى واحدة. فعقيدة التوحيد هى وحى الله إلى جميع أنبيائه ورسله قال تعالى مخاطبا سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[1].

ثالثا: يلزم على ذلك عدم التفريق بين الرسل والرسالات وذلك أنه لما كان الدين فى أصوله وعقائدة لايختلف من رسالة إلى أخرى فقد أوجب الله تعالى الإيمان بجميع الرسل والرسالات الإلهية قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2].

رابعا: أن الدين الذى دعا إليه جميع المرسلين هو الاسلام الذى هو الخضوع والانقياد لله تعالى وحده قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3].

خامسا: أن رسالات الله تبارك وتعالى تعاقبت فى نزولها على الأنبياء إلى الناس أمة بعد أمة وجيلا بعد جيل وكلها ذات هدف أساسى وهو التوحيد. وكلها تحمل اسما واحد وهو الاسلام الذى دعا إليه جميع الرسل[4] وكان كل واحد منهم يصدق من سبقه من الأنبياء ويمهد لمن يأتى بعده حتى كان ختام الرسالات الإلهية على يد خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ﷺ ومن هذه النقاط الخمسة يتبين لنا عموم العقيدة الاسلامية وشمولها.

---

(١) سورة فصلت الآية (٤٣).

(٢) سورة البقرة الآية (١٣٦).

(٣) سورة آل عمران الآية (٨٥).

(٤) وقد اشار الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام إلى ذلك مثلى ومثل الأنبياء من قبل كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه. فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت اللبنة، قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين رواه ابو هريرة والحديث سبق تخريجه.

مايشتمل عليه الاسلام

المتأمل لما جاء به الاسلام من حقائق يراها تشتمل على مسائل كثيرة وموضوعات متعددة ولكنه يمكن ارجاعها إلى أقسام ثلاثة هى:

العقيدة **والشريعة** **والأخلاق**

فالقسم الأول:

يتحدث عن أمور تتعلق بأمر قلبى أو بتعبير أوضح يتعلق بمعتقد محله القلب إذ هو تصديق واذعان يكون فى النفس الانسانية مستترا فيها وذلك كالتصديق بوجود الله سبحانه وتعالى. والتصديق باتصافه بصفات الكمال وغير ذلك من الأمور الاعتقادية النظرية التى تتعلق بالاعتقاد ودائرته الفكر والنظر. «وهذه الأمور تسمى فى تعبير القرآن الكريم باسم الايمان كما تسمى فى العرف العام باسم العقيدة»[1] وقد بين القرآن الكريم ذلك فى أكثر من موضع قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[2] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[3] وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[4] وهذه الآيات الكريمة تبين جوهر الدين وأساسه، فالعقيدة هى لب الأديان السماوية وقد جعل الإسلام مفتاح هذه العقيدة بكلمة الشهادتين «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» ولما كانت العقيدة هى حجر الزاوية فى بناء روح الأمة افتتح الإسلام بها دعوته[5] فالشهادة بوحدانية الله تتضمن كمال العقيدة فى الله وتنزيهه عما لا يليق به فعقيدة الإسلام هى كلمة الله الجامعة وهدايته البالغة كما بينها القرآن الكريم وهى القاسم المشترك بين كل ماجاء من قبل الله تعالى من رسالات وهى

(١) دكتور عبد السلام محمد عبده العقائد الايمانية فى العقيدة الإسلامية ص٤١ ط لطفى بالقاهرة عام ١٩٧٨.

(٢) سورة الاخلاص. (٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(٤) سورة الأنبياء الآية (٢٢).

(٥) دكتور منصور رجب نظام الإسلام ص٤٨ ط الأنجلو المصرية عام ١٩٦٢.

عنصر الوحدة فى هذه الرسالات وعلى ذلك فالإسلام دين الوحدة كما هو دين الوحدانية. وعلى ذلك فعقيدة الإسلام فى جملتها تشبه شجرة مباركة جذورها مستقرة فى أعماق القلوب وهذا هو الإيمان ثم تمتد فروعها فى القلب حتى تظهر على اللسان والجوارح وهذا هو الإسلام[1] قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[2] فالعقيدة اذن معرفة تتغذى بها النفس وتهضمها وتتمثلها وتعدها جزءاً من كيانها. وللشجرة المباركة التى قلنا انها تمثل الدين بعنصرية الإيمان والإسلام الشعيرات الرفيعة التى تنبت من النواه فى باطن الأرض قبل أن تبرز ساقها إلى سطح الأرض بمعنى أن الفروع العملية التى تمثل الاسلام ليست كلها أعمالا ظاهرة يدركها الحس بل إن الايمان يثمر أخلاقا كريمة قبل أن يثمر أعمالا مستقيمة. فأول ما ينبت منه فى النفس فضائل معنوية كمحبة الله تعالى ورسوله. ثم تظهر ثمرات هذه المحبة والفضائل النفسية على اللسان والجوارح. فحقيقة العقيدة فى الإسلام تتفرع إلى ثلاث شعب.

الشعبة الأولى: اعلان هذه العقيدة والايمان بها فإن من امتلأت نفسه بعقيدة إندفع إلى التعبير عنها وهذه هى الشهادة.

الشعبة الثانية: العمل بما تمليه العقيدة وذلك بامتثال أوامر الله واجتناب محارمه والتزام المرء ذلك فى سره وعلانيته.

الشعبة الثالثة: نشر هذه العقيدة والدعوة إليها والأمر بما تعرفه من معروف والنهى عما تنكره من منكر[3].

وهذه الشعب الثلاث نجدها واضحة فى كتاب الله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[4] وغير ذلك من آيات كثيرة عرضت قضايا العقيدة والإيمان وأوردت الأدلة الدافعة إلى ذلك.

(١) دكتور محمود مزروعه دراسات فى النصرانية ص١٥ ط الأولى ١٩٧٩، وراجع الشيخ محمد أبو زهرة العقيدة الإسلامية ص١٠. وراجع الدكتور محمد عبد الله دراز نظرات فى الإسلام ص١٣ ط الأولى مطبعة الجهاد عام ١٩٥٨.
(٢) سورة ابراهيم الآية (٢٤).
(٣) دكتور محمد عبد الله دراز نظرات فى الإسلام ص ١٧.
(٤) سورة فصلت الآية (٣٣).

القسم الثانى:

يتحدث عن أمور لا تتعلق بقلوب المكلفين من الناس أو اعتقاداتهم وإنما تتعلق بكيفيات أعمالهم وهذه الأمور تسمى فى التعبير القرآنى باسم العمل الصالح وبالتعبير العام باسم الشريعة وقبل أن نعرض لبيان تفاصيلها نقف على حقيقة المعنى العام لها.

فالشريعة فى كلام العرب: شرعة الماء. وهى مورد الشاربة التى يشرعها للناس فيشربون منها، والشريعة والشرعة مامن الله به من الدين وأمر به كالصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر أعمال البر[1] ،فالشرع نهج الطريق الواضح. وهو فى الأصل مصدر ثم جعل اسما للمنهج واستعير ذلك للطريق الإلهية من الدين،[2] قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[3].

وقد قال الفيومى: الشرعة بالكسر الدين والشريعة مثله مأخوذة من الشريعة وهى مورد الناس للاستقاء سميت بذلك لوضوحها وظهورها وجمعها شرائع. وشرع الله لنا كذا يشرعه أظهره وأوضحه[4].

والشريعة فى الاصطلاح الشرعى: تطلق على ما شرعه الله لعباده من العقائد والأخلاق والأحكام فى العبادات والمعاملات وهى بهذا المعنى تساوى كلمة الدين فالشريعة هى النظم التى شرعها الله سبحانه وتعالى ووضع أصولها ليستضئ بها الانسان فيما هو ضرورى لحياته من علاقات كعلاقته بربه وعلاقته بالناس وعلاقته بالكون الذى يعيش فيه وعلاقته حتى بنفسه وذاته، فه فوق كونها ترجمة عملية للعقيدة الواقرة فى القلب فإنها تنظم حياة الأمة الاسلامية فى الداخل والخارج[5] ومن هنا فهى لا تطلق عند أهل الشرع إلا على الشرائع المنزلة من عند الله تبارك وتعالى.

ومن بيان المعنى اللغوى والاصطلاحى للشريعة نلحظ فى يسر أن المناسبة بينهما ظاهرة، فالشريعة مورد عذب لا يغيض. وهى الطريقة التى توصل إلى مابه سعادة

(١) ابن منظور. لسان العرب جـ٤ ص٢٢٣٨، ط دار المعارف بمصر ١٩٨١.
(٢) الفيروزآبادى. بصائر ذوى التميز فى لطائف الكتاب العزيز جـ٣ ص٣٠٩ ط المجلس الأعلى.
(٣) سورة المائدة الآية (٤٨).
(٤) الفيومى. المصباح المنير جـ١ ص٤٢١ ط. السادسة ١٩٢٥.
(٥) دكتور عبد السلام محمد عبده العقائد الايمانية فى العقيدة الاسلامية ص٤٧ عام ١٩٧٩م.

الدنيا والآخرة. وعلى ذلك فارتباط المعنى الاصطلاحى بمورد الماء قائم لأن الشريعة بمعنى الدين اصطلاحا شبيه بمورد الماء من حيث إنها سبيل إلى حياة النفوس وغذاء العقول. كما أن مورد الماء سبيل إلى حياة الأبدان وكلاهما ظاهر واضح وذلك بمعنى أن الشريعة نظام تخضع له حياة الفرد والجماعة، فتنظم العلاقة بين الانسان الفرد وبين ربه، وبينه وبين غيره من الأفراد والكائنات الأخرى، فهى عبارة عن الأعمال التى يقوم بها الانسان ويؤديها خضوعا لله وامتثالا لأمره فهى الجانب العملى وهى فرع عن العقيدة. وإذا كانت الشريعة تختلف فى دين الله من نبى إلى نبى ومن أمة إلى أمة حيث يشير الحق تبارك وتعالى إلى ذلك ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1] فان الاختلاف فى الشريعة لم ينتج عن ضرورة ذاتية فى الدين نفسه ولكنه أتى نتيجة لظروف الأقوام الذين نزل عليهم هذا الدين وسار أمر الشريعة على هذا كلما بعث رسول نزل عليه من الشريعة قدر أكمل وأتم من الشريعة السابقة ومازال هذا أمر الشريعة، تسير قدما فى طريق الكمال كلما اقتربت الانسانية من كمال رشدها حتى جاء الوقت الذى وصلت فيه الانسانية أوج كمالها فبعث الله إليها بخاتم رسله ومعه أكمل الشرائع وأتمها وأشملها وأعمها قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[2] وبهذا الشمول كان الإسلام رسالة الله إلى البشر كافة فى وحدة الإيمان بالله تعالى.. ففى جانبه الإيمانى العقائدى أكد هذه الحقيقة التى أكدها كل نبى كما بينا ذلك فى وحدة العقيدة ولكنه فى الجانب الذى يستتبع الشريعة جانب الالتزام والعمل كان الاسلام الفصل الأخير فى تكامل التشريعات. ومن هنا لم يكن الاسلام عقيدة فقط، ولم تكن مهمته تنظيم العلاقة بين العبد وربه فقط، وإنما كان

---

(١) سورة المائدة الآية (٤٨). وهذا اشارة إلى أمرين أحدهما ماسخر الله تعالى عليه كل انسان من طريق يتحراه مما يعود إلى مصالح العباد وعمارة البلاد وذلك المشار إليه بقوله: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ الزخرف (٣٢).

(١٨) الثانى ما قيد الله من الدين وأمره به ليتحراه اختيارا مما تختلف فيه الشرائع ويعترضه النسخ ودل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ الجاثية الآية (١٨) فهى تأتى فى اللغة بمعنيين مورد الماء للاستقاء والطريقة المستقية وكلا المعنيين له ارتباط بالأحكام التى تنظم علاقات الناس. راجع الدكتور محمود مزروعة دراسات فى النصرانية ص٣٣. ط الأولى.

(٢) سورة المائدة الآية (٣).

عقيدة وشريعة . فكان شريعة توجه الإنسان إلى جميع نواحى الخير فى الحياة[1] وبذا نرى أن للإسلام جانبين الأول: هو الجانب الروحى النظرى وهذا يتمثل فى العقيدة . والجانب الثانى: المظهر السلوكى بجميع مفاهيمة وهو الذى نقصد به الشريعة فالاسلام يحتم تعانق الشريعة والعقيدة بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى. على أن تكون العقيدة أصلا يدفع إلى الشريعة والشريعة تلبية لإنفعال القلب بالعقيدة ويبين ذلك أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز فيقول: «إن التشريع الإسلامى إنما يقوم على أسس سليمة متينة لاتضعف ولا تتزعزع فهو تشريع مرن يتطور بتطور الحياة، ويتجاوب مع مصالح البشر دون أن يفرض عليه عنتا أو حرجا. وهو فوق هذا غنى بثروته التى لا تنفد. هذه الثروة التى تلمسها بنفسك فى العقائد والأخلاق[2] .

وهناك عنصران يكونان التشريع الاسلامى أولهما: عنصر العبادات والتى تتمثل فى العبادات بأنواعها القلبية والروحية والبدنية، والعقيدة هى الاشعاع الذى يمد هذه العبادات بالضوء فتدب فيها الحركة والحياه فتؤدى كاملة غير منقوصة . وتؤدى هى وظيفتها أيضا كاملة غير منقوصة فى تهذيب النفس والروح والقلب. والعنصرالثانى: عنصر المعاملات فالناس فى حياتهم مضطرون إلى التعامل الشامل فى جميع مجالات الحياة . والتشريع الاسلامى فى جميع مراحله وأطواره، وفى جميع وسائله واتجاهاته إنما يهدف إلى الإصلاح. الاصلاح الخلقى والنفسى والفكرى[3] قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[4] فالتقوى ليست خاصة بقوم دون آخرين وليس ما أقوله هنا مجرد دعوى بدون دليل فاتفاق الشرائع المنزلة من عند الحق تبارك وتعالى فى الأصول الاعتقادية والعملية دل عليه قول الله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[5] فهنا إشارة إلى

(١) دكتور جمال الدين محمود، قضايا اسلامية ص١٥ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية عام ١٩٨١م.

(٢) دكتور محمد عبد الله دراز نظرات فى الاسلام ص١٢ . وراجع فضيلة الامام الأكبر محمود شلتوت الاسلام عقيدة وشريعة ص١١ ط العاشرة عام ١٩٨١ .

(٣) دكتور محمد عبد الله دراز المرجع السابق.

(٤) سورة الحجرات الآية (١٣) .

(٥) سورة الشورى الآية (١٣) .

الأصول التى تتساوى فيها ولا يصح عليها النسخ وأعلاها الإيمان بالله تعالى وكماله ذاتا وصفات وأفعالا[1] والايمان باليوم الآخر والايمان بالرسل والملائكة يشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾[2].

وأما بقية أحكام الشريعة مما يعد من الفروع فهى تختلف فى شريعة عن الأخرى بحسب مايتلائم مع الطبيعة الإنسانية وذلك معنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[3] ومن هنا كانت الشرائع قابله للنسخ حتى جاءت الشريعة الكاملة وهى ختام الشرائع السماوية وطريق النجاة للبشر عامة، واتباع هذا المنهج يحفظ على المسلمين الوحدة ويكفل لهم الكرامة الانسانية. ولقد اشتمل القرآن الكريم على أصولها من صلاة وصوم وزكاة وغيرها. أما السنة النبوية وهى كلام الرسول ﷺ وأفعاله فكانت بيانا وتفصيلا للشريعة الاسلامية التى جاء بها ومع ذلك فقد ترك الله تعالى للعقل الإنسانى المجال للبحث والفهم وتعليل الأحكام وأباح له قياس الأشياء على نظائرها[4]. ولكن هذا المنهج يحتاج بعد الالتزام به إلى فهم دقيق فهو منهج حياة تتغير بحسب الزمان والمكان وعلى قدر اجتهادنا فى فهم هذا المنهج الإلهى الكامل تكون التقوى فالإجتهاد فى فهم الشريعة هو التعبير الصادق عن ايماننا بأنها شريعة الإنسان فى كل زمان ومكان[5] والعقيدة هى التى توحى بنوع العبادة وتؤسس لها، والعبادة تقوم حارسا دون اضمحلال العقيدة فى نفوس المتدينين فهى تذكرنا بالعقيدة صباح مساء وكلما أدى الانسان شعيرة من شعائرها فإنما يذكر نفسه بالذات التى يتوجه إليها بتلك العبادة[6] وقد اشتمل القرآن الكريم على الآيات الشاملة للشريعة الاسلامية قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[7] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ

---

(١) راجع الفيروزآبادى. بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ٣ ص٣١٠.

(٢) سورة النساء الآية (١٣٦). (٣) سورة المائدة الآية (٤٨).

(٤) دكتور عوض الله حجازى فى العقيدة الاسلامية والأخلاق ص٦ ط الأولى ١٩٧٢.

(٥) دكتور جمال الدين محمود قضايا اسلامية ص٢٦ بتصرف ط المجلس الأعلى ١٩٨١.

(٦) دكتور محمود مزروعة، الدين وحاجة الانسان إليه رسالة دكتوراه ص٢٥٦ استنسل.

(٧) سورة المزمل جزء من الآية (٢٠).

تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[2] وغير ذلك من آيات كثيرة عرضت مسائل الشريعة الإسلامية أصلا وفرعا فهى الطريق فى إقامة المجتمع المتكافل. وعلى ذلك يمكننا من خلال البيان السابق للعقيدة والشريعة أن نقف على الفروق التى تميز كلا منها عن الأخرى. وهذه الفروق تتمثل فى الآتى:

١) ان العقائد واحدة لا تختلف من دين لآخر. قالها الرسل جميعا ماتخلف عن قولتها واحد منهم. أن اعبدوا الله وأرجوا اليوم الآخر وذلك واضح فى قول الحق تبارك وتعالى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[3] وإذا كان شأن العقائد فى أنها لا تختلف من دين لآخر من الأديان السماوية كما أوضحنا ذلك فيما تقدم. فإن بعض الشرائع تختلف من دين إلى آخر وذلك واضح فى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[4].

٢) العقيدة هى الجانب النظرى من الدين، أما الشريعة فهى الجانب العملى وذلك لأن دين الله يشمل الأعمال الباطنة والظاهرة ومرادنا بالأعمال الباطنة تصديق القلب وبالأعمال الظاهرة أفعال الجوارح، فمحل العقيدة هو القلب حيث يكون التصديق الجازم مع الشعور بالرضا واقبال النفس عليه والاطمئنان به ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[5] أما الشريعة فتأتيها الجوارح غالبا ظاهرة وواضحة كالصلاة والزكاة وما إلى ذلك[6].

٣) العقيدة نزلت كاملة مستوفاة لم يترك شئ منها لاجتهاد المجتهدين أو لعقول الباحثين بل تحدث القرآن الكريم عن جميع موضوعاتها. أما الشريعة فقد اكتفى القرآن الكريم والسنة المطهرة ببيان أصولها وبعض تفصيلاتها، وترك البعض الآخر من فروعها لاجتهاد المجتهدين، كما أن الشريعة لم تنزل دفعة واحدة بل نزلت متلاحقة فكانت الصلاة مثلا أسبق من الصيام فى الفريضة.

(١) سورة البقرة الآية (١٨٣، ١٨٤).
(٢) سورة البقرة جزء من الآية (١٩٦).
(٣) سورة الشورى جزء من الآية (١٣).
(٤) سورة المائدة الآية (٤٨).
(٥) سورة النحل جزء من الآية (١٠٦).
(٦) الدكتور عبد السلام محمد – العقائد الايمانية فى العقيدة الاسلامية– ص٤٦. ط الأولى عام ١٩٧٩م.

٤) أن العقيدة أسبق فى الوجود من الشريعة- ذلك لأن العقيدة من عمل القلب والشريعة ترجمة عملية لما هو واقر فى القلب، وشأن العمل القلبى أن يتقدم على العمل الذى يفصح ويبين عنه، كما أن العقيدة هى أول ماجاءت به دعوة الرسول ﷺ ودعوات الرسل من قبله. فالعقيدة هى المرحلة الأولى من مراحل الدعوة. والشريعة هى المرحلة الثانية فهى فوق كونها ترجمة عملية للعقيدة الواقرة فى القلب فإنها تنظم حياة الأمة الإسلامية فى الداخل والخارج.

٥) العقيدة هى الأصل والأساس الذى يدفع إلى الشريعة، والشريعة تلبية لإنفعال القلب بالعقيدة فترك التصديق يؤدى إلى الكفر لأنه الأصل، ولكن ترك الجانب العملى فى الإسلام وهو الشريعة لا يؤدى إلى ذاك إلا إذا أنكرها المسلم فإن الإنكار ينقله من الإيمان إلى الكفر[١].

فالشريعة لاتنفك عن العقيدة لأن كليهما وجهان لعملة واحدة، فمن دان بالشريعة وأنكر العقيدة فهو كافر، ومن آمن بالعقيدة وأهمل الشريعة فهو غير سالك طريق الناجين عند الله وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن المجتمع صورة شريعة فإذا كانت الشريعة التى يسير عليها صالحة كان مجتمعا صالحا وإن كانت فاسدة كان مجتمعا فاسدا.

والإحسان فى العقيدة والشريعة يكون ببذل الجهد والإخلاص فيهما، كما يكون بتوافق الظاهر والباطن[٢].

القسم الثالث:

وهو الأخلاق الإسلامية فهى المحور الأساسى الذى ترتكز عليه إنسانية الإنسان. ،وهى السياج الذى يحمى صاحبه عن أن يقدم على عمل أو يأتى فعلا لايستريح إليه الضمير الحى، ولاتطمئن إليه النفس الطيبة، وهى الحد الفاصل والحجاب الحاجز بين ما يمكن أن يرتفع بالقيمة الانسانية للفرد والجماعة، ومايمكن أن يهوى بالفرد

(١) راجع الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت- الاسلام عقيدة وشريعة ص١١ ط العاشرة. وراجع دكتور محمد الصادق عفيفى- الفكر الاسلامى مبادئه، مناهجه، قيمه، أخلاقياته. ص٨١. مكتبة الخانجى بالقاهرة عام ١٩٧٦م.

(١) دكتور محمود مزروعة- الدين وحاجة الانسان اليه ص٢٥٤.

وبالجماعة فى متاهات مظلمة تقع بها فى الدرك الأسفل من مراتب الحياة،[1] فالأخلاق تدعو إلى العمل بالفضيلة وترك الرذيلة، وما ينبغى أن تكون عليه معاملة البشر لبعضهم البعض، فالأخلاق هى الدعامة الأساسية لحفظ كيان الأمة. ومن أجل ذلك كانت الأخلاق دائما محل التركيز فى دعوات الرسل بل لقد كانت الغاية من الرسالات السماوية فهى الميزان والمعيار الذى لا يخطئ فى بيان دخائل النفوس وكشف نوايا القلوب وسلامة الدين وصحة الاعتقاد[2]. ومن هنا فلقد كانوا جميعا يدعون إلى مكارم الأخلاق. هذا والأخلاق الإسلامية تنبثق عن العقيدة والشريعة فلا تمليها المصلحة الشخصية ولا تسيرها المنفعة الذاتية لأنه عندما تكون الغاية هى المنفعة ينتهى الخلق والقيمة، بل هى أخلاق ثابتة وقيم لاتتبدل ولا تتغير لأن الأوامر والنواهى فى الإسلام من الله سبحانه وتعالى. ولذلك فقد بين الاسلام الأخلاق الصالحة والآداب الحميدة وحث عليها فى القرآن الكريم والسنة الشريفة. وعلى ذلك فالاسلام منهج إنسانى متكامل للفرد والجماعة قوامه العقيدة والشريعة والأخلاق. والأخلاق فى مفهوم الاسلام قاسم مشترك بين مختلف القيم يقوم على هذا النحو المترابط المتكامل الشامل وسوف نبين ذلك فى مكانه من البحث.

وهدف الأخلاق فى مفهوم الاسلام التقوى، وتتمثل التقوى فيه عملا وسلوكا. ولا تقف عند الناحية النظرية وحدها، بل هى أخلاق تقوى بكل ما تحمل كلمة التقوى من معان سلبية وايجابية كتجنب الحرام والاقبال على الحلال، وتعنى الوقاية ومدافعة الخطر واليقظة الدائمة للمحافظة على الأصول ومنعها من الانحراف[3] فالعقيدة والأخلاق فى الاسلام ينبثقان من مصدر واحد ويبين ذلك الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت فيقول: «وقوام الصدق فى شعبتى العقيدة والشريعة، إنما هو التمسك بشعبة أخرى هى شعبة الأخلاق»[4]. وذلك أن الفطرة السليمة والعقيدة الصحيحة والتقوى هى جماع الآمان للحياه وللانسان ضد أى انحراف فالفطرة السليمة هى أصل ما خلقنا عليه وأى انحراف لها هو تمزيق للانسان من داخله ومن خارجه فلا تستقيم معه حياة، ولاتستقيم به حياه.

(١) دكتور محمد عبد الرحمن بيصار- المختصر فى العقيدة والاخلاق ص١٠٩. ط الانجلو المصرية.
(٢) المرجع السابق للدكتور محمد عبد الرحمن بيصار، الطبعة الأولى بمكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١م.
(٣) الأستاذ أنور الجندى- منهج الاسلام فى بناء العقيدة ص١٨ ط الاعتصام.
(٤) الأمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت- الاسلام عقيدة وشريعة- ص٤٦٣، ط العاشرة عام ١٩٨٠م.

والعقيدة السليمة أساس للبناء ولا يستقر للانسان كيان بدونها، بل بغيرها ينهار البناء ومع ذلك فهى تختلف قوة وضعفا تبعا لحال العقيدة ومدى سلطانها على النفوس، فالأخلاق فى الواقع ثمرة للعقيدة السليمة والشريعة الصحيحة.

بعد هذا البيان يتضح لنا أن الاسلام يشتمل على العقيدة والشريعة والأخلاق، لكن هذا لايعنى أن المرء يستطيع أن يستغنى بإحداها، فالعقيدة والشريعة تكمل كلتاهما الأخرى، والأخلاق فى الواقع وكما قلنا تشبه الثمرة للعقيدة السليمة والشريعة الصحيحة. ومن ثم كان أول مايستشعره القلب والعقل أمام العقيدة الاسلامية هو الاستقامة قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1] والاستقامة هنا هى السير على أفرع الشريعة وعلى ذلك فالشريعة الكاملة والأخلاق هما المظهر الايجابى للعقيدة والتجسيد العملى لها، والبرهان الصادق عليها، وهما فى مجموعهما روافد طهر من كل دنس وخطيئة، تعصم المسلم من الآثام والذنوب، ولاقيمة فى الإسلام لعبادة أو أخلاق لاتزكى صاحبها ولا تطهر نفسه ولا تحول بينه وبين الانحراف، ومن هنا ربط الاسلام بين العقيدة والشريعة والأخلاق برباط لاتنفصم عراه ولذلك فقد بين الرسول ﷺ جملة العقيدة والشريعة والأخلاق وربط بينهما فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم[2]. والمعروف بحديث جبريل عليه السلام وبالنظر فى هذا الحديث نرى أنه يتضمن الاسلام كله لأن كل ماسأل عنه جبريل عليه السلام كان هو الاسلام، فليس الاسلام جزءاً منه وإنما هو مجموع ماورد فى الحديث. ويقول القاضى عياض «لقد اشتمل هذا الحديث على جميع

---

(١) سورة فصلت الآية (٣٣) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ سورة فصلت الآية (٣٠).

(٢) عن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لايرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ فاسند ركبته إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه. وقال: يا محمد. أخبرنى عن الاسلام؟ فقال رسول الله ﷺ الاسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا. قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. ثم قال: فأخبرنى عن الايمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرنى عن الاحسان. قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال: فأخبرنى عن الساعة. قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل.. الخ والحديث سبق تخريجه.

وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان ابتداء وحالا ومآلا، ومن أعمال الجوارح ومن اخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه[1] ذلك أن الإيمان بالله وملائكة وبرسله وبالبعث راجع إلى العقيدة، فهى المنبع الذى يسرى فى كيان المؤمن ويملأ نفسه ويفيض على روحه الرضا والأمن وعلى نفسه السكينة. وذلك بعبادة الله وحده. واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت راجع إلى الشريعة. أما الإحسان فيكون فى العقيدة والشريعة معا، وبالإحسان توجد الأخلاق وإذا تبين لنا ذلك أدركنا ضرورة الإسلام لكل من الفرد والجماعة. ولكن ماالانطباع الذى يتركه الاسلام على كل من الفرد والجماعة؟ ان ذلك التساؤل يسلمنا إلى الحديث عن مدى حاجة الإنسانية إلى الاسلام بما يتضمنه من عقيدة وتشريع.

العقيدة والتشريع أساس المجتمع:

المجتمع أى مجتمع يقوم بناؤه على أسس ومقومات لابد منها لتماسكه وتكامله من العقيدة التى توجد وحدة الفكر فى أفراده وجماعاته، ويصدر عنها تصوره ومفاهيمه عن الكون والحياة وقد أوضحنا من قبل أن الاسلام قد جعل أساس المجتمع العقيدة الصالحة بما تشتمل عليه ويؤكد ذلك- صاحب كتاب أدب الدنيا والدين- فيقول: «وأعلم أن للعلوم أوائل تؤدى إلى أواخرها، ومداخل تفضى إلى حقائقها فليبتدأ طالبها بأوائلها لينتهى إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضى إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة لأن البناء على غير أساس لايبنى، والثمر من غير غرس لايجنى»[2]. فالعقيدة هى الأساس، وهكذا يبدو بجلاء أن العقيدة إنما تهدف إلى تهذيب السلوك وتزكية النفوس وتوجيهها نحو المثل الأعلى. وبعد هذا نتسائل هل الانسانية بحاجة إلى الدين؟ وهل البشر اليوم بحاجة إلى الاسلام عقيدة وسلوكاً؟

وقبل أن نبحث فى حاجة الإنسانية إلى الاسلام نرى أنفسنا أمام موضوع هام، وهو موضوع الفطرة، وفطرية الإسلام تعلى أنه من صميم الطبيعة الإنسانية. ولما كان

(١) عمدة القارئ للقاضى عياض جزء ١ ص٢٩١. ط الأولى.
(٢) أبو الحسن الماوردى - كتاب أدب الدنيا والدين - جـ١ ص٧٧، ط الشعب.

هذا المقام شديد الارتباط بالعمل والسلوك، لذا نرى من الواجب دراسته بشئ من التفصيل لأنه يقام على هذا البيان علاقة الطبيعة الانسانية بالأخلاق والسلوك. فلقد بين الحق سبحانه وتعالى أن الاسلام دين الفطرة حيث قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(١)

وقبل تحديد معنى الفطرة فى الآية الكريمة، يجب تحديد معناها لدى المعنيين بالبحث فى النفس البشرية، فلقد قسموا دوافع الانسان إلى نوعين:

١) دوافع أصلية في الانسان لا يخلو عنها فى زمان أومكان، وهذا النوع من الدوافع يولد مع الانسان، وهو واحد فى جميع بنيه ولا يتأثر فى حقيقته باختلاف البيئات والأقاليم ولا باختلاف الأوقات والأزمنة، وإنما يأتى الاختلاف فيه بين الأفراد فى مظهر هذه الدوافع وفيما يترجم عنها(٢). ومن هنا كانت هذه الدوافع أصلية. وأثر هذه الدوافع يأتى قصرا وقهرا فلا يملك الإنسان حياله دفعا ولا يستطيع له منعا وهذا ما يعرف باسم الغرائز.

٢) دوافع غير أصلية فى الانسان وهذه قد يخلو الانسان منها وقد يتصف بها وقد يخلو عنها فى وقت ويتصف بها فى وقت سواه، وهى تخضع فى وجودها أو عدمه لعامل الزمان والمكان والظروف الحياتيه كلها من جانب ولعامل المزاج الشخصى والتكوين النفسى من جانب آخر(٣). وأثر هذه الدوافع إن وجدت يكون اختيارى الوقوع فلا يصل إلى الحتمية أو الضرورة، وإن كان من الصعب أحيانا مقاومته وعلى ذلك يتردد معنى الفطرة لدى علماء علم النفس بين ثلاثة معان «وهى الغريزة والدافع والميل»(٤).

---

(١) سورة الروم الآية (٣٠).

(٢) دكتور محمود مزروعة- الدين وحاجة الانسان إليه- ص١٨.

(٣) هذه الدوافع يمكن التخلى عنها بعد التحلى بها، وقد يكون فى ذلك صعوبة تختلف قوة وضعفا باختلاف هذه الدوافع، فقد يكسب الانسان عادة التدخين مثلا حتى يصبح ذلك دافعا من دوافعه يصطبغ به كثيرا من تصرفاته... ولكن أثر هذه الدوافع ليس ضروريا ولاحتميا، وقد يستطيع الانسان بقليل أو كثير من الجهد والعناء بالضغط على أعصابه ومقاومة شهواته أن يتجنب نهائيا هذا الدافع من نفسه وكأنه لم يكن نقلا من الدين وحاجة الانسان اليه للدكتور محمود مزروعة. ص١٨.

(٤) دكتور مصطفى فهمى- مجالات علم النفس- ص١٠ نقلا من الاتجاه الأخلاقى ص١٨٤.

ويجدر بنا قبل البيان أن نحدد بعض المصطلحات التى تستعمل فى هذا الصدد. فالغريزة هى: «استعداد نفسى عضوى فطريا كان أم موروثا يجعل صاحبه يتخذ موقفا محددا ايجابيا أو سلبيا ازاء موضوعات معينة بعد ادراكه لها مباشرة[1].

والدوافع هى: «القوى المحركه التى تبعث النشاط فى الكائن الحى أى كل ما يدفع الانسان إلى القيام بسلوك معين، أو تغير معين فى داخل الكائن الحى أو سلوكه إزاء مواقف معينة، وذلك بمعنى أنها تؤدى وظائف ضرورية وهامة للكائن الحى، فهى التى تدفعه إلى القيام باشباع حاجاته الأساسية الضرورية لحياته وبقائه، كما تدفعه إلى القيام بكثير من الأفعال الأخرى الهامة والمفيدة له فى توافقه مع البيئة التى يعيش فيها»[2] سواء أكان هذا الدافع نابعا من داخل الكائن الحى أم من بيئته فهو بهذا المعنى يشمل كل الدوافع مثل الحاجات والحوافز والرغبات والميول[3] وهذا البيان يقتضينا أن نتبين على أى أساس قسم العلماء الدوافع إلى أصلية وغير أصليه؟.

ولقد قام هذا التقسيم على أسس ثلاثة:

(١) تاريخ وجود الدافع.

(٢) أهمية الأثر أوالآثار التى تترتب عليه.

(٣) مدى حتمية هذه الآثار وضرورتها.

وهذه الأسس الثلاثة كما يقول الأستاذ الدكتور محمود محمد مزروعة بينها تلازم طبيعى فكلما كان الدافع قديما كلما كان أثره ضروريا وهاما والعكس صحيح[4] ومن هنا تكون الفطرة معناها الغريزة بالمعنى السابق، أو الدوافع والميول الأصلية فى بنى الانسان. وتكون الفطرة قوة أولية نحو أفعال معينة. وفى هذا يقول الأستاذ العقاد «اتفق

---

(١) دكتور مصطفى سويف. مقدمة فى علم النفس الاجتماعى ص١٩٧ ط الثانية نقلا من المرجع السابق للدكتور مقداد يلجن ص ١٨٤.

(٢) دكتور محمد عثمان نجاتى- القرآن وعلم النفس- ص٢٣ ط الأولى دار الشروق ١٩٨٢.

(٣) والميل هو: توجه من الانسان لشئ يتصوره ويدرك الغرض منه والغاية المترتبة عليه فالانسان لايدافع المانع الا من أجل شئ يميل إليه، ولايميل الانسان إلى شئ إلا إذا كان يتصوره ويدرك منه الغرض والغاية والميل بالفتح عرفه الشيخ بن سيناء فى رسالة الحدود بالكيفيه التى بها يكون الانسان مدافعا لما يمانعه وهذا راجع إلى الأول لأن نفس المدافعة كيفية يكون بها الانسان مدافعا. نقلا من تأملات فى فلسفة الأخلاق، د. منصور رجب ص٨٨.

(٤) وذلك بمعنى: أنه كلما كان الدافع حديثا أو مكتسبا كلما كان أثره قليل الأهمية وغير ضرورى ولا حتمى. نقلا من «الدين وحاجة الانسان إليه» للدكتور محمود مزروعة ص٢١.

علماء المقابلة بين الأديان على تأصيل العقيدة الدينية فى طبائع بنى الانسان منذ أقدم أزمنة التاريخ،[1] وإذا كانت العقيدة الدينية قديمة فإنها كذلك حتمية وضرورية، ولا يمكن لإنسان خلقه الله وأودع فيه عقلا يفكر وقلبا يعى أن يحيا بلا عقيدة دينية يفرق فيها بين احساسه بالخوف والقلق واحساسه بالوحدة وسط هذا الكون[2] فالعقيدة فى جوهرها يقوم عليها بناء الانسان عقلا وفكرا وروحا وسلوكا. بناء عقله بالعقيدة، وفكره بالثقافة الراشدة، وروحه بإفساح المجال أمامها لترتوى من نور الله، وسلوكه بالامتثال لما أمر به الحق تبارك وتعالى والابتعاد عما نهى عنه. وعلى ذلك نستطيع أن نقرر أن فى خلقة الانسان وطبيعته جانبا لا يملؤه إلا الايمان بالله. وهذا يفيد أن كل أمر يرجع إلى الغريزة، أو إلى دافع من الدوافع الأصلية فى النفس الانسانية ضرورى وحتمى، ولقد أثبت بعض العلماء المعنيين بالبحث فى النفس البشرية فطرية التدين بالمعنى السابق ومن بينهم الدكتور الكسيس كارل الذى برهن على وجود الغريزة الدينية فى طبيعة التكوين البيولوجى فى الانسان وأرجعها إلى افراز الغدة الدرقية فى الأوعية الدمويه. فاذا كفت الغده عن صب ذلك الافراز فى الأوعية الدمويه لم يعد هناك ذكاء أو حاسة شر أو حاسة جمال أو حاسة دينية[3] وتسبب كل زياده أو نقص اختلالا عقليا، وعلى ذلك يتبين أن فطرية التدين لها جانب سيكولوجى وجانب بيولوجى معا، وإذا كان الشعور الدينى فطرة فى الانسان، فالتدين سلوك فطرى وعدم التدين انحراف وبعد عن الفطرة. ويبين ذلك ماقاله «صاحب كتاب مبادئ علم النفس» ان الغرائز أو الدوافع الفطرية تتفاوت فيما بينهما من انسان إلى آخر من حيث القوة والضعف، وقد تضعف أو تنمو بالممارسة أو الاهمال أو طغيان غريزة على أخرى[4] والدليل على وجود تلك العاطفة أو الفطرة الدينية فى الانسان ماوقفنا على بيانه من أن العقيدة الدينية قديمة قدم الانسان وأن تاريخ وجودها مساو لتاريخ الانسان نفسه فما من أمة إلا وقد اتخذت لنفسها إلها أوآلهة وعبدتها وان كانت باطلة وهنا يقول الفيلسوف بسكال «إن طبيعة الانسان ان يؤمن فاذا لم تتقدم له أهداف صائبة سديدة ركز حوله إيمانه وحبه، وتحول إلى عبادة أهداف خاطئة فاسدة»[5].

---

(١) الأستاذ عباس محمود العقاد- كتاب الله- ص٩ ط الثانية دار المعارف بمصر.

(٢) دكتور محمود مزروعة المرجع السابق ص٢١.

(٣) دكتور الكسس كارل- تأملات فى سلوك الانسان- ص٢٩ ط الأولى عام ١٩٤٩م.

(٤) دكتور مصطفى سويف- مقدمة فى علم النفس الاجتماعى- ص٢٧ نقلا من الاتجاه الأخلاقى للدكتور مقداد يلجن ص ١٨٥.

(٥) مجلة التربية الحديثة الصادرة من الجامعة الأمريكية مجلد ١ ص١٥٤ نقلا من الاتجاه الأخلاقى ص١٨٦.

فالتدين والاعتقاد دافع نفسى له أساس فطرى فى طبيعة تكوين الانسان، وعلى ذلك يكون من الصعوبة التى تبلغ حد الاستحالة أن نفرق بين تاريخ الانسان وتاريخ التدين أوالاعتقاد، والدليل على صحة مانذهب إليه قول الرسول ﷺ «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[1] وقوله: «كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها»[2] ومن هنا يتبين ماوعدنا به فى بداية الكلام عن الفطرة فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[3] أى يقول الحق تبارك وتعالى للمرء «فسدد وجهك على الدين الذى شرعه الله لك من الحنيفية ملة ابراهيم -عليه السلام- التى هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التى فطر الله الخلق عليها فأنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره»[4].

وبهذا نستطيع أن نربط بين فطرة النفس البشرية وصبغة هذا الدين وكلاهما من صنع الله. وكلاهما موافق لطبيعة الوجود، وكلاهما متناسق مع الآخر فى طبيعته واتجاهه، والله الذى خلق القلب البشرى هو الذى أنزل إليه هذا الدين، فالفطرة ثابتة والدين ثابت[5] «لا تبديل لخلق الله» لدين الله. خلق الأولين دين الأولين. فالدين والفطرة الاسلام[6].

وذلك بمعنى أن فى فطرة الانسان، أى فى خلقته وطبيعة تكوينه استعداداً فطريا لإدراك بديع مخلوقات الله، والاستدال بها على وجود الله وتوحيده[7].

فالدين والفطرة هما الاسلام، وعلى ذلك نتبين أن حاجة الانسان إلى مناجاة ربه من نبع الفطرة، حتى إنه ليجد حياته فى تلك المناجاة وهذا احساس عميق وشعور أصيل لايملأ فراغه شئ فى هذه الحياة إلا أنس المناجاة، وحسن الصلة بالله. وهذا يسلمنا إلى بيان حاجة الانسانية إلى الاسلام.

---

(١)، (٢) البخاري كتاب الجنائز باب ٧٩- اذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه وهل يعرض الصبى على الاسلام جـ٣ ص٢١٩ ط المكتبة السلفية. الأمام أحمد جـ٢ ص٢٥٣ والحديث رواه أبو يعلى والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى السنن- فيض القدير جـ٥ ص٣٣- والحديث نص فى أثبات الوراثة والبيئة. اذ تمامه كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه.... الخ.

(٣) سورة الروم جزء من الآية (٣٠). (٤) تفسير ابن كثير ص٤٣٢ جـ٢.

(٥) دكتور سعد محمد الشيخ «المرصفى» معالم فى السلوك ص٢٩.

(٦) الأستاذ سيد قطب- فى ظلال القرآن- جـ٦ ص٤٥٤ وتفسير القرطبى جـ١٤ ص٢٩ وتفسير الجلالين ص٣٤٠.

(٧) دكتور سعد المرصفى «معالم فى السلوك» ص٨.

حاجة الإنسانية إلى الاسلام

الاعتقاد شئ مركوز فى النفس مستقر فى قلب الانسان لايستطيع إنسان أن ينكره، فالاسلام ليس غريبا على الانسان، ولكنه لازم له وهذا اللزوم لم يكن مفروضا عليه بل هو نابع من فطرته، فهى التى تستلزمه وهى التى تدفع الإنسان إلى التمسك به والسير على سننه وفى ظلال شرائعة.

فالنفس أو الفطرة خلقها الله تعالى وأودع فيها هذا الاتجاه إلى الخالق وأن الانسان مهما ابتعد عن منهج الله فلن يستطيع أن يغير فطرته ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[1].

وقال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[2] فالانسان لاغنى له عن الدين لأنه جزء من ذاته ونفسه وفطرته، فلا يستطيع أن يحجب هذه الفطرة ولذا بين الحق تبارك وتعالى ذلك فى قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾[3].

فالانسان لا غنى له عن الدين لأنه يحسه فى نفسه شعورا ووجدانا ويشير إلى هذا الشعور والوجدان مارواه أبو هريرة «رضى الله عنه».

أن رسول الله ﷺ قال: «مامن مولود إلا يولد على الفطرة»[4].

وقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[5].

ففى هذه الآية بين الله تعالى أنه أخرج من صلب آدم وبنيه ذريتهم نسلا بعد نسل على هيئة ذر وذلك قبل خلقهم فى الدنيا وأشهدهم على أنفسهم قائلا لهم: ﴿ألست بربكم﴾فأجابوا ﴿بلى شهدنا﴾ بذلك فالله سبحانه وتعالى أشهدهم على ربوبيته حتى لا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين أو غير عالمين﴾[6]

---

(١) سورة الروم الآية (٣٠).
(٢) سورة الشمس الآية (١٠).
(٣) سورة الزمر الآية (٨).
(٤) سبق تخريجه ص٥٠.
(٥) سورة الاعراف الاية (١٧٢، ١٧٣).
(٦) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٦٤.

من هذا يتبين أنه يوجد فى طبيعة تكوين الانسان استعداد فطرى لمعرفة الله وتوحيده كما قلنا، فالاعتراف بربوبية الله متأصل فى فطرة الانسان، وموجود منذ الأزل فى أعماق روحه فقد أنشأهم على الاعتراف بالربوبية له وحده.

أودع هذا فطرتهم فهى تنشأ عليه[1] غير أن امتزاج الروح بالجسد وانشغال الانسان بمطالب جسده وبمطالبه المختلفة التى تستلزمها حياته فى الدنيا وعمارة الأرض، وقد جعلت هذه المعرفة بربوبية الله وهذا الاستعداد الفطرى للتوحيد عرضه لأن تطمره الغفلة ويغمره النسيان ويطويه اللاشعور فى أعماقه ويصبح الانسان فى حاجة إلى ما يوقظ هذا الاستعداد الفطرى، ويبعد عنه النسيان ويبعثه من أعماق اللاشعور ليظهر واضحا جليا فى الادراك والشعور، ويتم ذلك عن طريق تفاعل الانسان مع الكون، ونظرة إلى عجيب خلق الله فى نفسه وفى سائر مخلوقات الله وفى الكون من حوله[2]، وتلك فطرة فطر الله الناس عليها، وصبغة صبغهم بها، لافكاك لهم منها ولاشذوذ لهم عنها سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا من هذا كله نستخلص:

أولا: أن التدين فطرى فى الانسان، لكنه لاينبغى أن يفهم من فطرية الاسلام انطباع جميع قواعده وأحكامه فى طبيعة الانسان لأن الأمر لو كان كذلك لما وقعت من الانسان تلك الانحرافات ولما حدث ما يقوم به الآباء من تطبيع الأولاد على عقائد مختلفه كما جاء فى الحديث.

ثانياً: أن هذه الفطرة ليست خاصة بمعرفة الله وتوحيده فحسب وإنما هى متعلقة بالاسلام عموما، وباعتباره معيارا جاء ليبين للناس ماهو خير وماهو شر، كما أن الانسان فيه استعداد وقوة لتميز الخير من الشر يقول الدكتور/ يوسف القرضاوى «إن الايمان بالله ليس غريزة فطرية فحسب، بل هو ضرورة»[3] فالدين عنصر ضرورى والإنسانية بحاجة إليه للكمال النفسى والروحى فالانسان جسم وروح، والجسم يتغذى بالطعام والشراب بينما تتغذى الروح بالإيمان والعقيدة، وعلى ذلك فالاسلام منهج

---

(١) الاستاذ / سيد قطب فى ظلال القرآن: جـ٣ ص٦٧١.
(٢) دكتور/ محمد عثمان نجاتى- القرآن وعلم النفس- ص٤٧ بتصرف يسير مع تقديم وتأخير. ط دار الشروق عام ١٩٨٢م.
(٣) دكتور يوسف القرضاوى- العباده فى الاسلام ص١٨.

شامل لأمور الدنيا والآخرة، محقق لمصالح الفرد والجماعة قوامه الشريعة والعقيدة والأخلاق فليس دينا فقط، ولكنه دين ونظام حياه لا تنفصل فيه العلاقة بين الله والانسان عن الصلة بين الانسان والانسان وهو ينظمهما جميعا،[1] ومن القواعد المقررة أن الانسان مدنى بطبعة. ومعنى ذلك أنه يميل إلى التعارف والتعايش مع الغير، ولذلك جعل الحق سبحانه وتعالى التعارف بين الناس من أهم أسباب خلقه لهم حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[2] هذا التعرف ليس مقصودا لذاته، وإنما جعل أولا غذاء لطبيعة الانسان، وثانيا وسيلة للتعاون على كل مافيه اسعاد البشرية، وتحقيق حياة أفضل لأفرادها فى جانبيها المادى والفكرى ويبين ذلك أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز فيقول: «إنه لاقيام للحياه فى الجماعة إلا بالتعاون بين اعضائها، وهذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته، وهذا القانون لاغنى له عن سلطان نازع ووازع يكفل مهابته فى النفوس، ويمنع انتهاك حرماته[3].

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيها فى كفالة احترام القانون، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه، والسر فى ذلك أن الانسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن أفعاله وأعماله الاختياريه يتولى قيادتها شئ لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع فى يده ولا فى عنقه، ولا يجرى فى دمه، ولا يسرى فى عضلاته وأعصابه، وانما هو معنى انسانى روحانى اسمه الفكر والعقيدة، ولقد ضل قوم قبلوا هذا الوضع وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران فى الحياة المادية والاقتصادية، بل يتأثران بها[4]. أجل إن الانسان يساق من باطنه لا من ظاهره وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لاقامة مدينة فاضلة، تحترم فيها الحقوق وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل. فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون،[5].

(١) الاستاذ/ أنور الجندى- منهج الاسلام فى بناء العقيدة والشخصية- ص٣٩. ط دار الاعتصام.
(٢) سورة الحجرات الآية (١٣).
(٣) دكتور محمد عبد الله دراز -كتاب الدين- ص١٠١.
(٤) المرجع السابق بتصرف يسير.
(٥) دكتور محمد عبد الله دراز -المرجع نفسه- ص١٠٢.

والقانون إما الهى أو وضعى فلكل حضارة شطران، شطر روحى وشطر مادى، فالشطر المادى الذى يعتمد على الحس والعقل ،وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالشطر الروحانى أو النظرى والشطر النظرى العقيدة والأخلاق والتشريع ونظام المجتمع،[1] ولذلك نزلت العقيدة كاملة هداية للعقل فى الجانب النظرى فشملت التشريع والأخلاق ونظام المجتمع ومن خصائص الوحى فيما يتعلق بالتشريع أنه هاد للعقل ولا يتأتى أن يكون هناك إيمان قط بدون الاعتقاد لأن الدين هاد للعقل، وكما أن الدين هاد للعقل كان لابد فى استخدام العلم من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض لا إلى نشر الشر والفساد ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان،[2] ومن الخطأ البين أن نظن أن فى نشر العلوم والثقافات وحدها ضمانا للسلام والرخاء وعوضا عن التربية والتهذيب الدينى والخلقى[3]، ذلك أن العلم سلاح ذو حدين، يصلح للهدم والتدمير كما يصلح للبناء والتعمير،[4] فكما يستعمل للخير يستعمل للشر، فلا بد للعلم من تربية عالية وتوجيه سديد وايمان راسخ يوجه المجتمع وذلك ان وظيفة العلم محصورة فى الجانب الحسى المحض فهو يقف عند حدود لا يتجاوزها بينما وظيفة الدين فى الحياة ذات مجال رحب، ومنهج الاسلام فى تربية الإنسان هو المنهج الكامل لإصلاحه وتقويمه، وكما أن الإنسان مركب من روح وجسد فهو مكون من العقل والعاطفه، وقد عالج الاسلام كلا منهما ووضع له المنهج الكامل لاصلاحه وتقويمه.

---

(١) فضيلة الامام الاكبر الدكتور عبد الحليم محمود -الاسلام وتنظيم المجتمع- ص٥.

(٢) دكتور محمد عبد الله دراز -كتاب الدين- ص١٠٢.

(٣) ويتبين ذلك بالنظر فى التشريع الوضعى وذلك أنه اذا وجد الانسان فرصة للخروج عليه دون أن يضبط فلا جناح عليه مادامت عين القانون لم تلمحه لدرجة أن بعض الفلاسفه المنحرفين مثل نيتشه الذى أشاد به اليهود يقول: «اذا امكنك أن تخرق القانون الوضعى بحيث لا تقع تحت طائلته فأهدمه، إذا استطعت هدمه، إذا كان ذلك فى مصلحتك بشرط أن تكون ذكيا لا تقع تحت طائلته وبتعبير آخر إذا كنت تقود سيارتك بسرعة فائقة وصدمت إنسانا، وقتلت بذلك النفس التى حرم الله بغير حق واستطعت أن تفر دون أن تضبط، ودون أن يتمكن أحد من التقاط رقم سيارتك ونجوت من المحاكمة والعقاب فانك تكون ماهرا، لأن القانون الوضعى لم يضبطك. أما القانون الآلهى فهو يكفى الانسان ظاهرا وباطنا، بينما القانون الوضعى لايكفيه إلا ظاهرا فالله عليم بذات الصدور ولكن القانون الوضعى عليم بما يراه الشهود فحسب نقلا من «الاسلام وتنظيم المجتمع للدكتور عبد الحليم محمود» ص١٦.

(٤) دكتور محمد عبد الله دراز -كتاب الدين- ص١٠٢.

فالاسلام بما حواه من هداية إلهية وتشريعات سماويه يكفل للمجتمع الإنسانى كل عوامل السعادة والأمن والاستقرار، ولا يكون ذلك عن تشريع وضعى، يضعه فرد أو جماعة لأمة معينة، ذلك لأن الانسان مهما سما فكره ونضج عقله لا يمكن أن يحيط بكل ما يوفر للإنسانية أمنها واستقرارها، فقد يرى الحسن قبيحا والقبيح حسنا، والله الذى خلق الإنسان وركب فيه طبائعه ونوازعه، هو الخبير بكل علله وأدوائه والعليم بوسائل شقائه، فهو وحده الذى يقدر أن يضع للجماعات الإنسانية من الشرائع والقوانيين ما يحقق لها أسباب السعادة، وجميع وسائل الأمن والإستقرار، وذلك بالدين الذى يدعوها إليه، فهو السلطان المهيمن على نفوس المؤمنين به، يحملهم على الأخذ بتعاليمه، ويدفعهم إلى القيام بما سنه لهم من تشريع وتنظيم، ويدفعهم إلى التحلى بالفضائل ويحول بينهم وبين إرتكاب الرذائل، وليس هناك وراء الدين شئ يهيمن على النفوس غير نظام خالق النفوس»[1] فهو نظام ربانى يقوم على مبادئ سامية رضيها الله لعباده دستورا يقودهم فى دنياهم إلى حياة كريمة ويعدهم فى أخراهم لميراث جنة عرضها السموات والأرض، فالإسلام هو الرابطة التى جمعت البشرية على الإيمان بالله واليوم الآخر. ويبين ذلك الأمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت فيقول: «ذلك أن القصد من الدين ليس إلا تذكية النفس وتطهير القلب، وظهور روح الامتثال والطاعة واستشعار عظمة الله، واقرار الخير والصلاح فى الأرض على أساس قوى متين من ربط العبد بخالقه»[2] فهو إذن مطلب إنسانى رفيع يغذى جانب الروح ولا ينسى حاجة العقل، وبعبارة أخرى هو مطمع العقل وغاية الروح، وبجانب ماللدين من وظائف نفسية تجعل منه غذاء ضروريا لقوى النفس وعصارة مقومة لحيويتها. توجد له وظائف اجتماعية لا يكون موضوعها الفرد وحده، وإنما يكون موضوعها المجتمع ككل»[3] هكذا نرى أن العقيدة الاسلامية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية فى مختلف ملكاتها ومظاهرها ومن هنا تنبع حاجة البشر إلى الدين من طبيعة الإنسان نفسه، فقد

(١) دكتور محمد حسين الذهبى -الدين والتدين- ص٥٤ من مجلة البحوث الاسلامية جـ١ ١٣٩٥هـ. ط الرياض

(٢) الامام الاكبر الشيخ محمود شلتوت. من توجيهات الاسلام ص٢٢ ط السابعة ١٩٨٠م

(٣) دكتور محمد عبد الرحمن بيصار -العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع- ص٩٢ ط. الرابعة. الانجلو المصرية.

خلقه الله تعالى ومنحه طبيعة الكائن المتكيف. وعلى ذلك فحاجة الإنسانية إلى الدين نزعة فطرية وأصلية ركبت فيه وفطر عليها ولذلك يكون الدين هو الرقيب الذاتى داخل النفس يدفع الانسان إلى مراقبة الله الذى يعلم السر وما تخفى الصدور، فيكون دافع الدين والاعتقاد شاملا لجميع القوى المختلفة الجسمية والروحيه والنفسيه والأخلاقية والاجتماعية فحاجة النفس الإنسانيه إلى الدين تعبر عن مختلف ملكاتها ومظاهرها كما بينا، وإذا كان الدين فطرة إنسانية، فأنه كذلك ضرورة اجتماعية إذ ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين، غير أن الايمان على دربين:

أولهما: إيمان بقيمة الفضيله وكرامة الانسانية وما إلى ذلك من المعانى المجردة التى تستحى النفوس العالية من مخالفة دواعيها ولو أعفيت من التبعات الخارجية، والأجزية المادية.

ثانيهما: إيمان بذات علوية رقيبة على السرائر يستمد القانون سلطانه الأدبى من أمرها ونهيها، وتلتهب المشاعر بالحياء منها أو بمحبتها أو بخشيتها، ولا ريب أن هذا الدرب هو أقوى الدربين سلطانا على النفس الانسانيه، وهو أشدهما مقاومة لأعاصير الهوى وتقلبات العواطف، وأسرعهما نفاذا فى قلوب الخاصة والعامة. من أجل ذلك كان هذا الدين خير ضمان لقيام التعاون بين الناس على قواعد العدل والنصفة وكان ذلك ضرورة اجتماعية كما هو فطرة انسانية[1] وعلى ذلك فإن الارتباط الفطرى للانسان بالدين، وحاجته إليه قد فتح أمامه- بالإضافة إلى الاعتقاد والتدين-[2] مجال العلم والالتزام بالأخلاق والأداب الانسانيه، ولو أن الانسان حرم هذا الدافع الفطرى فى كيانه وطبيعته لما نشر الدين والاعتقاد فحسب، بل لخسر مع ذلك العلم والأخلاق والآداب الانسانية[3] فالدافع الدينى أو الغريزة الدينية كما تبين فيما مضى، لم تكن فاتحة عهد وثابتة خير للدين والعقيده فحسب، وإنما كانت فتحا مبينا ونصرا عزيزا للإنسان فى تلقى العلم والأخلاق والآداب والقيم كما للتدين والاعتقاد[4].

(١) دكتور محمد عبد الله -دراز كتاب الدين- ص١٠٢ مع تقديم وتأخير.

(٢) وذلك أن التدين والدين بمعنى واحد من حيث الاستعمال. راجع دكتور محمد عبد الله دراز -كتاب الدين- ص٢٥.

(٣) دكتور محمد عبد الله دراز -المرجع نفسه ص٢٥.

(٤) راجع دكتور محمود مزروعه -الدين وحاجة الانسان إليه.

فالدين يهدف إلى اقامة المجتمع الفاضل، ولانجد سلاحا أقوى من الدين للإصلاح الخلقى وتنشئة الانسان على السلوك المستقيم، فالقيم الثابتة التى يمنحها القانون الإلهى للإنسان هى صمام الآمان له فى الدنيا والآخرة، ولقد شهد بذلك أصحاب النهضات والماديات يقول «روبرت مليكان» العالم الطبيعى الأمريكى» إن أهم أمر فى الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات وقيمة الأخلاق، ولقد كان زوال هذا الإيمان سببا للحرب العامة، واذا لم نجتهد الآن لاكتسابه فلن يبقى للعالم قيمة بل يصير العالم نكبة على البشرية فى غير قوانين الدين وأخلاقه»[1] وهذا القول يمثل القلق النفسى ومدى حاجة الانسانية إلى الدين عقيدة وسلوكاً لتحقيق التوازن بين الروح والجسد، ولاقامة التوازن بين الغرائز المختلفة، ولتوجيه الميول والعواطف الوجهة الصحيحة التى تحفظ قيمة الفرد وتخدم المجتمع والأمة الانسانية قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[2] وبعد هذا البيان الكامل الشامل يمكننا أن نستوضح وظائف الدين وحاجة البشر إليه.

فالدين يزكى النفس ويطهرها، ويقيم فى جوانبها الوازع القوى الذى يحول دائما بين الانسان وبين نوازع السوء والضلال فيه، وذلك أنه يشعر دائما بمراقبة الله له فى كل شئ، حتى لكأنه يرى الله فى كل خطوة يخطوها، فهو حاضر لا يغيب.

ومن هنا تزكو نفسه بفعل الخير وعمله والبعد عن الشر، وهذا مبلغ ما ينبغى أن تسعى الإنسانية إليه. فالإنسانية بحاجة إلى الدين لأنه جزء من فطرة الانسان وطبيعته، ولايمكن لإنسان سوى عاقل أن يستغنى عن جزء من فطرته وكيانه فهو الوسيلة الوحيدة التى نأمن مخاطرها، ونضمن نتائجها لتحقيق الحياة الانسانيه، فهو يقيم لأتباعه نظاما يدعوهم إلى الفضيلة واعتناقها، كما يقيم لهم دستورا حكيما يحفظ للإنسان انسانيته، كما يحفظ له نفسه وعرضه وماله.

(١) المشير أحمد عزت باشا -كتاب الدين والعلم- ص١٧٣ وراجع دكتور محمد عبد الله دراز كتاب الدين ص١٠٣.

(٢) سورة الروم جزء من الآية (٣٠).

ومن هنا فكما أن حاجة الإنسانية إلى الدين لحفظ النفس والعرض والمال كذلك كانت أيضا بحاجة إليه لتربية الانسان الصالح الذى كرمه الله تبارك وتعالى حيث قال ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[2].

وعلى ذلك فاحتياج الانسانيه إلى الاسلام عقيدة وسلوكاً نزعة فطرية وأصلية ركبت فيه وفطر عليها، ومن هذا المنطلق يصف القرآن الكريم الدين بأنه الحياة، وبأنه النور الذى يضئ للسالك الطريق قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[3].

فالعقيدة تقوم من المجتمع مقام الروح من الجسد، ولسعادة المجتمع لابد له من العقيدة الصحيحة التى تنير الطريق، وتحدد أسلوب معاملة الفرد للجماعة والجماعة للفرد، والأفراد بعضهم البعض، ومن هنا كان المجتمع صورة عقيدته، فإذا كانت العقيدة التى يسير عليها صالحة كان مجتمعا صالحا، وإن كانت فاسده كان مجتمعا فاسدا.

فالعقيدة هى أساس قيام المجتمع، وأساس صلاحه أو فساده، بل هى أساس بقائه واستمراره أو فنائه وانهياره. لذا كانت حاجة الانسانية الى الاسلام عقيدة وسلوكا. وذلك لأنه يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب عن اراداتها، وهذه الأمور لا يوصل بغير الدين إليها، ولا يصلح الناس إلا عليها، فكأن الدين أقوى قاعده فى صلاح الدنيا واستقامتها وأجدى الأمور نفعا فى انتظامها وسلامتها، ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه منذ فطرهم عقلاء من تكليف شرع واعتقاد دين،[4] ومما يؤيد ذلك أن الاسلام جاء خاتمة الشرائع السماويه فورثها وهيمن عليها، وهذه نعمة الله الكبرى، فكانت نعمة فى الدين وفى الدنيا أصلحت الانسان دينا وخلقا. وإلى هنا نكون قد انتهينا من الحديث عن حاجة الانسانية إلى الدين عقيدةً وسلوكاً.

---

(١) سورة التين الآية (٤).
(٢) سورة الاسراء الآية (٧٠).
(٣) سورة الانعام الآية (١٢٢).
(٤) أبى الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى الماوردى. أدب الدنيا والدين ص٣٨ جـ١، ص٤٢٥ جـ٢ ط. الشعب.



الفصل الثاني

أركان العقيدة الاسلامية

أولا: الايمان بالله

ثانيا: الايمان بالملائكة

ثالثا: الايمان بالرسل

رابعا: الايمان بالكتب

خامسا: الايمان باليوم الآخر

سادسا: الايمان بالقدر

أسس العقيدة الاسلامية

أن أساس العقيدة الاسلامية ومحورها كما تبين مما مضى هو الإقرار بـ لا إله إلا الله ثم تأتى بقية الأسس العقائدية لها، لأنها تستمد كيانها وأصولها، من هذا المنطلق، ونحن إذا نظرنا فى القرآن الكريم فإننا نجده يعبر عن العقيدة بالإيمان، كما أنه يعبر عن الشريعة بالعمل الصالح كما يتضح من قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾[3] وعلى ذلك فقد حدد الشارع فى الاسلام أمورا مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا واعتقادها فى أنفسنا، مع الاقرار بها بألسنتنا، وهى العقائد الايمانيه التى تقررت فى الدين، والتى متى أخل الانسان بواحدة منها لم يكن مؤمنا، وهذه العقائد هى: الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الحق تبارك وتعالى، واحدى الآيات القرآنية التى تضمنت أركان العقيدة، هى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[4] فهذه الآية الكريمة تشتمل على الأركان الأساسيه لبناء العقيدة الإسلامية، وقد وردت فى اطار مشتقات لفظ الإيمان، وإلى جانب ذلك فهى شهادة وتنصيص من الحق تعالى على صحة إيمان سيدنا محمد ﷺ واعتداد بهذا الايمان، ودلالة على أنه جازم فى إيمانه بهذه العقيدة، ولشدة إيمان الرسول ا لكريم اكتفت الآية فى الاشاره إلى عقيدته بهذه العبارة الموجزة «بما أنزل إليه من ربه أما بالنسبة لجمهور المؤمنين، فقد فصلت الآية أسس العقيدة التى يؤمن بها كل إنسان وهى: إيمان بالله، ايمان بالكتب المنزلة، ايمان بالرسل جميعا دون تفرقة بينهم بالتصديق والتكذيب، وكل عنصر من عناصر هذه

(١) سورة البقرة من الآية (٦٢).
(٢) سورة النحل من الآية (٩٧).
(٣) سورة الكهف من الآية (١٠٧).
(٤) سورة البقرة من الآية (٢٨٥).

الأركان يطوى فى ثناياه مزيدا من العناصر العقدية للاسلام[1] قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[2] وحينما سئل النبى ﷺ عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وتؤمن بالقدر خيره وشره»[3] هذه هى أمهات العقائد الإيمانيه التى طلب الاسلام الإيمان بها، وكانت هى العنصر الأول من عناصره وقد أشرنا إليها اجمالا فلنتناولها بالتفصيل حسب خطة البحث.

الإيمان بالله تعالى:

يستلزم التوحيد المطلق للألوهية والربوبية، واعتقاد أنه اله واحد فرد صمد، لا إله غيره ولا معبود سواه، واعتقاد أنه تعالى موصوف بكل صفات الكمال، وأنه منزه عن كل نقص. هذا الاعتقاد هو القوة الدافعه والرادعه. الدافعة إلى عمل الخير وإلى طاعة الله. والرادعة عن الشر وعن اتباع الهوى، وهو الحصن الأمين الذى يأوى إليه الانسان إذا حزبه أمر، أو أصابه ضر، والايمان دعامة للقيم الروحية التى هى مبعث قوة الفرد وقوة الجماعة، وهو لهذا أقوى عامل فى وحدة الأمة وجمع شملها وتماسك بنائها. يقول الرسول ﷺ «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[4] وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الالوهية بالضروره، لأن الاقرار بقدرة الله ومالكيته وعلمه ونعمه على خلقه، يستوجب أن يعبد وحده شكرا على نعمه واستزادة من عطاياه، وطلبا لتزكية النفس لأن العبادة تكون لذلك وذلك لا يقدر عليه غير الله،[5] والايمان بوجود الله يستلزم أن يكون وحده حاكما فأمره الأمر ونهية النهى، لأن ترك أمر الله

(١) دكتور عبد السلام محمد عبده –قباسات من العقيدة الاسلامية ص٤,٥.
(٢) سورة النساء الآية (١٣٦).
(٣) أخرجه البخارى ومسلم فى كتاب الايمان من حديث ابن عمر. عن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما – والحديث سبق تخريجه.
(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة. باب تشبيك الأصابع فى المسجد ص١١٢ جـ٢ ط. الحلبى، وأخرجه مسلم فى كتاب البر. باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ص١٣٩ جـ١٦ شرح النووى ط. حجازى.
(٥) دكتور أحمد غلوش. الدعوه الاسلامية. ص٢٠.

إلى أمر سواه، أو فعل مانهى عنه بأمر سواه . نوع من العبادة لسواه، وبذلك يكون الشرك وعلى ذلك أيضا كان التوحيد الحق يستلزم كمالا مطلقا للواحد الأحد سبحانه وتعالى. والايمان بهذا المعنى هو أول الأسس وهو شعار مجتمع المؤمنين، وأولاها بالذكر والتفصيل لأنه الأساس المشترك فى القيم جميعا، فللمعتقد أن يؤمن بذلك ويرمز إلى هذا الايمان اليقينى بـ شهادة أن لا إله إلا الله. والشهادة تعنى العلم والعمل والإخبار عن الاعتقاد الثابت فى القلب، وهذه الشهادة تقتضى الإيمان بكل ماذكرنا من لوازم توحيد الله تعالى[1] ولهذا الايمان ثمراته اليانعة، ونتائجه الطيبة.

ان النتائج التى تترتب على الايمان بالله وتوحيده كثيرة وهامة سواء بالنسبة للفرد أو للمجتمع ومنها:

١) تحرير الانسان من العبودية لغير الله أو الخضوع لسواه[2].

٢) تحرير النفس من سيطرة الغير والخوف منه قال تعالى ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[3].

٣) إن الايمان الحق بالله يملأ النفس طمأنينه وسكينه قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[4].

٤) الايمان يجعل الانسان ملتزما بقانون الله والمجتمع دون قوة الإلزام إيمانا بأن الإلزام هو العنصر الأساسى أوالمحور الذى تدور حوله القيم الأخلاقيه[5] فالايمان بالله هو رأس العقائد الدينيه كلها وعقيدة الانسان فى الهه هو المرآة الصادقه التى تعكس صورة الدين كله فإذا أردنا أن نعرف صلاحية الدين عند قوم فلننظر أولا فى عقيدتهم فى الله، فإن صلح اعتقادهم فى الله صلح الدين وان فسد اعتقادهم فى الله فقد فسد دينهم بكل ماحوى. يقول الاستاذ عباس العقاد: «ومن عرف عقيدة قوم فى الههم فقد

(١) راجع الدكتور أحمد غلوش –الدعوة الاسلامية– ص٢١.
(٢) من أجل ذلك يدعو القرآن الكريم الناس جميعا إلى هذا الايمان ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾سورة آل عمران. جزء من الآية ٦٤،
(٣) سورة يونس الآية (١٠٦، ١٠٧).   (٤) سورة الرعد الآية (٢٨).
(٥) راجع الاستاذ أنور الجندى –قضايا العصر فى ضوء الاسلام– ص١٩٧.

عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان، ومن صحة المقاييس التى يقاس بها الخير والشر، وتقدر بها الحسنات والسيئات،[1] وذلك انطلاقا من العمل والسلوك.

الايمان بالملائكة

الأساس الثانى الذى يأتى بعد الايمان بالله هو الايمان بوجود الملائكة والملائكة: خلق «من خلق الله وعباد من عباده» لاتدركهم الحواس ولا يراهم البشر إلا بأمر الله وهم أجسام نورانية قادرة على التشكل بالأشكال الحسنة وهم عباد مكرمون مطيعون معصومون وهم أصناف كثيره[2] ولهم وظائف عديده. وطريق الايمان بالملائكة هو السمع، وإذا كان هذا هو شأن الملائكة فى عالم الروح ودورهم الايجابى فى الكون والطبيعة، واذا كانت هذه هى صلتهم بالانسان فى هذا العالم أو فى العالم الذى يأتى بعده كان من الواجب الايمان بوجود هم ومحاولة التمثل بهم عن طريق تزكية النفس، وتطهير القلب، وعبادة الله عبادة خاشعه، ففى التمثل بالملائكة سمو للروح وتحقيق للحكمة العليا التى خلق الانسان من أجلها وهى أداء الامانه، أمانة الحياة والقيام بالخلافة عن الله فى الأرض، ولهذا كان الإيمان بالملائكة من البر، ومن دلائل الصدق والتقوى ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ﴾[3] وبعد فهذا هو خبر

---

(١) الاستاذ عباس العقاد –حقائق الاسلام وأباطيل خصومه– ص٣٢ وراجع دكتور محمود مزروعه– الدين وحاجة الانسان إليه ص٢١٢.

(٢) فمنهم حملة العرش قال تعالى: ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ سورة الحاقة الآية/ ١٧ ومنهم رسل الله للبشر قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ سورة الحج الآية/ ٧٥ وقال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ سورة النحل الآية/ ٢ ومنهم خزنة الجنة قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ سورة الزمر الآية/ ٧٣ وعن خزنة النار قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ سورة الزمر الآية/ ٧١ ومنهم كتبة الأعمال قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ سورة الانفطار الآية/ ١٢ ومنهم الموكلون بتوفى الأنفس قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ﴾ سورة النحل الآية/ ٣٢ ومنهم جند الله يمد بهم أولياءه فى معاركهم ضد أعداءه قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ سورة الانفال آية/ ٩.

(٣) سورة البقرة الآية (١٧٧).

الله تعالى عن الملائكة، أخبر تعالى عنهم من حيث وظائفهم وأعمالهم التى يقومون بها ولم يتعرض لبيان ماهيتهم، ولذلك فالواجب هو الايمان بوجودهم، وأنهم وسائل الصله بين الله تعالى وبين خلقه، وأنهم ينفذون إرادته تعالى ومشيئته، أما ماعدا ذلك فهو من الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه ولا يجوز لأحد الخوض فيه،[1] فالايمان بوجود الملائكة واجب على كل مكلف، كما ورد النص عليهم فى حديث الرسول ﷺ بوصف الايمان بهم من أركان الايمان حيث يقول ﷺ فى تفسير الايمان وبيان أركانه «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[2].

الايمان بالرسل

العقيدة الثالثة من العقائد الايمانيه هى الايمان بالرسل من البشر الذين اصطفاهم الله[3] واجتباهم من بين أبناء البشر[4]، وبعثهم إلى الناس فى مختلف بقاع الأرض، ومختلف العصور ليأخذوا بيدهم إلى طريق الهدى وليوضحوا لهم مقاييس الخير، ومعايير الشر التى قد تسود بينهم، وتنشأ فى مجتمعهم، والسلوك الأمثل فى حياة الانسان، وتحديد قواعده التى تأخذ بزمام النفس وتقودها إلى الحق والخير والعدل قال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[5] وهذا الوجه من تعاليم النبوات يختلف من نبوة إلى أخرى وذلك مراعاة لأحوال الشعوب والعصور فيدعونهم إلى الإيمان والعمل الصالح ويبشرونهم بالجنة وينذرونهم بالنار، ويبينون لهم أن فى اتباعهم لهم السعادة فى الدنيا والفوز بالنعيم فى الاخرة.

الايمان بالكتب

والعقيدة الرابعة من العقائد الايمانيه فى الاسلام هى الايمان بالكتب السماوية التى أنزلها الله تعالى على الرسل وهذه الكتب قد تضمنت العقائد التى أوجب الله

---

(٢) راجع دكتور عبد العزيز سيف النصر –مسائل العقيدة بين التفويض والتأويل ص٣١ رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين– استنسل.

(١) صحيح البخارى ومسلم وسبق تخريجه.

(٢) قال سبحانه ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ سورة الحج الآية/ ٧٥.

(٣) قال سبحانه ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ سورة ابراهيم آية ١١.

(٤) سورة الحديد من الآية/ ٢٥.

تعالى الايمان بها، إيمان اعتقاد لا إيمان تعداد، بمعنى أن نؤمن بأن كل كتاب نزل من عند الله سبحانه وتعالى فهو حق لا ريب فيه، وذلك أن الايمان بالرسل جميعا يقتضى الايمان بكتبهم كلها، ولذلك فقد أوجب الاسلام الايمان بالكتب السماوية كلها، ولما كان سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء كانت رسالته ﷺ هى خاتمة الرسالات الألهية وأيضا لما كانت رسالته عامة للناس جميعا، فان القرآن الكريم هو آخر وخاتم الكتب السماوية، وهو كتاب الانسانية جميعا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] فالقرآن الكريم هو الجامع لأسمى المبادئ والفضائل الخلقيه. حيث امتدح الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2] كما أنه الحافل بكل مايحتاج إليه البشر قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

الايمان باليوم الآخر

العقيدة الخامسة من العقائد الإيمانيه فى الاسلام هى الايمان باليوم الآخر، واليوم الآخر هو يوم القيامه، ويعبر باليوم الآخر عن الدار الاخرى التى يكون فيها الجزاء من ثواب أو عقاب، وموعد بدايته أحد الغيبيات التى استأثر الله بعلمها فهو وحده «عنده علم الساعه»[4] وفى اليوم الآخر يجد الانسان جزاء ماعمل فى الدنيا قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾[5] وعلى ذلك فيوم القيامه يشتمل على أمور يجب الايمان[6] بها كما جاءت، ويجب أن يكون واضحا كذلك أن للعقل مدخلا إلى الوصول إلى الإيمان بالله والرسالة والكتب وفيما عدا ذلك فالأمر وقف على السمع وحده ولامدخل للعقل فيه.

---

(١) سورة الحجر الآية (٩). (٢) سورة القلم الآية (٤). (٣) سورة المائدة الآية (١٦).
(٤) راجع دكتور أحمد غلوش -الدعوة الاسلامية- ص٢٤ ط بيروت.
(٥) سورة النجم الآية من (٣٩-٤٢).
(٦) وذلك كالإيمان بالبعث، والحشر، والحساب، والصراط، والحوض.

الايمان بالقدر:

العقيدة السادسة من العقائد الايمانية فى الاسلام هى الايمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره من الحق تبارك وتعالى «والايمان بالقدر هو الايمان بتقديم علم الله تعالى لكل ماكان، وماهو كائن، وماسيكون، وأنه قد كتب كل شئ فى كتاب محفوظ وأنه لا يقع شئ إلا بمشيئته تعالى وارادته، وأنه تعالى رب كل شئ وخالقه فلا رب غيره ولا خالق سواه ومدبر إلا هو[1] قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[4] وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «كنت ردیف رسول الله ﷺ فقال لى: يا غلام أو يابنى- ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ قلت: بلى فقال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه فى الرخاء يعرفك فى الشده. قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق جميعا أرادوا أن ينفعوك بشئ لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، وان أرادوا أن يضروك بشئ لم يقضه الله عليك. لم يقدروا عليه فأعمل لله بالشكر واليقين. وأعلم أن مع الصبر على ماتكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب، وان مع العسر يسرا»[5] وبذلك يكون الايمان بالقدر قوة باعثة على النشاط والعمل والايجابية فى الحياة، كما أن الايمان بالقدر يربط الانسان برب هذا الوجود فيرفع من نفسه إلى معالى الأمور من الصدق والإخلاص، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقوة من أجل إحقاق الحق والقيام بالواجب، وعلى ذلك يتبين لنا أن الرضا بالقضاء هو ثمرة الايمان بالله ونتيجته اللازمة، وهو يقوم على إيمان العبد بالله «والرضا بقضاء الله[6] فالحق تبارك وتعالى هو الذى أمر بالعمل

(١) راجع دكتور عبد العزيز سيف النصر مسائل العقيدة بين التفويض والتأويل ص٥٧.
(٢) سورة الأنعام الآية من (٥٩- ٦٠).
(٣) سورة التوبة الآية (٥١). (٤) سورة الانسان الآية (٣٠).
(٥) سنن البيهقى ص٥٨، وسنن الترمذى جـ٤/ كتاب القيامه ص٧٦ رقم ٢٦٣٥ ط. الفجاله الجديده.
(٦) دكتور محمود مزروعه/ الدين وحاجة الانسان اليه ص٢٥١.

والسعى والايمان بقضاء الله والرضا به من شأنه أن يشد من عزم المؤمن[1] وأن يقوى من إرادته فى العمل والسلوك.

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2].

(١) وذلك ان الايمان بالله يدفع العبد الى الاتصاف بسمات نذكر منها:

أ) الوحدانية والقضاء: ان العبد حين يعترف لله بالوحدانية وأنه وحده مالك الملك يتصرف كيف يشاء وأنه لاشريك له ولا ند له فالتصرف فى الملك من شأنه وحده فان العبد لابد وان يؤمن بالقضاء وأن يرضى به على أساس أنه تصرف المالك فى ملكه وأن تصرف المالك فى ملكه حق لا يجوز الاعتراض عليه.

ب) العدل والقضاء: والعبد حين يؤمن بعدالة الله فى تصرفه ينتفع بالرضا بالقضاء درجة أخرى فوق ماسبق لأنه حين يعرف أن الله الذى له المشيئه الكامله فى ملكه. قد وعد بأن يكون هذا التصرف قائما على العدل فلا يظلم الناس شيئا فإن العبد حينئذ يقوى وازع الرضا بالقضاء عنده لأنه عرف أن تصرف الله فى ملكه ليس قائما على الطغيان وانما هو قائم على العدل والحق.

جـ) الرحمه والقضاء: فالعبد حين يقر بعد ذلك صفة الرحمه لله الرحمن الرحيم ويؤمن بها فان رضاه بالقضاء يكون قد وصل آنئذ إلى ذروة التسليم الشامل والاطمئنان النفسي التام والقرآن الكريم قد جمع هذه الدرجات الثلاث حيث قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة آل عمران آية/ ٢٦ نقلا من المرجع السابق للدكتور مزروعه ص٢٥٠.

(٢) سورة الزلزله الآيه (٧، ٨).



الفصل الثالث

العقيدة الاسلامية والفطرة

أ) العوامل النفسيه لتكوين العقيدة

١ – العقل

٢ – الإرادة

٣ – الوجدان

ب) خصائص العقيدة الاسلامية

١ – الربانية

٢ – التوحيد

٣ – الفطرة والحياة

٤ – العقل والوضوح

تمهيـــد

اتضح أن العقيدة حاجة نفسية تقوم بنفس الانسان فتوجه سلوكه لأن الاعتقاد هو تلك الحالة النفسية التى تتملك المرء فتجعله يؤمن ايمانا جازما لاريب فيه فهو حالة نفسية وصفة معنوية تقوم بالمرء فتحدد اتجاهاته وتصرفاته ونظرته إلى الحياة[١] وعلى ذلك فلا يتمكن الانسان من الحياة النفسية الراضية بدونها فهى عمل من أعمال الارادة، وثمرة من ثمار المجهود العقلى فهى لهذا مكتسبة تقوم بنفس الإنسان بعد أن كانت خلوا منها، أو تحتل انتباهه بعد أن كان غافلا عنها، وليست من قبيل المعانى الموروثه والحقائق التى تلقى فى نفوسنا وتقذف فى قلوبنا على غير اختيار منا ولذلك فان هناك من يقول بالكسب، لأن الانسان مطبوع على أن يعتقد ومهيأ لقبول العقيدة، وقد غرست فى جبلته استعدادات تجعله صالحا لأن يعتقد وميالا بطبعه لذلك، ولكن ذلك فى الواقع لا يتنافى مع كسبية الاعتقاد ومع قبوله للتكيف بكيفيات مختلفه وأوضاع معينة، ووقوعه تحت تأثير عوامل وان تصارعت فيما بينها أحيانا قد تطلع وتتضافر على تكوين معتقد معين[٢] ويبين ذلك أستاذنا الدكتور محمود حب الله بعد أن وضح أنها حالة نفسيه تتملك المرء ونظرته إلى الحياه فيقول «ولكنها حالة مكتسبه تحل فى نفس المرء بعد أن لم تكن بفعل بعض العلل والأسباب، وليست من الصفات الموروثه التى تنقل إلى المرء من غير أن يكون له اختيار فى قبولها أو فى رفضها، وكل ماهنالك هو أن الانسان صالح بطبعه لأن يعتقد[٣] ورغم اتفاق الباحثين فى العقيدة على أنها حاجة نفسيه، ومن ثم كانت مرتبطة بالنفس الانسانيه، إلا أنهم اختلفوا حول تحديدهم لمفهومها نتيجة اختلافهم فى تحديد علاقاتها بالقوى النفسيه فبينما يربطها بعضهم بالوجدان يذهب آخرون إلى أنها تنتمى لعمل الإراده، ويرى فريق ثالث أنها نتيجة طبيعيه للجانب العقلى فى الانسان. ولنبدأ بالبحث عن العوامل النفسيه لتكوين العقيدة، متسائلين هل العقيدة تتكون عن العقل أم عن الإراده أم عن الوجدان؟ أم يلزم أن يشترك فيها العقل والإراده والوجدان؟ ليس هنالك من شك فى أن صفات المرء النفسيه يرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا، فيتولد بعضها عن بعض

---

(١) دكتور محمود حب الله -الحياه الوجدانيه والعقيده الدينيه- ص٢٥٥ ط. الأولى.
(٢) دكتور محمد عبد الرحمن بيصار -المختصر فى العقيدة والاخلاق ص١٥ ط. الأولى عام ١٩٧١.
(٣) دكتور محمود حب الله - المرجع السابق.

ويكون بعضها علة لوجود البعض الآخر، وما التربية والتعليم العام، وما تربية الملكات على وجه خاص إلا اعتراف بذلك النوع من الترابط، وبأن بعض الصفات تستدعى بعضا آخر منها ونوعا خاصا من التصرف، وما التربية الخلقيه ومحاولة تكوين الخلق عند الافراد إلا اعتراف بهذا أيضا[١] ومادامت الحالات النفسيه مرتبطا بعضها ببعض، فإن الاعتقاد وهو منها مرتبط كذلك بكل الحالات النفسيه الأخرى، فيرتبط بتلك الحالات النفسية التى يسبق وجودها وجوده، ويتكيف بها ويرتبط بالحالات النفسيه التى توجد بعد وجوده فيكيفها ويؤثر فيها، وإذن فالعقيدة حاجة نفسيه مهيمنة لا يتمكن الإنسان من الحياة النفسية الراضية بدونها[٢] وذلك الشعور النفسى هو الذى دعا الانسان للبحث من أول الأمر ليعرف تلك القوة الخفية، حتى تساعده على النجاح فى الحياة والإيمان بوجود تلك القوة التى تتصل بحياته وبحياة البيئة من حوله، وتقدر على أن تساعده، على تحصيل رغباته، هذا هو الذى هيأ للنوع الانسانى أن يعيش فى بيئة كلها عناد وتنازع، فلقد فكر الانسان منذ عرفه التاريخ فى وجود قوة غير طبيعيه مؤثرة فى ذلك العالم المتغير،[٣] ،ويقول استاذنا الدكتور محمود حب الله، ولا يعنينا الآن أن نعلم السبب الحقيقى الذى بعث الانسان على هذا الاتجاه، هل هو العقل أو الغريزه؟ ولكن الذى يعنينا هو أن الانسان لم تتطمئن نفسه ولم يرضى قلبه فى أى مرحلة من مراحل حياته إلا بعد أن فكر فى تلك القوة العليا واعتقد أنه وصل إليها، ثم اتصل بها بأى نوع من أنواع الاتصال ثم خضع لها ودان لها بالطاعة،[٤] ولما كانت الحالات النفسيه متعددة النواحى إذ أنها وجدانيه، ونزوعيه وعقليه وكان كلا منها متصلا بالاعتقاد ومؤثرا فيه أو متأثرا به[٥] كان لزاما علينا أن نتحدث عن كل جانب من هذه الجوانب المتعددة وعن صلته بالاعتقاد وعلى ذلك فإن الحديث عن العوامل النفسيه لتكوين العقيدة ينحصر فى العقل، الإراده، الوجدان وهذا ما سوف نعرضه فى هذا المبحث على النحو التالى.

(١) ليس هذا قولا بالترابط الميكانيكى، وبأن الانسان فى تصرفه وفى تكوين صفاته كالآله التى إذا تحركت فى اتجاه ظلت متحركة فيه حتى تفنى الحركه أو يغير الاتجاه بفعل بعض القوة الأخرى ولكنه اعتراف بوجود نوع من الترابط فحسب بين العوامل النفسيه، نقلا من كتاب الحياه الوجدانيه والعقيدة الدينيه للدكتور محمود حب الله ص٢٥٨.

(٢) دكتور محمود حب الله –المرجع السابق ص٢٠٤.

(٣) دكتور محمود حب الله –المرجع السابق نفسه ص٢٠٥.

(٤) دكتور محمود حب الله –المرجع السابق– ص٢٠٥، ٢٥٩.

(٥) نفس المرجع السابق.

أولا: العقل:

العقل من أعظم النعم الإلهية على الانسان، وهوميزته على سائر المخلوقات به **يفكر ويفهم ويدرك، ويتصور،** وعلى هداه يعرف الحق ويعلم الصواب، فالعقل موطن **العقيدة يقول أبو الحسن البصرى:** «ينبوع الأدب هو العقل الذى جعله الله للدين أصلا وللدنيا عمادا»[1] وعلى ذلك فقد رأى بعض الباحثين أن العلة فى تكوين العقيدة إنما هو العقل فما دام الارتباط بين العقل والعقيدة فى جانبها النظرى والتاريخى على السواء قائما على أوثق وجه واكده، كان لابد من إرجاع العقيدة فى تكوينها وتكيفها، وأوجه التأثير فيها إلى عامل العقل[2] وفى الواقع إننا إذا نظرنا فى القرآن الكريم نجده يجعل أساس العقيدة عملا عقليا لا يتبع العاطفة، ولا المنفعة الفردية ولا الاجتماعية، لذا نراه ينعى على الإمعات الذين يبنون عقائدهم على مجاراة العرف أو اتباع الآباء أو طاعة الساده والكبراء، كما نراه ينعى على الذين يتجرون بعقائدهم ومبادئهم جريا وراء الأرباح والمغانم وانضماما إلى الصف الذى يجر لهم منفعة عاجلة أو يدفع عنهم مخافة طارئة قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾[3] ولكنه يدعونا دائما إلى الإيمان عن طريق النظر المستقل والتفكير الحر فى الايات والأدله[4] ومن هنا فإنه يصح لنا أن نقول بأن العقل أحد عوامل تكوين العقيدة. واذا كان المذهب العقلى فى الفلسفة يختلف عن غيره فى أنه يلجأ إلى العقل ويتحاكم إليه فى كل ما يؤمن به من أحكام وقضايا متعلقة بما وراء الطبيعة، ولا يبنى نتائجه فيها إلا على أسس مستمدة من قوانين العقل والمنطق فإنه يصح لنا أن نصف الدين الإسلامى بأنه دين عقلى،[5] وان جاز لنا ذلك، فإننا لا نصفه بذلك لأنه من عمل عقل الإنسان ونتيجة لمنطقه وتفكيره، بل لأن قضاياه وأحكامه وما فيه من عقائد وتكاليف على الرغم من أنها ليست من عمل العقل الإنسانى معقوله كلها، ليس

(١) أبو الحسن البصرى أدب الدنيا والدين ص٢ ط الاولى دار الكتب المصرية.
(٢) دكتور محمد عبد الرحمن بيصار- المختصر فى العقيدة والاخلاق ص١٦.
(٣) سورة المائدة جزء من الاية/ ٥٢.
(٤) دكتور محمد عبد الله دراز- نظرات فى الاسلام ص١٤.
(٥) دكتور محمود حب الله- الحياه الوجدانيه والعقيدة الدينيه ص٢٧٦.

ذلك فحسب بل إنها لم تخاطب إلا العقل ولم توجه إلا إليه[1] فالاسلام دين عقلى لأنه يحث على استعمال العقل وعلى التفكير والتدبر والتبصر، ويطلب من الانسان أن ينظر فى ملكوت السموات والأرض، ويدعوه فى القرآن الكريم الذى هو دستوره الخالد إلى ذلك، ولقد عرض القرآن الكريم لهذا الأمر فى عدة مواطن حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾[2] ويقول ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[3] ثم ينكر على هؤلاء الذين لا يفكرون ويقرعهم بالحجة فى معظم آياته قائلا: ﴿أفلا يتدبرون﴾ ﴿أفلا يعقلون﴾ ثم يؤكد النظر ويجعله شرطا لصحة الإيمان، فأساس الايمان فى نظر القرآن هو المعرفة العقلية لكنه لا يكتفى بهذه المعرفه العقليه حتى ولو بلغت درجة اليقين، مالم يركن إليها القب ويطمئن لها الوجدان، وعلى ذلك فلابد من عمل القلب والعقل وذلك لأن:

«العقيدة الاسلامية ليست إذعانا لفرض من الفروض وانما هى قبول هذا الفرض وتصديقه والعمل بموجبه»[4] قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[5] ثم نراه يصف دعوته اجمالا بأنه دعوة مستنيرة قائمة على النور والبصيره حيث يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[6] بل نراه يلخص وصاياه لطالبى الوصول إلى الحق فى وصية واحدة رئيسية ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[7].

وما كان الأمر هكذا إلا لأن العقل هو الذى يرقى بصاحبه ويرفعه إلى مستواه فى الانسانية فيعرف الله وما فرضه عليه. والدين وتعاليمه. والنفس ومداها، فلا يقع بعد معرفته فى سوء، ولذلك فقد جاءت نصوص متعدده تعبر كلها عن أن العقل قوة مدركه فى الانسان خلقها الله فيه ليكون مسئولا عن أعماله، ولهذا بين الله تعالى أن

---

(١) المرجع السابق. (٢) سورة آل عمران الآية ١٩١.
(٣) سورة الحج الآية (٤٦).
(٤) راجع العلامه مولانا محمد على- الدين الاسلامى جـ١ ص٧٢ ترجمة محمد سعيد بك.
(٥) سورة الذاريات الآية (٢٠، ٢١). (٦) سورة يوسف الآية (١٠٨).
(٧) سورة سبأ جزء من الآية (٤٦).

سبب الانحراف والضلال هو عدم العمل بمقتضى العقل، وأن من أهمل عقله فقد أسقط كرامته، ويكفى أنه وضع نفسه فى مكان سحيق قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾(١) فشبه الله تعالى من لا يعقل بالدابه لكونه أصم وأبكم، أو سماه دابه من غير تشبيه لنفس السبب ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(٢) ولذلك وجه الحق تبارك وتعالى الانسان إلى البرهان الذى يملأ القلب من ناحيه، ويمس شعوره الباطنى واحساسه الداخلى لذلك طلب منه النظر والتفكير فى هذا الكون بما يحتويه حتى يصل إلى الغايه التى حددها له بعلمه وحكمته، مما دل عليه وحيه لأنبيائه ورسله.

وهذا الطريق هو أكثر ما أرشد القرآن الكريم إليه، ولا نكاد نرى سورة من سوره إلا وتدعو إلى التفكير والارشاد، إلى إعمال العقل قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾(٣) ويقول ابن كثير بعد ان عدد ما فى هذه الآيات إنها لأصحاب العقول التامة التى تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، ذلك لأن اللب هو كمال حال العقل، وهذه الثقة فى العقل الظاهره فى جعله موطن النظر وميزة الانسان وداعى الأخلاق، وأساس الاجتهاد والتمييز. هذه الثقة ترشحه بالضرورة ليكون المرجع للايمان والسلطان فى العقيدة ويبين ذلك الدكتور محمود حب الله فيقول: «وقد رأينا أن العقل واحد من الطرق التى قد توصل إلى الاعتقاد، وأن هؤلاء الذين يرجعون العقيدة إلى الشعور الوجدانى دون الإدراك العقلى ينبغى أن يعترفوا على الأقل بأن الشعور الوجدانى فى الإنسان. ليس من الحركات النفسية التى لاتمت إلى الادراك العقلى بصلة، ولكنه إدراك عقلى لا يقل عن العمليات العقلية الصرفه إلا فى الوضوح فحسب، وأن ذلك هو الفرق فى الشعور الوجدانى فى الانسان، والشعور الوجدانى فى الحيوان. إذ أن الأول، مصحوب بحركة عقليه دون الثانى، فالعقل موجود فى الحالين وضرورى فى مسائل العقيدة، ولكن كيف يعمل العقل للوصول إلى غايته وإلى إدراك العقائد الدينية التى قلنا إنه قادر على إدراكها، وما هى تلك العقائد التى يقدر العقل على الوصول إليها بنفسه»(٤).

(١) سورة الأنفال الآية (٢٢). (٢) سورة الملك الآية (١٠).
(٣) سورة آل عمران الآية (١٩٠) وراجع المستشار محمد عزت اسماعيل– التبشير والاستشراق– ص٢٦٢ ط. مجمع البحوث.
(٤) دكتور محمود حب الله– الحياه الوجدانيه والعقيده الدينيه ص٢٥٩.

ان العقل قادر بنفسه على الوصول إلى معرفة الله تعالى، وأنه لا ينتقل فى ذلك من مقدمات إلى نتائج، ولا يستعمل شيئا من الأقيسة المنطقيه فكما أنه لا ينتقل من الخاص إلى العام ومن الجزئى إلى الكلى[1] فإنه لا ينتقل من الفانى إلى الباقى. انتقاله من الدليل إلى المدلول كذلك ولكنه يتصورهما معا. ودفعة واحدة، ففى اللحظة التى يدرك فيها وجود نفسه كموجود محتاج، وفى اللحظة التى يدرك فيها وجود الفانى يدرك فيها وجود من هو محتاج إليه، ويدرك فيها وجود الباقى- وهى الله سبحانه وتعالى- من غير حاجة إلى نظر جديد فالعقل مهما بلغت الثقة به محدود الطاقات والملكات فـلا يدخل فى دائرة إمكانه إذن، إدراك كل شئ أو الحكم على جـمـيـع الاشـيـاء،[2] وليس من الهين مع ذلك أن يقال إن العقل يتمكن من معرفتها بنفس السهولة وبنفس الطريق الذى عرف به الله،[3] فكمال المعرفه محال بالنسبة للإنسان. وتلك حقيقة لايمارى فيها، وما أصدق من قال: ان كمال الادراك البشرى وتمام المعرفة الانسانيه لايكونان إلا بإدراك أن هناك حقائق غير نهائيه لاينتهى إليها ادراك، ولا يحيط بها بشر. فالعقل الإنسانى عاجز بنفسه عن الوصول إلى كل مايهدف إليه من العقائد الدينيه ومن النظريات المتعلقه بما وراء الطبيعة من موجودات وان كان قادرا على فهما حين يوجهه إليها موجه، ولهذا كان فى حاجة إلى من يظاهره حتى يبلغ غايته، وهؤلاء الظهراء هم الرسل والأنبياء، ولكن على الرغم من أن العقل لا يقدر على أن يستقل بإدراك كثير من التفاصيل فى العقائد الإلهية، فإنه يقدر على التمييز وتبيين أيها أجدر بجلال الإله الذى عرفه إجمالا وبكماله، وعلى تعرف ما يليق به منها، وما لا يليق حين تنسب إليه، وذلك لأن النظرة التى عرفته الله، عرفته أنه منزه عن شوائب النقص ومتصف بكل كمال،[4].

ولكن الذى لا يعرفه ولا يمكن أن يعرفه بنفسه، هو اتصافه بهذه الأوصاف فحسب فقد يكون متصفا بما لا يحصى من الصفات التى لا يعرف العقل منها إلا

(١) ولو كانت معرفته لهما انتقالا. كالانتقال من الدليل إلى المدلول لما عرفهما ابدا- نقلا من الحياه الوجدانيه والعقيدة الدينيه للدكتور محمود حب الله ص٢٦.

(٢) دكتور محمد عبد الرحمن بيصار- المختصر فى العقيدة والاخلاق ص١٧ عام ١٩٧٣م.

(٣) دكتور محمود حب الله- الحياه الوجدانيه والعقيدة الدينيه ص٢٦٠.

(٤) دكتور محمود حب الله- المرجع السابق ص٢٦٢.

ماكان هو أثرا له»[1] فالاعتقاد على هذا الضوء لا يستمد من الأدلة النظريه ولا يتوقف عليها وهو ما يراه الإمام الغزالى فيقول: «ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف: موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة»[1] فكان من الممكن أن يترك الانسان ليهتدى بعقله وحده، لكن اضطراب الفكر صنع عائقا أمام العقل فكان الوحى لازما بعد ذلك لينبهه ويذكره وكانت مهمة الرسول ﷺ هى توجيه العقل نحوالطريق المستقيم. وقد أورد القرآن الكريم كثيرا من التساؤلات المتعلقه بأصول الدين التى جاءت على ألسنة الرسل -عليهم السلام- وقد أتى بها سراجا منيرا أمام العقل، يزيح به كل ما يعترضه فى تحققه واطمئنانه وليثبت الإيمان بالنظر والدليل. ومن هذه التساؤلات، سؤال ابراهيم عليه السلام- ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾[3] وسبب السؤال يبدو من قول إبراهيم -عليه السلام- ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فهو سؤال يتعلق بالبعث وهو من أهم مسائل الاعتقاد. ومنها سؤال الحواريين لعيسى -عليه السلام- «هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء. قال: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4] وسبب السؤال قولهم ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[5] وهو سؤال يتعلق بالقدرة الآلهية، وهى من أهم مسائل العقيدة ذلكم هو العقل فى الاسلام نجاه الله من القهر والإجبار، وخاطبه بالحسنى وأنزل له القرآن وساق أمامه الدليل، وجعله سيد صاحبه، يقوده إلى الخير والإيمان، ويرفع عنه ظلمات التبعية والتقليد، فمهما حاول العقل أن تجئ معرفته لهذا النوع من العقائد الآلهية مطابقة ما أمكن للواقع ونفس الأمر فإنها معرفة مستنبطة من الأدلة النظريه المبنية على الانتقال

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) فالاكتفاء بالعقل وحده يضيق دائرة معرفة الانسان، فضلا عن أنه قد يتردى فى الخطأ دون أن يجد من يهديه إلى الحقيقة وهذا هو معنى قول الامام الغزالى «وكيف يهتدى إلى الصواب من اقتفى محض العقل وما استضاء بنور الشرع .د. محمد قنديل تحليل وتكميل الاقتصاد فى الاعتقاد ط. الاولى ص٦١- المنقذ من الضلال للامام الغزالى تحقيق د. عبد الحليم محمود ص٧٩ ط. السادسه عام ١٩٦٨.

(٣) سورة البقرة الآية (٢٦٠).

(٤) سورة المائدة الاية ١١٣.

(٥) سورة المائدة الآية (١١٢، ١١٣).

من مقدمة الى أخرى على نمط منطقى، أو على نحو تأثير وتأثر مما يكون العقل فيه عرضه للخطأ والضلال، متأثرا بعوامل عارضة وأسباب خارجية عنه غير واقعة تحت سلطة الإرادة، من أجل ذلك كله كان تطلع الإنسان للوصول بمعرفته إلى كمالها المطلق تطلعا إلى المحال،[1] ولم يكن الدين الإسلامى إذن حين يؤكد أن الله أحد، صمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، مكلفا العقل الإنسانى أن يتعرف على مالا يستطيع فهمه، أو يعجز عن إدراكه ولكنه كان ينبه فقط إلى تلك الحقيقه المطويه فى عقله، والتى يقدر هو على نشرها والوصول إليها بنفسه، وفهمها فهماً واضحاً مستقلا لو توجه إليها برغبة أكيدة، وعزم قوى، ونية خالصة،[2] فلا ينحصر فضل الانسان فى امتلاكه للحقيقة، وإنما فضله فى الجهد الذى يبذله مخلصا فى السعى إليها- ولا تنمو ملكات الانسان بامتلاك الحقيقة بل بالبحث عنها، وكماله المتزايد ينحصر فى هذا وحده، وعلى ذلك فالعقل هو أشرف ماوهب الانسان، وفضل الله به الإنسان على كثير من خلقه بة يكون الانسان ملكا فوق الملائكه، وبه أيضا يكون الانسان فى أسفل سافلين ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[3] ومن هنا ندرك قيمة العقل فى دفع صاحبه إلى الاعتقاد والعمل.

ثانيا: الإرادة:

والإرادة هى فى الأصل: «قوة فى ذات الانسان، وجعلت اسما لنزوع النفس إلى الشئ مع الحكم فيه بأنه ينبغى أن يفعل أولا يفعل وهو تكون إما فى نزوع النفس إلى الشئ وإما فى الحكم فيه بأنه ينبغى أن يفعل أولا يفعل»[4] وإذا كان العقل قادرا على النظر فى العقائد الدينية- وقد وقفنا على أن صفات المرء النفسية يرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا فيتولد بعضها عن بعض ويكون بعضها علة لوجود البعض الآخر- كان لابد له أن ينظر فيها بطبيعته، وإذا كان قادرا على الوصول إلى بعضها وإدراكه إدراكا صحيحا، أمكن القول بارتباط الإراده- التى هى ترجيح احدى العلل أو إحدى

(١) دكتور بيصار المختصر فى العقيدة والاخلاق ص٢٠.
(٢) دكتور محمود حب الله- الحياه الوجدانيه والعقيدة الدينيه ص٢٦٢.
(٣) سورة العصر كاملة. وقال تعالى: ﴿انما يخشى الله من عباده العلماء﴾ جزء من سورة فاطر الآية/ ٢٨.
(٤) الفيروز ابادى- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ٢ ص١٧٠.

النظريات– بالعقيدة[1]. وعلى ذلك فالمعتقدات التى نصل إليها بالعقل: هى معتقدات عقليه وإرادية معا.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن العقل لا يصدر فى أفعاله إلا عن إرادة كما قال الدكتور محمود حب الله «إن المعتقدات التى نصل إليها بالعقل هى معتقدات عقلية وإرادية معا. ومن هنا فالإراده ليست نزوعا ما نحو شئ من الأشياء بدون تفكير أو شعور، وإنما هى نزوع معين قائم على وجهة نظر كثيرا ما تكون مدعمة بالحجة، فهو أولا مسبوق بالتأمل والنظر، كما أنه متجه إلى غاية من الغايات»[2].

وعلى ذلك فالإرادة من العوامل التى تساعد على تكوين العقيدة فى نفس الإنسان، وحيث كان من المسلم به أن العقل لايصدر فى أفعاله إلا عن إراده كما بينا، لذا كانت الإراده أساس المسئولية والمميزة للأعمال ولهذا قال الرسول ﷺ «إنما الاعمال بالنيات، وإنما لكل أمرئ مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أوأمرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه»[3] وعلى ذلك فقد بينت السنة الشريفه أثر الإراده فى العمل، فجيب على المسلم أن يكون أساس اختياره الحق والفضيله، وألا يكون ميله فى الأخذ والترك تبعا لهواه الشخصى بصرف النظر عن مطابقته للحق والفضيله، فالإراده إذا تعلقت بالاهواء والمصالح دون اعتبارا للفضيله أورثت صاحبها سوء الخلق، ومن هنا كان البيان الكامل من الحق سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[4] وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[5] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[6].

---

(١) د. محمود حب الله الحياه الوجدانيه والعقيده الدينيه ص٢٦٢.

(٢) راجع دكتور محمد عبد الرحمن بيصار/ المختصر فى العقيدة والاخلاق ص٢٠.

(٣) صحيح مسلم جـ٣ كتاب الاماره باب ثواب بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم ص١٥١٥، ١٥١٦ ط. عيسى الحلبى. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى. أخرجه البخارى فى كتاب بدء الوحى ص١٣ ط. الحلبى وفى كتاب الايمان باب– ماجاء أن الاعمال بالنيه ص١٤٤، ١٤٥ جـ١ ط. الحلبى.

(٤) سورة الكهف الاية (١١٠).

(٥) سورة هود الآية (١٥، ١٦).

(٦) سورة الكهف الآية (١٠٣)، (١٠٤).

ومن هنا نقرر بعد أن بينا أثر الإراده فى الاعتقاد، أن تحرير الإراده من الهوى وتعلقها، بالحق يجعل من الانسان مثالا محبا للتقوى والفضيله[1] ولذلك يقول استاذنا الدكتور محمود حب الله «واذا كان الدين مرتبطا بالإرادة، وكان متصلا بالجانب العملي من حياة الانسان دون النظرى منها كان مرتبطا بالأخلاق ارتباطا وثيقا[2] وبذلك نتبين قوة الارادة وأثرها.

ثالثا: الوجدان:

يرى فريق من العلماء أن العامل المؤثر فى تكوين العقيدة إنما هو الوجدان: وهو شعور متكامل في النفس الانسانيه، يدوم بدوام الحياة وينفعل به الفرد، ويحتل الجانب الأكبر من تفكيره «وهو أدق من الانتباه فينفعل بما ينتبه إليه وبما لاينتبه إليه،[3] فهو قوة بها الحياة وأما التفكير فقوة بها كمال الحياه،[4] ولأهمية الوجدانات للحياه نجدها متصلة اتصالا وثيقا بكل تصرفات الشخص وسلوكه، والعلة الحقيقية لتكوين العقائد على وجه العموم، والدينية منها على وجه الخصوص،[5] ومادام الانسان يلتذ ويتألم،

---

(١) وهذا المقام يدعونا الى أن نقف على بيان النيه وأقسامها. النية كما عرفها بعض العلماء هى: قصد الشئ وعزم القلب عليه. والنية تنقسم إلى قسمين: أ) القصد: وهو ارادة الفعل حالا.
ب) العزم: وهو ارادة الفعل مستقبلا.
وقالوا أن النية والاراده شئ واحد، وأن الاراده تشملهما. وبناء على هذا فالقصد والعزم جزء من الاراده. وتطلق الاراده على كل واحد منهما، من اطلاق الكل على الجزء كاطلاق النيه. نقلا من كتاب نهاية الأحكام فى بيان ماللنيه من الأحكام ص٧، ٨.

(٢) دكتور محمود حب الله- الحياه الوجدانيه والعقيدة الوجدانيه ص٢٦٥.

(٣) دكتور محمود حب الله- نفس المرجع السابق ص١١.

(٤) ولذلك فالوجدان هو: الشعور بالسرور أو بالألم الناشئ عن محاولة الإنسان التوفيق بينه وبين بيئته، وهو لذلك موجود مع الانسان من مهده إلى لحده ومصاحب لكل مرحلة من مراحل الحياة العقليه فلا يخلو منه شخص مادام يقظا. ولذلك فالوجدان موجود فى الانسان قبل أن توجد فيه القوة التفكيريه، أو على الأقل موجود فيه قبل أن توجد القدره على استعمال القوة التفكيريه. لذا كان أشد قربا له أو أكثر تأصلا فيه من العقل، لقدمه الزمنى عليه، ولدوام استمراره معه، ولهذا كان أثره فى بناء الشخصية وتكوينها أعمق من أثر القوة المفكره بالفعل، فهو القوة الحيويه التى رفعت الانسان إلى مستوى من الحياه يبدأ عنده التفكير، وهو القوة الفعاله المساعده للتفكير. إنه قوة بها الحياه أما التفكير فقوة بها كمال الحياه كما قلنا ومن ثم كان لنا أن نقول: إن الوجدانات ذاتيه والاحساسات موضوعيه، وأن للوجدانات ظواهر نفسيه تختلف عن الاحساسات وعن العمليات العقليه المعروفه، لأنها عمليات تحليل وتركيب. وعمليات فهم وادراك فهى عمليات تستتبع شعورا وجدانيا، وليست نفسها شعورا وجدانيا. نقلا من كتاب الحياه الوجدانيه للدكتور محمود حب الله. ص١٦٥.

(٥) دكتور محمود حب الله- الحياه الوجدانية والعقيدة الدينيه ص١٦ بتصرف يسير.

ومدام ميله يشتد ورغبته تقوى فيما يلتذ به بمقدار ما يبتعد وينفر من كل مايسبب له ألما، أو قلقا نفسيا، فإنه يكون من الطبيعى القطع بما للوجدان والشعور النفسى من أثر بالغ فى تكوين العقيدة، ولهذا نرى أن كثيرا من الفلاسفة وفى مقدمتهم سبينوزا يعتبر الوجدانات من لذة وألم «الطبيعة الأولى» التى نشأت عنها كل العواطف والانفعالات، وكل تصرفات الشخص وسلوكه فيقول «سبينوزا» أن اللذة والألم هما اللذان يحددان كل تصرفات المرء وأعماله، وأنهما المصدر الوحيد الذى تنشأت عنه كل صفة نفسيه، وكل أعمال خلقيه، وهو لذلك يوصى بتهذيب الوجدانات لابكبتها أواماتتها، لأن ذلك موت لصاحبها فهو يرى أن الحياة الوجدانية ضروريه لبقاء الإنسان وليست من كماليات الحياة»[1] «فعلى الرغم من أن هناك من العلماء من يربط العقائد الدينية بالذوق والوجدان، ويرى أن عوامل السرور والألم والخوف والرغبة، هى العوامل الأساسية الموجوده خلف كل اعتقاد نفسى. وعلى ذلك فإننا لا نقبل منه هذا الحصر والتخصيص، ولابد أن نقول إن الوجدان قد يكون من بين العوامل المسئوله عن تكوين العقائد، وليس الوسيلة الوحيدة لتكوينها»[2] فالقول بأن الوجدان وحده هو الذى يغذى العقائد ويكونها، قول لايجد ما يبرره من منطق أو تاريخ، وسواء أكانت اللذة والألم نفسيين أم جنسيين، فإنهما ولاشك يدفعان المرء إلى الاعتقاد فى كل ما يجلب له اللذة بمقدار مايحضانه على الابتعاد عن كل مايسبب له ألما، أو يجلب عليه غما. ومادام الاعتقاد متجها دائما نحو غاية يبغى تحقيقها، ومادام مرتبطا بالحركة والعمل، لذا كانت صلته بالإرادة وثيقة لأنها هى كذلك وهذا هو الذى دعا كثيرا من الكاتبين للقول بأن الإراده والاعتقاد قد يعتبران اسمين لظاهره نفسيه واحدة، وقد يكون من العسير التفرقه بينهما»[3].

واذا سلمنا أن العقل كان أحد قوى الإنسان التى خاطبها الإسلام وكان أحد الحالات النفسية المؤثره فى تكوين العقيدة الاسلامية، فإنه يمكن القول بأن للإراده هى الأخرى تأثيرا، وذلك لأن الاختيار وهو أحد السمات الأصليه المعبرة عن الإرادة إنما هو ثمرة لطبيعة هذا المجهود العقلى، فليس الاكراه على الاعتقاد إذن من الاسلام فى

(١) دكتور محمد عبد الرحمن/ المختصر فى العقيدة والاخلاق ص١٦.
(٢) دكتور محمود حب الله/ الحياه الوجدانيه والعقيدة الدينيه ص١٧، ٢٦٦.
(٣) المرجع السابق للدكتور محمود حب الله ص٢٨٦.

شئ لأنه ينافى مبادئه من ناحية، ولا يؤدى غرضه من ناحية أخرى، إذ لاينشأ عنه إيمان أو اعتقاد مقبول،[1]، والقرآن الكريم يبين ذلك ويقرره فى غير موضع منه، فعقيدة الإسلام لم تكره الإراده الانسانيه على الاختيار قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[2] كما أن مسلك الرسول ﷺ كان صريحا فى ذلك أيضا إذ أنكر على الآباء المسلمين إرغام أبنائهم على الدخول فى الإسلام، وسار المسلمون من بعده على نفس المنهج،[3] والوجدان: كقوة من قوى الانسان قد خاطبه الاسلام فى مواطن كثيره وما الترغيب والترهيب وما التبشير والتحذير. والمواعظ، إلا وسائل تهدف إلى تربية الوجدان، ليزداد المؤمنون إيمانا وليتوجه غير المؤمنين إلى الايمان، رغبة فى ثواب الله تعالى، وفى كل ماوعد به سبحانه المؤمنين من سعاده قال تعالى: ﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[4] وقال تعالى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[5].

وهكذا ارتبطت العقيدة فى الاسلام بجميع قوى النفس، وذلك يستدعى ثباتها واستقرارها فى النفوس ،كما أنها لا تعتمد على جانب واحد من جوانب الحياة النفسية للانسان بل تشتمل الوجدانيه، والاراديه، والعقلية. ولا ترضى نفس المرء ولا تكمل شخصيته إلا إذا تضامنت شخصيته ونواحيها النفسيه كلها، فلا يوجد شئ من التضارب النفسى بين قواه المتعدده حول عقيدة من عقائده، بل انسجاما ووئام، فيوجد قبول عقلى ورضى نفسى، واطمئنان قلبى وذلك هو كمال الشخصية وكمال الاعتقاد[6].

(١) المرجع نفسه– للدكتور محمود حب الله ص٢٨٠.
(٢) سورة البقرة من الآية (٢٥٦).
(٣) دكتور محمود حب الله– الحياه الوجدانيه والعقيدة الدينيه ص٢٨١.
(٤) سورة ابراهيم الآيات من (٤٧ – ٥١). (٥) سورة الحجر الآيات من (٤٥ – ٤٨).
(٦) دكتور محمود حب الله– الحياه الوجدانيه والعقيدة الدينيه ص٢٦٩ بتصرف يسير.

هذه هى العوامل الثلاثة فى تكوين العقيدة الوجدان والعقل والاراده غير أن المعتنقين لكل واحد من هذه القوى المتقدمه ربما قصروا التأثير فى تكوين العقيدة عليه وحده. «ولكننا لو تأملنا نجد العقيدة فى الواقع ونفس الأمر ليست ثمرة لجانب واحد من الجوانب النفسيه، وإنما تتوافر جميعا على تحقيق ذاتية الإنسان وتكوين شخصيته، وملء كل فراغات نفسه بحيث يأمن فى حياته شر الصراع النفسى بين قواها المختلفة فذلك أدعى لوجود الانسجام النفسى، والاطمئنان القلبى اللذين هما من ضروريات تكوين الشخصيات الإنسانية المثلى، ولعل ذلك هو المعنى بما يروى عن النبى ﷺ من أن المرء لا يكمل إيمانه حتى يكون هواه فيما أحب الله ورسوله[١] أى أن كمال الايمان لا يكون الا حين يوجد ذلك الانسجام الداخلى بين القلب والعقل، فيجد العقل غايته من الوصول إلى كمال المعرفه، التى هى معرفة الله. ويجد القلب راحته فى ذلك أيضا، فيجد القلب سرورا عندما يفكر العقل، ويجد العقل مطاوعا له، متجها بعاطفة الحب إلى موضوع تفكيره»[٢] ومادامت العقائد الدينية متصلة بكل من العقل والإراده فإنها تحتاج فى وسائل نشرها إلى الاعتماد على كل هذه القوى، وإلى تربيتها، تربية تتناسب مع ماتوجه إليه من اعتقاد.

فالعقيدة الدينية وحى إلهى فى أصلها ولكنه وحى موجه للإنسان، والإنسان مستعد بطبيعته لقبول هذا النحو من الاعتقاد، اذ أن كلا من عقله ووجدانه يدفعه إليه، فهو مدفوع لأن يعتقد، وهو يرد أن يعتقد، وهو يسعى لتحقيق مايريد، وذلك الأصل الانسانى للاعتقاد[٣] «ولا يمكن أن تختلف تلك الوسائل، عن وسائل نشر المبادئ والفكر التى تعتمد على هذه القوى النفسيه»[٤].

ومن هنا نرى أنه لم يكن للإسلام فى الحقيقة من وسائل للدعوة غير تلك الوسائل، التى تضمنها قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٥] وتلك هى الوسائل التى تتفق وطبيعة الإسلام من

(١) سنن النسائى جـ٦ ص٢٥ ط المطبعة المصرية بالازهر وقال: ان الله لا يقبل من الأعمال إلا ماخلص له «منتخب كنز العمال فى هامش مسند الامام أحمد جـ١ ص١٣٥.

(٢) دكتور محمود حب الله/ الحياه الوجدانيه والعقيدة الدينيه ص٢٥٥.

(٣) المرجع السابق/ للدكتور محمود حب الله ص٢٢٣، ٢٧٤.

(٤) نفس المرجع السابق. (٥) سورة النحل جزء من الآية ١٢٥.

ناحية، وتتفق مع طبيعة الناس المدعوين إليه، واختلاف ميولهم من ناحية أخرى، **فالحكمة:** هى المقال المحكم الذى يشهد العقل بصحته، وذلك هو الدليل المنطقى الذى يبين الحق، الذى يؤمن به كل عـقل سليم، ويهـتـدى به كل ذى نظر، وهو يناسب العقلاء وأرباب النظر.

والموعظة الحسنة: هى تلك العبر النافعه والمواعظ الطيبة التى تهدف نحو تربية الوجدان على نحـو لا يلغى العقل والنظر، وبأسلوب تبدو فيه المناصحة، ويظهر منه العطف والمحبة، وذلك أسلوب يناسب الجميع، **والمجادلة بالحسنى:** هى تلك المناظره التى لا يقسو فيها المناظر على خصمه ولا يجابهه بما يكره، بل يتعمد الرفق واللين، ويختار أخف الوجوه وأيسرها، فهو جمع بين المنطق والعاطفه[1] ،إلا أنه يجدر بنا هنا أن نشـير إلى أن الناس بحكم اخـتلافـهم فى الميـول والنزعـات وفى نظم التـربيـات والبيئات، وفى تكوين ثقافاتهم، بل وفى تصوراتهم للأشياء، وتقديرهم لقيامها وثمراتها. بحكم ذلك كله، لابد أن يختلفوا كذلك فى مدى تقبلهم لهذه العقيدة أوتلك، وفى مدى تأثرهم بهذا العامل أو ذاك، فرب عامل مؤثر فى فرد لايتأثر به فرد آخر، ورب جماعه من جماعات، تنفعل بوضع معين أو عامل خاص، لاتنفعل به جماعة أخرى[2].

وأين ما كان تأثر الاعتقاد، فإنه ولاشك يزيد من قوة الأقوياء، بمقدار ما يقاوم من ضعف الضعفاء، كما أنه يساعد على تحقيق موضوعه ووصول المعتقد إلى غـاياته،[3]. وبما أن الاسلام دين عام، وهو دين منطق وحكمة ولا يهدف نحو تربية حاسة واحدة من حواس الانسان، بل نحو قوى الانسان كلها من قلب وعقل وعاطفة. كان من الطبيعى له أن يخاطب كل هذه القوى النفسيه ويهذبها، لتتضامن جميعها فى الايمان وفى تربية الشخصية الانسانية الحقه، وبالتالى فى تكوين الجماعة الانسانية الحقـه، وبالنهـوض بالعـالم جـمـيـعـه، فليست الدعـوة بالحكمـة والموعظة الحسنة، وبالمناظرة الحسنى مقسمة بالتوزيع على الطبقات المختلفة من الناس، فتخص كل طبقة بواحدة منها، ولكنها وسائل قد يحتاج إليها كل فرد من الناس لتحقق له الطمأنينه

(١) دكتور محمود حب الله/ الحياه الوجدانيه والعقيدة الوجدانيه ص٢٨٧.
(٢) دكتور محمد عبد الرحمن بيصار/ المختصر فى العقيدة والاخلاق ص٢١.
(٣) دكتور محمد عبد الرحمن بيصار- المرجع السابق. وراجع الدكتور محمود حب الله- الحياه الوجدانيه والعقيدة الدينيه ص٢٥٦.

القلبيه، وتوجد له الانسجام النفسى، فيقبل عقله وتهدأ نفسه، ويرضى قلبه ويكون مؤمنا بكل قوة من قواه وذلك هو كمال الإيمان[1].

وهكذا ارتبطت العقيدة فى الاسلام بجميع قوى النفس، وذلك يستدعى ثباتها واستقرارها فى النفوس ،فالعقيدة فى الاسلام تتعهد العقل والإراده والوجدان بالتربية، فهى أثر ضرورى لتكميل القوة النظرية فى الانسان، فبالعقيدة يجد العقل ما يشبع نهمه، وبدونها لا يحقق مطامحه العليا، ثم هى فوق ذلك عنصر ضرورى لتكميل قوة الوجدان، كالعواطف النبيله من الحب والشوق والتواضع والحياة والأمل وغيرها، فإذا لم تجد النفس ضالتها المنشوده فى الأشياء ولا فى الناس وجفت ينابيعها فى هذا العالم المتبدل، وجدت فى العقيدة مجالا لا تدرك غايته، ومنهلا لا ينفد معينه وعلى ذلك فالعقيده: قوة ضرورية لتكميل قوة الإراده لتمدها بأعظم البواعث والدوافع وتدعمها بأكبر وسائل المقاومه لعوامل اليأس والقنوط.

وهكذا نرى أن العقيدة الدينية تعبر عن حاجات النفس الانسانية فى مختلف ملكاتها ومظاهرها،[2] فينابيع العقيدة الدينية موجودة فى النفس الإنسانية، حتى أنه كما صح أن يعرف الانسان بأنه حيوان مفكر، أو بأنه حيوان مدنى بطبعه. يسوغ لنا كذلك أن نعرفه بأنه حيوان متدين بفطرته،[3] هذه هى العوامل الثلاثه فى تكوين العقيدة العقل. الإراده. الوجدان.

ومادامت العقيدة الدينية متصلة بكل منهما، فإنها تحتاج فى وسائل نشرها إلى الاعتماد على كل هذه القوى، ولذلك فإننا نجد العقيدة فى الواقع ونفس الامر ليست ثمرة لجانب واحد من الجوانب النفسية، وإنما تتضامن جميعا على تحقيق ذاتية الإنسان وملء كل فراغات نفسه، بما يحقق له كمال الشخصية وكمال العقيدة.

---

(١) لأجل هذا كان من أهم الواجبات على المسلم أن يراعى عواطفه وميوله ليحرص بذلك على أن تكون مع الحق والفضيله، وأن تلتف حول مثل عليا حقيقيه لا زائفه. فيحب مايحبه لله ويكره ما يكرهه لله، بل إن الله لايجعل هذا الأمر معيارا لأخلاق المسلم فحسب. وإنما معيارا لايمانه حين يقول ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ سورة التوبة الآية (٢٤).

(٢) دكتور محمد عبد الله دراز- كتاب الدين ص١٠٠ بتصرف يسير.

(٣) دكتور محمد عبد الله دراز- المرجع السابق- ص١٠٠.

خصائص العقيدة الإسلامية

للعقيدة الإسلامية خصائصها المميزة، التى تفردها عن سائر العقائد، وتجعل لها ذاتيتها الكاملة وطبيعتها الخاصة التى لا تلتبس بعقيدة أخرى، ولاتستمد من تصور آخر، وهذه الخصائص كثيرة ومتنوعة بحسب اعتبارات الباحثين فى هذا الموضوع، ولست هنا بصدد دراسة شاملة لهذه الخصائص، إلا بالقدر الذى تفى به خطتنا فى هذا البحث، ومع ذلك فإنه يمكن تركيزها على النحو التالى:

الربانيـــة ، التــوحــيــد

الفطـــرة ، العقل والوضوح

فالعقيدة الدينية فى أصلها، وعندما وصلت الانسان كانت حقا كلها، حتى لعبت فيها الأهواء الإنسانية، ودخلها كثير من التفكير الإنسانى الذى لم يكن منها، والذى كان ملونا بكثير من الاتجاهات والاعتبارات الشخصية، فتغيرت وتحولت حتى غدت كأنها لا تمت إلى الأصل الأول بسبب، ونحسب أن لسنا فى حاجة إلى هذا التعقيب، إلا لكى نقف على أن العقيدة إما أن تكون سماوية إلهية وهى الدين، وإما أن تكون أرضية من وضع البشر والأولى يقول عنها الدكتور نجيب الكيلانى «ان الدين الإسلامى عقيدة شاملة لتنظيم الحياة وتفسيرها، واستجابة لحاجات النفس الانسانية، ومشعل يضئ الطريق أمام الناس ويبلغ بهم غايات السعادة والاستقرار، ووسيلة لتقويم العلاقات العامة والخاصة»[1].

واذا استعدنا مفهوم العقيدة الذى اصطلحنا عليه من أنها:

– المعتقد النفسى الذى تطمئن إليه النفس، ويمتلئ به القلب.

– واستعدنا كذلك أن العقيدة قوة فى كيان الجماعة تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم، فهى حاجة من حاجات النفس لابد من تلبيتها.

– واذا استعدنا كذلك أن العقيدة الدينية وحى إلهى فى أصلها، ولكن وحى موجه للإنسان، والإنسان مستعد بطبيعته لقبول هذا النحو من الاعتقاد، إذ أن كلا من عقله ووجدانه يدفعه إليه، فهو مدفوع لأن يعتقد، وهو يريد أن يعتقد، وهو يسعى لتحقيق مايريد، وذلك هو الأصل الإنسانى للاعتقاد ، ومن ثم إذا استعدنا ذلك كله كان لنا أن

(١) دكتور نجيب الكيلانى– الاسلامية والمذاهب الأدبية– ص١١ نقلا عن الأدب فى خدمة الحياة والعقيدة ص١٧ للاستاذ عبد الله حمد العويشق.

نقرر مطمئنين أن العقيدة الإسلامية بخصائصها شئ، وتصور المسلمين لها شئ آخر، وقد يتطابقان، وقد يحدث تشويه فى التطابق. والغاية أن يتطابق الفكر والعقيدة، ولذا نرى أن خصائص العقيدة الإسلامية، تتعدد وتتنوع ولكنها تتضام وتتجمع عند خاصية واحدة هى التى تنبثق منها وترجع إليها سائر الخصائص، ولانريد أن نمضى أكثر من ذلك حتى لا يطول بنا القول، ولايبعد المطاف. وحسبنا أن وقفنا على الجملة فى ذلك، وعرفنا الأساس الذى يقوم عليه ذلك المجتمع- فلننظر فى هذه الخاصية الأساسية التى سبقت الإشارة إليها، وفى الخصائص التى تنبثق منها فيما يحتويه موضوعنا.

١ - **الربانية:** هى أولى خصائص العقيدة الاسلامية، ومصدر هذه الخصائص كذلك، فهى تصور اعتقادى موحى به من الله سبحانه وتعالى، وهى العقيدة الوحيدة الباقية بأصلها الربانى وحقيقتها الربانية، فالتصورات الاعتقادية السماوية التى جاءت بها الديانات قبلها، قد دخلها التحريف فبدلت طبيعتها الربانية، وقد أضيفت إلى أصول الكتب المنزلة شروح ومعلومات بشرية، أدمجت فى أصلها فبدلت طبيعتها الربانية وبقيت العقيدة الإسلامية محفوظة الأصول، ولم يلتبس فيها الحق بالباطل[١]. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢] ويقول الأستاذ سيد قطب «ومفرق الطريق بين التصور الفلسفى والتصور الاعتقادى أن التصور الفلسفى ينشأ فى الفكر البشرى من صنع هذا الفكر، لمحاولة تفسير الوجود وعلاقة الانسان به، ولكنه يبقى فى حدود المعرفة الفكرية الباردة. أما التصور الاعتقادى فى عمومه فهو تصور ينبثق فى الضمير ويتفاعل مع المشاعر، ويلتبس بالحياة، فهو وشيجة حية بين الانسان والوجود»[٣]. فهو تصور ربانى صادر من الله للانسان، يقول الدكتور محمود حب الله: «ان العقيدة الدينية وحى إلهى فى أصلها، ولكنه وحى موجه للإنسان، وليس من صنع الانسان، فربانية العقيدة إنما جاءت نتيجة لإرادة الله الذى أراد بها الهدى والنور»[٤]. قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ

(١) الأستاذ سيد قطب- خصائص التصور الاسلامى- ص٥١ بتصرف يسير.
(٢) سورة الحجر الآية (٩).
(١) الأستاذ سيد قطب- المرجع السابق ص٥٢ ط دار الشروق.
(٢) دكتور محمود حب الله- الحياه الوجدانية والعقيدة الدينية- ص٢٢٣.

﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[1] فعقيدة الاسلام نابعة من كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من القرآن الكريم الذى أرسى دعائمها ووضع معالمها، ومن صحيح السنة المبينة للقرآن، فهى لا تتلقى إلا من الوحى الإلهى، وهى قضايا صادقة عن الوجود ورب الوجود، فليست العقيدة من قبيل ما نسميه فى المنطق والبلاغة إنشاء إنما هى من قبيل الخبر، وعلى ذلك فالربانية أولى خصائص العقيدة الاسلامية ومصدر هذه الخصائص لأنها خبر عن القضايا الكبرى فى الوجود، عن الله وأسمائه، وصفاته عن عوالم الغيب. عن مستقبل الحياة والانسان، عن الجزاء وأنواعه وصوره، وغير ذلك مما وراء الطبيعة المشاهدة مما لايدركه الحس، ولا يهتدى إلى تفصيله العقل،[2] وعمل الانسان فيه هو تلقينه وإدراكه والتكيف به، وتطبيق مقتضاياته فى الحياة ليهتدى به ويهدى، وهذه الهداية عطية من الله يشرح لها الصدور[3] حيث قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[4] وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[5].

وعلى ذلك فالمراد من الربانية هى ربانية الغاية والوجهة، وربانية المصدر والمنهج وإذا كانت العقيدة كما بينا سابقا هى مجموعة من قضايا الحق البدهية المسلمة بالعقل والسمع والفطرة، يعقد عليها الإنسان قلبه، ويثنى عليها صدره جازما بصحتها، قاطعا بوجودها وثبوتها،[6] فهى منهج إلهى ،وضعه رب الناس للناس، فليس معنى هذا هو إلغاء دور الانسان أمام هذا المنهج وتنحيته من طريقه، والحكم عليه بالسلبية المطلقة تجاهه، فليس له إلا التلقى والتنفيذ والتسليم،[7] والا فلا تكافؤ بين الوحى الإلهى والعقل الانسانى، كما أنه بهذا المفهوم غير متوافق مع التعريف المصطلح عليه

(١) سورة ابراهيم الآية (١).
(٢) دكتور يوسف القرضاوى الخصائص العامة للاسلام ص٣٨.
(٣) الأستاذ سيد قطب- خصائص التصور الاسلامى- ص٥٢.
(٤) سورة الشورى الآية (٥٢- ٥٣).
(٥) سورة الأنعام من الآية: ١٢٥.
(٦) الأستاذ أبو بكر الجزائرى- عقيدة المؤمن- ص١٩.
(٧) دكتور يوسف القرضاوى- الخصائص العامة للاسلام- ص٥٧.

للعقيدة، وهذا فى الحقيقة غير صحيح[1] فإن القدر الإلهى لم يلغ دور الانسان وفاعليته فى الكون مع وجود قدرة الله – سبحانه وتعالى– فيه ومع انعدام التكافؤ بين الإرادة الالهية والإرادة الإنسانية، وبين قدرة الخالق وقدرة المخلوق، وكذلك لا يلغى الوحى الإلهى دور العقل الانسانى وايجابيته فى فهم الوحى والاستنباط منه، والقياس عليه وملء ماسكت عنه من فراغات تشريعية،[2] فلقد ترك الوحى الإلهى للعقل البشرى قضايا كثيرة فى أمور متعددة.

ففى مجال العقيدة ترك الوحى للعقل أن يهتدى إلى أعظم حقيقتين فى هذا الوجود وهما وجود الله تعالى ووحدانيته، وثبوت الوحى والنبوة والرسالة.

أما الحقيقة الأولى وهي: وجود الله تعالى ووحدانيته– فوجود الله– كما تهتدى إليه الفطرة السليمة. يقتضيه كذلك النظر الصحيح والعقل الصريح.[3] وقد ساق القرآن كثيرا من الآيات والأدلة من النفس والكون على وجود الله سبحانه وتعالى، فالقرآن الكريم يجعل التفكير السليم والنظر الصحيح وسيلة من وسائل الإيمان بالله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[4]. وفى القـرآن

(١) وذلك بمعنى أنه قد خيل لكثير من الناس لأول وهلة أن هناك تناقضا بين اثبات خصيصة «الربانية» وخصيصة «الانسانية» فى وقت واحد فالظاهر والمفهوم، والمفترض فى أذهانهم أن ثبوت أحدهما ينفى الأخرى ويطردها شأن كل متضاضين لايجتمعان. فاذا وجد الله لم يبق مكان للإنسان، وإذا كنا قد قلنا فى خصيصة الربانية أنها تعنى من ناحية ربانية الغاية والوجهه على معنى أن حسن الصلة بالله تعالى، وابتغاء مرضاته هو غاية الانسان وهدف الاسلام، كما تعنى من ناحية أخرى ربانية المصدر والمنهج، على معنى أن الاسلام منهج إلهى صاحبه وشارعه هو الله وحده، وانما الرسول مبلغ عنه، فمعنى هذا أن لا موضع للإنسان. وبذلك نرى أن الإسلام مع ربانيته فى غايته ووجهته هو انسانى أيضا فى الغاية والوجهة ومن هنا نقول أن للانسان مكانا. أى مكان فى غايات الاسلام العليا وأهدافه الكبرى مع تقرير غايته الربانية وابرازها وتثبيتها. إذ لا تنافى بين الغاية الربانية والغاية الإنسانية بل هما متكاملتان. ويمضى الدكتور يوسف القرضاوى لبيان هذا المعنى فيقول: «ان الربانية باعتبارها غاية ووجهة تقتضى اخلاص النية والعمل، والوجهة لله وحده، وجعل رضوانه ومثوبته نهاية المقصد وغاية السعى، وراء كل حركة وكل قول أو عمل ولكن المقصود بهذا كله هو تحرير الانسان، واسعاد الانسان وتكريم الانسان وحماية الانسان والسمو به. فهذه كلها أهداف وغايات يحرص الاسلام عليها ويسعى إليها، ويعمل بكل وسيلة على بلوغها والاجتهاد في تحقيقها. نقلا من الخصائص العامة للاسلام دكتور يوسف القرضاوى ص٥٦ بتصرف مع تقديم وتأخير.

(٢) دكتور يوسف القرضاوى– المرجع السابق ص٥٧ ط الاولى عام ١٩٧٧م.

(٣) دكتور يوسف القرضاوى– المرجع نفسه ص٥٨.

(٤) سورة آل عمران الآية (١٩٠).

الكريم كثير من الأدلة العقلية والآيات الكونية التى ذكرها القرآن الكريم على وحدانية الله تعالى بقوله ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١) وقـوله ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٢).

والحقيقة الثانية: ثبوت الوحى والنبوة والرسالة، فالعقل هو الذى يثبت إمكان ذلك ووقوعـه بالفعل، وأن هذا الشخص المعين رسول من عند الله، فالعقل هو الحكم الأول والأخير فى هذه القضية ولا دخل هنا للاستدلال بالنقل ونصوص الوحى. إذ كيف يستدل بما لم يثبت بعد، ولهذا قال علماء الإسلام «إن العقل أساس النقل، ذلك أن العقل بعد اقتناعه والايمان به سبحانه، يعلم أن من تمام حكمة الحكيم ورحمة الرحيم ألا يترك عباده سدى»(٣) فالمصدر الذى أنشأ هذا التصور هو نفس المصدر الذى خلق الإنسان، فالوحى والرسالة الإلهية أثر أيضا من آثار الله فى الوجود، وأثار الله يجب أن ينسجم بعضها مع بعض فالعقيدة الإسلامية تخاطب الكينونة الإنسانية بكل جوانبها، ومنافذ المعرفة فيها(٤) فمنذ فجر التاريخ عرف الإنسان عقيدته، وأساس العقيدة هو الأساس الذى يظهر فيه كسب الانسان واختياره، لأن العقيدة بذلك تكون ثمرة من ثمار الفكر الانسانى، والفكر هو أسمى مايمتاز به الانسان عن غيره من جميع المخلوقــات ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾(٥) هذا إذن هو مفتاح الدليل على وجود الله تعالى ومعرفته. نعنى أن يسلك الانسان إلى هذا سبيل الانتفاع بحواسه وعقله وتفكيره، والفكر والاختيار صنوان(٦) لأنهما مناط تكليف الإنسان وتكريمه.

(١) سورة الأنبياء الآية من (٢٢). (٢) سورة المؤمنون الآية (٩١).

(٣) دكتور يوسف القرضاوى – الخصائص العامة للاسلام– ص١٨ وما بعدها.

(٤) المرجع السابق. وراجع الاستاذ سيد قطب– خصائص التصور الاسلامى ص١٨.

(٥) سور يونس الآية ١٠١.

(٦) ومعنى ذلك أن العقل لايقف دوره فهو الذى يميز ويوضح للانسان الآيات المعجزة، كما أنه هو الذى يميز بين الآيات المعجزة الحقيقية التى لا تظهر إلا على أيدى رسل الله حقا، وبين مظاهر الخفة والشعوذة التى تظهر على أيدى الدجالين. من أجل ذلك احتكم القرآن فى اثبات صدق رسالة الرسول إلى العقول المفكرة فقال فى صرحة ووضوح ﴿قل إنما اعظكم بواحدة... إلى قوله إن هو إلانذير لكم بين يدى عذاب شديد﴾ سبأ الآية ٤٦. كما أنه ترك للعقل فى مجال التشريع فهم النصوص والأخذ بالأصول والقياس على الفروع واستنباط الأحكام ورعاية القواعد. وبذلك ينطلق المجتمع الاسلامى بعقيدته إلى طاعة الله تعالى. نقلا من الخصائص العامة للاسلام د. القرضاوى ص٦٠.

٢ - **التوحيد:** لقد نزلت عقيدة التوحيد إلى الدنيا، يوم جاءتها والعالم كله يعبد آلهة شتى[١] وأول ماعنيت به رفض هذه الآلهة جميعا، وتقرير أنه ليس هناك إلا إله واحد له مافى السموات وما فى الأرض، وقد قرر القرآن الكريم هذه العقيدة فى آيات كثيرة قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[٢] وقال: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[٣] ولم تكتف عقيدة الاسلام بتقرير هذه الوحدة فى الإله الذى يستحق العبادة، بل بينت لنا أنه وسائر ما سبقه وحدة واحدة، ورسالة من الله للبشرية عامة من لدن آدم حتى محمد- عليهما السلام-[٤] فالتوحيد هو الحقيقة الأساسية فى العقيدة الاسلامية، كما أنه الخاصية البارزة فى كل دين جاء به من عند الله رسول والاسلام على اطلاقه هو ماجاء به كل رسول، والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة ويؤكدها كما سبق فى وحدة العقيدة حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٦] ولكن هذا التوحيد الذى جاء به الرسل جميعا حرف، وبعد عن التوحيد الخالص أما عقيدة الإسلام فقد بقيت عقيدة خالصة ناصعة شاملة، فتوحيد الله تعالى هو أصل الأصول وهو فى حد ذاته قضية واضحة فى ضمير كل مسلم، ولم تكتف عقيدة التوحيد بوحدانية الإله، بل نادت بأحديته،[٧].

ومن هنا كانت عقيدة التوحيد تعنى، وحدانية الإله وأحديته، وبينت كذلك أن العقيدة واحدة وأنها رسالة للبشرية كافة ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٨] ثم أمر

---

(١) فالوثنية التى دان معظم الجزيرة العربية بها أقامت آلهة شتى: فكان لكل قبيلة الهها الخاص بها، فالوثنية كانت سائدة بالتعدد، والثنوية فى فارس جعلت للعالم إلهين اثنين إله الخير وإله للشر، والنصارى الذين حرفوا الانجيل قال فيهم القرآن الكريم ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ نقلا من كتاب الاسلام وحاجة الانسانية اليه. للدكتور محمد يوسف موسى بتصريف يسير المائدة ٧٣.

(٢) سورة الاخلاص الآية (١).
(٣) سورة البقرة الآية (١٦٣).

(٤) دكتور محمد يوسف موسى- الاسلام وحاجة الانسانية اليه ص٣٨ ط الثانية.

(٥) سورة الأعراف الآية (٥٩).
(٦) سورة الأنبياء الآية (٢٥).

(٧) وهى عدم التركيب فى ذات الله سبحانه وتعالى.

(٨) سورة الشورى جزء من الآية (١٣). والآية الثانية جزء من الآية (١٥).

الله رسوله أن يقول ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾[1] وقد تحقق ذلك فى نظر عقيدة الاسلام بكلمة واحدة هى كلمة التوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقد أجمع علماء الاسلام على أن كلمة التوحيد هذه تشتمل على عقائد الاسلام جميعا عند التأمل فيها، فقد جمعت بإيجاز شديد توحيد الله سبحانه، ومايبنغى له من كمال، إذ أن الإله الواحد لابد أن يتصف بجميع صفات الكمال، وأن يتنزه عن كل صفات النقص التى منها المشابهة لخلقه، كما جمعت النبوات والايمان بها، ومايلزم عنها من إيمان بالملائكة والكتب ومـا يتـصل بذلك من السـمـعـيـات التى لا تعرف إلا عن طريق الرسل[2] كما تبين فيما مضى.

وهكذا يمكننا: أن نجد فى كلمة التوحيد التى هى الركن الأول من أركان الإسلام كل عقائد الاسلام، وأصول الإيمان التى كلف الله عباده بها، وهذه الكلمة مستفادة من القرآن الكريم حيث قال سبحانه ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾[3].

والقرآن الكريم يربط بين عقيدة التوحيد وبين مقتضاياتها فى الضمير وفى الحياة، ربطا وثيقا. ويبقى بعد هذا البيان لمعنى التوحيد فى عقيدة الاسلام أن نقول: إنها تنشئ فى القلب والعقل حالة من الانضباط، لا تتأرجح معها الصور ولا تهتز معها القيم، ولا يتميع فيها التصور ولا السلوك،[4] ومنهج الاسلام فى ذلك يعتمد على الحجة العقلية، وذلك بلفت أنظار الناس إلى التفكير فى الكون وتدبر ما فيه من دلائل القدرة وبديع الخلق، فدين الله واحد بأصوله، وأخلاقه وذلك لأن مصدره واحد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[5].

---

(١) أى بالقرآن الكريم. وسائر الكتب الالهية السابقة عليه، غير أن المشركين فرقوا توحيد الألوهية عن توحيد الربوبية، فنراهم يسلمون بتوحيد الربوبية ويقرون بوجود الله خالقا ومالكا كما يقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾لقمان الآية ٢٥ ومع هذا الاقرار يعبدون الأصنام من دون الله، ثم يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ الزمر الآية(٣) وهذا هو الشرك الذى يجب أن تبرأ منه عقيدة التوحيد.

(٢) دكتور مصطفى عبد الواحد- العقيدة الاسلامية- ندوة محاضرات العالم الاسلامى ص١٩٥. بمكة المكرمة عام ١٩٧٢م.

(٣) سورة محمد جزء من الآية ١٩.

(٤) الأستاذ سيد قطب- خصائص التصور الاسلامى- ص٢٢٨.

(٥) سورة الأنبياء الآية (٢٥).

٣- الفطرة والحياة: من الخصائص الأساسية للعقيدة الإسلامية، ومن ثمرات هذه الربانية أنها عقيدة الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها، فعندما دعا الإسلام البشر على ألسنة الرسل جميعا إلى الإيمان بالله والعبودية له وحده، كان لهذه العقيدة صدى فى أعماق فطرة البشر،[1] فهى تغذى ماركب فى الإنسان من قوى، فكل عقيدة لا توحيد فيها فهى مخالفة لفطرة الإنسان ويقول الدكتور محمد يوسف موسى وهو يتحدث عما نحن بصدده: «وحسبنا فى بيان هذا أن نشير إلى أن الإسلام فى ناحية العقيدة لا يأمر إلا بعبادة إله واحد، لم يتخذ ولد ولم يكن له شريك فى الملك، فلم يقل بإلهين إثنين متشاكسين كما قالت «الثنوية» حين زعم دعاتها أن الحياة صراع دائم بين إله الخير وإله الشر، وليس فيه شئ من الأسرار المسيحية مثل «سر التثليث» وسر القربان وتحوله إلى لحم المسيح ودمه، هذه الأسرار التى لا يصل أحد من رجال المسيحية أنفسهم إلى أن يدركها إدراكا عقليا صحيحا، ولهذا يطلبون من أتباعهم الإيمان بها دون محاولة فهمها ولكن هيهات. وفكرة الوساطة فى المسيحية بين الله وعباده فكرة لا يستثغها العقل، ولا يرى لها ضرورة ولا يعرف لها غاية فإنه لا معنى لتوسط رجل من رجال الدين بين الله وبين أحد من الناس، والله هو العليم بكل نفس، ولا حجاب بينه وبين أحد من خلقه.

ولهذا يرى الإسلام أن لكل أحد أن يتجه لله مباشرة بعقله، ويرفع إليه رجاءه بلا وسيط من رجال الدين، وفى هذا جاء فى القرآن الكريم ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[2] .

وكذلك فكرة أن الانسان ولد وجاء إلى هذه الحياه مثقلا بالخطيئه الأصليه التى لا يستطيع منها فكاكا، وتقول بها المسيحية ونعرفها نحن من كتبها التى بين أيدينا، وهم يعنون بها أن الإنسان يولد وعليه وزر خطيئة آدم عليه السلام جده الأعلى حين خالف عن أمر ربه وأكل من الشجرة التى حرم الله قربانها، وبذلك يحملونه وزرا لم يجنه، ويجعلونه يعيش طول حياته وهو رازح تحت أثقال هذه الخطيئة المزعومة، ومن

(١) دكتور السيد رزق الطويل- العقيدة فى الاسلام ص٨٧ ط. المجلس الأعلى للشئون الاسلامية- القاهرة ١٩٨٠.

(٢) سورة البقرة الآية (١٨٦).

ثم يطلبون من الإنسان أن يؤمن بعقيدة «الصلب والفداء» أى صلب المسيح- تفدية للبشر مما لحقهم من هذه الخطيئة الأصلية، وكيف يستطيع عقل الإنسان أن يؤمن بأن «الإله» كما زعموا يتمكن منه أعداؤه، فيصلبونه وهو يستغيث ولا مغيث له، على حين يقول القرآن الكريم كتاب الإسلام عن سيدنا آدم عليه السلام ﴿وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ كما يقرر أنه ليس للإنسان إلا ماسعى، وأنه لاتزر وازرة وزر أخرى كما يقرر من ناحية أخرى أن الإنسان يولد بريئا من كل ذنب أو خطيئة، وأن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، وأن الله تعالى أمره «هو القوى العزيز فلا ينال منه أحد»[1] ولأجل هذا وصف الله دينه بقوله ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾[2].

فالقرآن الكريم يقرر فى بعض آياته، أن الصورة الدينية الصحيحة، هى ما فطر الإنسان عليه، والذى يؤخذ من آيات القرآن الكريم أنها عقيدة التوحيد حيث يقول الله تبارك وتعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[3] ولا تغير فى هذا الدين الذى تعيد الآية التأكيد عليه فى نفس الموضع بأنه الدين القيم، فانحصار الفطرة الأصلية فى الانسان بين الدين فى أول الآية وآخرها تأكيد بأنها هو، ولا تغير فيها أو فيه.

وهذه العقيدة فى تعبير القرآن الكريم فى الفطرة التى خلق عليها كل إنسان، وانحصار الفطرة فى أول الآية وآخرها، الذى تعيد الآية التأكيد عليه فى نفس الموضع كما قلنا تأكيد بأنها لا تتغير، فالإيمان بالله مركوز فى أصل الخلقة الإنسانية، وهذا شأن كل الكائنات التى تعى أن لها ربا تسبحه قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[4] ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[5] وفى مجال الحديث عن الفطرة يطالعنا ماتقرره السنة النبوية المطهرة ووصف النبى ﷺ بقوله فيما يرويه البخارى «كل مولود يولد على الفطرة»[6] وفى هذه النصوص الدينية ندرك أصل

(١) دكتور محمد يوسف موسى- الاسلام وحاجة الانسانية اليه- ص٤٣.
(٢) سورة البقرة الآية (١٣٨).   (٣) سورة الروم الآية (٣٠).
(٤) سورة الاسراء الآية (٤٤).
(٥) سورة النور من الآية (٤١).
(٦) الحديث سبق تخريجه.

الفطرة وكيف غرست فى البشر وماحدث للأرواح الإنسانية قبل وجودها العينى المعين، فى الزمان والمكان والجسم، من إقرار بربوبية الحق، إذ يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾[1].

«وفطرية العقيدة دليل واقعيتها، ورسخوها وتقبل الناس فى يسر لها، كما أنها عنصر هام فى تأثيرها فى الأخلاق والسلوك، وحوار القرآن الكريم للمشركين، وتقديم هذه التساؤلات لهم: ﴿أفى الله شك﴾ ﴿أإله مع الله﴾ ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾. ﴿هذا خلق الله فأورنى ماذا خلق الذين من دونه﴾ كل هذا يؤكد أن لها صدى فى أعماق البشر، يدفعهم إن استقامت فطرهم إلى الجواب السديد،[2] والمفروض أن تكون هذه الحقيقة متذكرة للإنسان، ولعل هذا هو حكمة التعبير بمادة الذكر فى كثير من آيات القرآن الكريم مثل قول الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[3] وقوله ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾[4] والتذكير لا يكون إلا عن أمر منسى، ولهذه الحقيقة خاطبت الرسل أقوامها، وكأنهم يعترفون فى أعماقهم الباطنة بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[5] ويقول الحق لنبيه ﷺ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[6].

وينبغى أن نوضح الفرق بين ما يسمى بالضرورة العقلية فى الإيمان بالله وبين فطرة القلب والبصيرة عليه، فالضرورة العقلية، تحتوى على نوع من الاستدلال العقلى، كذلك الأعرابى الذى قال: «البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، أفلا تدلان على العلى الخبير، أما الإيمان القلبى الفطرى فهو نور يجده الإنسان، فى نفسه ومن سماته الأساسية اليقين التام وعدم التعرض للشبه، وهى تجربة عبر عنها الإمام الغزالى خيرتعبير كما قال ﷺ «العلم

(١) سورة الأعراف الآية (١٧٢).
(٢) دكتور السيد رزق الطويل- العقيدة فى الاسلام- ص٨٨.
(٣) سورة الغاشية الآية (٢١).
(٤) سورة عبس الآية (١١).
(٥) سورة ابراهيم الآية (١٠).
(٦) سورة لقمان جزء من الآية (٢٥).

علمان علم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه، وعلم فى القلب فذلك العلم النافع، وقال: لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا»[1].

والحقيقة أن فى فطرة الإنسان فراغا لايملؤه علم وثقافة، ولا فلسفة. وإنما يملؤه الإيمان بالله جلا وعلا[2] فاعتقاد الأفراد والنوع الإنسانى بأسره فى الخالق، اعتقادا اضطراريا قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده، ومهما صعد الانسان بذاكرته فى تاريخ طفولته، فلا يستطيع أن يحدد الساعة التى حدثت فيها عقيدته بالخالق، تلك العقيدة التى نشأت صامتة، وصار لها أكبر الأثار فى حياته، فقد حدثت هذه العقيدة فى أنفسنا ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا[3]، إن الناظر فى تاريخ الرسلات السماويه، يعلم أن الأمم قد آمنت بوجود الله فطرة منها، وباختصار نقول سواء أكان دليل وجود الله هو حدوث العالم أم إمكانه، أم آيات الله فى الكون، أم آياته فى القرآن الكريم، فإن الإيمان به فطرة مركوزة فى الطبع يقرره العقل ويؤكده النظر السليم[4].

ولابد لنا من أن نتبين الفرق بين الفطرة والتقليد، فالتقليد نوع من التبعية للآخرين، أما الفطرة فنور باطنى موثوق به، يحتوى على ضمان أحقيته من ذاته، وكل الأدلة الخارجية كونية أو عقلية، إنما هى منبهات على هذه الفطرة ،ولا يصرف الإنسان عن عقيدة الفطرة إلا أهواء غالبه أو نزوع الى تقليد الآباء والأجداد ولهذا

(١) الامام الغزالى- احياء علوم الدين- جـ١ ص٦٤.
(٢) دكتور يوسف القرضاوى- الخصائص العامة للاسلام- ص١١.
(٣) دائرة معارف وجدى جـ١ ص٣١٤. نقلا من الدعوة الاسلامية للدكتور أحمد غلوش ص١٦.
(٤) وعلى ذلك يمكن اجمال الأدلة التى أشرنا إليه فيما يأتى:
دليل الحدوث: يعتمد على أن العالم حادث. وكل حادث له محدث. والمحدث للعالم هو الله سبحانه وتعالى. دليل الامكان: يقوم على أن العالم ممكن وكل ممكن يعتمد فى إيجاده على واجب وواجب الوجود هو الله سبحانه وتعالى. دليل الدقة: يعتمد على أن كل مافى الكون دقيق فى صنعه. وهذا يدل على أن له صانعا ويستحيل أن توجده الصدفة وهذا الصانع هو الله سبحانه وتعالى. دليل الغاية ويقوم هذا الدليل على أن كل المخلوقات وجدت لهدف وغاية وذلك لايكون إلا من خالق عالم قادر مريد وهو الله تعالى. دليل العناية: يقوم هذا على أن العناية التامة أحاطت بالانسان. حيث خلقت أجزاء جسمه المختلفة: كل لوظيفته. وسخرت له كل ما فى الكون. وهذه عناية من الله تعالى تدفع إلى الايمان بالله. والدليلان الأولان هما أدلة المتكلمين والفلاسفة. والأدلة الثلاثة مستنبطة من النظر فى آيات الكون وآيات القرآن الكريم وقد أشار اليها ابن رشد فى مناهج الأدلة. نقلا من الدعوة الاسلامية للدكتور أحمد غلوش ص١٩.

كانت مهمة رسل الله كافة فى جميع الأعصار، هى تحويل الناس من عبادة المخلوقات، إلى عبادة الخالق وكان نداؤهم الأول الى أقوامهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1] ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[2] فالكون وما فيه من نظام وإحكام، وتناسق وإبداع، ليس هو وحده الشاهد، وإنما هناك شاهد آخر، وهو الشعور المغروس فى النفس الانسانية، وهو شعور فطرى فطر الله الناس عليه وهو المعبر عنه بالغريزة الدينية، وهو المميز للإنسان عن الحيوان، وقد يغفو هذا الشعور بسبب ما من الأسباب فلا يستيقظ إلا بمثير يبعث على يقظته من ألم ينزل، أو ضر يحيط وإلى هذا تشير الآية الكريمة ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾[3].

فالعقيدة الاسلامية عقيدة الفطرة، تتناسق تعاليمها مع الفطر السليمة البعيدة عن الأهواء ويجد العقل المستنير فى تعاليمها الحق والخير، لأنها منزلة من عند الخالق العالم بما خلق وعلى ذلك فالإسلام لايعتمد فى ثبات تلك العقيدة، وغرس شجرتها فى القلب على مجرد التلقين، ولايريد من الناس أن يعتنقوها عن تقليد، بل لابد من قبولها عن فهم ونظر وبحث وادراك[4] فهى عقيدة الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

وبعد هذا البيان فى كون عقيدة الإسلام هى عقيدة الفطرة والحياة، فقد حدد الإسلام ذلك بآيتين. وأولى الآيتين ذكرت الفطرة بحروفها كما سبق فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[5] فالآية تشير إلى عقيدة الفطرة التى طبع عليها الإنسان، وأيضا ذكرت الآية الثانية الحياة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[6] فاذا جمعنا بين آية الحياة وآية الفطرة وعطفناهما معا على قول الله

---

(١) سورة النحل جزء من الآية ٣٦.
(٢) ذكر القرآن الكريم هذا القول على لسان نوح وصالح وشعيب عليهما السلام. سورة الأعراف الآية (٥٩ - ٨٠).
(٣) سورة يونس من الآية (١٢).
(٤) دكتور مصطفى عبد الواحد- خصائص العقيدة الاسلامية- ندوة محاضرات العالم الاسلامى- ص١٦٦. مكة المكرمة.
(٥) سورة الروم الآية (٣٠).
(٦) سورة الأنفال جزء من الآية (٢٤).

تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[1] يكون المعنى المحصل من مجموع الآيات الثلاث أن الاسلام هو دين الفطرة والحياة.

٤ - العقل والوضوح: لقد افتتح القرآن الكريم خطابه للبشرية بالدعوة إلى القراءة والعلم فقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2] فلقد نزل القرآن الكريم فى بيئة تفشو فيها الأمية، وحمل تبليغه نبى أمى، فكان مقتضى انعكاس البيئة أن تهادن الدعوة الأمية، أوتفلسف الأمر الواقع، وتحاول بشتى الوسائل أن تجد له ما يبرره، لكن هذه الرسالة التى حملها أمى إلى قوم أميين تبدأ آياتها بالقلم والعلم.. ينزل بها الوحى من الله الذى علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم، لقد حفل القرآن الكريم بآيات التدبر والتفكر والتعلم، فالعقيدة فى الاسلام مبنية على أساس من التفكير فى ملكوت السموات والأرض، ولهذا نرى القرآن الكريم فى كثير من آياته يحث الناس على العلم والتعلم والنظر والتفكر[3]، فهى عقيدة واضحة تمام الوضوح، كما أنها يسيرة الإدراك لكل إنسان عاقل مهما كان حظه من العلم والثقافة، وهى بهذا اليسر والوضوح فوق أنها فطرة تناسب الانسان فى كل زمان ومكان، ويجد كل إنسان مخلص للحقيقة أن لها من الدعائم فى عقله وقلبه، مايزيدها ثباتا ورسوخا، فليست قولا معزولا عن العمل، ولكنها تقترن بالعمل الذى ينشأ عنها، ويقوم على أساسها، ولهذا لا تكاد كلمة الإيمان تذكر فى القرآن إلا مقترنة بالعمل الصالح،[4]، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[5] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾[6].

---

(١) سورة آل عمران جزء من الآية (١٩).
(٢) سورة العلق من ١-٥.
(٣) الأستاذ محمد القاسمى- الاسلام كما فهمت ص١٧٣ ط دار الفكر عام ١٩٣٠م.
(٤) دكتور مصطفى عبد الواحد- خصائص العقيدة الاسلامية وآثارها- ندوة المحاضرات ص١٩٥ عام ١٣٩٢. مكة المكرمة عام ١٩٧٢.
(٥) سورة العصر الآية (٢،٣).
(٦) سورة الكهف الآية (١٠٧).

كما أن الإسلام لا يعتمد فى ثبات تلك العقيدة فى القلب على مجرد التلقين كما تبين ذلك، ولايريد من البشر أن يعتنقوها عن تقليد، بل لابد من قبولها عن فهم ونظر وبحث وإدراك، فالإنسان يشعر فى أعماق نفسه بدافع يدفعه إلى البحث والتفكير فى خالقه وخالق الكون، ومن هنا فقد خاطب القرآن الكريم العقول لتنظر وتتدبر فيما يحيط بالانسان وما يقع عليه بصره من عوالم ومخلوقات يقول سبحانه: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1] بل يستحث العقول على التفكير والتأمل فى الإنسان نفسه، وفى الكون كله من حوله قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[2] وهذا مما لايدع شكا فى أن العقيدة الإسلامية توافق العقل السليم ليس ذلك فحسب، بل تعتمد عليه فى رؤية حقائقها وإثبات أدلتها، والإسلام يعتمد فى ذلك على بديهية العقل كما يعتمد على حججه وأدلته، فحين يقول القرآن الكريم ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[3] فإنه يوقظ بذلك بديهية الشعور الإنسانى، ويستثير مكامن الفطرة القويمة وحين يقول ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[4]؟ فإنه يدعو إلى النظر فى الدليل، ويحث على التفكير فى أسرار هذا الوجود، كما أن العقيدة ترتبط بكل ما يحيط بالإنسان من مظاهر الكون والحياة، ذلك لأن الإسلام قد أيقظ فى الإنسان الوعى بما حوله، وأمره أن ينظر إلى المخلوقات جميعا من حوله نظر تدبر وتأمل ليستمع إلى حديثها الصادق، ودلالتها الناطقة يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[5] إن الذى يدبر أمر الكون، ويسير حركته، هو الذى يفصل الآيات وينزلها على رسله، وهذا غاية الوحدة فى أمر الكون، فأيا ما نظر المسلم حوله فإنه يسمع أصداء عقيدته.

(١) سورة يونس جزء من الآية (١٠١).
(٢) سورة الذاريات الآية (٢٠، ٢١).
(٣) سورة ابراهيم جزء من الآية (١٠).
(٤) سورة الطور الآية (٣٥، ٣٦).
(٥) سورة الرعد الآية (٢، ٣).

ومن هنا كان التفكر فى خلق السموات والأرض عبادة، على نحو ما صوره القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

ومن هنا تميزت العقيدة الإسلامية، بارتباطها بالعقل وتعويلها على الحجة والبرهان مما أرسى لها الدعائم الراسخة فى عقل الانسان وقلبه،[2] وعلى ذلك فالعلم لا يتعارض والقرآن الكريم، بل يطابق العلم ويوافق العلوم الطبيعية بهذا المعنى الذى تستقيم به العقيدة، ومن رحمة الله بعباده أن فتح لهم أبواب المعرفة وحثهم على الدخول فيها فلقد كرم القرآن الكريم أولى الفكر والنظر، كما كرم العلماء قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[3] ويقول الرسول ﷺ «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين»[4] ففى كثير من آياته دعوى صريحة إلى التأمل والنظر، والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أنها حضت على ملاحظة تطور الكائنات، وإعمال العقل والفكر فى كل ما يحيط بالإنسان من عوالم عجيبة غريبة تدل دلالة قاطعة على وجود خالق حيكم، كما أنها نفرت من التقليد ونعت على المقلدين سلوكهم بتعطيلهم عقولهم التى وهبهم الله اياها،[5] يقول الأستاذ فتحى عثمان: «والعلم إذا قصد به وجه الله، وامتثال أمره كان عبادة قدسية، فيها تسبيح للخالق الصانع المبدع بكشف الغطاء عن إتقان الصنعة وإحكام الخلق، وفيها حمد الله بنشر نعمه وألائه المودعة فى خلقه والمطمورة فى أعين الناس، وفيها افادة من قوى الكون التى سخرها فاطرها للإنسان.

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٩٠- ١٩١).

(٢) دكتور مصطفى عبد الواحد- خصائص العقيدة الاسلامية- بندوة المحاضرات ص١٩٨. ط مكة المكرمة.

(٣) سورة التوبة الآية (١٢٢).

(٤) وقال: «عليك بالعلم فان العلم خليل المؤمن» الجامع الصغير جـ٢ ص٦٢.

(٥) راجع دكتور محمد عبد السلام- العقائد الايمانية فى العقيدة الاسلامية ص٣٢.

ومن هنا تكون المعرفة الصحيحة بالبارئ المعبود ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فالجانب الإلهى متى استقر فى أعماق الإنسان يستلزم إدراكا صحيحا كما يستلزم إيمانا راشدا من خلال التفكر والنظر،[1] ولذلك أنكر القرآن الكريم أن يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون. الذين يعملون عقولهم والذين يلغونها، فالغافلون هم كالأنعام بل هم أضل قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[2] أما أولوا الألباب الذين يعملون النظر والعقل فقد ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع، وكلها تقترن بحقائق الإسلام الأساسية وقضاياه الكبرى، وتوجيهاته المؤثرة. فهم أصحاب الذكر والفكر والاعتبار، وأدنى الناس إلى الموعظة والإنتفاع بالآيات يقول الله تعال: ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[3] ويقول تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[4] ويقول: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[5].

وتبدو حكمة أولى الألباب، ونفاذ بصيرتهم فى مجال العقيدة، وذلك لما تتسم به العقيدة فى الإسلام من الحكمة والتعقل والرشد، فهم مطالبون بالتقوى لأنهم أكثر الناس إدراكا لهذه المنزلة العالية من منازل الإيمان واليقين يقول تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[6] ويقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[7].

ومن هنا نستوضح ماقرره القرآن الكريم من أن العقيدة فطرة فى النفس، ولا تصلح النفس إلا بهذه الفطرة، ولا يستقيم عقل إلا على أصولها، ويوم يؤمن الإنسان بذلك، يوم يتقدم الفرد وتتقدم الإنسانية وتسمو فوق كل المخلوقات وينطبق عليها ماقررناه من أنها عقيدة العقل والوضوح.

(١) الأستاذ فتحى عثمان- الدين فى موقف الدفاع ص١٩٤ نقلا من كتاب العقائد الايمانية للدكتور محمد عبد السلام ص٣٣.

(٢) سورة الأعراف الآية (١٧٩). (٣) سورة ابراهيم الآية (٥٢). (٤) سورة ص الآية (٢٩).

(٥) سورة البقرة الآية (٢٦٩). (٦) سورة البقرة جزء من الآية (١٩٧).

(٧) سورة المائدة الآية (١٠٠)، وسورة الطلاق الآية (١٠).



الباب الثانى

الأخلاق الإسلامية ومعيارها

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: مفهوم الأخلاق وغايتها وضرورتها.

الفصل الثانى: المعيار الخلقى ومصدره فى الإسلام.



الفصل الأول

مفهوم الأخلاق وغايتها وضرورتها

ويشتمل على العناصر الآتية:

١ - مفهوم الأخلاق.

أ - فى اللغة.

ب - فى الإصطلاح.

حـ- فى الإسلام.

٢ - غايتها.

٣ - ضرورتها.

مفهوم الأخلاق في اللغة:

الأخلاق جمع خُلُق بضم الخاء واللام أى بضمتين كعنق وأعناق أو بضم فسكون كصلب وأصلاب[١].

ووردت كلمة الخُلُق فى القاموس المحيط بمعنى السجية والطبع والمروءة والدين والخلقة بمعنى الفطرة[٢].

وفى لسان العرب الخُلُق: بضم اللام الطبيعة وجمعها أخلاق والخُلُق بضم اللام. والخُلْق بسكون اللام السجية. وقال الخلق بضم اللام وسكونها هو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه وصف لصورة الإنسان الباطنة وهى نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة والحسن والقبيح يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة[٣].

والخُلُق بضم الخاء واللام. فى معجم ألفاظ القرآن الكريم - السجية والطبع وما يجرى عليه المرء من عادة لازمة[٤].

وإذا كانت كتب اللغة تطلق الخلق. بضم اللام وسكونها- على الطبع وعلى السجية فهل هناك فرق بين المدلولين- مدلول الطبع، ومدلول السجية- أم هما من الألفاظ المترادفة؟.

يرى كثير من الباحثين أن هناك فرقاً بينهما. وهو أن الطبع يطلق على الخلق الفطرى، فالطبع بسكون الباء هو الجبلة التى خلق الإنسان عليها، والسجية: تطلق على الخلق الفطرى والمكتسب إذا أصبح عادة، ومما يؤيد ذلك قول حسان بن ثابت:

سجية تلك منهم غير محدثة   إن الخلائق فاعلم شرها البدع[٥]

---

(١) وكلمة «خلق» لاتكسر على غير أفعال أى أنها ليست من الكلمات التى تكسر على صور مختلفة ككلمة جمل مثلا فإنها تجمع جمع تكسير على أجمال وجِمْل، وجِماله، وجمالات وأجامل، وجمائل وجامل. راجع دكتور منصور رجب. تأملات فى فلسفة الاخلاق ص١٢ ط. الثالثة ١٩٦١م.

(٢) المعجم الفلسفى دكتور جميل صليبيا ص٤٩ جـ١ ط دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٨م.

(٣) ابن منظور. لسان العرب جـ٢ ص١٢٤٥ ط دار المعارف بالقاهرة.

(٤) مجمع اللغة العربية. معجم ألفاظ القرآن الكريم جـ١ ص ٣٦١ لجنة التراث.

(٥) راجع دكتور منصور رجب تأملات فى فلسفة الاخلاق ص١٣.

ويقتضينا البحث فى بيان المقام اللغوى أن نعرف معنى الخلق بفتح الخاء وسكون اللام. لنعرف أو لنقف على الارتباط القائم بين الخلق بفتح الخاء وسكون اللام، وبين الخلق بضم الخاء واللام.

فالخلق بالضم هو الصورة الباطنة للإنسان، ويقابله الخلق بالفتح فهو الصورة الظاهرية له، وذلك أن الانسان مركب من جسد يدركه البصر، ومن روح ونفس تدركها البصيرة، ولكل منها هيئة وصورة قائمة به، فصورة الجسد ظاهرة وهى التى تسمى خلقا بفتح الخاء، وصورة النفس باطنة وهى التى تسمى خلقا بالضم.

ولما كانت النفس مهبط الأسرار الإلهية ومناط التكاليف القدسية، كانت أعظم قدرا من الجسد كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[1] حيث نسب الجسد إلى الطين، وأضاف الروح لرب العالمين،[2].

فالخلق الحسن صفة الأنبياء والصديقين، وأيضا فالخلق (بفتح الخاء وسكون اللام) التقدير المستقيم فى إبداع الشئ من غيرأصل. قال تعالى: ﴿خلق السموات والأرض﴾[3] أى أوجدهما وأبدعهما من العدم. بدلالة قوله تعالى: ﴿بديع السموات والأرض﴾[4].

ويستعمل فى إيجاد الشئ من الشئ قال تعالى: ﴿وخلقكم من نفس واحدة﴾[5] وليس الخلق بمعنى الإيجاد والابداع إلا لله تعالى، ولهذا قال تعالى فى الفصل بينه وبين غيره ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾[6].

وخلق الرجل الشئ، قدره يقال: خلق الأديم يخلقه خلقا. قدره لما يريد قبل القطع، وقاسه ليقطع منه مزاده، قال زهير فى قصيدة يمدح هرم بن سنان:

(١) سورة ص الآية (٧١، ٧٢).
(٢) راجع الشيخ عبد المجيد اللبان كتاب الأخلاق الدينية الاسلامية- ص٣ مكتبة الأزهر. وراجع مختصر منهاج القاصدين للامام أحمد بن محمد عبد الرحمن بن قدامى المقدسى ص١٥١.
(٣) سورة النحل جزء من الآية (٣) وراجع الفيروز ابادى- بصائر ذوى التمييز- جـ٢ ص٥٦٦ ط. المجلس الأعلى للشئون الاسلامية القاهرة.
(٤) سورة البقرة الآية (١١٧) ووردت فى سورة الأنعام الآية (١٠١).
(٥) سورة الزمر الآية (٦). (٦) سورة النحل الآية (١٧).

ولأنت تفـرى مـا خلقت ويعـــ ض القـوم يخلق ثم لايفرى[١]

يقول: «أنت إذا قدرت أمرا قطعته وأمضيته، وغيرك يقدر مالاً يقطعه لأنه ليس بماضى العزم، وأنت مضاء على ما عزمت عليه»[٢].

والخلق فى معنى المخلوق، والخلق والخلق فى الأصل واحد[٣]. فالخلق بالضم ذو علاقة وثيقة بمعنى الخلق بالفتح، وذلك لأنه فى أصله مصاحب لأصل الخلقة، يوجد مع المخلوق بوجـوده، ثم يأخـذ فى النمـو والتطور وفـقا لنمـو صـاحبـه وتطوره، فكل استقامة فى سلوك المخلوق وفق العقيدة الصحيحة تصاحبها استقامة الخلق قال تعالى: ﴿فـادع واسـتـقم كـمـا أُمـرت﴾[٤] وكل انحراف أو فساد بالبعد عن العقيدة الصحيحة يصاحبه فساد فى ذلك السلوك مؤد إلى مثله فى الخلق، وما أدق اشارة المتنبى إلى ذلك فى قوله:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصـــدق مايعتـــاده مـن تـوهـــم

فنجد الصلة بين الخلق والخلق من حيث التقدير الغائى، فوجود الخلق فى الكائن البـشرى يسـتـهدف أصـلا تزويده بالقـانون الذى يعنيه على مـعرفـة الخير والأفـضل ومايقابلهما.

وعلى ضـوء مـاسبق نسـتطيع أن نـقرر أن هنـاك اتصـالا بين المعنيين فـخلق الله تعـالى للأشـيـاء صـادر عن حكمتـه الأزلية، التى قـدرت لكل شئ مـهـمـا دق أو جل موضعه المناسب ووظيفته التى من أجلها وجد، فالخلق الأول إبداع مصحوب بالتقدير، والخلق الثانى محاولة إيجاد جديد من العمل لتحقيق غاية معينة[٥]. واذا كـان الخلق بضم الخـاء واللام والخلق بفح الخـاء وسكون اللام أصلهمـا واحـد، فـقـد خص الخلق بالهيئات والاشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة[٦].

---

(١) زهير بن أبى سلمى- الديوان شرح تعلب- ص٩٤ ط. الأولى.

(٢) ابن منظور- لسان العرب- جـ٣ ص١٢٤٥ ط. دار المعارف القاهرة.

(٣) سورة الشورى جزء من الآية ١٥

(٤) الفيروز ابادى- بصائر ذوى التمييز- جـ٢ ص٥٦٧ ط. المجلس الأعلى.

(٥) والفرق بين الخلقين: صدور الأول من المطلق الذى لايعزب عن علمه شئ، وصدور الثانى من المحدود- الحادث- الذى لايستطيع الاحاطة بكل شئ- راجع الشيخ محمد المرزوق (الأخلاق بين الفلسفة والاسلام- ص٣٢١ ندوة المحاضرات- مكة المكرمة- السعودية.

(٦) الفيروز أبادى- بصائر ذوى التمييز فى ألطاف الكتاب العزيز- جـ٢ ص٥٦٧ ط. الملجس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة.

ومن هذا البيان اللغوى للأخلاق نستطيع بيان أمرين هامين:

أولهما: أن الخلق يدل على الصفات الفطرية فى خلقة الإنسان، وقد يدل على الصفات التى اكتسبت بالإرادة.

ثانيهما: أن للأخلاق جانبا نفسيا باطنيا، وجانبا سلوكيا ظاهريا.

مفهوم الأخلاق فى الاصطلاح:

اختلف فلاسفة الأخلاق فى تعريفهم للخلق ولم يتفقوا على تعريف موحد. وانما تنوعت تعريفاتهم للخلق، تبعا لاختلاف طبيعته، والتعريفات الاصطلاحية قريبة المعنى من المفهوم اللغوى، إلا أنها تعددت نظرا لاختلاف مفهوم الأخلاق بين الاتجاهات والمذاهب المختلفة، وتنحصر اختلافاتهم فى إتجاهين إتجاه الإسلاميين وإتجاه الفلاسفة المحدثين[1].

تعريفات الاسلاميين للخلق:

عرف ابن مسكويه[2] الخلق فقال: «الأخلاق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالإنسان الذى يحركه أدنى شئ نحو الغضب، ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب وربما كان مبدأه، بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أولا فأول حتى يصير ملكة وخلقا «وعلينا قبل أن نتناول مفهوم الخلق عنده بالبيان والتعليق أن نشير إلى عدة أمور ينبغى ألا تغيب عن بالنا وهى:

الأمر الأول:

أن ابن مسكويه فيلسوف يعلى من شأن العقل إلى حد كبير، وهو فى إعلائه لقدر العقل قد تأثر بفلاسفة اليونان، وبوجه خاص أرسطو الذى أخذ يردد بعض آرائه كثيرا،

(١) راجع دكتور عثمان عبد المنعم عيش- الظاهرة الخلقية- ص٦٣- ط. الأولى ١٩٧٤.

(٢) أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه. ولد عام ٣٣٠هـ وتوفى عام ٤٢٠ تقريبا. وقد تولى بعض المناصب القريبة من الحكام مثل خزانته للملك عضد الدولة وله مناظرات وتصنيفات مثل كتاب أنس الفريد، وتجارب الأمم وكذلك الفوز الكبير والصغير، ومن أهم كتبه الاخلاقية. تهذيب الأخلاق وقد ذكر الشهرزورى ان اسم الكتاب الاصلى هو «الطهارة» وفى كلام مسكويه ما يدل على صحة هذه التسمية نقلا من مدخل إلى الأخلاق للدكتور كمال جعفر. ص١١٩ وله مؤلفات أخرى فى الاخلاق مثل كتاب السعادة وغيرها.

وهذا لايمنع من أنه أفاد من أفلاطون ونقل عنه، نريد أن نقول إن معالجة ابن مسكويه للمشكلة الأخلاقية بها مسحة يونانية لاتتغيب عنا، وليس معنى هذا أن كل ما قاله يرد إلى فلاسفة اليونان[1].

الأمر الثانى:

أن ابن مسكويه حرص على التمسك بالشريعة فى تربية الأخلاق وأشار إلى أهمية الأوامر الإلهية وعظم أمر الدين فى هدى الانسان إلى الطريق المستقيم وفى تقريبه إلى الحكمة البالغة. ليس هذا فحسب بل إنه جعل الدين أساسا ينبغى أن نعتمد عليه فى تربيتنا للنشئ، فالدين حصن ينبغى أن نحصن به الشباب ومن حيث العلاقة الوثيقة بين الدين والأخلاق فان كلا منهما هو صلاح الانسان وسعادته[2].

الأمر الثالث:

أن الغاية من الفعل الأخلاقى عند ابن مسكويه هى السعادة القصوى أو الخير التام، أو بلوغ الكمال الأقصى فهو يرى أن الخير كل الخير فى الوصول إلى الله والعمل بكتابه ومشاهدة وجهه الكريم، وهو بهذا يكاد يلتقى مع الصوفية[3].

الأمر الرابع:

أن – ابن مسكويه– تبعا لثقافة عصر– اعتقد بوجود مراكز قوى للنفس فنجد أنه جعل الفكرة فى الدماغ، والشهوة فى البطن، ثم جعل الغضب فى القلب. وهذا الرأى يمكن بأن يؤدى إلى تجزئة النفس أو انقسامها وهو أمر نرفضه. فالنفس واحدة ولها ثلاث قوى ولكل قوة جزء تحتله فى الانسان، وحديثه عن النفس وقواها لايخرج عما آثر عن أفلاطون وأرسطو[4].

---

(١) راجع دكتور كمال جعفر – مدخل الاخلاق– ص١٢٦ وراجع الدكتور محمد يوسف موسى تاريخ الأخلاق– ص١٨٦ ط الثانية عام ١٩٤٣م.

(٢) راجع ابن مسكويه تهذيب الأخلاق ص١٥٣، ص١٤٣، وراجع دكتور كمال جعفر مدخل الى الأخلاق ص١٢٨.

(٣) راجع ابن مسكويه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص٣٣، وراجع دكتور كمال جعفر المرجع السابق ص١٢٧.

(٤) ابن مسكويه تهذيب الأخلاق ص٦٢، وراجع الدكتور كمال جعفر مدخل إلى الأخلاق ص١٢١.

بعد توضيح هذه الأمور العامة عن ابن مسكويه نبدأ الآن بتناول موقفه من تعريف الخلق. ونستهل حديثنا معه بهذا التساؤل الذى بدأ به هو بحث ومناقشة المشكلة الأخلاقية: هل الأخلاق فطرية أم مكتسبة؟

بهذا التساؤل يبدأ ابن مسكويه بحث ومناقشة المشكلة الخلقية، ولما كان التجريبيون يميلون بوجه عام إلى القول بأن الأخلاق مكتسبة وليست فطرية طبقا لاتجاههم العام بينهما يقول المثاليون بفطرية الأخلاق وأن الإنسان يستطيع أن يميز بطبيعته بين الخير والشر أدرك ابن مسكويه هذين الموقفين ووقف عليهما وقبل أن يوضح رأيه عرف أولا الخلق.

فقال: هو صفة أو خاصة من خواص النفس البشرية وبواسطة هذه الخاصة نستطيع أن نميز بين الخير والشر، وبين ماينبغى فعله وما لاينبغى فعله وهذه الخاصة قد حار الناس فى شأنها من حيث وجودها وهناك من قال بفطريتها ومن قال بأنها مكتسبة، ولقد أدرك ابن مسكويه بمهارة النتائج المترتبة على كلا الموقفين[1]: فلو أنه قال بأن هذا الخلق فطرى فى الإنسان فإن يسلم بوجود أناس أخيار بالفطرة وآخرين أشرار بالفطرة، ويترتب على ذلك أننا لا نلوم الخير على فعل الخير، والشرير على ارتكابه فعل الشر وهذا معناه عدم مساءلة هذا عن خلقه الحميد وذاك عن خلقه السيئ، كما أن هذا الرأى يؤدى إلى إبطال قوة التميز والعقل، وترك الناس همجا دون ضابط[2].

وأما إذا أخذنا بالاتجاه الآخر القائل بأن الخلق أمر مكتسب، فإن ابن مسكويه وإن كان يميل إلى مثل هذا الرأى إلا أنه لا يقر به كلية. بمعنى أنه لايقول بأن الخلق كله مكتسب.

وذلك لأنه يرى أن المرئ لايمكن أن يكتسب شيئا أو يتعلم شيئا مالم يكن لدى هذا المرئ استعداد نحو تعلم هذا واستعداد نحو الامتناع عن ذاك، ورأيه أن من يجحد هذا الرأى كمن يحرث فى بحر من الماء.

---

(٢) راجع ابن مسكويه- تهذيب الأخلاق ص٤٠.
(١) راجع ابن مسكوية- تهذيب الأخلاق ص٤١.

إن ابن مسكويه يرى أن المرء مطبوع على قبول الأخلاق واكتسابها، أى أن التعليم باعتباره استعدادا موجودا لدى كل الناس، فليس هناك عبيد بالفطرة أو سادة بالفطرة . ليس ثمة خير فطرى أو شر فطرى، صحيح أن هناك من ينفعل من الناس انفعالا سريعا لأتفه الأسباب، وهناك من يسر منهم لأتفه الأمور . وهناك من يحزن على أمر قد لايحزن عليه غيره فهذه أمزجة فطرية يولد بها الناس ولكننا نستطيع أن نهذب هذه الأمزجة وأن نوجهها توجيها سليما وأن نكسبها من خلال العقل مبادئ وقيما بحيث توجه انفعالها نحو صيانة هذه المبادئ ومراعاتها، فهو يرى أننا نستطيع بالتأديب والتعليم أن نكتسب المبادئ والمعايير الخلقية، وليس هناك فى فطرة الإنسان مايمنعه من هذا التعليم والاكتساب[1] .

يقول: ابن مسكويه فى صيغة قياس منطقى: إن كل خلق يمكن تغييره، ولاشئ مما يمكن تغيره هو بالطبع . فإذا لا خلق ولا واحد منه بالطبع[2] . أى أنه يرى أن تغير أخلاق الإنسان وسلوكه واكتسابه للخير والشر دليل قاطع على أن الأخلاق ليست فطرية وليست فى طبع الإنسان لأن الفطرة والطبع أمور لا تتغير ولا تتبدل بل هى موجودة وثابتة دائما فى الإنسان.

فأخلاق المرء مادامت تتغير وتتبدل فإن ذلك دليل على أنها مكتسبة وليست فطرية، فاختلاف الناس إذا ليس فى قبول هذه الأخلاق أو تلك، ولكن فى درجة استعداد الواحد منهم لقبول هذا الخلق أو ذاك فالناس ليسوا على درجة واحدة فى قبول الأخلاق[3] .

فالخلق عند ابن مسكويه على هذا البيان صورة أو حالة للنفس حين تصدر عنها أفعالها فى سهولة ويسر، سواء كان مصدر هذا الخلق الطبع أو التكرار حتى يصير عادة، إلا أنه يرد على هذا التعريف أن للنفس قوى ووظائف متعددة وكل تلك القوى تتقلب بينها النفس الإنسانية وتصدر عنها آثارها المختلفة فى سهولة ويسر، فهل يسوغ لنا أن نسمى شيئا من هذه الآثار خلقا؟[4] .

(١) راجع دكتور محمد يوسف موسى مباحث فى فلسفة الأخلاق ص٦٢، وراجع ابن مسكويه تهذيب الأخلاق ص٤٣ .

(٢) راجع ابن مسكويه تهذيب الأخلاق ص٤٣ .

(٣) المرجع السابق ص٤٤ .

(٤) راجع دكتور محمد عبد الله دراز- كلمات فى مبادئ علم الاخلاق- ص٤ .

فالخلق صفة لجانب معين من جوانب النفس وأثر من آثاره، يتميز عن جوانب النفس وآثارها الأخرى، ذلك الجانب هو الاعتقاد، والإرادة.

فالعقيدة قوة دافعة فى النفس وفى القلب، تدفع صاحبها دفعا إلى غايته، وتجعله لا يبالى بالعقبات فى طريقه، والعقيدة أساس التفكير الدينى وأساس الإصلاح الخلقى[1].

ولكن هل ما يصدر عن الإرادة يسمى خلقا؟.

وإنما الخلق هو السلوك الإرادى الذى يتضمن معتقدا وحكما، وهذا المعتقد إنما يعطى الفعل قوة تميزة عن أنماط للسلوك الأخرى التى تصدر عن الإرادة.

فالخلق إذن هو الفعل الذى يتضمن فى داخله عنصرين: الإرادة، والاعتقاد.

ومن هذا يتبين أن تعريف ابن مسكويه للحقيقة الخلقية غير دقيق حيث إنه لم يشتمل على الجانبين معا فقد اشتمل على العنصر الأول بشكل عام، ولم يشتمل على العنصر الثانى.

وقد عرف الجرجانى الخلق: «بأنه عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسير من غير حاجة إلى فكر وروية[2].

فالإنسان مركب من جسد ونفس، وكما أن للجسم هيئته الظاهرة التى توصف بالحسن أو القبح تبعا لهيئة الجسد كذلك للنفس هيئتها الداخلية التى توصف أيضا بالحسن أو القبح تبعا لما تتصف به من أخلاق.

ومن هنا يقال فلان حسن الخلق والخلق. فالخلق صورة الجسم الظاهرة والخُلق صورة النفس الباطنة. فالذى يوصف بالحسن والقبح هى الهيئة على حسب مايصدر عنها من فعل، فاذا حدث أن بعض النفوس يحلو لها الانفاق ولكن ليس البذل عادتها وقد أرغمت عليه، ولم يتكرر أو تكرر ولم يكن راسخا فى النفس لايقال ان هذه النفس خلقها الكرم والسخاء مالم يتكرر ويصبح غريزة وعادة، ويصدر ذلك بسهولة ويسر بدون تكلف فربما يكون الإنسان كريما ولكنه يمنعه ضيق ذات اليد فهذا يكون خلقه الكرم ولو لم ينفق، بخلاف الذى ينفق مكرها أو للرياء فلايسمى خلقه الكرم أو السخاء.

(٤) راجع دكتور ابراهيم سلامة- كتاب خلق ودين ص٤٦ ط الأولى، وراجع دكتور منصور رجب تأملات فى فلسفة الاخلاق ص٣٠٩.

(١) راجع الدكتور منصور رجب- تأملات فى فلسفة الاخلاق ص٩١.

ولذلك يقول الفيلسوف اليونانى -أفلاطون- «أن الفضيلة لا تتحقق بعمل فاضل واحد ولكن لتكون حقيقة ينبغى أن تكون نتيجة لماضى عملى طويل»[١] .

أما الإمام الغزالى فقد عرف الخلق تعريفا يتضمن العنصريين مع بيان معياره واذا كنا نجد ابن مسكويه مثلا يستشهد كثيرا بكلام فلاسفة اليونان كأرسطو وجالينوس ويتحدث عن الرواقيين ومن إليهم من الحكماء فإننا نجد الغزالى يؤيد أبحاثه بكلام ابن أدهم والتسترى والمحاسبى ومن إليهم من الصوفية، وربما نقل ماروى عن عيسى وموسى وداود ومن إليهم من الانبياء»[٢] .

ومن هنا فقد عرف الخلق بأنه «عبارة عن هيئة فى النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث يصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا. وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا[٣] .

«ومعنى ذلك أن الأخلاق انفعال بحركة الباطن وإرادته، وهذا ما يجعلنا نربط الأخلاق بالشريعة والعقيدة معا[٤] .

ولذا قلنا: إنها هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لايقال خلقه السخاء، مالم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ، وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية، لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لايقال خلقه السخاء والحلم. بهذا التعريف الجامع يكون الإمام الغزالى قد ميز الحقيقة الخلقية عما عداها من هيئات النفس الآخرى، فهو يرى أن السلوك المتكلف لايسمى خلقا حتى يصير عادة وحالة للنفس راسخة، كما أن الأفعال التى لا يترتب على فعلها مدح ولاذم تخرج عن نطاق الأخلاق فلا يقال لصاحبها أنه خير أو شرير، وبذلك يتبين الفرق بين الخلق والسلوك. فالخلق سلوك مقوم بمعيار الخير والشر، كما أن السلوك لايكون خلقا إلا حين يصير عادة يصدر عن صاحبه فى يسر

(١) مقدمة الأخلاق لأرسطو ترجمة الاستاذ أحمد لطفى السيد ص٥١ .
(٢) الدكتور زكى مبارك الأخلاق عند الغزالى ص١١٣ .
(٣) الأمام الغزالى- احياء علوم الدين جـ٣ ص٥٢ .
(٤) الدكتور أحمد غلوش- الدعوة الاسلامية ص٢٦ .

وســهـولة[١] فالذى يصدق مرة لايوصف بأن خلقه الصدق، وبالمثل من يكذب مرة لايقال أن خلقه الكذب بل العبرة بالاستمرار فى الفعل حتى يصير طابعا عاما لسلوكه.

وهكذا تتميز الحقيقة الخلقية عما عاداها من الصفات النفسية[٢].

ولذلك فقد عبر عنها بالهيئة وهى لا تكون خلقا إلا إذا تحقق لها امران:

أ- أن تكون راسخة فى النفس أى ثابتة ودائمة.

ب- أن يصدر عنها الفعل بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية.

وبعد هذا البيان نستطيع أن نقول إنه ليس بين هذه التعريفات خلاف فى معناها وان اختلفت الألفاظ فيما بينها قليلا[٣].

وتكاد تجمع على ان الخلق ليس إلا كيفية نفسية ثابتة، تصدر عنها أعمال صاحبها فى جانب الخير أو جانب الشر صدورا سهلا بغير معاناه نفسية أو فكرية وهى فى جملتها تعريفات مقبولة إذا حملت بعض القيود فيها على وجهها الصحيح، فالفضيلة كما قلنا لاتتحقق بعمل فاضل واحد ولكن لتكون حقيقة ينبغى أن تكون نتيجة لماضى عملى طويل[٤]. وبهذا ترسخ فى النفس تلك الهيئة التى نسميها خلقا.

تعريف الخلق عند الفلاسفة المحدثين:

عرف الفلاسفة المحدثون الخلق بأنه: «عادة الإرادة»[٥] فيقول «كانت» إن الخلق: «نتيجة مجموعة أعمال الإرادة الحرة»[٦] وعند البعض الآخر الخلق: «هو تغليب ميل من الميول على غيره باستمرار»[٧].

فتعريف الفلاسفة المحدثين للخلق يختلف باختلاف وجهات نظر المعرفين. فمثلا تعريف «كانت» للخلق بأنه نتيجة مجموعة أعمال- الإرادة قائم على أن الإرادة الصالحة هى الشئ الصالح فى هذه الحياة من غير قيد ولا شرط ومعنى ذلك أن أعمال

(١) راجع دكتور محمد عبد الله دراز- كلمات فى مبادئ علم الأخلاق ص٤.
(٢) المرجع السابق ص٥.
(٣) راجع دكتور محمد يوسف موسى مباحث فى فلسفة الأخلاق ص٥٩.
(٤) مقدمة الأخلاق لارسطو ص٥٠ وراجع دكتور منصور رجب تأملات فى فلسفة الأخلاق ص٩٢.
(٥) دكتور محمد يوسف موسى المرجع السابق ص٥٤.
(٦) دكتور عثمان عبد المنعم عيش- الظاهرة الخلقية ص٦٥.
(٧) دكتور محمد يوسف موسى- المرجع السابق ص٥٥.

الإنسان التى يقوم بها عن حرية واختيار هى التى تكون فى النهاية حالته الخلقية أى تكون خلقا[1] لكن هذا التعريف إذا كان قد أظهر دور الإرادة فى تكوين الخلق فإنه فى نفس الوقت موضع الاعتراض، وقاصر عن بيان الحقيقة الخلقية.

وأيضا فى التعريفات الأخرى التى يقترب بها أصحابها من هذا الاتجاه أو ذاك فالخلق عند بعضهم هو «عادة الإرادة» وعند البعض الآخر هو تغليب ميل من الميول على غيره باستمرار «والملاحظ أن- التعريف الثانى قد روعى فيه جانب نشأة الخلق وكيفية تكوينه أما التعريف الأول فملاحظ فيه تأصيل الخلق وثباته أمام نوازع النفس.

ومعنى ذلك أن الإنسان إذا اعتاد عملا من أعمال الإرادة، أصبحت تلك العادة خلقا له، وأنه إذا تغلب عليه ميل من الميول حتى أصبح هيئة نفسية ثابتة أصبح ذلك الميل خلقا له كذلك، فمرد الخلق إلى العادة وثباتها[2]. واذا لاحظنا المفـهـوم من التعريفين معا انتهينا إلى أن الخلق هو نهاية العلمليات النفسية التى يمر بها الإنسان حتى تصبح شيئا عاديا له. واذا كان تعريف ابن مسكويه والإمام الغزالى يلاحظ فيه الأساس النفسى للسلوك المقوم بمعيار الخير والشر، فإن تعريفات الفلاسفة المحدثين يلاحظ فيها الجانب النظرى للأخلاق ولذلك فقد اختلفت تعريفاتهم باختلاف وجهات نظر أصحابها فى نشأة الأخلاق وغايتها. فمجرد تحصيل قواعد العلم لايجعل الإنسان ذا أخلاق حسنة، فلو علم الإنسان الشر والخير، وعرف الواجب والواجبات دون أن يكون لهذه المعرفة أثر فى سلوكه لايسمى متخلقا. لأن التخلق تلبس بالفعل بالأخلاق الفاضلة، لا مجرد الدراسة النظرية وبعد هذا البيان ندرك الصلة بين المعنى اللغوى «السجية والطبيعة والدين «والمعنى الاصطلاحى الذى سبق تفصيله» وأنه نهاية العلميات النفسية التى يمر بها الإنسان حتى تصبح شيئا عاديا له».

(٥) دكتور عثمان عبد المنعم عيش- الظاهرة الخلقية ص١٥.
(١) دكتور عثمان عبد المنعم عيش- الظاهرة الخلقية ص٦٦.

مفهوم الأخلاق الاسلامية:

بعد هذا البيان لمفهوم الأخلاق فى اللغة واصطلاح الفلاسفة ننتقل إلى تحديد مفهوم الأخلاق الاسلامية[1].

والباحث يرى أن كلمة خلق وردت بضم الخاء واللام فى القرآن الكريم مرتين قال تعالى: ﴿وإنك لا على خلق عظيم﴾[2] قال ابن عباس رضى الله عنهما لعلى دين عظيم ولادين أحب إلىّ ولا أرضى عندى منه وهو دين الإسلام. فقد فسره ابن عباس بالدين كما فسره بالسجية[3]. قال تعالى: ﴿إن هذا إلا خلق الأولين﴾[4].

فالأولى وردت فى مقام المدح، والثانية فى وصف مادرج عليه الأولون، كما أن الأولى جاءت معيارا لما ينبغى أن يكون والثانية أتت وصفا لما هو كائن[5].

وفى الصحيحين أن هشام بن حكيم سأل عائشة عن خلق سول الله ﷺ فقالت كان خلقه القرآن[6].

وعلى ذلك فالأخلاق بمعنى الدين عبارة عن نظام من العمل غايته تحقيق الحياة الطيبة، ونمط من السلوك مع النفس والغير، من حيث ماينبغى أن يكون عليه هذا السلوك، كما أنها ليست جزءا من الدين فحسب بل جوهره وروحه لأن الدين فى مضمونه عبارة عن الواجبات التى يلتزم بها الإنسان نحو الله، ونحو نفسه وغيره من المخلوقات، وما ينبغى أن يكون لا يؤخذ إلا من الوحى فقد جاءنا من الله رب العالمين لا من أحد من الناس أجمعين ،ولما كان الإسلام وهو الدين الحق الذى قام على دعائم العقيدة والشريعة والأخلاق دون فصل بينهما قد أقام منهجا أخلاقيا لبناء الإنسان السوى،[7].

---

(١) نقول الأخلاق الاسلامية ولا نقول الأخلاق فى الاسلام، لأنه من الأولى عدم اعتبار الأخلاق أحد أجزاء الاسلام- فالدين لاقيام له دون أخلاق يتخلق بها المتدينون. فالأخلاق هى جوهر الاسلام، وهى المحور الذى ترتكز عليه إنسانية الإنسان.

(٢) سورة القلم الآية (٤).

(٣) أما بمعنى السجية فتعنى تأكيد الغاية من الفعل وترسيخه فى السلوك الانسانى حتى يصبح عادة، ويصدر عن الانسان من غير تكلف ولا مراجعة حتى يكون الخلق للصورة الباطنة أشبه فى استمراره ورسوخه بالخلق للصورة الظاهرة.

(٤) سورة الشعراء الآية (١٣٧).

(٥) راجع دكتور منصور رجب- تأملات فى فلسفة الأخلاق ص٣٠٤ ط الثالثة.

(٦) مسند الامام أحمد بن حنبل جـ٦ ص١٨٨ ط صادر بيروت، وأخرجه مسلم فى كتاب المسافرين بالاجماع فى حديث طويل جـ٢ ص١٦٩ ط صبيح.

(٧) راجع الاستاذ أنور الجندى- مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق ص٥٥ ط الأولى دار الاعتصام عام ١٩٧٧.

فالأخلاق الإسلامية عبارة عن قوة ذاتية تتمثل فى المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الانسانى التى يحددها الوحى الإلهى فهى إذن قوة مركوزة فى فطرة الإنسان تستمد مقوماتها من مصدر أعلى لتنظيم حياته على نحو يحقق الغاية من وجوده.

والإسلام عقيدةَ وشريعةً تنظيم إلهى لسلوك الإنسان وأعماله، فمن الطبيعى أن يكون أساس هذا التنظيم الإلهى شامل لدخائل النفوس ملبيا لحاجاتها معالجا لما بداخلها، ومن جهة أخرى فكما يكون شاملا للنفوس يكون ملائما لحاجات النفوس فى أى زمان كان وفى أى مكان وجد، وذلك أمر بديهى طالما كان الوحى الإلهى الثابت المحقق بتلك النفوس على اختلاف اتجاهاتها هو الأساس لهذه القوة.

فالأخلاق فى مفهوم الدين الحق المنزل من عند الله ضوابط وكوابح لتزكية النفس وترويض الغرائز وتصعيدها والسمو بها[1] قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[2].

ومن هنا ندرك أن للأخلاق الاسلامية جانبين:

الجانب الأول:

إلهى من حيث أنه مراد الله، إذ أنه يجب أن يتبع الانسان فى هذه الحياة نظاما محددا، ولذلك جاء الوحى بصورة هذا النظام وطلب من الإنسان أن يشترك فى تطبيقة بقلبه وروحه، وبإرادته الخيرة الخالصة لوجه الله مع سلوكه الظاهرى[3].

ومعنى هذا أن الأخلاق الاسلامية لن تكون والحالة هذه مرهونة بزمان معين أومكان معين، ولن تقتصر ثمرتها على بعض الأمم أو على بعض الأزمنة، بل هى عامة شاملة مصدرها الوحى الإلهى[4].

الجانب الثانى:

جانب إنسانى وعلى ذلك فللانسان مجهود ودخل فى تحديد هذا النظام من الناحية العملية.

(١) راجع الاستاذ أنو الجندى مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق ص٧٣ ط الاولى- الاعتصام عام ١٩٧٧م.	(٢) سورة الشمس الآية (١).

(٣) راجع دكتور مقداد يلجن الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام ص٤٧.

(٤) هذا بخلاف الأخلاق الوضعية الفلسفية فمصدرها الانسان المرتبط بزمان ومكان ومن هنا تكون أخلاقه مقتصرة على زمانها ومحددة بمكانها دون أن تدعى لنفسها مدى أوسع. ومن هنا لايكون لها قدر من العمومية والشمول.

فالأخلاق الإسلامية نظام من العمل من أجل الحياة الخيرة وهى «السياج الذى يحمى صاحبه من أن يقدم على عمل أو يأتى فعلا لا يستريح إليه الضمير الحى ولا تطمئن إليه النفس الطيبة[١]. فهى أخلاق متكاملة لاتفرق بين النظرية والعملية يقول الدكتور فؤاد الأهوانى:

«الأخلاق نظرية وعملية ولم ينص الاسلام على أخلاق نظرية منفصلة يتبعها السلوك العملى، ويستمد قوته من تلك النظريات المقررة، وإنما رسم للناس قواعد العمل الصالح الذى ينبغى أن يسيروا عليه».

ومرجع المسلمين فى ذلك هو القرآن الكريم أولا. ثم السنة المكملة للكتاب بعده[٢] فالنظرية والعملية فى الأخلاق الاسلامية أمران متلازمان بالضرورة، فلابد أن تكون عملية حتى تتم الفائدة من بيان القيم والمبادئ الأخلاقية، وتؤتى ثمرتها فى الحياة ولابد أن يقوم الجانب العملى على أساس من النظر الدقيق لتحديد المثل العليا والقيم الأخلاقية،[٣] ولهذا فقد نص الرسول ﷺ على أن الايمان عقيدة وعمل فقال عندما سأله رجل أى العمل أفضل فقال: «إيمان بالله وجهاد فى سبيله»[٤]. فهو عمل ايجابى من أعمال القلب لأنه يجعل سلوك المرء وحدة لا تتجزأ، بل أكثر من هذا يوحد بين سلوكه الخارجى الظاهر وبين إيمان الباطن وعقيدته الداخلية. بين التصديق بالقلب وعمل الجوارح[٥].

ومن هنا نقول إن الأخلاق الإسلامية هى جوهر الإسلام وروحه السارية فى جميع جوانبه، فالنظام الاسلامى عموما مبنى على فلسفته الخلقية أساسا. ولقد بلغ من عناية الإسلام بالأخلاق مانراه ماثلا فى قول النبى ﷺ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٦] فقد قصر النبى ﷺ أهداف رسالته فى هذا الحديث على الأخلاق، ونفهم من هذا الحديث أن بيان مكارم الأخلاق كان الغاية والهدف للأنبياء السابقين فالنبى ﷺ يقول لأتمم. وعلى ضوء هذا نقرر:

(١) راجع دكتور محمد عبد الرحمن بيصار المختصر فى العقيدة والأخلاق ص١٠٩.
(٢) راجع دكتور أحمد فؤاد الأهوانى- التربية فى الاسلام ص١٠٣ ط الثانية.
(٣) راجع دكتور عثمان عبد المنعم عيش- الظاهرة الاخلاقية ص٤٩. ط الاولى.
(٤) راجع الجامع الصحيح جـ٢ ص١٩٨- صحيح مسلم جـ١ كتاب الايمان. باب كون الايمان بالله أفضل الأعمال ص٨٩ ط عيسى جـ١ كتاب الشهادات ص١٩٢ دائرة المعارف.
(٥) راجع الدكتور الأهوانى المرجع السابق ص٧٩.
(٦) مسند أحمد بن حنبل جـ٢ ص١٨١ وسنن البيهقى جـ١٠ كتاب الشهادات ص١٩٢.

١- أن الأخلاق الإسلامية كانت دعوات الرسل جميعا قبل النبى- عليه الصلاة والسلام.

٢ - أن الغاية من رسالته تتميم مكارم الأخلاق.

٣ - منزلة الأخلاق الكريمة بالنسبة للرسالة والمجتمع[١].

ومن هذا المنطلق كانت عناية الاسلام عقيدةً وسلوكاً بالأخلاق ذلك لأن الأخلاق هى الجانب التطبيقى للمسلم فى سائر علاقاته والسمو بهذه العلاقات هو الهدف الأساسى للدين، وهذا الفهم يؤكده قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[٢].

فلقد كانت الأخلاق دائما بطبيعتها فى الهدى والإرشاد محل التركيز فى دعوات الرسل بل لقد كانت الغاية من الرسالات السماوية، فهى الميزان الدقيق والمعيار الذى لايخطئ فى بيان دخائل النفوس وكشف نوايا القلوب وسلامة الدين وصحة الاعتقاد، وفى مجال التطبيق نرى أن الله سبحانه وتعالى قد اختص الأنبياء والرسل- صلوات الله عليهم جميعا- بالمزيد من التحمل والصبر على الايذاء وسائر أنواع البلاء لقدراتهم الخاصة وطبيعة تكوينهم، وصدق الله العظيم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٣].

وهذه القدرات الخاصة فى رسل الله تعالى وأنبيائه أكسبتهم فى مجال الأخلاق الكثير وإلا لما استطاعوا النهوض بما كلفوا به من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، ولقد كانوا جميعا يدعون إلى مكارم الأخلاق وإلى أن يكون الناس جميعا على قسط منها تربية لها فى النفوس وتقويما للمجتمع الذى لاينهض أبدا بدونها مهما بدت عليه مظاهر النهضة أو علامات الحضارة والرقى[٤].

فهدف الرسالات الإلهية كلها هدف أخلاقى، ولهذا قال الرسول ﷺ «الدين حسن الخلق»[٥].

(١) دكتور محمد عبد الرحمن بيصار المختصر فى العقيدة والأخلاق ص١١٠ ط الأولى.

(٢) سورة النساء الآية ١٦٣، ١٦٤. (٣) سورة الأنعام جـ من الآية (١٢٤).

(٤)راجع الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار المختصر فى العقيدة والأخلاق.

(٥) أورده الحافظ العراقى فى هامش الأحياء جـ٣ ص٥٠ وأخرجه المروزى فى مسنده فى كتاب تعظيم قدر الصلاة.

وفى الحديث أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ من بين يديه فقال: «يارسول الله ما الدين»؟ قال: «حسن الخلق» وكذلك قال حين جاءه من قبل شماله. وكانت عائشة تدرك هذا المعنى، ولهذا عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ قالت «كان خلقه القرآن»(١).

ويؤيد ذلك قول الرسول ﷺ «الاسلام حسن الخلق»(٢). ولذلك كان حسن الخلق من وصايا رسول الله ﷺ إلى المسلمين، لأنه أثقل ما يوضع فى الميزان يوم الحساب، ولأنه يقرب صاحبه من رسول الله ﷺ يوم القيامة: أن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا»(٣).

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن هذا الطابع الخلقى كان واضحا فى أذهان صحابة الرسول ﷺ منذ الأيام الأولى لدخولهم تحت راية الإسلام فلم تغب عن عقولهم سمات الإسلام الخلقية التى أودعها الله تعالى عقائد الاسلام وشرائعه بل إنهم كانوا يدركون نعمة الله عليهم فيما تضمنه هذا الدين من مكارم الأخلاق فسارع المسلمون الأوائل يحذون حذو الرسول. ويتبعون سيرته ويتقصون شمائله.

ومن هنا فقد بذلوا الجهود الصادقة فى سبيل تمثل تلك الأخلاق واستيعاب هذه المبادئ والقيم التى أصبحت لهم نبراسا وصارت منهجا فى القول والعمل(٤).

ويمكن أن نستخلص ذلك من حديث جعفر بن أبى طالب- رضى الله عنه- حين قام يشرح لملك الحبشة خصائص الاسلام الذى من أجله حاربهم مشركوا مكة حتى اضطروهم إلى ترك ديارهم وأوطانهم «كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رجلا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات(٥).

---

(١) رواه أبو هريرة وسبق تخريجه.
(٢) منتخب كنز العمال فى هامش مسند الامام أحمد ١/١٣٢ كتاب الأدب المفرد للبخارى ص٨١.
(٣) أخرجه البخارى فى الأدب. باب حسن الخلق ص٦٦ جـ٣ ط الحلبى، وأخرجه مسلم فى كتاب الفضائل ص٧٨ جـ٧ صبيح.
(٤) راجع دكتورة سهير فضل الله أبو وافية. الفلسفة الانسانية فى الاسلام ص١٠٧.
(٥) راجع سيرة ابن هشام ١/٣٣ كتاب التحرير عام ١٩٨٣.

ويقول صاحب دلائل النبوة: إن الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن دينا لكان فى أخلاق الناس حسنا. أنه دين العقيدة والأخلاق الحسنة لأنه من عند رب العالمين[١]. ولقد كان هذا الطابع الخلقى بارزا كذلك فى وصايا الاسلام العامة بمكارم الأخلاق، ولذلك كان الناس حين تعرض عليهم هذه الوصايا لا يملكون أنفسهم من الاعتراف بسمو دعوته، وعلو درجته. ويتضح ذلك مما قاله أكثم بن صفى وهو حكيم من حكماء العرب فى الجاهلية- حين سمع قول الحق تبارك وتعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

فقال لقومه داعيا لهم ومحرضا على الدخول فى الاسلام- انى قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها فكونوا فى هذا الأمر رؤساء ولاتكونوا فيه أذنابا[٣].

وندرك ذلك فى حديث القرآن الكريم عن النماذج العليا والمثل الرفيعة التى امتثلت لقيم الإسلام، وطبقت مبادئه وتعاليمه فكانت أهلا لثناء الله -سبحانه وتعالى- عليهم ووعده لهم بالثواب كحديث القرآن عن المتقين وعن أولى الألباب، وعن عباد الرحمن، وعن المؤمنين وآيات القرآن الكريم فى هذا المعنى كثيرة قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير ط الشعب جـ٤ ص٥١٥.

(٢) سورة النحل الآية (٩).

(٣) ﴿فَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ سورة الرعد الآية ٢٢ وراجع الأنفال من الآية ٢ إلى ٤ والمؤمنون آية ١ : ١١ والفرقان من ٦٣ : ٦٧ والمعارج من ١٩ : ٣٥ وآيات كثيرة توضح الأخلاق الاسلامية.

(٤) سورة البقرة الآية ١٧٧.

ومن هنا كان إطلاق الأخلاق على الدين فى اللغة كما سبق وفى الاصطلاح أيضا، وليس هذا الفهم الذى عرضناه مفروضا على الاسلام أو غريبا عنه، بل روح الإسلام عقيدة وشريعة روح أخلاقية، وهدف الإسلام فى الحياة تحقيق غاية أخلاقية، هذه روح نجدها فى كل جانب من جوانب الاسلام فلقد جمعت العقيدة الاسلامية قواعد الأخلاق وحددتها أدق تحديد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[٢].

وأصحاب الخلق هم هؤلاء الذين يمتثلون لأداء تلك الواجبات السابقة وعلى ضوء هذا فإن القرآن الكريم عرض لكل هذا بطريقته الخاصة فى كثير من آياته ولكن آية البر فيما نرى تجمع خلاصة الكمالات الإنسانية[٣].

ومن هنا وصف من استجمع هذه الصفات بالصدق بسبب إيمانه واعتقاده، كما وصف بالتقوى بسبب معاشرته للخلق ومعاملته مع الله.

فعقيدة الإسلام إذن هى إيمان بالله وسلوك طيب بين الفرد والجماعة الانسانية وبين الفرد ونفسه، فهى ايمان بالله. وعمل صالح طيب يؤجر عليه المؤمن فى دنياه وآخرته فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون. ولذا فقد اعتبر الإسلام، الإيمان برا.

بعد هذا البيان للأخلاق الاسلامية يمكننا أن نقول:

---

(١) سورة الأعراف الآية (٣٣).
(٢) سورة البقرة الآية (١٧٧).
(٣) راجع تفسير البيضاوى الآية ١٧٧ من سورة البقرة وسوف نتبين ذلك فى موضعه من البحث بتفصيل وتوضيح.

«إن الأخلاق الاسلامية هى القواعد المنظمة لسلوك الإنسان فى الحياة، سواء كان هذا السلوك ظاهرا أو باطنا يصدر من الانسان بإرادة ويهدف إلى تحقيق غاية. فهى بذلك تعتبر جوهر الدين الذى يشمل الاعتقاد والسلوك، فالأخلاق الاسلامية أخلاق متكاملة شاملة لمبدأ التدريج والتناسق التكاملى الشامل للإنسان وذلك من أى ناحية نظرا ليها[1].

فالأخلاق الاسلامية معيارا لما ينبغى أن يكون، وليست وصفا لما هو كائن.

هذا: وينبغى ألا يشتبه علينا الفرق بين الخلق والسلوك وسنعرض لهما فيما يلى:

السلوك وعلاقته بالخلق:

يعرف السلوك بأنه: أعمال المرء الإرادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة[2].

والظاهر من التعريف أن السلوك عبارة عن الأعمال الظاهرة التى يفعلها الإنسان باختياره والتى تكون تحقيقا لهدف معين وبهذا التحديد يتبين لنا أن الأمور الباطنية من حب أو بغض أو لذة أو ألم لا تسمى سلوكا وكذلك الأفعال الظاهرة التى لا تكون تعبيرا عن إرادة حرة.

وعلى هذا فالسلوك هو الصورة الظاهرة للأخلاق والأخلاق هى الصورة الباطنة للسلوك.

علاقته بالخلق:

وقفت فيما سبق عند تعريف الخلق على أنه حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية. ووقفت أيضا على أنها القواعد المنظمة لسلوك الانسان فى الحياة. فالخلق كما قلنا أمر معنوى وهو صفة للنفس وسجيتها وإذا كان الأمر كذلك فالسلوك هو الترجمة الظاهرية للخلق وهو أسلوب الأعمال ونهجها وعادتها[3].

وهو بهذا المعنى يكون دليلا على الخلق كما يقول الدكتور محمد عبد الله دراز «إن هو إلا مظهر الخلق ومرآته ودليله»[4].

(١) فلقد تكررت الأحاديث فى مدح حسن الخلق فى غير موضع كقوله ﷺ «من أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق». رياض الصالحين باب حسن الخلق ص٢٧٣.

(٢) راجع الأستاذ محمد جاد المولى بيك- الخلق الكامل جـ٢ ص٣٣٣.

(٣) راجع الدكتور م.حمد عبد الله دراز- كلمات فى مبادئ علم الأخلاق ص٥.

(٤) راجع الدكتور محمد عبد الله دراز المرجع السابق ودكتور محمد عبد الرحمن بيصار المختصر فى العقيدة والأخلاق ص٤٧.

فإذا كان السلوك حسناً دل على حسن الخلق وإن كان سيئا دل على خلق سئ.

فالعلاقة إذا بين السلوك والأخلاق علاقة الدال بالمدلول، فالصورة الظاهرة للفعل تدل على الصورة الباطنة وعلى ذلك نستطيع أن نقول كما قال الدكتور محمد عبد الله دراز «فما هو إلا مظهر الخلق ومرآته ودليله، ولكى يكون الإنسان على خلق يجب أن تكون أفعاله صادرة على نسق معين حتى تكون عادة مستمرة، وأن تقوم آمارات على أن هذه الأفعال الصادرة بطريقة ابنعاثية من النفس وليست آثرا لأسباب خارجية. ومن هنا كان النداء الالهى ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾[1].

غاية الأخلاق الاسلامية:

قلنا فيما مضى إن الاسلام قد ربط بين جوانبه برباط أخلاقى فتطهير الباطن أساس كل إصلاح ظاهرى. ومرادنا بالأعمال الباطنة تصديق القلب، وبالأعمال الظاهرة أفعال الجوارح، وبعبارة أخرى هما العقيدة والشريعة. على أن تكون العقيدة أصلا يدفع إلى الشريعة والشريعة تلبيةلانفعال القلب بالعقيدة، والأثر الذى يثمرانه هو الأخلاق أى أن الاخلاق ثمرة لهما[2].

فغاية الأخلاق الإسلامية هى تحقيق السعادة النفسية والطمأنينة القلبية للانسان، وتهيئة الحياة الآمنة والعيشة الراضية فى كل من حياته العاجلة والآجلة.

ولتحقيق ذلك لابد من صحة العقيدة التى هى المعتقد النفسى الذى تطمئن إليه النفس ويمتلئ به القلب[3]. أو ما يتعلق بقلب المسلم واعتقاده، والأسس التى يقوم عليها بناؤه الأخلاقى ولذلك فالقرآن الكريم لم يمتدح عملا حسنا لايستمد منبعه من أعماق النفس فكثيرا ما نجده يبرز بخاصة عمل القلب «أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى»[4].

فلم يقتصر الاسلام فى الدعوة إلى المبادئ الأخلاقية على سلوك الإنسان الظاهرى فقط بل دعا إلى السلوك الباطنى، ولهذا كانت الأخلاق الإسلامية قائمة على الحياة الباطنة فى الدرجة الأولى، لأنها إذا صلحت وأستقامت صلحت الأخرى

(١) سورة النجم من الآية (٣٢).
(٢) راجع الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت– الاسلام عقيدة وشريعة ص١١.
(٣) راجع دكتور محمد يوسف موسى– الاسلام وحاجة الانسانيه اليه ص١٨.
(٤) سورة الحجرات جزء من الآية (٣).

واستقامت، وصلاح هذه وتلك واستقامتها هما الطريق إلى السعادة الإنسانية. ويؤكد هذا المعنى قول الرسول ﷺ «قل آمنت بالله ثم استقم»[1] ويقول الرسول ﷺ «ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»[2].

والدليل على سلامة العقيدة وصحتها أنها تبرر نفسها بنفسها بالأدلة والبراهين العقلية الواضحة، وتدفع الانسان إلى التمييز بين الفضيلة والرذيلة.

«ولكن يتحقق هذا لابد من توفير الأمن الداخلى والخارجى، والأمن الداخلى إنما يتحقق بالالتزام بالعقيدة التى يؤمن بها وبالسلوك فى الحياة، كما أنه لابد من توفير الأمن الخارجى وذلك يتوقف على النظام العام للحياة، ثم التلازم بينهما وبين القيم التى يريد الإنسان تحقيقها فلابد من أن يكون بين هذه الأمور انسجام وتوافق وتناسق ليشعر الانسان بالأمن»[3] قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[4]، فلقد بينت الآية الكريمة الجانبين وذلك بالإيمان بالعقيدة الصحيحة، ولهذا قال الرسول ﷺ «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»[5].

ومن هنا فقد ربط الإسلام بين العقيدة وواقع الإنسان وسلوكه فى هذه الحياة ومصيره فيما بعد هذه الحياة، ويبين ذلك الدكتور محمد عبد الله دراز فيقول: «والحق أن القرآن الكريم يلح غالبا على دور العاملين معا فى آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا﴾.

---

(١) صحيح مسلم جـ١ كتاب الايمان- باب جامع أوصاف الاسلام ص٦٥ ط عيسى الحلبى تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.

(٢) صحيح مسلم جـ٣ كتاب المساقاه- باب آخذ الحلال وترك الشبهات ص١٢١٩ ص١٢٢٠ ط عيسى الحلبى. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى. وفتح البارى بشرح البخارى جـ١ -كتاب الايمان- باب فضل من استبرء لدينه، ص١٣٤.

(٣) راجع دكتور مقداد يلجن- الاتجاه الأخلاقى فى الاسلام ص٦٣ بتصرف يسير.

(٤) سورة الأنعام الآية ٨٢.

(٥) صحيح مسلم جـ١ كتاب الايمان- باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الايمان، ص٦٦ عيسى الحلبى تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى وأيضا ص١٣ جـ٢ النووى ط حجازى، والبخارى كتاب الايمان باب حلاوة الايمان ص٦٦ واللؤلوء والمرجان ١/٩ عيسى الحلبى.

وقـوله: ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجـروا وجـاهدوا﴾ وقـوله: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ وقوله ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾[1].

فالإنسان لايشعر بخيرية مصيره إلا إذا رسخت العقيدة الصحيحة فى قلبه، وإلا إذا عمل بمقتضى هذه العقيدة، وإلا إذا كانت الأهداف التى حددها لنفسه فى حياته متلائمة مع هذه العقيدة من جهة ومع امكانيات طبيعته البشرية من جهة أخرى[2] وتحقيق المطالب الأساسية بقسميها الروحى والحسى فى الطبيعة الإنسانية وأهمية الأولى لا تقل عن أهمية الثانية لأن الروح موجوده فى الطبيعة الإنسانية أودعها الله فى الانسان لمعرفته وللاتصال به ولتدفع الإنسان إلى تحمل مسئولياته الإنسانية فى هذه الحياة، وهى وإن كانت غامضة من حيث كنهها وجوهرها فهى ظاهرة من حيث اثارها فى السلوك وفاعليتها فى الأبدان وهى متأصلة فى الإنسان بالفطرة وبهذا يعمل الاسلام على تحقيق مطالب البدن كما يدعو إلى مراعاة حاجات الروح وبهذا المنهج المتكامل يعيش الانسان حقيقة ايمانه فى واقع حياته لا انفصام فى ذاته ولا ازدواج فى شخصيته[3].

وإذا كـان الأمر كـذلك فـلابد من أن تكون لهـا مطالب تنشط بتـحـقـيـقـهـا وتذبل وتضيق بالحرمان منها. من أجل هذا قرر الاسلام لها نصيبا من حياة الإنسان فى نظامه الخلقى، والحياة الروحية كما قررها الإسلام هى آداء العبادات المختلفة من الصلاة والصوم والزكاة والحج وتذكر الله دائما بأنه خالقه ورازقه، وهو الذى يستمد منه العون ويعتمد عليه فى كل شئ لأن الأمر بيده، وهو على كل شئ قدير. ولنذكر أن هناك حياة بعد هذه الحياة وأن هذه الحياة الدنيا مؤقته ستتحول فى النهاية إن أحسن الانسان عمله- إلى حياة أبدية ملؤها السعادة والهناء[4] هذا التكامل الذى يمثله الإسلام فى ربط القلب بالعقل، والروح بالمادة، والعقل بالبصيرة، واعتبارهما معا آداة المعرفه هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فى ربط الدنيا بالآخره والأخلاق بالعقيدة، والروح والمادة هو سر أسرار قوته وتكامله وتلاؤمه مع الطبيعة الإنسانية[5].

(١) راجع دكتور محمد عبد الله دراز- دستور الأخلاق ص٤٥٢.
(٢) دكتور مقداد يلجن، الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام ص٦٤.
(٣) د. أحمد عبد الحميد الشاعر، مناهج البحث، ص٧٤ ط. الأولى عام ١٩٧٩م
(٤) د. مقداد يلجن، الاتجاه الاخلاقى، ص٦٨.
(٥) الاستاذ أنور الجندى، القيم الأساسية للفكر الاسلامى ص٤٤، ص٤١ مطبعة الرسالة.

«بهذه اللمحة الخاطفة عن غاية العبادات الاسلامية يتبين لنا ما تهدف إليه من تنمية الشعور الدينى فى الانسان. وتربية ضميره ووجدانه فيندفع إلى الإيجابية فى الحياة وتحقيق ذاتيته: مع الله عبدا طائعا ومع الناس أخا وفيا، ومع نفسه صفاء وإنسجاما وتماسكا وإحكاما فلا يركن إلى الخضوع ولا يخلد إلى الشيطان. ولا يقبل الضيم والهوان ومن ثم فقد وضح لنا إذا: أن العبادات الاسلامية تقوم على أساس أخلاقى هو صدق النية والإخلاص فى العزيمة.

وهذا سر بين العبد وربه، ثم انها فى نفس الوقت تدفع الإنسان إلى الخلق الكريم وتنمى فى نفسه بواعثه وغاياته(١).

ولهذا الحياة الروحية دور كبير فى سعادة الإنسان، ذلك أن الإنسان عندما يحيا هذه الحياة يشعر بالاطمئنان والراحة فى أعماق قلبه لأنه يحس دائما فى قرار نفسه بأن الله راض عنه وأنه سيكلؤه ويحفظه وهو بعد ذلك يتطلع إلى حياة صافية من الأحزان والآلام، ولأنه يرى أن الموت لايقطع عليه حياته، بل ينقله من حياة مؤقته إلى حياة دائمة وأن الأعمال التى يؤديها هنا وإن لم يجن ثمارها كلها أو بعضها هنا، سوف يجنيها هناك. ولهذا كله فإن هؤلاء الذين يحبون هذ الحياة تبتسم سريرتهم بالرغم من الشدائد التى يعانون منها والصعوبات التى يخوضونها، أما الذين أهملوا الروح ولم يعطوها حقها من الحياة فهم فى ضيق وحرج ولا سيما عند الأزمات والمصائب يزعجهم خوف الموت ويقلقهم ضياع الحقوق، وعدم استيفائهم ثمار أعمالهم(٢).

ولقد ادرك هذه الحقيقة العالم الفرنسى «الكسيس كارك» فقال: «ومن الغريب أن الانسان الحديث قد استبعد من الحقيقة الواقعية كل عامل نفسى «روحى» وبنى لنفسه وسطا ماديا بحتا، غير أن هذا العالم لا يلائمه قط، بل نراه يصاب فيه بالانهيار.

فيبدو- جيدا- انه يجب على البشرية المتحضرة، لكى تتجنب ترديها النهائى فى وهدة التنافر والفوضى، أن تعود إلى بناء المعابد فى ذلك العالم الفاخر الصارم الذى يعيش فيه علماء الطبيعة والفلك.

(٢) د. أحمد عبد الحميد الشاعر مناهج البحث الخلقى، ص٤٣.
(٣) د. مقداد يلجن، الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام، ص٦٨.

فالعالم الحديث يبدو لنا كالثوب المفرط فى الضيق بمجرد أن يطبعه مذهب الحرية الفردية أو المذهب الماركسى بطابعه.. ومما لايقبله العقل أن يصبح الواقع الخارجى أضيق من أن يشمله الإنسان فى كليته وألا يكون تركيبه متفقا مع تركيبنا من بعض الوجوه، فمن الحكمة إذن أن نجعل لعالم الروح نفس الموضوعية التى لعالم المادة»[1].

ومن هنا ندرك الخطأ الذى يرتكبه هؤلاء ببعدهم عن الجانب الروحى «فهم يتوهمون أن تربية الذكاء تضاهى تربية الروح، ولم يكتشفوا بعد أن هناك إلى جانب التفكير المنطقى ضروبا أخرى من النشاط الروحى الضرورية حتى يكون السلوك فى الحياة سلوكا عقليا. وقد ردت الحياة على هذا الجهل بجواب بطئ صامت بدت مظاهره جلية»[2]، فى الزحف التدريجى للقبح والفظاظه- ثم- يحمل بعض الرذائل المنفره حتى ينتهى إلى أن الحياة قد أجابت بطريقة آلية على رفض الخضوع لقانون الارتقاء الروحى فقضت على نفسها بالانحطاط والانحلال[3]. وينبغى أن نشير إلى أن الإنسان يجب أن يحظى بالتماسك فى نفسه وتحقيق ذاته على أمن وسلام، ولن يكون ذلك إلا بالتوافق والتوازن بين متطلبات الجسد وحاجات الروح. ذلك لأن طغيان أحدهما على الآخر إنما هو فساد للإنسان فى ذاته وشر مستطير وخطر على الإنسانية والحياة سواء كان هذا بقصد أو بغير قصد»[4].

والجانب الثانى وهو الحاجات الحسية الأساسية فى طبيعة الإنسان كالمأكل والمشرب والملبس والمسكن والجنس وما إلى ذلك يقوم على أمور ضرورية لدوام الحياة أولا، وللشعور بالسعادة ثانيا، ولهذا فقد أباح الإسلام كل ما يحتاج إليه الإنسان بالضرورة وحرم كل شئ يضر الصحة وقد سمى الأول بالطيب والثانى بالخبيث. قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[5]. ومن خلط الرأى وفساد الخلط بين المصلحة فى التشريع وبين الغرض فى اللذه أن يظن أن المحرمات حرمان للانسان من ملذاته وحجر عليه فى حرياته والحق أنها ليست إلا توجيها للإنسان إلى

(١) د. الكسيس كارل- تأملات فى سلوك الانسان ص١٧٣، مكتبة مصر بالفجالة.
(٢) المرجع نفسه، ص٧٨، مكتبة مصر بالفجالة، عام ١٤٩.
(٣) المرجع السابق، ص٧٨، بتصرف يسير. (٤) د. الشاعر، مناهج ص٦٨.
(٥) سورة الأعراف الآية ١٥٧، وراجع الاتجاه الاخلاق ص٧٠.

كل ما هو حق وخير، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۞ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۞ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾[1] ولم يكن كل ما بينته الآية الكريمة للرزق فقط بل للمتعة ولهذا يقول الحق تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۞ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[3]. وقال تعالى ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[4].

فنجد أن القرآن الكريم قد بين وفصل فى آيات متعددة حاجات الإنسان التى بها قوام حياته ودوامها ولم يكن هذا فحسب بل لفت نظر الإنسان للنظر فى الكون للتمتع بالحاجات المادية الحسنة التى تحقق مطالبه وهذا يمثل جانبا من جوانب سعادة الإنسان فى الحياة، والاسلام فى تحديد غايته. يرفض كل الدعاوى الزائفة. ابتداء من الذين قالوا.. ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[5] إلى الذين يقفون عند حد اشباع نزواتهم ويلهثون وراء ملذاتهم.. ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[6] ولاستكمال الحديث نرى أنه توجد هنا ملاحظة لاينبغى أن نغفلها وهى أنه إذا كانت هناك نصوص اسلامية أخرى تذم الحياة الدنيا وطلاب هذه الحياة، فلا ينبغى أن نظن وجود تناقض بين تلك النصوص، كما قد يبدو للنظرة السطحية، وإنما هذا الانقسام الظاهرى من نظرة الإسلام إلى الحياة المادية من زاويتين مختلفتين، لأنه بذلك يريد أن يكشف لنا عن منهجه فى الحياة وفلسفته فيها، وربما كان انقسام البشر فى الاتجاه نحو الحياة من اقبال عليها، وادبار عنها نتيجة انقسام النصوص بهذا الشكل حول الحياة المادية. واذا شرحنا الزاويتين السابقتين بدا لنا موقف الاسلام من هذه الحياة بوضوح.

(١) سورة ق الآية (٩- ١١).
(٢) سورة عبس الآية (٢٤- ٣٢).
(٣) سورة الروم الآية (٢١).
(٤) سورة النحل الآية (٨٠).
(٥) سورة الجاثية جـ من الآية (٢٤).
(٦) سورة آل عمران الآية (١٤).

أما الزاوية التى منها ذم الحياة الدنيا فهى زاوية الماديين؛ وهى أن هذه الحياة غاية لا وسيلة وأنها مستقلة لا صلة لها بحياة بعدها، بل هى الحياة ولاحياة بعدها، وعندما نظر الإسلام إليها من هذه الزاوية وبهذا الاعتبار ذمها وذم المنهمكين فيها لأنها حياة عارضة زائلة[1]. وهؤلاء هم الذين لايرجون الآخرة وصدق فيهم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾[2] وكل الآيات والأحاديث التى تذم الحياة المادية وأهلها إنما تذمها بهذا الاعتبار ومن هذه الزواية.

يريد الاسلام بذلك أن يبين للناس أنه ينبغى ألا نتخذ هذه الحياة غاية فى ذاتها لأنه أمر لا يليق بهم، فقد خلقوا لهدف أعلى أو غاية كبرى وهى تلك الحياة الآخرة وهذه الحياة هى الجديرة بأن يعمل المرء من أجلها وحقيقة أن يتخذها غاية.

أما الزاوية الثانية: فهى أن هذه الحياة ماهى إلا وسيلة لحياة أخرى أو مقدمة لها[3] وبهذا الاعتبار نرى الاسلام يمدح الحياة ويهتم بها قال تعالى ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾[4]، كما نعى على الذين يمنعون الناس من هذه المتعة التى أخرجها لعباده ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[5].

ومن هذا البيان يتضح لنا أنه لا تعارض بين هذه النصوص المتعلقة بشئون الحياة وأن النظرتيين تمثلان فلسفة الاسلام فى الحياة ومنهجة فيها كما تبينان خطأ أولئك الذين ينهمكون فى ملذات هذه الحياة ويتمتعون كالأنعام تاركين كل الجوانب الأخرى والواجبات الإلهية والإنسانية وكأنهم خلقوا من أجل هذه المتعة الحسية وتوضيحا لمفهوم غاية الأخلاق الإسلامية قيل لكل إنسان ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[6] وليس فى الاسلام إذن انفصال بين العمل للدنيا والعمل

---

(١) د. مقداد يلجن، الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام، ص٧٢.
(٢) سورة ابراهيم الآية (٣). (٣) المرجع السابق ص٧٣.
(٤) سورة المائدة الآية (٨٨).
(٥) سورة الأعراف الآية (٣٢). (٦) سورة القصص الآية (٧٧).

للأخرة فان العمل للدنيا بطبيعته يتحول إلى عبادة مادام مقرونا بشرف القصد وسمو الغـاية[١] وهنا تكمن السعادة فى الدنيا والآخرة ويكون التمتع بطيبات الحياة ونعم الله فيها كما تبين فى قول الحق ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾.

وطريق هذه السعادة الحقة يكمن فى العبادة المخلصة الصادقة والتى هى الغاية من خلق الانسان ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٢] وللعبادة خاصية مميزه هى سرها وروحها وتلك هى الإخلاص فيها والمراقبة لله المعبود سبحانه. فإن تحققت هذه الخاصية كانت عبادة حقة وإن فقدت خاصيتها لم يكن لها من العبادة إلا صورتها ومظهرها الشكلى فحسب، وما الصلاة والصيام والزكاة والحج إلا تمرينات عملية لرياضة النفس على هذه الخاصية. ومن هنا نقرر: أن العمل الدنيوى البحت إذا ما وجدت فيه هذه الخاصية كان عبادة من أرقى العبادات التى تحظى عند الله بالقبول وبها تكفر السيئات.

أضف إلى هذا أن الشرع يرعى مصلحة الانسان ويحفظ عليه نفسه ودينه وخلقه[٣]، ويبقى بعد هذا كله العنصر الأخير والهام لتحقيق السعادة فى رأى الاسلام وهو تحديد الغاية الكبرى للإنسان فى هذه الحياة، وأن يكون تحقيق هذه الغاية مقرونا بتحقيق السعادة الكاملة.

وهذه الغاية هى الفوز برضى الخالق والدخول فى دار الرضوان دار السعادة الأبدية وذلك بعد الانتقال من هذه الحياة الدنيا، إن ربط الإنسان مصيره بالسعادة له دور كبير فى إحساسه بالسعادة فى مختلف الظروف مهما تكبد فى سبيلها من عناء ومشقة، لأن السعادة أمل الإنسان دائما وهذا الأمل هو الذى يبعث فى نفس الانسان الاطمئنان والرضا[٤]. قال تعالى ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[٥].

(١) محمد الغزالى الجانب العاطفى من الاسلام، بحث فى الأخلاق والسلوك والتصوف، ص١٠١، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦.
(٣) د. أحمد عبد الحميد الشاعر، مناهج البحث الخلقى، ص٦٥. ط الأولى عام ١٩٧٩م.
(٤) الاتجاه الاخلاقى، ص٧٧.
(٥) سورة الفجر الآية (٣٠).

كما قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1] فالأخلاق الإسلامية أخلاق متكاملة للفرد والمجتمع على أساس من العدالة المنبثقة عن عقيدة صادقة وإيمان راسخ وسلوك فى الحياة تتكامل فيه العقيدة مع الغاية وينسجم مع الطبيعة الإنسانية كما أن الإسلام قرر أن من يسير فى هذه الحياة وفقا لهذا النمط السلوكى الذى حدده هذا الدين سوف يسعد فى هذه الحياة[2]. قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[3] ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ﴾[5].

يتضح مما سبق أن غاية الأخلاق الإسلامية هى السعادة، وحقيقة هذه السعادة فى الإسلام تختلف من حيث الزمان والمكان ومن حياة إلى أخرى فالسعادة فى الحياة الدنيا ليست هى سعادة الحياة الأخرى، وإن كانت جزءا منها. والأخلاق الإسلامية تستهدف تحقيق السعادة فى الآخرة أكثر مما تستهدفها فى الدنيا كما أنها لا تقتصر على جانب واحد من جوانب النفس، بل تشمل- كما قررنا سابقا- الجانب الداخلى والخارجى، «النفسى والحسى» وكلما كان هناك اتساق بين هذه الجوانب زاد نطاق السعادة كما وكيفا[6].

والغاية بالمعنى العام هى: أقصى ما يهدف إليه الإنسان من سلوكه وأخلاقه الظاهرة والباطنة.. «وقد تبين لنا أن الأصل فى الأخلاق الإسلامية أنها ترجع إلى سلطة خارجة هى الدين «العقيدة» وأساس هذا الدين القرآن الكريم الواجب تعلمه وتعليمه والصلة بين الدين والأخلاق عظيمة تبلغ حد التوحيد بينهما، فالدين وسيلة لتكوين الخلق، والأخلاق مستمدة من الدين[7]. والاسلام نفسه من حيث إنه نظام حياة

(١) سورة التوبة الآية (٧٢).
(٢) راجع الاتجاه الاخلاقى، ص٧٩، بتصرف يسير.
(٣) سورة النور الآية (٥٥).
(٤) سورة الليل الآية (٥).
(٥) سورة الطلاق جزء من الآية (٢، ٣).
(٦) راجع د. مقداد يلجن، الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام، ص٢٩٥.
(٧) د. أحمد فؤاد الاهوانى- التربية فى الاسلام، ص١٠٩.

للإنسان جاء لتحقيق غاية فى هذه الحياة. هذه الغاية من شأنها أن تؤدى إلى السعادة لا فى هذه الدنيا فحسب بل فى الحياة الأخرى أيضا فالأخلاق الإسلامية من هذه الزاوية وسيلة لا غاية فى ذاتها، كما أنها تعتبر غاية فى نفسها باعتبارها غاية للسلوك الإنسانى[1]. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[2] ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[3] ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[4]. وقد بين هذا المعنى الرسول ﷺ فقال: «إن الله لايقبل من الأعمال إلا ماخلص لوجهه»[5] فليس هناك انفصال بين الغاية والوسيلة فكلاهما نفس الآخر وذاته»[6]، ويتضمن الفعل الخلقى أخيرا أن له قيمة خلقية. والقيم قد تكون جزئية وقد تكون مطلقة والأولى هى التى تطلب لأنها تؤدى إلى غايات بعدها، والثانية هى التى تقصد لذاتها لأنه لا غايات وراءها ومثل الأولى مثل الطالب الذى يجد لينجح وهو يريد النجاح ليحصل على شهادة وهو يريد الشهادة لحيصل على وظيفة وهو يبغى الوظيفة لتكفل له الرزق المنظم ويريد هذا الرزق ليتزوج ويؤمن مستقبله وهذا يحقق له السعادة. وهو يطلب السعاده لأنها خير فالنجاح والشهادة والوظيفة والرزق والزواج كلها قيم جزئية. ومثل الثانية «الخير» فالخير قيمة مطلقة لأن الإنسان يريد الخير لذاته ومن بين القيم المطلقة يعد الخير غاية الأخلاق جميعها فنحن نستهدف من الفعل الخلقى تحقيق الخير لذاته[7]. ومن هنا ندرك أن الغاية نفسها تكون وسيلة من جهة وغاية من جهة أخرى. والأخلاق الاسلامية وحدة متكاملة، وقيمتها تؤثر فى قيمة العمل الأخلاقى، فالوسائل الأخلاقية فى الإسلام كالغايات تماما ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[8]. فالآية الكريمة تبين لنا طريقين للفلاح أو طريقا واحدا له جانبان،

(١) راجع د. مقلد يلجن الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام، ص٢٩٥.
(٢) سورة الزمر الآية (٣). (٣) سورة البينة الآية (٥). (٤) سورة النساء الآية (١٤٦).
(٥) كنز العمال فى هامش مسند الامام أحمد ١/١٣٠.
(٦) راجع د. ماهر كامل، وعبد المجيد عبد الرحمن، مبادئ الاخلاق ص١٤، ط الانجلو، الطبعة الأولى، ١٩٥٨.
(٧) د. ماهر كامل، وعبد المجيد عبد الرحيم، مبادئ الأخلاق ص١٤، الانجلو الطبعة الأولى ١٩٥٨.
(٨) سورة المائدة الآية (٣٥).

الجانب الأول: إتقاء الله تعالى وذلك بترك المحرمات التى نهى عنها، ولا يمكن التقرب إليه بالمحرمات وإلا لما حرم المحرمات ولما نهى عنها، ولو نوى مرتكبها وجه الله والتقرب إليه بل إن أحب الأعمال التى يتقرب بها الأنسان إلى الله هى الواجبات ثم الأمور المستحسنة دون المحرمات، ثم إن الله تبارك وتعالى قد اعتبر الواجبات الأخلاقية وسيلة للتقرب إليه إذ هى وسائل والغاية كسب رضوان الله وكسب رضوان الله وسيلة للفوز بالسعادة فى الآخرة. وقد وصف الله الجنة فى أكثر من آية من القرآن ليكون الناس على بصيرة بما يلقون من جزاء قال تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾[2] ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[3] من هذا الوصف للجنة يتبين لنا أن وعد الله للمتقين فى الدار الآخرة متاع من اللذة الحسية والسعادة، فجمع بينهما وإن كانت الجنة غاية خارجية ففيها تحقيق للغايات النفسية والغاية الأصلية هى رضا الله تعالى».

الجانب الثانى: التقرب إليه تعالى بالوسائل وهى أداء الواجبات والتمسك بالقيم الأخلاقية[4].

والأخلاق الاسلامية وإن كانت تهدف إلى تحقيق السعادة للإنسان فإن هذا الهدف هدف الأخلاق لاهدف الذات الفاعلة، فإن هدف الذات ينبغى ألا ينحصر فى تحقيق المرء السعادة لنفسه أو لغيره. وقد نص الإمام الغزالى فى كتابه «الميزان» على ذلك فقال: «أن من يتجنب الفحشاء محافظة على كرامته لايسمى عفيفا، لأنه لم يقصد بعفته وجه الله، فكل عمله تجاره، وترك حظ لحظ يماثله»[5] وإنما ينبغى أن يكون

---

(١) سورة الغاشية الآيات من (٨- ١٤). (٢) سورة النبأ الآيات من (٣١- ٣٦).

(٣) سورة المرسلات الآية من (٤٠- ٤٤).

(٤) راجع د. مقلد يلجن- الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام، ص٢٩٥.

(٥) الامام الغزالى كتاب الميزان، ص١٣٦، نقلا من كتاب الأخلاق عند الغزالى، للدكتور زكى مبارك، ص١٣٢، ط. دار الكتاب العربى بمصر.

هدفه الأول هو الله وحده. إنه يجب أن يقوم بالأعمال الأخلاقية لأنه مأمور بها من قبل خالقه وأن يقصد بها وجه الله لا وجه السعادة[١]. هذا القصد الخالص لوجه الله من السلوك فى هذه الحياة هو العبادة الخالصة التى جعلها الله الغاية من خلق الإنسان ومما يؤيد ذلك قول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٢].

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤]. .

وإذا أخلص الإنسان حياته لله بهذه الصورة يعد كل سلوكه عبادة يؤجر عليها من الله سبحانه وتعالى.

ولهذا قال الرسول ﷺ «مايصيب المسلم من نصب ولا وصب ولاهم ولاحزن ولاأذى ولاغم حتى الشوكه يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»[٥] وبذلك يلتقى الناس جميعا فى غاية واحدة، تتسع لهم جميعا ولا يقع عليها خلاف، وهى التمتع بنعيم الجنة فى الآخرة، وذلك انطلاقا من وحدة العقيدة التى تدفع إلى وحدة الغاية للأخلاق الاسلامية.

---

(١) راجع د. مقداد يلجن، الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام، ص٢٩٥.
(٢) سورة الذاريات الآية (٥٦).
(٣) سورة الرعد الآية (٢٢).
(٤) سورة الأنعام الآية (١٦٣).
(٥) هديه البارى فى ترتيب أحاديث البخارى ١/١٢٣ وصحيح مسلم جـ٤ كتاب البر والصلة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك، ص١٩٩٣، ط. عيسى الحلبى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.

ضرورة الأخلاق الإسلامية للحياة الإنسانية

لبيان مدى ضرورة الأخلاق الإسلامية للحياة الإنسانية نستطيع أن نقول إن الأخلاق أمر لاغنى عنه لأنها شرط فى دوام الحياة الاجتماعية كما أنها ضرورية لتحقيق السعادة للإنسان، وذلك لأن الإنسان كل إنسان فى كل عصر من العصور يعيش حياة اجتماعية.

والحياة الاجتماعية تقوم على التعامل والسلوك مع الآخرين ومثل هذا التعامل أوجب وجود قواعد وأنماط للسلوك ترضى عنها المجتمعات وتقاليدها وأصولها الاعتقادية أو لاترضى عنها. وقد احتاج هذا التعامل إلى التمييز بين الحسن والسيئ بين الفاسد والصالح بين النافع والضار، كما احتاج إلى إصدار الأحكام على تصرفات الإنسان بالخير والشر، والحسن والسؤ بالصلاح والفساد[1] ولننظر الآن إلى الأخلاق عم تبحث؟.

لقد ذكرنا سابقا أن الأخلاق هى العلم بالفضائل وكيفية اقتنائها ليتحلى بها الإنسان، وبالرذائل وكيفية توقيها ليتخلى عنها والإلمام بقواعد السلوك الإنسانى وبالمقياس الذى تقاس به أعمال الانسان الإرادية فيحكم عليها بأنها خير أو شر فالأخلاق الاسلامية كما ألمحنا سابقا تشتمل الحياة كلها– ذلك لأن الاخلاق إذا كانت نمطا للعمل وللسلوك فى الحياة فإن كل سلوك إنسانى يحقق الخير للذات أو لغيرها يعد أخلاقا طالما كان الإنسان يقصد بسلوكه هذا عمل الخير لوجه الله قبل كل شئ.

فعمل الإنسان وعبادته وإيمانه بالله له أخلاق لأنه بر كما بينته الآية التى ذكرناها[2] سابقا بل لايتحقق البر دون الايمان، والعبادة تعد اخلاقا والأخلاق هى البر كما أن عمل الانسان فى جميع شئون الحياة لمساعدة الآخرين يعد أخلاقا وعمله لكسب قوته أخلاق.

وعلى ضوء هذا نقرر أن كل سلوك إنسانى يحقق الخير يعد أخلاقا طالما أن هذا العمل لوجه الله تعالى.

---

(١) الدكتور عبد الكريم عثمان– معالم الثقافة الاسلامية، ص٢٩٢، ط. الثالثة عشر، مؤسسة الأنوار– الرياض.

(٢) قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ البقرة ١٧٧.

ومما يؤيد ذلك قول الرسول ﷺ «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»[1].

ومن هنا تكون الأخلاق هى المقياس الذى تقاس به أعمال الإنسان الإرادية فيحكم عليها بأنها خير أو شر. والملاحظ أن موضوع الخير والشر والحسن والقبح والسلوك الخطأ والصواب شغل الإنسان لما يحققه من سعادة فى مختلف أدوار الانسانية.

ولذا فقد أراد الإنسان منذ وجد أن يقوم سلوكه ويحكم عليه حكما أخلاقيا وسواء كانت نتيجة التقويم ثوابا أو عقابا فإنها ضرورية لكل فعل بشرى مهما كانت حقيقته[2].

فموضوع الأخلاق هو السلوك الإنسانى على النحو الذى ينبغى أن يكون عليه، وإذا نظرنا إلى الأخلاق الإسلامية نجد أنها موضوعية ففيها عنصر السلوك العملى الموضوعى وفى نفس الوقت تتضمن عنصرا معياريا وهو مفهوم «ينبغى».

وليس معنى ذلك أن تكون الأخلاق هى ما يقرره الاسلام بصرف النظر عن الناحية الموضوعية وإنما الإسلام يضفى على الصورة الموضوعية للأخلاق صورته الاسلامية، فالحق فى ذاته حق ولا يصح إنكاره والاسلام يقرر حقيقة الحق- كما هو ولكنه يجعل الإقرار به من الاسلام كما يجعل إنكاره خروجا على تعاليم الاسلام ويطلب إلى المسلمين بوصفهم مسلمين أن يعترفوا بالحق وأن ينصروه»[3].

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقول إن ضرورة الأخلاق الاسلامية لا ترجع إلى أنها علم كبقية العلوم بقدر ما ترجع إلى أنها من ألزم العلوم للحياة الانسانية.

---

(١) مسند الامام أحمد بن حنبل جـ١ ص١٧٢، ص١٧٣، دار صادر، وفى مناقب الأنصار باب قوله ﷺ «اللهم أمضى لاصحابى هجرتهم .. ص٢١٥ جـ٧- والبخارى كتاب الوصايا باب من ترك ورثته اغنياء ص٢٣٤، جـ٥ ط الحلبى وأخرجه مسلم فى الوصية ص٧١ جـ٥، وصحيح مسلم جـ١٨ كتاب الزهد والدقائق ص١٢٥.

(٢) د. عبد الكريم عثمان معالم الثقافة الاسلامية ص٢٨٢ ط الثالثة نشر مؤسسة الأنوار- الرياض.

(٣) د. عبد الفتاح بركه، فى التصوف والأخلاق، ص٧، ط الأولى طبع دار الطباعة المحمدية بالأزهر.

فهى تميز بين سلوكين أحدهما يحقق الخير ويقود ثانيهما إلى الشر ثم تبين كيف يمكن أن يسلك الإنسان طريق الخير وان يتجنب طريق الشر.

إذ قد يعلم المرء الخير ولكنه لايدرى كيف ينتهى إليه ويعرف الشر فى سلوك ما ويعجز عن تجنبه ومن ثم ندرك أن للأخلاق وظيفتين هامتين:

أولاهما: المعرفة، والثانية: التربية. ولا شك أن الانسان بقدر ما يحتاج إلى المعرفة يحتاج بنفس القدر إلى التربية، وتشترك المعرفة والتربية فى أنهما لاتتمان دون جهد أو معاناة وأنهما تستغرقان فترة من الزمن قد تطول أو تقصر.

وأنهما ترميان إلى غاية واحدة وهى كمال الانسان الذى لا يتحقق إلا بالجمع بين هذين الأمرين[1].

وعلى هذا نرى الإيجابية التى عليها يعتدم الإسلام فى بيان ضرورة الأخلاق الإسلامية لتدعيم العلاقات الإنسانية فى المجتمع إنه يقيمها على قيم تكتنف كل متطلبات الأفراد وحاجات المجتمع وهذه القيم التى تبين ضرورة الأخلاق الإسلامية للحياة الإنسانية هى الإخاء والتعاون والعدالة والإحسان وغيرها ومن ثم ينتج عنها الصبر والعفو وما إلى ذلك من قيم الاسلام الضرورية للتكافل الاجتماعى وهذه القيم التى تحققها الأخلاق الإسلامية هى وسيلة إلى تحقيق السعادة للحياة الإنسانية وذلك لأن السعادة تعد نتيجة للتكامل ونعنى به التكامل فى بناء الذات عن طريق وحدة العقيدة التى تدفع إلى وحدة الأخلاق.

وهذا عن طريق إقامة الوحدة والاتساق بين الميول المختلفة وتوجيهها وجهة صحيحة فى الحياة ولابد من وجود الوحدة كذلك فى ذات المجتمع وهى ضرورة لازمة فى بناء الفرد وفى بناء المجتمع إذ لا يمكن أن يعيش الانسان متكاملا بذاته إلا إذا كان المجتمع الذى يعيش فيه مترابطا ومتماسكا وذلك إنما يكون بوحدة العقيدة.

فأهمية الأخلاق الإسلامية للحياة الإنسانية فى نظر الإسلام تعد أكثر من أهمية العلوم الأخرى ولذلك جعل الحق تبارك وتعالى الأخلاق مناط الثواب والعقاب فى

(١) د. مقداد يلجن، الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام، ص٩٦، ط الاولى مكتبة الخانجى، ١٩٧٣م.

الدنيا والآخرة[1]- فيعاقب الناس بالهلاك فى الدنيا لفساد أخلاقهم حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[3].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[4] ويكافئ الأبرار والصالحين بالجنة ويعاقب الفجار والاشرار بالنار يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[5].

وقد قرن الله تعالى بر الوالدين والشكر لهما بالشكر له وبعبادته فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾[6].

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[7].

والسبب فى اهتمام الإسلام بالأخلاق هذا الاهتمام كله هو أن الاخلاق أمر لابد منه لدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الناحية المادية والمعنوية وذلك لايكون إلا بالعقيدة الصحيحة والعمل لوجه الله.

ولهذا فإن الإنسان بحاجة إلى نظام خلقى يحقق للإنسان حاجته الاجتماعية ويقف أمام نزعاته المختلفة ويوجهه إلى استخدام قواه فيما يعود على نفسه وعلى غيره بالخير ولهذا أمر الاسلام بالإخاء.

والإخاء هو الرباط المعنوى الذى يربط بين الإنسان وأخيه الإنسان حبا فى الله ولله- والإخاء فى الاسلام يرجع إلى أمرين:

الأول: رباط مادى عام بين البشر جميعا وهو صدورهم عن أصل مادى واحد[8].

---

(1) مقداد يلجن- الاتجاه الاخلاقى ص٩٩. (2) سورة يونس جزء من الآية (١٣).
(3) سورة الاحقاف الآية ٣٥ بعض من الآية. (4) سورة هود الآية (١١٧).
(5) سورة الانفطار الآية (١٤). (6) سورة الاسراء الآية (٢٣). (7) سورة لقمان الآية (١٤).
(8) راجع دكتور أحمد الشاعر، مناهج البحث الخلق، ص٩٣، وراجع الدكتور محمد عبد الله دراز، دستور الاخلاق ص ٦٤، وراجع الدكتور عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الاسلامية.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾(1) .

الثاني: رباط روحى إيمانى يؤلف بين القلوب جميعا على كلمة واحدة فهو قوة إيمانية تدفع النفس إلى خلق عظيم.

﴿إنما المؤمنون اخوة﴾(2) هذه القوة أشد آصرة من أخوة الدم والنسب(3) كما بينا فى الباب الأول من البحث.

يقول الدكتور محمد حسين هيكل «يجب أن يكون الدافع النفسانى وحده والاراده الحرة المطلقة ابتغاء وجه الله دون أى اعتبار آخر وعلى ذلك فمصدر الإخاء وما يدعو إليه من بر ورحمة يجب أن يصدر عن نفس قوية لا تعرف لغير الله إسلاما ولا تضعف ولا تتهالك باسم الورع والتقوى(4) .

وبهذا يربى الاسلام النفوس على البر والرحمه ويطبعها على الألفة والمحبة ومن هنا ندرك مدى ضرورة هذا الرباط الأخلاقى للحياة الاجتماعية ولهذا أمر الحق تبارك وتعالى بالتعاون الاجتماعى فى تحقيق الخيرات ونهى عن التعاون فى الاثم.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾(5) .

كما أنه من أهم المبادئ الأخلاقية المتصلة بدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها مبدأ العدالة.

والعدالة لاتتحقق بصدق إلا بعدالة الفرد فى ذاته وذلك بالتوافق بين قواه النفسية المختلفة فيعيش على وفاق وانسجام فى نفسه وتماسك مع غيره.

فعدالة الفرد تتحقق بإعطاء ما لغيره عليه، ويقول الحق تعالى ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾(6)، ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(7) .

---

(1) سورة النساء الآية (1) . (2) سورة الحجرات الآية (10) .

(3) راجع الدكتور عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الاسلامية، والاستاذ سيد قطب، خصائص التصور الاسلامى ص88، ط دار الشروق.

(4) حياة محمد ص277، ط2، د. محمد حسين هيكل.

(5) سورة المائدة الآية (2) . (6) سورة الأنعام الآية (152) .

(7) سورة المائدة من الآية (8) .

وهكذا يأمر الله بالعدالة كل إنسان فى فعله وقوله بحسب مسئوليته وإرادته قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] .

ومن هنا ندرك أخلاقيات الإسلام فى حماية الإنسان والمواءمة بين حقوق الأفراد وحاجات المجتمع فكون العدالة[2] شاملة للمجتمع يؤدى إلى السعادة والأمن والمحبة والمودة والاستقرار.

وقد بين ابن خلدون كيف أن ضياع العدالة وانتشار الجور والظلم يؤديان إلى فساد الحياة وخراب العمران فيقول: «اعلم ان العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها لما يرون حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من ايديهم»[3] .

والإحسان فى الاسلام له معنى دقيق يكتنف الإنسان فى كل مجالاته فهو مراقبة الله فى كل شئ والاصل فى ذلك ما جاء على لسان المصطفى ﷺ فى حديث جبريل حينما سأله عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[4] .

والإحسان بهذا المعنى يلزم منه أمران متلازمان:

الأول: الإخلاص فى العمل وإتقانه وصدق النيه فيه.

الثانى: التنازل عن بعض الحقوق ابتغاء وجه الله تعالى من طواعية ورضى، ومد يد المساعدة والمعونة للآخرين بحب وإخاء.

والأصل فى ذلك كله قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[5] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[6] ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾[7] .

---

(١) سورة النحل الآية (٩٠).
(٢) وذلك بمعنى أن سيادة العدالة تؤدى إلى سيادة الأمن والمحبة والاستقرار حيث يضم الكثير من الفضائل الأخرى. نقلا من كتاب الاخلاق للاستاذ أحمد امين بك- وأمين مرسى قنديل، ص١٣٣ عام ١٩٤١.
(٣) مقدمة ابن خلدون فصل ٤٣، ص٢٤٠، ط. التحرير ١٩٣٠م.
(٤) هذا جزء من حديث الإيمان والإسلام والإحسان، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ط. عيسى الحلبى. والبخارى جـ١، ص٢٩ كتاب الايمان باب سؤال جبريل ط الحلبى.
(٥) سورة البقرة الآية ١٩٥ بعض منها. (٦) سورة النحل جزء من الآية (٩٠).
(٧) سورة الكهف بعض من الآية (٣٠).

والإحسان بذلك أسمى منزله من العدل لأن العدل مساواة فى الحقوق فهو حق فى مقابل حق- والحق أمر صعب على النفوس البشرية النزاعه إلى الانانية وغالبا مايكون فيه جفاف فى المشاركة والعلاقات الإنسانية ومن ثم كان سمو الإسلام بالإنسان إلى هذا المبدأ الكريم «الإحسان» الذى يقتل فى النفس عوامل الحقد والحسد والبخل والشح ويطبعها على الحب والوفاء والبذل والسخاء والبر والرحمة[1].

كما أن الإسلام لم يكتف بتقدير الحقوق والواجبات نحو الغير بل دعا إلى تجاوز حدود الواجبات فى المعاملة الخيره واعتبر كل عمل وكل إحسان إلى الغير صدقه «والكلمة الطيبة صدقة، وكل معروف صدقة[2].

كما أن الاسلام دعا إلى العفو وهو فضيلة اخلاقية هامة فى الحياة إذ أن العفو يؤدى إلى إزالة ما فى النفوس من شر ولهذا حبب الإسلام إلى البشر العفو والصفح حتى فى القصاص قال تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[3].

ولم يدع الإسلام إلى العفو فقط بل دعا أيضا إلى مقابلة السيئة بالحسنة لأنها أكبر عامل لخلق المودة بين الناس ذلك أن الإنسان المسئ عندما يرى الإحسان ممن أساء إليه يزيد تقديره لذلك الإنسان ويكبر اعجابه به ثم يلين قلبه ويتحول عما فى نفسه إلى مودة.

ومن ثم ينظر إلى الإساءة بالبشاعة والقبح ولهذا قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[4].

ولكى نتحقق تماما من أثر العفو فى جمع الناس والتآلف بينهم فى الحياة العملية نذكر موقف الرسول ﷺ مع المسيئين إليه فقد خرج الرسول وأبعد عن أهله فى مكه

---

(١) د. أحمد عبد الحميد الشاعر- مناهج البحث الخلقى، ص١١٥ وراجع د. مقداد يلجن- الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام ص١٠٨.

(٢) رياض الصالحين باب فى كثرة طرق الخير، ص٧١ واخرجه البخارى فى كتاب الادب جـ١٣ ص٥٥، وعن جابر بن عبد الله نقلا عن فتح البارى وتحفة الاحوزى، ورواه أحمد وأبو داود- وأخرجه مسلم فى كتاب الزكاة باب كل معروف صدقه، ص٩١، جـ٧ شرح النووى.

(٣) سورة الشورى الآية (٤٠).

(٤) سورة فصلت الآية (٣٤) وراجع الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام للدكتور يلجن، ص١٠٤.

وغادرها بعد مؤامرة دبرت له، لا لأنه أساء إلى الناس أو قتلهم وإنما لأنه كان يدعو إلى الفضيلة وإلى طريق الحق ولما عاد إلى مكة يوم الفتح ظافرا بجيشه قال: يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1].

وبمثل هذه المواقف الكريمة جمع الرسول ﷺ الناس حوله وألف بينهم. ولو كان فظا غليظا ما استطاع إلى ذلك سبيلا وصدق فيه قول الحق تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[3].

ومن هنا نرى أن الاسلام يزود الإنسان بالطاقة الحيوية التى تمكنه من أن يحيا حياة طبيعية فى أحرج الظروف، كما يستطيع بها أن يحيا حياة أبدية فى آلاخرة وهذا كما رأينا مع رسول الله ﷺ وموقفه مع المسيئين إليه.

ولهذا سمى الإسلام دعوته، دعوة الحياة فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[4].

كما أنه من أهم المبادئ الاخلاقية المتصلة بدوام الحياة الاجتماعية– الصبر.

فالصبر طاقة تزيد الإنسان قوة وصلابة يستطيع بها مواجهة الصعاب وشدائد الحياة وأهم عنصر فى الإسلام يحفظ الإنسان ويجمله.

هو عنصر الإيمان الذى يعد أساسا فى الأخلاق الإسلامية ولا يكون إلا بالصبر[5].

ونستطيع أن نصف الصبر بحق بأنه الفاصل بين الحياة الروحية والمادية ولهذا على القرآن بالصبر ومدحه ورفع منزلته وأثنى على المتحلين به ثناء لامزيد عليه ومن هنا ذكر فى القرآن الكريم فى مواطن متعددة وهذا يدل على عظم أمره لأنه أساس كثير من الفضائل.

(١) سيرة النبى لأبن هشام جـ٤ ص٨٧٠ ط صبيح ١٩٦٣م.
(٢) سورة القلم الآية (٤).
(٣) سورة آل عمران الآية (١٥٩).
(٤) سورة الأنفال الآية (٢٤).
(٥) التاج جـ٥ ص١٢٠ كتاب الأذكار والأدعية.

فهو ملكة الثبات والاحتمال التى تهون على صاحبها مايلاقيه فى سبيل تأييد الحق وازالة الباطل ولما كان الصبر يجعل الإنسان يتحمل صعوبات الحياة ببسالة وشجاعة.

قال الرسول ﷺ «الصبر ضياء»[1] لأن الصبر يضئ الحياة أمام الإنسان، فإسلام المرء مرهون بأمرين:

أولهما: الإيمان فيما يجب الإيمان به.

ثانيهما: العمل بمقتضى ذلك الإيمان. والعمل يعتمد على الصبر ولهذا فمن شأن المسلم أن يكون صابرا مهما كانت الشدائد وهكذا نجد أن التوجيهات الأخلاقية للإسلام كلها بناءه تأمر بالعمل والإصلاح فهى تدفع بطبيعتها إلى التكامل والتناسق فى جميع أمور الحياة ومن هنا كانت ضرورتها.

فالأخلاق الاسلامية ضياء ونور يضئ أمام الإنسان ويهديه إلى طريق السعادة قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

وعلى ذلك نرى الأخلاق الإسلامية لأنها تدعو كل إنسان إلى أن يكون إنسانا خيرا فى الدنيا والآخرة وهذا التكامل فى البناء الاجتماعى يقوم على توطيد العلاقات الإنسانية بين البشر على أساس الإيمان والإخلاص ثم إلى التكامل فى ميدان العمل والعلم ولهذا كان منهاج الإسلام فى الحياة هدى الله فمن اتبع هداه فلا يضل ولا يشقى.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[3] وذلك بتحقيق السعادة النفسية والطمأنينة القلبية للإنسان وتهيئة الحياة الآمنة والعيشة الراضية فى كل من حياتيه العاجلة والآجلة.

ومن هنا كانت الأخلاق الإسلامية ضرورة وغاية فى الأهمية.

---

(١) صحيح مسلم جـ١ كتاب الطهارة.. باب فضل الوضوء ص٢٠٣ ط عيسى الحلبى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.. وجامع الترمذى كتاب الدعوات جـ٥ ص١٧٧.

(٢) سورة الاعراف الآية (١٥٧).

(٣) سورة طه الآية (١٢٣).



الفصل الثانى

المعيار الخلقى ومصدره فى الإسلام

ويتضمن هذا الفصل العناصر والموضوعات الآتية:

- المعيار الخلقى فى الاتجاهات الفلسفية.
- معيار الأخلاق الإسلامية.
- سمات الأخلاق الإسلامية.

المعيار الخلقى ومصدره

المعيار هو المقياس الذى يتخذ لتقدير قيمة ما[١]وهو بهذا المعنى العام يطلق على المقياس مطلقا ماديا كان أو معنويا للوصول إلى الغرض المطلوب.

فالحكم على أمر ما بأنه خير أو شر.. خطأ أو صواب جميل أو قبيح يستدعى وجود معيار أو مقياس تقوم به تلك المعانى والحكم عليها ونقدها.

والمعيار الأخلاقى هو النموذج المثالى الذى تقاس به معانى الخير- ولما كان وضع المقاييس المادية من مهمة العلوم الطبيعية وهى لا تستدعى خلافا يذكر، إذ تواضع الناس جميعا على الأخذ بها فإن المقاييس الأدبية لأنها ليست مادية أو ملموسة.. أعنى أنها معايير معنوية مجردة أختلف الناس حولها وعلى الأخص فى مدلولاتها التطبيقية وسبل تحقيقها[٢].

فالمعيار الخلقى إذن هو تلك القيمة المنوط بها تقدير أخلاقية السلوك بحيث يحكم عليه بأخلاقيته - أو عدم أخلاقيته- ونود أن نشير إلى أنه توجد عدة آراء فى مصدر الأخلاق لدى الفلاسفة ولكن قبل عرض هذه الآراء ومناقشتها لابد أن نعرض لاتجاهات الفلاسفة الباحثين فى بيان المعيار الذى يجب أن يتبع فى دراسة الأخلاق وذلك لنكون على بينه منها.

ومن هنا فلابد أن أعرض فهمى لها باعتبارى باحثا فى موضوع من موضوعاتها- وذلك بقدر ماتفى به خطتنا وللبيان أقول:

لقد اختلف الباحثون فى المعيار الذى يجب أن يتبع فى دراسة الأخلاق على إتجاهات متعددة، فمعيار الأخلاق لدى الفلاسفة تابع فى مقوماته للاتجاهات التى يدين بها هؤلاء الفلاسفة وذلك أمر طبيعى مادام كل منهما يصدر فى منهجه عن تفكير معين ووجهة نظر خاصة. فيرجع معيار الأخلاق إلى هذه النظرة أو تلك ويطبعها بطابعه الخاص[٣].

---

(١) الاستاذ جميل صليبا- المعجم الفلسفى ص٢٩٩ جـ٢ ط - دار الكتاب اللبنانى وراجع لسان العرب لابن منظور ص٣١٨٧ جـ٤ ط- دار المعارف بمصر.

(٢) الدكتور حمدى حيا الله- الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٣٦ ط الثانية ١٩٧٧.

(٣) دكتور أحمد عبد الحميد الشاعر- مناهج البحث الخلقى ص٢٨- وراجع دكتور محمد السيد الجليند- فى علم الأخلاق قضايا ونصوص ص٢٣.

فجمهور الفلاسفة وان كانوا على اتفاق فى أن أظهر القيم والمعايير التى ينشد الانسان كماله فى تحقيقها هى: الحق.. والخير والجمال.. فإنه عند تكيف تلك القيم أو تحديد مدلولاتها كأمور صالحة للتطبيق فى مجال الفكر والسلوك أعلى عند رسمهم الخطط والمناهج والوسائل لتطبيق هذه القيم كواقع حى فى الجوانب المختلفة لحياة الإنسان. نجدهم ليسوا على كلمة واحدة فى هذا السبيل ومن خلال دراستنا لهذا الموضوع استطعنا أن نقف على المعايير التالية:

١ – أصحاب المعيار العقلى.

٢ – أصحاب المعيار النفسى.

٣ – أصحاب المعيار الاجتماعى.

٤ – أصحاب المعيار الحيوى.

٥ – أصحاب المعيار الدينى.

ولما كان المعيار الخلقى هو ما ينبغى على الإنسان الإلتزام به سلوكا وغاية وكان لهذا الأمر أثره الخطير على حياة الإنسان ومصيره مما جعل الفكر الإنسانى منذ نشأته فى أخذ ورد وجدل دائم حول طبيعة هذا المعيار ومصدره. لأنه أساس المشكلة الخلقية وجوهرها[١].

ومن هنا يتحتم علينا أن نعرض لبيان المعايير الأخلاقية ثم نستوضح المصدر الحق للقانون الأخلاقى ولكن قبل عرض المعايير الأخلاقية أود أن أستوضح بإيجاز الأسباب الأساسية فى تنوع المعايير واختلافها فى المشكلة الأخلاقية. إن هذا الخلاف يرجع أساسا لاختلاف نظريات الفلاسفة فى الوجود وأصله ومصيره[٢].

فيشمل مبحث الوجود دراسة الوجود بما هو كذلك والبحث فى مبادئه وعلله الأولى وقوانينه الكلية وغاياته وطبيعته العامة[٣].

وعن نظرة الفيلسوف فى الوجود أنبثقت نظريته فى المعرفة ويشمل مبحث المعرفة دراسة إمكانها ومداها ومنابعها ووسائلها والعلاقة القائمة بين الأشياء وبين القوى المدركة لها[٤].

---

(١) دكتور عثمان عبد المنعم عيش الظاهرة الاخلاقية ص٤٢ ط الأولى وراجع دكتور حمدى حيا الله الاخلاق معيارها بين الوضعية والدين ص٤٠. (٢) دكتور حمدى حيا الله الأخلاق ص٣٩.

(٣) دكتور عثمان عبد المنعم عيش الظاهرة الاخلاقية ص٤١ ط الأولى ١٩٧٤.

(٤) المرجع السابق.

وعن نظرة الفيلسوف فى الوجود انبثقت أيضا نظريته فى القيم ويشمل مبحث القيم دراسة قيم الحق والخير والجمال باعتبارها قيما مطلقة ومثلا عليا تدرس لذاتها لمعرفة طبيعتها وما إذا كانت مجرد معان فى العقل تقاس بها الأشياء والأفعال أم أن لها وجودا خارجيا مستقلا عن العقل[١].

وموضوع دراستها علوم المنطق والأخلاق والجمال فعلم المنطق يضع المثل الأعلى للفكر وعلم الأخلاق يضع المثل العليا للسلوك الانسانى وعلم الجمال يرسم المستوى الذى يجب أن يكون عليه كل شئ جميل[٢].

ومن هذا المنطلق نشأت تلك العلاقة العضوية فى كل معيار من المعايير الفلسفية بين نظرية الوجود والمعرفة والقيم، ومن ثم كانت تلك المباحث الثلاثة:

الوجود – المعرفة – القيم

هى أهم مباحث الفلسفة[٣]. وأصبح موضوع الظاهرة الخلقية يكون جانبا هاما من ميدان الفلسفة وبيان ذلك أن الفكر الإنسانى يرى أن الفلسفة تبحث فى ثلاث مسائل حيوية هامة وهى:

أولا: ماذا نستطيع أن نعرف؟.

ثانيا: ماذا ينبغى أن نفعل؟.

ثالثا: ماذا يمكن أن نأمل؟.

السؤال الأول منها هو موضوع نظرية المعرفة.

والسؤال الثانى هو موضوع المشكلة الخلقية.

والسؤال الثالث هو موضوع ما بعد الطبيعة.

والسؤال الثانى هو موضوع المشكلة الخلقية التى نبحث فيها الان[٤].

ولتوضيح هذه العلاقة يحسن بنا أن نتوقف قليلا لبيان تلك المفاهيم بشئ من التفصيل.

أولا: مبحث الوجود– ينقسم النظر فى الوجود إلى قسمين:

(١) دكتور عثمان عبد المنعم عيش الظاهرة الاخلاقية ص٤١ ط الأولى ١٩٧٤.
(٢) دكتور توفيق الطويل أسس الفلسفة ص٢٨ – ٣٠.
(٣) دكتور حمدى حيا الله الاخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٣٩.
(٤) دكتور ماهر كامل وعبد المجيد الرحيم مبادئ الأخلاق ص١٣ ط الأولى مكتبة الأنجلو ١٩٥٨م.

أ – القسم الأول علمي: ويبحث فى ظواهر الوجود وعلاقاته. ويتطور البحث وتفرع العلوم إلى علوم شتى اختص كل منها بالبحث فى جانب معين ويزداد تفرعها كلما اتسع مجال البحث أمام العلماء. ومن هنا ظهرت علوم[1] شتى وتوفر كل علم منها على دراسة جانب معين من ظواهر الوجود وعلاقاته. ومن مجموع العلوم يتكون لدى الإنسان نظرة متكاملة إلى حد ما عن العالم الذى يعيش فيه ولكن كل تلك العلوم على تعاونها وترابطها لاتتعدى الشكل والعلاقات الطبيعية للوجود الواقعى أى الحسى[2].

على أن الحقائق العلمية لاتحظى بالضرورة بقبول جميع العقول لها[3].

القسم الثاني: فلسفى.. ويبحث فى جوهر الوجود وعلله وأسبابه وذلك بمعنى.. هل الوجود لايعدو أن يكون هذا الوجود المشاهد؟.

وإذا كان كذلك.. فما هى حقيقته وأصول نشأته وأسباب بقائه وتطوره؟.

هل وراء هذا الوجود وجود آخر.. وإذا كان كذلك ما هى حقيقته.. وأصوله؟ وما نوع العلاقة بينه وبين الوجود المشاهد؟ ثم هل يمكن أن يكون كل هذا صدر من لاشئ أو صدر عن قوة مبدعة حكيمة؟.

واذا فرض وجود هذه القوة– فما حقيقتها وحدودها وعلاقتها بالوجود؟ وماهى الغاية من كل هذا من أين وإلى أين ولماذا؟.

وهذا المبحث الضخم الذى يتناول الوجود من حيث حقائقه وعلله وغاياته هو أهم مباحث الفلسفة والأساس لكل نتائجها فى المجالات الأخرى. وحول هذا المبحث افترق الفلاسفة فى اتجاهين رئيسيين:

---

(١) كالطبيعة والكمياء والطب والحيوان والنبات والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس.. الخ.
نقلا من كتاب الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٣٩ دكتور حمدى حيا الله.

(٢) المرجع السابق.

(٣) فالبدائيون لايقبلون التفسيرات العلمية للظواهر الطبيعية وانما تقتصر تلك على أصحاب العقول المستنيرة وإن كان العلماء يراودهم الأمل أن تصبح حقائق العلوم مقبولة عند جميع الناس فإذا كان عدم قبول بعض الناس لها لايطعن فى علميتها فينبغى أن يكون أمر الأخلاق على هذا النحو أولا يكون عدم قبول بعض العقول أو الضمائر المنحرفة لمبادئها مطعنا فى علمية هذه المبادئ فالأمل معقود على أن تتسع دائرة العقول المستنيرة والضمائر الحية التى تدين بالولاء للمبادئ الأخلاقية حتى تشمل الناس جميعا.. نقلا من كتاب الظاهرة الاخلاقية للدكتور عثمان عيشى ص٥٣ وراجع الدكتور محمد يوسف موسى مباحث فى فلسفة الأخلاق ص٢٨.

أولا: الطبيعيون:

الذين لايعترفون بغير الوجود الواقعى[١] فالعلم عندهم لايطلق بمعناه الصحيح إلا على العلوم الطبيعية وهى التى تتخذ لها موضوعا ماديا يدركه الإحساس ويهدف إلى دراسة ظواهره دراسة وصفية على نحو ماهى كائنة عليه لا على نحو ما يجب أن تكون عليه[٢].

فالقيم الأخلاقية ذاتية لا موضوعية لأنها ترجع إلى الوجدان الشخصى.

ثانيا: العقليون:

وهم الذين يعتقدون بالوجود المجرد أو العقلى[٣] فهم يتبعون منهج الاستبطان الداخلى والتأمل العقلى[٤] فالأخلاق تنطوى على قيمتها الأخلاقية ولا يتوقف إدرك ذلك على تجربتها لإدراك مايترتب عليها من لذة أو ألم[٥] فتفسيرهم للشعور الأخلاقى يؤدى بهم إلى النظرة الغائية للأخلاق.

وغاية القول فى تفسير هؤلاء للأخلاقية أنها ترجع إلى طبيعة الإنسان العقلية وإلى ماتتضمنه الأشياء والأفعال تضمنا ذاتيا من القيم الأخلاقية[٦].

ويرجع أساس الاختلاف بين الطبيعين والعقليين إلى اختلافهم فى فهم الطبيعة الإنسانية ووسائلها لاكتساب المعارف اليقينية والمبادئ العامة وتبعا لاختلافهم فى أمر العوامل الخارجية التى تؤثر فى الحياة العقلية والشعورية للإنسان ومدى ماله من استقلال فردى إزاء هذه المؤثرات الخارجية فالاختلاف فى تفسير الأخلاقية يرجع إلى الاختلاف فى طبيعة الإنسان وأداة المعرفة[٧].

ثانيا: مبحث المعرفة:

ومبحث المعرفة يتضمن أن أحكام الإنسان فى الوجود تقوم على مدى اطمئنانه لقواه الإدراكية وقدرتها على تحصيل اليقين ولكن هل هذه الثقة لها ما يبررها[٨]؟.

(١) دكتور حمدى حيا الله الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٤٠.
(٢) دكتور عثمان عبد المنعم عيش الظاهرة الأخلاقية ص٥٤.
(٣) دكتور حمدى حيا الله الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٤٠.
(٤) دكتور عثمان عيش الظاهرة الأخلاقية ص١٢.
(٥)، (٦) دكتور عثمان عيش الظاهرة الأخلاقية ص١١، ١٣.
(٧) دكتور عثمان عبد المنعم عيش الظاهرة الأخلاقية ص١٣.
(٨) راجع دكتور حمدى حيا الله الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٤٠.

ومن هنا نشأ استفسار «يعنى» هل كفايات الإنسان الإدراكية صالحة لمعرفة حقائق الوجود كما هو فى ذاته أم أنها تنقل له هذه المعرفة ملونة بطابعها هى؟.

وبمعنى آخر هل الحقائق التى أجدها فى نفسى عن الغير هى ذات الغير أم هى تعبير شخصى ذاتى عن هذا الغير؟

فما هى طبيعة المعرفة وما هى وسائلها الحقيقية؟

وحول هذه التساؤلات تعددت نظريات المعرفة عند الفلاسفة تبعا لنظرية كل منهم فى الوجود(١).

فكان الحسيون الذين ينكرون بديا وجود معرفة سابقة على الحس فالإحساس هو الطريق الوحيد للإدراك وهو الذى يقدم للعقل مادة عمله، والتجربة هى التى تقفنا على ما فى معارفنا من الصواب أو الخطأ وتضيف إليها معارف جديدة ومالا يدركه الحس ولا يخضع للتجربة لايمكن أن يكون موضوعا لمعرفة يقينية. وعلى هذا الأساس يقوم رأى هؤلاء فى أداء المعرفة وطبيعتها ويقوم تفسيرهم للأخلاقية(٢).

ويرى العقليون فى هذا المجال أن العقل قوة فطرية فى الإنسان وهو يتضمن كثيرا من المبادئ الأولية العامة التى تتميز بالصدق والوضوح ولا يتوقف إدراكها على إحساس أو تجربه كالمبدأ القائل بعدم اجتماع النقيضين أو ارتفاعهما والمبدأ القائل بتساوى الشيئين إذا كانا مساويين لثالث وعن طريق الاستنباط العقلى وعلى أساس هذه المبادئ الأولية يحصل الإنسان على معرفته بنفسه وبالوجود(٣).

فتفسيرهم للشعور الأخلاقى يؤدى بهم إلى النظرة الغائية كما قلنا وإلى اعتبار القواعد الأخلاقية أوامر صورية مطلقةً لا توجيهات جزئية نسبية(٤).

وسوف نعرض لذلك فى مكانه من البحث. وبعد بيان كل من مبحث الوجود والمعرفة نعود إلى المبحث الآخر ماذا ينبغى أن نفعل!

وهو موضوع المشكلة الخلقية التى نبحث فيها الآن وهو موضوع يجعل الأخلاق ضمن موضوعات الفلسفة العملية وهو سؤال أصعب فى الإجابة عنه من أخويه لأنه بالنسبة إلى المعرفة فإن موضوعها ثابت موجود فى ذاته يستطيع الفكر أن يصل إليه

(١) دكتور عثمان عبد المنعم عيش- الظاهرة الخلقية ص١٤.
(٢) المرجع السابق ص١٤. (٣) المرجع السابق ص١١.
(٤) المرجع السابق ص١٣.

بالتجربة. ولكن ماينبغى أن نفعله يتضمن عدة صعوبات فهو أولا يحتاج إلى تقدير ما ينبغى، ثم إن ما نفعله لم يفعل بعد فهو غير واقعى وليس له وجود سابق فى ذاته، إنه يكتسب وجوده أولا خلال الفعل، والفلسفة العملية هى التى تبحث فى الأمور المعيارية فهى التى تضع مستويات فى صورة قواعد هامة أو قيم عليا تقاس بها أفعال الناس.

ومن هنا جاءت صعوبة البحث الأخلاقى إذ أنه بحث نظرى يستدعى تطبيقا عمليا فى الوقت ذاته[1].

فمبحث القيم الأخلاقية يقوم على: من هو الإنسان؟ وما هى حقيقته؟ وما نوع علاقته بكل هذا؟ وما هو دوره والغاية من وجوده؟.

وقد عالج كل مذهب الإجابة عن هذه التساؤلات بشكل مختلف تبعا لمذهبه فى الوجود- وهكذا أصبح لكل فريق مذهب متكامل فى الوجود والمعرفة والقيم، فيه ارتباط وثيق بين تلك العناصر، وعلى ذلك نرى أن المعيار الخلقى عند كل مذهب يعتبر خلاصة لثمرة نظريته فى الوجود[2].

بعد ذلك ننتقل إلى شرح نقطة أخرى وعدنا ببيانها فى مقدمة هذا الفصل وهى المعايير الأخلاقية ثم نتبين المصدر الحق للقانون الأخلاقى:

أولا: المعيار العقلى:

يعنى أصحاب المعيار العقلى بدراسة الأخلاق على أساس من ارتباطها بالعقل فالطابع العام فى المعيار العقلى هو تفسير المبادئ الأخلاقية وتدعيمها بالعقل وجعل غايتها غاية ثابتة ومقياسها الأسمى العقل[3].

وهو كما يقول : الدكتور محمد يوسف موسى، مبنى على التفكير الفلسفى الذى يكشف للإنسان طبيعته ونفسه وعلاقته المختلفة بالعالم الذى هو جزء منه والغاية التى يجب أن يتجه لتحقيقها.

فهو يحاول ربط الإنسان بدراسة الكون وخالقه رجاء أن يكون فى الأعمال الإنسانية من التناسق والانسجام مثل مافى الكون الذى يسير إلى غاية معلومة على منهج مرسوم،[4].

(١) دكتور ماهر كامل وعبد المجيد عبد الرحيم كتاب مبادئ الأخلاق ص١٤ ط الأولى الأنجلو.
(٢) دكتور حمدى حيا الله الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٤١ .
(٣) دكتور مقداد يلجن- الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام ص٤٤ .
(٤) دكتور محمد يوسف موسى كتاب تاريخ الأخلاق ص٢٣١ ط الثانية صبيح ١٩٥٣ .

ولهذا فالأعمال الأخلاقية نفسها مصدر للإلزام الخلقى وليس مصدر الإلزام أمرا خارج عنها وهى كذلك غاية فى نفسها وتتضمن جزاءها تضمنا ذاتيا وليس جزاؤها هو اللذة أو المنفعة أو السعادة وإنما يفعل الإنسان الفضيلة لأجل الفضيلة نفسها ولاتحتاج الأعمال إلى مقياس خلقى خارج عنها من لذة أو ألم بل هى نفسها تتضمن مقياس الخير والشر[1] فيها.

ومن أهم خصائص الأخلاق فى هذا المعيار- أنها عامة وليست جزئية ضرورية وليست عرضية، واضحة بذاتها لاتقبل برهانا ولاتقبل شكا ولا جدلا ولاتحمل تناقضا[2].

ويبين ذلك الدكتور توفيق الطويل فى قوله:

«أما عموميتها فمردها إلى أن هذه المبادئ تتخطى الزمان والمكان ولا تختلف باختلاف ظروف صاحبها وأحواله، والعمومية صفة كل حقيقة يلتقى عندها كل كائن ناطق- وبذلك يستبعد من الدراسات الأخلاقية سلوك القاصر والمعتوه ومن فقد وعيه أو إرادته.

أما أنها ضرورية فذلك لأن تعقل الأشياء وفهمها لايستقيم بدونها، وبها يسهل فهم الحقائق، أما أنها واضحة بذاتها- فذلك لأنها تحمل فى باطنها الشاهد على صدقها بحيث أن مجرد فهمها يقتضى التسليم- بصوابها، ثم هى لا تقبل شكا ولا جدالا، ولاتحمل تناقضا.

ويقتضى هذا أمرين:

أ- يستحيل أن نسلم بصحة نقيضها.

ب- يستحيل أن نطبق نقيضها كقاعدة عامة لسلوك الكائن العاقل.

ومن ثم لا يصلح نقيضها أن يكون مجالا للتفكير ولا موضوعا لعمل[2].

وقد تمثل هذا الميعار لدى الفيلسوف الألمانى «كانت» وهو يتفق فى اتجاهه العقلى مع الاتجاه العقلى اليونانى فى الأخلاق الذى يتمثل لدى سقراط وأفلاطون وأرسطو.

---

(٣) دكتور عثمان عبد المنعم عيش- الظاهرة الخلقية ص١٥.

(١) دكتور توفيق الطويل- الفلسفة الخلقية ص٣٧٤.

(٢) المرجع السابق ص٣٧٥ دار النهضة العربية ١٩٦٧م.

وإن كان يختلف عن هؤلاء فى الهدف الأخلاقى إذ أنه أنكر أن يكون للأخلاق هدف أو غاية وإن كانت الأخلاق تؤدى بطبيعتها إلى الخير العام إلا أنه ينبغى ألا تتبع الأخلاق بهذه النية- بل بنية أنها الواجب فقط لاغير ولذلك يسمى الأخلاق علم الواجبات.

أما أولئك الفلاسفة فقد اتفقوا على أن تكون للأخلاق غاية- وهى الخير أو الكمال الإنسانى أو السعادة[1].

فالأخلاق عند هؤلاء نظام للسلوك الإنسانى يقوم على أساس من العقل وتكون له غاية معقولة بدل من ذلك النظام الذى يقوم على أساس العادة والعرف[2].

ثانيا: المعيار النفسى:

ويعنى أنصار- هذا المعيار بدراسة الأخلاق على أساس من العوامل النفسية ومدى تأثيرها فى السلوك الانسانى وأخلاقياته[3].

وبعبارة أخرى أن مفهوم الأخلاق فى هذا المعيار عبارة عن مبادئ للسلوك الإنسانى تنبع من طبيعة الإنسان ويبين ذلك الدكتور محمد يوسف موسى فيقول: «إن الأخلاق يجب أن تقوم على أساس من علم النفس ما دامت النفس هى التى يطلب لها الأخلاق».

وهذا الأساس هو الغريزة أو الميل أو العاطفة أو القوة النفسية التى يظن أنها لدى الناس جميعا وتسودهم فيما يأتون ومايذرون من الأعمال[4].

وعلى ذلك نرى أن أصحاب هذا المعيار يقولون بأن القيم الأخلاقية ذاتية لا موضوعية لأنها ترجع إلى الوجدان الشخصى لا إلى طبائع الأشياء وادراك الإنسان لنتائج أعماله على هذا النحو هو مصدر الإلزام الخلقى بفعل الخير والانتهاء عن الشر، وارتباط الأفعال بوجدانات اللذة والألم يجعل الجزاء الأخلاقى على الفضيلة خارجا

(١) دكتور مقداد يلجن الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام ص٣٧.

(٢) جون ديو- تجديد فى الفلسفة ترجمة أمين مرسى ص١٦٧.
ط الانجلو نقلا من المرجع السابق ص٣٧.

(٣) دكتور أحمد عبد الحميد الشاعر مناهج البحث الخلقى ص٢٩.

(٤) دكتور محمد يوسف موسى- تاريخ الأخلاق ص٢٥٢ ط الثانية م صبيح ١٩٥٣.

عنها فلا تكون هى غاية فى نفسها وفى هذا ربط للأخلاقية بالجزاء ربطا نفعياً فلا تعد ظاهرة عقلية منعزلة عن الوجدان الشخصى[١].

ومن أصحاب هذا المعيار فلاسفة المنفعة كهويز وبنتام وجون استوارت مل وفلاسفة الحاسة الخلقية كآدم سميث الذى أثبت فى الإنسان غريزة التعاطف الإنسانى وجعلها منبع الأخلاق الإنسانية[٢].

فالمنفعة أو اللذة هى المعيار للسلوك الخلقى وهى وحدها الخير الأقصى الذى يطلب لذاته وعلى ذلك فالأخلاق لدى أصحاب هذا المعيار نسبية متغيرة لا مطلقة وذلك لأنها وليدة انفعالات متراكبة من وجدانات اللذة والألم المتصلة بأعمال الإنسان[٣].

ثالثا: المعيار الاجتماعى:

يعتمد أصحاب هذا المعيار على ربط الدراسات الأخلاقية بعلم الاجتماع ربطا وثيقا حتى ظنت جزءا منه[٤].

وعلى ذلك فهم يقومون بدراسة الظواهر الخلقية على أساس من ملاحظة مدى تفاعل الفرد مع البيئة وانعكاس أثر كل منهما على الآخر ومن ثم يمكن الوصول إلى القوانين الأخلاقية اللازمة[٥].

فالقيم الأخلاقية والمثل العليا من وضع الجماعة البشرية فهى من صنع العقل الجماعى لامن صنع الأفراد وفلاسفة الأخلاق، وليس على هؤلاء إلا الخضوع لها حفظا على مصلحة الجماعة لأن الخروج على القوانين الاجتماعية يلحق بها الهلاك[٦] ولهذا كان منبع الأخلاقية ومصدر الالزام هو الجماعة نفسها.

ومن هنا فالطبيعة البشرية ليس واحدة فى نظرهم ذلك لأن الوقائع تشهد باختلاف التجارب بينهم وعلى ذلك فهم ينكرون المبادئ العامة والقواعد المطلقة

---

(١) دكتور عثمان عيش الظاهرة الخلقية ص١٥.
(٢) مقداد يلجن- الاتجاه الخلقى فى الاسلام ص٤٠.
(٣) دكتور عثمان عيش- الظاهرة الخلقية ص١٥.
(٤) دكتور محمد يوسف موسى- تاريخ الأخلاق ص٢٨٨.
(٥) دكتور أحمد عبد الحميد الشاعر- مناهج البحث الخلقى ص٣٠.
(٦) دكتور عثمان عيش- الظاهرة الخلقية ص١٦.

للسلوك البشرى لارتباط الأخلاق بالمجتمع فإن القيم الأخلاقية وقواعد السلوك تصبح نسبية ومتغيرة بتغير البيئات الاجتماعية التى تنشأ فيها[١].

وعلى ذلك يفهم من تقدم الأخلاق تقدم الحياة الاجتماعية مثل زيادة العدالة والتعاون والأمن والطمأنينة وما إلى ذلك[٢].

«فالأخلاق فى نظر أصحاب المعيار الاجتماعى علم وضعى واقعى يدرس سلوك الإنسان مرتبطا بزمانه ومكانه وليس علما معياريا مثاليا يدرس السلوك من حيث ما ينبغى أن يكون عليه وفقا للمثل العليا على أنها فوق مواصفاته»[٣].

«وعلى ذلك فكثيرا مايجد الإنسان نفسه ملزما بأداء الواجبات الاجتماعية حتى ولو وجد المعارضة من رغبته الشخصية ومن أصحاب هذا المعيار ابن خلدون وأوجست كونت، ودر كايم. فهم يقولون إن الوقائع الأخلاقية ينبغى أن تلاحظ وتوصف كما توصف ظواهر الطبيعة وذلك بمعنى أنها تفرض نفسها على الباحث كوقائع موضوعية فى الأعراف والعادات والنظم والعقائد القائمة فى كل مجتمع من المجتمعات البشرية»[٤].

رابعا: المعيار الحيوى:

يعتمد أنصار المعيار الحيوى فى بيان دراسة الأخلاق على علم الحياة فيستمدون منه الأسس والدعائم الأخلاقية ويقولون إنه بهذا يمكن أن تصبح الأخلاق علما له منهجه وقوانينه العامة المستخلصة من الظواهر المختلفة للحياة والأحياء[٥].

فتخضع الأخلاق لما فى الطبيعة من تطور وتكيف وفقا للبيئة التى يعيش فيها الإنسان.

ومن دعاة هذا المعيار «هربرت سبنسر» «وفردريك نيتشة»[٦].

(١) المرجع السابق ص١٧.
(٢) دكتور محمود قاسم- الأخلاق وعلم العادات الاخلاقية ص١٦٩ نقلا من الاتجاه الأخلاقى ص٣٦.
(٣) دكتور مقداد يلجن- الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام ص٣٦.
(٤) دكتور عبد الرحمن بدوى- الأخلاق النظرية ص٤٠ ط الثانية وكالة المطبوعات ١٩٧٦م.
(٥) دكتور محمد يوسف موسى- تاريخ الأخلاق ص٢٧٦ ط الثانية م. صبيح.
(٦) دكتور أحمد عبد الحميد الشاعر- مناهج البحث الخلقى ص٣٠.

كما أنه لايفوتنا أن نذكر أن أصحاب هذا المعيار كانوا يقولون بأن مميزات الأخلاق فى هذا المعيار بعدها عن الدين وما بعد الطبيعة اللذين كانا أساس الأخلاق فى العصور الأولى[١].

يقصد بهذا تطور فكر الفيلسوف وكيف يصل بها إلى الحقيقة فى مذهبه وعلم الحياة هو العلم الذى موضوعه الكائنات الحية وهو يشمل علوم متعددة كعلم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وعلم الحيوان.

خامسا: المعيار الدينى:

المعيار الدينى قائم عند أصحاب هذا المذهب على العقيدة الدينية ومن الحق أن نقول إن العقيدة هى حجر الأساس فى بناء الكيان الأخلاقى- ويمكن التماسها فى الكتب المنزلة والأديان السابقة بوصفها جميعا منزلة من عند الله غير أنها فى القرآن الكريم قد تمثلت فى صورة جديدة تتفق مع مابلغته البشرية من استعداد لتقبل الرسالة الكاملة للبشرية كلها- بعد أن كانت الكتب والأديان ترسل لأمم متفرقة أو شعوب خاصة[٢].

فالقرآن الكريم هو مصدر العقيدة والأخلاق، ليس ذلك فحسب بل يشمل جميع قوانين الفكر التى تنظم سلوك البشر.

وفى القرآن الكريم يتمثل قيام ترابط الجوانب الروحية والمادية والتقاء عمل الإنسان الدنيوى والأخروى، وتكامل العقل والقلب وشمول العقيدة والشريعة والخلق دون انفصال[٣].

والأخلاق الدينية فى سلوك الإنسان والمجتمع تقوم أساسا على وحدة كاملة هى وحدة الحق ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾[٤].

فلقد بعث رسوله ﷺ بالحنيفية السمحاء ليلها كنهارها وهذا هو شأن الحق يعلن عنه وضوحه ويسره[٥].

(١) راجع دكتور محمد موسى- تاريخ الأخلاق ص٢٧٦.
(٢) الأستاذ أنور الجندى- القيم الأساسية للفكر الاسلامى ص٢٠.
(٣) الاستاذ أنور الجندى- القيم الأساسية للفكر الاسلامى ص٢٠.
(٤) سورة الفتح الآية ٢٨ بعض من الآيات.
(٥) دكتور الحسينى هاشم- الدين القيم جـ١ ص٧ ط الأولى- مجمع البحوث الاسلامية ١٩٨١.

ومعرفة الحق وتعظيمه لايخلوان فى غالب الأمر عن مظهر يتمثلان فيه. ولذلك تكاد لاتخلو حقيقة التدين عن عنصر عملى يكون حلقة الاتصال بين الدين والأخلاق[1].

فالنفس الإنسانية لاتتغذى بالحقائق النظرية وحدها فبجانب حاجة الانسان إلى المعرفة والاعتقاد يحتاج فى إلحاح إلى القاعدة العملية القادرة على توجيه نشاطه فى كل لحظة من حياته[2].

فالإيمان بذاته علوية رقيبة على السرائر يستمد القانون سلطانه الأدبى من أمرها ونهيها وتلتهب المشاعر بالحياء منها أو بمحبتها أو بخشيتها.

إن هذا الإيمان هو الأقوى سلطانا على النفس الإنسانية وأشدها مقاومة لأعاصير الهوى وتقلبات العواطف. وأسرعها نفاذا فى قلوب الخاصة والعامة[3].

فلقد كان للعرب مثلهم وتقاليدهم وأنماطهم السلوكية المعنية وقيمهم الخلقية الخاصة. ولقد أبقى الاسلام بعضها وأقرهم عليها بعد أن تمم محاسنها وصحح وجهتها كما أبطل الإسلام البعض الآخر- وهو ذلك القدر الذى كان يحركة ضيق النظرة أو المنجهية أو الجهل[4].

وفى وسط هذا الصراع تجلت خلاصة المكارم- لرسول الله ﷺ واذا كان النبى ﷺ قد عرف بالأمانة والصدق والرأفة والسماحة والعفة والصبر والحزم والحلم والعفو والإحسان والمحاسبة .

فهذه كلها هى جماع الصفات المحمدية وهى أيضا كما يقول العقاد مثال الكمال الذى يطلبه لنفسه من يزع نفسه ويختار لها أحسن الخبرة.

بل جماع هذه الأخلاق كلها هو تلك الصفات التى اتصف بها الخالق نفسه فى أسمائه الحسنى وكلها مما يحمد للإنسان أن يروض نفسه عليه أو أن يطلب منه أوفى نصيب يتاح للمخلوق المحدود فيما عدا الصفات التى خص بها الخالق دون سواه»[5].

---

(١) دكتور محمد عبد الله دراز- كتاب الدين ص٥٧ ط السعادة عام ١٩٦٩م.
(٢) دكتور محمد عبد الله دراز- مدخل إلى القرآن ص٨٧ ط الاولى عام ١٩٧١م.
(٣) دكتور محمد عبد الله دراز- كتاب الدين ص١٠٢ .
(٤) دكتور كمال جعفر- مدخل إلى الأخلاق ص١٠٣- ١٩٨٠م. كما أننا نشاهد كثير من الناس فى الحياة يعرفون الخير ولا يأتونه ويعرفون الشر ويرتكبونه وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن الخطأ فى النقل والوهم فى العقل هما السبب فى البعد عن الصواب وذلك واضح كما بينا فى اتساق الفطرة الصحيحة.
(٥) عبد الفتاح الديدى ص١١٧ عام ١٩٦٩م- الفلسفة الاجتماعية عند العقاد.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

ولما كانت هذه الصفات موضع حب الله- كان التخلق بها مؤهلا طبيعيا لنيل رضا الله وهو أقصى مايراد من السعادة فيشير القرآن الكريم إلى أن النبى ﷺ المثل الأعلى والنموذج الأرفع فى الأخلاق- فلا غرور أن يقول صلوات الله وسلامه عليه «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» أى يضع اللبنة الناقصة فى هذا البناء الأخلاقى ولقد كان من أهم المميزات التى اتسمت بها التعاليم الأخلاقية المحمدية هذا التحرير التام للإنسان وتخليصه من العبودية أيا كان مصدرها وبذلك لايقتصر المثال الأخلاقى على المستوى البشرى بل ينشد سموه فى السماء بحيث ترتبط الفضائل ارتباطا وثيقا بالصفات أو بالآخلاق الإلهية.

وهذا فى حد ذاته تحول ذو بال فى المقاييس الأخلاقية . ومن الحق أن نقول كما قال الدكتور كمال جعفر: «إن الفترة التى سعدت فيها الأرض بالرسالة المحمدية كانت فترة قيام الأخلاق الإسلامية على أسس دينية قوية ظهرت عظمتها وقوتها أمام التحديات التى واجهتها[2].

فالإسلام عقيدة وقانون ولا يكفى ليكون الإنسان مؤمنا حقيقيا أن يؤمن إيمانا عميقا بالحقائق المنزلة وإنما يجب أن يكرس حياته وأمواله فى خدمة هذه العقيدة[3].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[4].

فهذه الآية الكريمة جامعة لمعنى الإنسان المؤمن وحقيقة إيمانه- ومن هنا يتبين لنا كيف عنى الإسلام ومفكروه بالأخلاق وتهذيبها- وكيف حرص على غرسها وتربيتها فى النفوس الإنسانية.

نقد المعايير السابقة:

هذا هو موجز المعايير المختلفة فى تفسير الأخلاقية عند الإنسان وهو تفسيرات تختلف فيما بينها خطأ وصوابا- وما يصح منها يتفاوت ماهو عليه من درجات

(١) سورة القلم الآية (٤).
(٢) دكتور كمال جعفر- مدخل إلى الأخلاق ص١٠٥.
(٣) دكتور عبد الفتاح بركة- التصوف والأخلاق ص٩ ط الأولى.
(٤) سورة الحجرات الآية (١٥).

الصواب. وهى بوجه عام تقيس الأعمال الأخلاقية بالمعايير الخارجية التى لا تمت إلى باطن الإنسان بصلة- ولهذا كان الاقتصار على معيار من المعايير السابقة غير المعيار الدينى مؤديا إلى القصور وعدم الإحاطة الشاملة بدراسة الأخلاق الإنسانية وذلك لأن القيم الأخلاقية قيم موضوعية لا ذاتية.

وعلى ذلك فالأخلاق فعل إنسانى إرادى والإنسان فى سلوكه إنما يصدر عن واقعه الباطنى وتبعا للظروف الخارجية المحيطة به، فالعمل الأخلاقى تؤثر فيه بواعث نفسيه، وعوامل عقلية، ومؤثرات عضوية وطبيعية واجتماعية[١].

والأخلاق فوق كل هذا كله قيمة معيارية ترسم الطريق إلى السلوك الحسن والخلق الجميل الفاضل وترشد الإنسان إلى مايجب أن يكون عليه من الخلق، وقد فشل أصحاب المعايير الوضعية فى الأخلاق لأن واحدا منها لم يستطع أن يضع معيارا يعطى حلا شاملا للأخلاق ولا أن يضع معيارا يحيط بجوانب الإنسان المختلفة ويساعد على توازنه الروحى والمادى وهذا الفشل يعود فى الواقع إلى تركيزهم على وجه واحد من حقيقة الانسان المركبة[٢] واتخاذه معيارا لتحقيق سعادته ماديا أو معنويا[٣] وليس لهذا من سبب سوى اعتماد كل من أصحاب المعايير الوضعية السابقة على كفايته الذاتية فى سبر غور الحقائق الغيبية- وتعميم أحكامه الجزئية وإدراكه جزءاً من الحقيقة على الحقيقة كلها.

يقول صاحب كتاب مبادئ الأخلاق «موضوع الأخلاق لايختص بدراسة الظواهر أو الحقائق من حيث هى ولكنه يدرسها مرتبطة بقيم معينة وتقديرات خاصة. فليست الأخلاق علما وصفيا ولكنها موضوع معيارى أو قيمى فهو لايهتم كثيرا بالتصرفات الإنسانية من حيث هى ولكن من حيث ماينبغى أن تكون عليه فهو يقيسها من حيث علاقتها بمثل عليا معينة وليست هذه المثل العليا هى خلق جديد من ابتكار الفلاسفة ولكنها نتيجة تأمل فى الطبيعة الإنسانية وكشف لاستعدادات وميول نفسية تزداد أو تقل وضوحا بحسب عوامل اجتماعية خاصة ولكنها مع ذلك من بواعث العمل والسلوك الخلقى»[٤].

(١) راجع الدكتور أحمد عبد الحميد الشاعر- مناهج البحث الخلقى ص٣١.
(٢) راجع الدكتور حمدى حيا الله- الاخلاق ومعيارها ص٨٥ ط الثانية ١٩٧٧م الجبلاوى.
(٣) راجع دكتور توفيق الطويل- الفلسفة الخلقية ص٢٧٣ ط الثانية ١٩٦٧م.
(٤) راجع دكتور ماهر كامل وعبد المجيد عبد الرحيم- مبادئ الأخلاق ص٧.

كما أن هذا الشعور فطرى- فطر الله الإنسان عليه قال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1].

وهذا الشعور يحمل الإنسان على الميل إلى بعض الصفات وكرهه لأخرى وهو وإن كان متفاوتا وعلى أقدار متنوعة فى مختلف أنواع البشر إلا أن الشعور العام بقطع النظر عن الأفراد لايزال يحكم على بعض السجايا الخلقية بالحسن وعلى بعضها بالقبح فى كل زمان،[2].

فالأخلاق لابد لها من قوة توفق بين الظاهر والباطن ذلك أن القيمة المتكاملة للأخلاق لاتظهر بوضوح إلا عند الجمع بين الجانبين ذلك لأن قيمة الأخلاق حقيقة واحدة[3].

ولست أعنى بالخلق هنا النظرية الأخلاقية[4] فيما يلوكه لسان الفلسفة وإنما أقصد الأخلاق الكاملة الصحيحة فهذه الأخلاق لابد لها من سلطان أو قوة تدفع الناس أن يصبوا سلوكهم فى معاييرها وتلزمهم أن يدينوا لها بالولاء وأن يحملوا أنفسهم عنت الطواعية لها.

فما هى هذ القوة؟ أو فما هو هذا السلطان؟.

لنفرض أولا أن هذه القوة غير منبعثة من الدين ونسير مع أصحاب المعايير المختلفة فماذا عسى أن تكون فى حقيقتها ومصدرها؟.

إنه لابد أن تكون والحالة هذه مزيجا من إيحاء المفكرين والمصلحين وسطوة الحكام والمسيطرين ذلك أن هذين العاملين هما اللذان يتضافران معا.

بعد أن يسخر ثانيهما الأول فى غالب الظروف لتكوين القوالب الخلقية وحمل الناس على صب سلوكهم فيها وفى هذه الحالة لابد أن تتسم هذه المعايير الخلقية بالسمات التالية:

---

(١) سورة الشمس الآية (١٠).
(٢) راجع الاستاذ أبو الأعلى المودودى- نظام الحياة فى الاسلام ص٧.
(٣) راجع الدكتور مقداد يلجن- الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام ص٣٢٠.
(٤) ولا أريد هنا أن اهضم حق المهتمين بالدراسات الأخلاقية من المسلمين بل من الواجب أن نعترف أن هناك رجالا من المفكرين الإسلاميين قد أبدوا كثيرا من الاهتمام بالأخلاق. كابن مسكويه والغزالى ومحمد جاد المولى والدكتور محمد عبد الله دراز.

أولا: التأثر باعتبار البيئة وبالقيم الحضارية والمدنية القائمة فى ذلك العصر إلى جانب احتمال كبير بأن تتأثر أيضا بالأغراض والميول الخاصة التى لابد أن يكون وجودها موافقا لدى واضعى هذه المعايير.

ثانيا: أن هذه المعايير لايمكن أن تجد القناعة الفكرية بها لدى جميع الناس وذلك بسبب تباين الأغراض الشخصية التى يتسع لها فى العادة طريق عريض إلى السيطرة على تلك المعايير وتوجيهها.

ثالثا: تتميز هذه المعايير الأخلاقية بتجردها من قدسية الخلود والبقاء عبر الأجيال. وتصبح أعمارها قصيرة الأمد- فهى لاتكاد فى معظم الأحيان تعايش جيلا واحدا حتى يدب إليها الوهن وتتحطم عما كانت عليه.

رابعا: من شأن هذه المعايير الخلقية أن تتحطم السدود القائمة بينها وبين الشهوات والأهواء. وحينئذ تتقلب الأخلاق شيئا فشيئا إلى فريسة ملقاة بين مخالب الشهوات الشاملة حيث تبدأ هذه الأخيرة بتحقيق معظم رغائبها باسم الفضيلة والأخلاق نفسها.

كما فى الفلسفة الوجودية[1] التى تعلن عن مبدأها التحللى وتضع هذا المبدأ ضمن إطار أنيق من النظام الأخلاقى ثم إن الصورة الكلية التى يتركها مجموع هذه المميزات الأربعة لهذه الأخلاق على لوحة المجتمع هى أخطر صورة لصراعين اثنين:

الصراع النفسى القائم فى داخل الفرد.

والصراع الاجتماعى الناشب بين فئات المجتمع[2].

ولما كان الاختلاف بهذه الصورة فى المعيار وتضارب الأقوال حول المعيار الخلقى فقد ظهر السوفسطائيون والشكاك كرد فعل لاختلاف الفلاسفة وتضارب أقوالهم

(١) اذا أردنا معرفة الوجودية الملحدة فهى متعددة ومتنوعة ونحن هنا نقصد الوجودية الشائعة المعاصرة لأنها تركز على الإلحاد والتحرر من الدين والأخلاق ومن زعمائها هيديجر وسارتر نقلا من كتاب فلسفة الأخلاق فى الاسلام للأستاذ محمد جواد مغنية ص٣٥ ط بيروت.

(٢) راجع الاستاذ محمد سعيد البوطى:
ضرورة الدين لايجاد ذاتية الأخلاق ص٢٤ مجلد٧- دعوة الحق. الرباط عام ١٣٨٣هـ.

فى المعيـار الذى يجب أن يجعله الإنسان أساسا لسلوكه الأخلاقى وبلوغ آماله فى السعادة وكتعبير عن حيرة الإنسان وعجزه التام فى سبر غور الحقيقة الإنسانية ومعيار سعادتها وخيرها، كما أنه مما يثير الانتباه والتأمل تلك الظاهرة المتكررة فى تاريخ الفكر الفلسفى فلا تكاد الفلسفة تقدم حلولا تقيم عليها من الأدلة والبراهين التى تأسر العقول لما فيها من إحكام وإتقان. حتى تعود هى نفسها بتحليل أحكامها ونقد نتائجها ثم إسقاطها وبيان مافيها من خداع وزيف فتعصف بكل شئ وتشك فى كل شئ وتعلن إفلاسها ويأسها من وجود حق أو حقيقة ثم تعود مرة أخرى تبنى من أنقاض ماهدمت بناءها الجديد[١].

وهكذا يدور أصحاب معايير الفكر الفسلفى فى حلقة مفرغة لايعرفون أين طرفاها وليس لهذا من سبب كما قلنا سوى اعتماد أصحاب كل معيار من المعايير على كفايته الذاتية وتعميم الأحكام الجزئية وإدراك جزء من الحقيقة على الحقيقة كلها. والنتيجة لتعدد المعايير الأخلاقية فى الفكر الفلسفى هى الأخفاق المستمر ولهذا يقول الدكتور عبد الكريم عثمان:

«ماعرفت الإنسانية مجتمعا يستحق الا حترام إلا المجتمع الذى يتمتع بحسن الإرادة وجودة النظام والتناصح والتكافل والعدالة ولاهى نظرت بعين الإعجاب إلى مجتمع خيمت عليه أخلاق الفوضى والتباغض والتنافر والتحاسد بين أفراد البشر»[٢].

والحيرة التى يعبر عنها «مالبرانش»[٣] فيقول:

«من المؤكد أن العقل العام هو دائما واحد لدى الناس جميعا وأن النظام العام لا يتغير ومع هذا فالأخلاق تختلف حسب الزمان والمكان»[٤].

هذا التساؤل لانجد له جوابا مقنعا عند مالبرانش أو غيره من فلاسفة الأخلاق كما رأينا لأنهم جميعا قد اتجهوا إلى كفايتهم البشرية يلتمسون عندها الجواب. ولو أنهم

---

(١) راجع دكتور عبد الكريم عثمان- معالم الثقافة الاسلامية ص٢٨٥ ط الثانية ١٩٧٤م.

(٢) راجع الدكتور عبد الكريم عثمان المرجع السابق.

(٣) مالبرانش: أحد الكتاب الكبار والفلاسفة الذين امتازوا بالعمق فى التفكير ولد عام ١٦٨٣ وتوفى عام ١٧١٥م وكان أحد تلاميذه ديكارت النابغين نقلا من كتاب تاريخ الأخلاق للدكتور محمد يوسف موسى ص٣٠٩.

(٤) دكتور محمد يوسف موسى- تاريخ الأخلاق ص٢٣٨ ط الثانية ١٩٤٣م.

اتجهوا خارج ذواتهم وتحرروا من غرورهم لأدركو أن التشريع الأخلاقى ووضع معيار متكامل ينهض بجوانب الإنسان المختلفة ويحقق آماله فى السعادة والخير أمر فوق طاقة الإنسان وقدرته وتصوراته المحدودة[١].

فالمعايير البشرية ستظل بين أخذ ورد لتفسير السلوك الإنسانى وستظل الإنسانية كذلك فى مستوى خلقى لاتحسد عليه إذا اتخذت هذه المعايير منهجا لها فى المجال الخـلـقـى[٢]. ولست أقول هذا تعصبا للأخلاق الاسلامية فى تقويم السلوك وتربية الأخلاق ولكنها كلمة حق ألقيها بين يدى هذا البحث، والإنصاف العلمى هو الذى حملنى على هذا القول ولتوضيح ذلك فسوف نتناول بالبيان أهم معيار من المعايير الخلقية فى الفكر الفلسفى ثم نتجه إلى الإسلام للتعرف على هديه فى هذا السبيل:

يجمع النفعيون على أن اللذة أو المنفعة هى معيار السلوك الخلقى وهى وحدها الخير الأقصى الذى يطلب لذاته فالأفعال لاتكون خيرا إلابمقدار ماتتضمنه من منفعة ولذة فإذا أدت إلى ضرر أو ألم أو عاقت نفعا كانت شرا وأصابت صاحبها بالتعاسة غير أنهم عند تحديد مفهوم المنفعة انقسموا إلى مذهبين:

(١) مذهب المنفعة الفردية يتزعمه هويز[٣].

(٢) مذهب المنفعة العامة ويتزعمه بنتام[٤].

---

(١) دكتور حمدى حيا الله- الأخلاق ومعيارها- الوضعية والدين ص٨٦.

(٢) الدكتور محمد عبد الستار نصار- أصول الاخلاق فى القرآن الكريم ص٣٠- ٣٢- الفكر الاسلامى- السنة الرابعة- العدد الخامس عام ١٩٧٣م.

(٣) هويز- هو توماس هويز أحد الفلاسفة الانجليز ومذهبه فى الأخلاق لايدل على اصابته فى التقدير لانه يرى أن الأنسان فى الاصل عدو الانسان وأن السلام لايمكن الاحتفاظ به فى هذا النظام الاجتماعى تحت ظل الاستبداد المطلق.
نقلا من كتاب تاريخ الأخلاق للدكتور محمد يوسف موسى ص٣١٢.
وراجع دكتور حيا الله- الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٧٦.

(٤) بنتام- مشرع انجليزى معروف ولد فى مشروع لثورة عام ١٧٤٨ ومات عام ١٨٣٢ وكان يريد من دراسته أن يكون محاميا لكن عيوب القانون وسوء تطبيقه بالمحاكم حمله على أن يخصص حياته لاصلاحه وكان المبدأ الأساسى عنده فى الأخلاق والتشريع هو المنفعة وعندما وقد جاءه هذا المبدأ من مطالعته لكتاب فى العقل للفيلسوف الفرنسى هلفيسوس نقلا من كتاب تاريخ الأخلاق للدكتور محمد يوسف موسى ص٣٠٤.

فمذهب المنفعة الفردية اعتبر اللذة هى المعيار الذى يناط به الخير الأخلاقى ويحكم على السلوك بأنه أخلاقى أو غير أخلاقى بمقدار تحقيقه لهذا المبدأ أو عجزه عنه لأن الغريزة هى المحرك الأول لانفعال الإنسان فى نظر أصحاب هذا المعيار. ومادامت هى كذلك ومادام مثل الإنسان فيها كمثل الحيوان فإن اللذة هى المقصد الأوحد للحياة وهى وحدها التى تصلح أن تكون معيارا تقاس به خيرية الأفعال وشرها فالخير هو ما يجلب لنا اللذة أو المتعة. والفعل الخير هو ذلك الفعل الذى يفضى بالضرورة إلى نتائج سارة أو خبرات ممتعة[1].

فاللذة سواء أكانت جسمية فقط أم جسمية وروحية هى المعيار الأخلاقى عند هؤلاء، والنفس العاجزة عن الاستمتاع بالملذات الجسدية كانت أو روحية هى نفس مريضة أو معتلة- هذا ماذهب إليه أصحاب معيار اللذة- ويقول هوبز أن غريزة حب البقاء هى القانون الأول والأعلى للإرادة الإنسانية وأن حركة الإرادة الإنسانية أمر طبيعى كالحركة فى مجال الطبيعة ويقرر أن دافع حب البقاء عند الفرد هو فى نفس الوقت العدو الأول لهذا الدافع عند الآخرين، فكل فرد يتبع هذا الدافع وهذا بالضرورة يحمله على الكفاح المستمر فى سبيل تحقق هذا الدافع وماينشأ عنه من العواطف الخاصة كالكراهية والحقد[2] كما أنه يرى أن الانسان لايعدو أن يكون ذئبا لأخيه الإنسان وستبقى طبيعته كذلك لايغيرها تعلم ولايزكيها تمدين والدليل على ذلك فى نظر هذا الفيلسوف المادى النفعى أن المرء لايسعى فى هذه الحياة إلا لتحقيق لذته الفردية ولو كان تحصيلها فى سبيل سعادة الآخرين.

بل لا يقف عند هذا الحد من اللذة المادية ويرى أن الإحساس بشقاء الآخرين هو كمال اللذة الشخصية وعاطفة الكراهية المتولدة من الإحساس بالآخرين كذلك مادام

---

(١) المقصود باللذة فى هذا المذهب اللذة المطلقة أيا كانت غير أن- البعض قد فطن إلى أن اللذة أو إلى أن اطلاق العنان لها قد لايكون خيرا وقد ينقلب إلى شر مما دعاهم إلى أن يقيدوا هذه اللذة بأنها لا تفضى إلى الآلام لان اللذة وان كانت هى الخير الأعظم أو الغاية القصوى لمعظم الأفعال البشرية إلا أن لها فى بعض الأحيان عواقب قد لا تكون فى جميعها خير بدليل أن الشره مثلا يصيب صاحبه ببعض الأمراض كما أن الأفراط فى الشهوات أو الملذات قد تؤدى إلى عواقب جسيمة وخيمة وإذن فمن الواجب تعديل اللذة بالألم وأجتناب اللذات التى تجر آلاما بوصفها وسائل سيئة للسعادة.
راجع دكتور توفيق الطويل. الفلسفة الأخلاقية ص١٩٢ . وما بعدها ط الثانية- دار النهضة العربية .

(٢) راجع الدكتور محمد يوسف موسى- تاريخ الأخلاق ص٢٥١ .

تحقيق المطامع الخاصة غير مطرد لوجود هؤلاء ويوم يحس الفرد أن شخصا يقدم إليه نفعا تتبدل كراهيته حبا. ولكنه حب يعادل ماقدم إليه من منفعه وحتى لا يختلف موضوع الحب بغيره فإن المحبوب فى مثل هذه الحالة هو الغرض المادى لا الشخصى الذى قدمه- وليس عجبا أن يرجع هويز كل عواطف الإنسان بعد ذلك إلى عاطفة الأثرة والأنانية المسرفة. فالإنسان بهذا الشكل أنانى بطبعه نافر بفطرته من الاجتماع متطلع إلى إشباع غريزته فى حب البقاء وتحقيق لذته ومنفعته الذاتية ويفسر الفضائل التى أقرها بهذا المعنى أيضا فيرى أن الإحساس بالغير ليس أمر طبيعيا وأنه فى حالة من غياب الأنانية والإحساس المؤقت بهذه الغريزة غريزة الغيرية إنما هو تدعيم لعاطفة الأثرة أيضا فمثلا عندما يعطف الإنسان على غيره لايكون ذلك حبا لهذا الفعل من حيث هو ولكنه إعطاء من أجل إرضاء نزعة الأنانية وهى لذة الإحساس بأن المعطى قوى يستطيع أن يسعد نفسه ويسعد غيره ولو قدر أن انسانا عمل عملا يسعى فى ظاهره إلى تخفيف البؤس عن الآخرين فإن هذا العمل فى الواقع ليس إلا درءا لبؤسهم من أن يصيب سعادته. وهكذا يفسر هويز جميع الأفعال التى تنحو فى ظاهرها نحو فعل الخير[1] فهى مقايضة يشعر الفرد معها أنه المستفيد أكثر من غيره، ولهذا نجده يسارع إلى الشكوى والتمرد على القانون أو الاحتيال عليه اذا شعر بأدنى غبن فى هذه الصفقة[2]. وهذا المعنى هو الحد الفاصل بين الانسان ومايشاركه فى المطالب البيولوجية من الكائنات الحية.

وكفى بهذا المذهب ومايشاركه فى هذا السبيل إلغاء للفضائل التى زود بها الانسان مما ينيله التكريم والاستخلاف فى هذه الأرض والسير فيها بمنهج متعادل بين المطالب المادية والمعانى الروحية التى من أخص خصائصها احساس الفرد بأنه عضو فى جماعة يعمل لصالحها ويتنازل عن بعض مطالبه فى سبيل صالحها[3].

أما عن مذهب المنفعة العامة فإننا نستطيع أن نقول إن المحور الذى يقوم عليه مذهب المنفعة هو المبدأ القائل بتحقيق أكبر قسط ممكن من السعادة لأكبر عدد ممكن

(١) دكتور محمد عبد الستار نصار- أصول الأخلاق فى القرآن الكريم ص٣٢ الفكر السلامى السنة الرابعة العدد الخامس ١٩٧٣م. وراجع الدكتور محمد يوسف موسى. بتاريخ الأخلاق ص٢٥٢.

(٢) الدكتور حمدى حيا الله- الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٧٨ ط. الأولى عام ١٩٦٧م القبلاوى.

(٣) دكتور محمد عبد الستار نصار أصول الأخلاق فى القرآن الكريم ص١٣٣ الفكر الاسلامى السنة الرابعة العدد الخامس عام ١٩٧٣م.

من الناس– فليس المهم هو سعادة الشخص الفرد بل المهم هو رفاهية المجموع مما جعل كلمة المنفعة تتخذ عند أنصار هذا المذهب طابعا اجتماعيا على اعتبار أن مصلحة كل فرد مما تتوقف على المصلحة العامة أو مصلحة الجميع حتى ان كلا من «بنتام» «وجون استيورات مل» اطلق على مذهبه اسم» أخلاق المنفعة العامة» ومذهب المنفعة بهذه الصوره قريب من مذهب اللذة غير أن «جون استيوارت مل» يأخذ فى اعتباره كيف أو نوع اللذات بدلا من الاقتصار على مراعاة كمها أو مقدارها.

فقط كما هو الحال فى مذهب اللذة لدى «بنتام» وهكذا نظر «مل» إلى الفرد من خلال المجموع بينما كان بنتام ينظر إلى المجموع من خلال الفرد[1].

ولسنا نريد أن نتعرض لتفصيل أكثر من ذلك فى عرض هذا المذهب وإن بقيت لنا من كلمة فهى الإشارة إلى أن هذا المذهب يقيس السلوك الإنسانى بالنتائج بخلاف المقاصد والنوايا وأن أصحابه حينما يدعون إلى البحث عما هو نافع فإنهم كثيرا مايتناسون أنه لابد من أن يكون نافعا لهذا الغرض أو ذاك ولاشك أن الحياة البشرية حين تستميل إلى سعى وراء المنفعة أو وراء المنافع عندئذ لن تلبث أن تفقد معناها الأصلى وقيمتها الخلقية على أنه ليس هناك ثمة نافع فى ذاته. لأن النافع لايمكن أن يكون مرادفا للخير لأن من شأن النافع أن يجعلنا نسعى إلى شئ آخر فى حين أن الخير لابد أن يكون خيرا فى ذاته.

ونتساءل: ماذا جنت تلك المذاهب النفعية من وراء ماذهبت إليه؟

إننا نعتقد أن هذه المذاهب تحمل فى طياتها عوامل فنائها. وحسبنا فى ذلك أنها معادية للفطرة التى تقر الاجتماع الإنسانى ولن يستقر ذلك الاجتماع بالضرورة إلا بالموازنة بين الواحد والجماعة والاحساس المتبادل بينهما[2].

وأخيرا فإنه لو صح إقامة المعيار الأخلاقى على المنفعة لاستحالت الأخلاق إلى مجرد علم من علوم الطبيعة أو الاجتماع. ومن جهة أخرى لو كان حكم الفرد بأن هذا خير مجرد حكم ذاتى يستند إلى إحساسه الخاص باللذة أو المنفعة أو إلى ميل نفسى

---

(١) دكتور توفيق الطويل– الفلسفة الخلقية ص٢٧٣ ط الثانية عام ١٩٦٧ دار النهضة العربية.

(٢) دكتور محمد عبد الستار نصار– أصول الأخلاق فى القرآن الكريم ص٣٣ الفكر الاسلامى– الفكر الاسلامى– السنة الرابعة العدد الخامس ١٩٧٣.

آخر لأصبح علم الأخلاق مجرد فرع من فروع علم النفس. ولكن الواقع أن هناك اختلافا بينا كبيرا بين ما يفعله الناس فى الواقع ونفس الأمر وبين ماتريد لهم الأخلاق أن يفعلوه وبالتالى فإنه لابد من رفض كل نظرية أخلاقية يكون من شأنها أن تحيل- الخير إلى أية خاصية طبيعية أو أن تدخل القيمة الأخلاقية تحت أى منظور طبيعى(١).

لهذا كان الاعتماد فى دراسة الأخلاق على معيار من المعايير السابقة غير المعيار الدينى كما سنوضح بعد غير صحيح وحسبنا أن نقول لبيان الحق فى هذا المقام إن مانعانيه هذه الأيام بل وما عانته البشرية فى تاريخها الطويل من حروب طاحنة إنما هو أثر من آثار نزعة الأنانية التى تبررها المذاهب النفعية. ويوم تتعدل تلك النظرة بالرجوع إلى القانون الطبيعى المستمد من الفطرة الإنسانية الصافية سوف تضع تلك الحروب أوزارها ويعيش الإنسان فى سلام دائم وهذا ماتهدف إليه الأخلاق الإسلامية(٢).

ولحسن الحظ فإن تلك الحقيقة كانت تجد دائما من يقربها ويعترف بأن التشريع الأخلاقى ورسم منهاج للخير والحق كلها أمور جليلة لايمكن أن يستقل بها الإنسان(٣) فمن يقول بغير ذلك يخدع نفسه ليفسح المجال أمام غرائزه(٤).

ولما كان المنطق السليم يوجب النظرة الشاملة المتكاملة فى الموضوع من أجل الوصول إلى المعيار القويم- فإننا نرى صورة الأخلاق كما رآها سانتهلير الذى يقول:

«إنه لايمكن أن تكون القوانين الإنسانية أساسا لقانون الأخلاق لانها تستمد منه، وهو الذى يقضى عليها ويدينها حينما تنحرف عن جاده أوامره الواجبة الاتباع. كذلك التربية التى يتحدى بها بعض الفلاسفة لاتفسر قانون الأخلاق الذى هو أكبر سلطان عليها من القوانين العمومية فمن أى ناحية نظر إلى علم الأخلاق لم يوجد له من حيث أصله أثر بشرى وأنه ليدبر شئون الإنسان ويلى أمره بسبب أنه ليس من علمه(٥).

(١) دكتور زكريا ابراهيم- المشكلة الخلقية ص١٨٢ ط الثانية- دار مصر للطباعة ١٩٨٠م.
(٢) دكتور محمد عبد الستار نصار- أصول الأخلاق فى القرآن الكريم ص٣٤ الفكر الاسلامى- السنة الرابعة العدد الخامس ١٩٧٣م.
(٣) دكتور حمدى حيا الله- الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٨٦- ط الثانية عام ١٩٧٧.
(٤) سانتهلير- علم الأخلاق الى نيقوماخوس ترجمة أحمد لطفى السيد ص١٧.
(٥) دكتور بارتلمى سانتهلير- علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ترجمة أحمد لطفى السيد ص١٧ مطبعة دار الكتب المصرية.. القاهرة.

ويقول: «لو أن قانون الأخلاق سلك فى التأديب سبلا غير معنوية محضه لكان فى ذلك من التناقض مافيه»[١].

وذلك قول جدير بالتقدير والاحترام ذلك أن المشكلة الخلقية منشأها طبيعة الإنسان المزدوجة من جسم وروح. وعقل وارادة وعلاقات معقدة ومتداخلة. وحاجات ورغبات متباينة ومتعارضة والنظريات التى يكون مصدرها الانسان لاتستطيع وضع قانون أو تشريع متكامل يقيم التوازن أو يوفق بين طرفى تلك الطبيعة المزدوجة وعلاقتها المعقدة[٢]. وعلى ذلك فغرائز الانسان متعددة متنوعة معقدة غير سهلة مركبة غير بسيطة فمنها الفردى الذى يدفع إلى الأنانية والأثرة ومنها الاجتماعى الذى يغرى بالتعاون والإيثار ومنها مايهبط به إلى حضيض المادة. ومنها مايسمو به إلى أفق الروح ذلك أن الانسان نفسه مخلوق مركب فى كيانه جزء أرضى وجزء سماوى هو جسد وروح وشهوة وعقل وإنسان وحيوان وملاك وشيطان.

لذا عرفه بعض الفلاسفة نظرا لاتصاله بعالم الروح وعالم المادة فقال: «الانسان مواطن فى عالمين»[٣].

والواقع أن تقديرنا الصحيح للجوانب الروحية والعقلية فى الانسان يجعلنا منذ البداية نرفض التفسير الوضعى للمعايير الأخلاقية فهذه المشكلة هى من أهم الحكم الأساسية التى اقتضت أن يتعبد الله عز وجل عباده بالدين فلقد أنزل الله تبارك وتعالى الدين ليستلم هو زمام قيادة المجتمع ضمن المخطط الخلقى الذى يضعه هو- اذ كان الله عز وجل وهو الخالق لعباده والفاطر لعقولهم وشهواتهم- أدرى بما يصلح للعباد وأعلم بالصراط السوى الذى يؤلف انسجاما بين مختلف دوافع الانسان وأغراضه. ولذا جاء الدين فوضع المعايير[٤] الأخلاقية ووضع على بعض أنواع السلوك عنوان الخير وعلى بعضها الآخر عنوان الشر.

وكان لابد لكى يوقن البشر أن النداء المحذِّر من الشر، والآمر بالخير إنما هو آت من الله تعالى- من ركن العقيدة الاسلامية التى تجعل صاحبها يوقن بوجود الله ووحدانيته[٥].

---

(١) المرجع السابق ص١٩ جـ١.
(٢) راجع دكتور حمدى حيا الله- الاخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٨٧ ط الثانية ١٩٧٧.
(٣) راجع دكتور يوسف القرضاوى- الايمان والحياة ص١٧٢ ط السابعة- دار غريب للطباعة ١٩٨٠.
(٤) سوف تناول المعايير التى قررها الاسلام وهى معايير ذاتية وخارجية فى مكانها من البحث.
(٥) راجع الاستاذ محمد سعيد البوطى- ضرورة الدين لايجاد ذاتية الأخلاق ص٢٤ جـ٢ دعوة الحق.

فالأصل الذى انبثقت عنه الأخلاق الإسلامية هو العقيدة الإسلامية وعن هذه العقيدة صورت مفاهيم الأخلاق والقيم(١).

ومن هنا فالأخلاق الإسلامية تقوم على النظرة المتكاملة الشاملة للإنسان من جميع جوانبه(٢).

فالعقيدة الإسلامية أساس لوجود المسلم كإنسان له كرامته وله فضله على كثير ممن خلق الله، كرمه بها ورفع بها شأنه وعند هذه القوة الطبيعية للعقيدة الإسلامية.

ولشريعة الله تقف الحدود الفاصلة بين شعب وشعب ليس ذلك فحسب بل بين جميع البشر قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٣).

فالإيمان بعقيدة التوحيد هو الخطوة الأولى فى إحداث تغير كبير فى الشخصية. فهو يولد فى الإنسان طاقة روحية هائلة تغير مفهومه عن ذاته وعن الناس. والحياة والكون بأكمله أنه يمده بمعنى جديد للحياة ولرسالته فيها ويملأ قلبه بالحب لله وللرسول وللناس من حوله وللإنسانية عامة ويبعث فيه الشعور بالأمن والطمأنينة(٤).

كما سبق فى مكانه من البحث وقول الحق تبارك وتعالى دعوة إلى التآخى المثمر ومبعثها وحدة الأصل المادى ثم وحدة القعيدة وهى الأصل المعنوى فى الإيمان بالله رب العالمين ثم يكون فيه التفاضل بالتقوى(٥).

فالتقوى تصاحب الإيمان بالله وتتبعه تقوى الله، والتقوى بهذا المعنى تصبح موجهة للإنسان نحو السلوك الأفضل والأحسن ونحو نمو الذات ورقيها وتجنب السلوك السيئ والمنحرف والشاذ وهذا يتطلب من الانسان مجاهدة نفسه والتحكم فى أهوائه وشهواته- فيصبح هو المسيطر عليها والموجه لها.

---

(١) راجع دكتور عبد العزيز الخياط- المجتمع المتكافل فى الاسلام ص٢٠ ط مؤسسة الرسالة.
(٢) راجع دكتور أحمد عبد الحميد الشاعر- مناهج البحث الخلقى ص٣٢.
(٣) سورة الحجرات الآية (١٣).
(٤) دكتور محمد عثمان نجاتى- القرآن وعلم النفس ص٢٥٣ ط دار الشروق الأولى عام ١٩٨٢.
(٥) راجع دكتور محمد عبد الستار نصار- أصول الأخلاق فى القرآن الكريم- الفكر الاسلامى- السنة الرابعة- العدد الخامس ١٩٧٣م.

فالتقوى إذن من العوامل الرئيسية التى تؤدى إلى نضوح الشخصية وتكاملها واتزانها- وتدفع بالإنسان إلى الارتقاء بذاته متطلعا إلى بلوغ الكمال الانسانى[١].

يقول الدكتور الأهوانى «إن الأخلاق الاسلامية هى أخلاق تقوى بكل ما تحمل التقوى من معان سلبية وإيجابية أى تجنب الحرام والاقبال على الحلال فتقوى الله مدار كل فضيلة والايثار والتقوى هما لحمة الأخلاق الاسلامية وسداها»[٢].

وهذا هو المعنى الذى أوضحة الرسول ﷺ فى قوله «إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى[٣].

ومن هنا ندرك أن القرآن الكريم والسنة الشريفة إنما ينحوان بالأخلاق نحوا عالميا وذلك كله إعجاز مابعده إعجاز- فهما دعوة إلى التعاطف والحب القائم على وحدة العنصر التى تعطى الأخلاق الإسلامية صفة العموم والتى ترتفع فوق مستوى حواجز الزمان والمكان أو اللون أو الجنس، وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[٤].

وحديث الرسول ﷺ:

«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[٥].

وهذا تقريب لما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون من واقع معنوى وعلى ذلك ندرك قول الفيلسوف البريطانى المعاصر- برتراند رسل يقول «الإنسان أكثر تعقيدا فى نزعاته ورغباته... وتنشأ الصعوبات التى يواجهها من هذا التعقيد فهو ليس اجتماعيا تماما مثل النمل والنحل ولاهو انفرادى تماما مثل الأسود والنمور- إنه حيوان شبه اجتماعى وبعض نزعاته ورغباته اجتماعى وبعضها انفرادى ويبدو الجانب

(١) راجع دكتور محمد عثمان نجاتى- القرآن وعلم النفس ص٢٥٤.
(٢) راجع دكتور أحمد فؤاد الأهوانى- التربية فى الاسلام ص١١٨.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) راجع دكتور محمد عبد الستار نصار- أصول الأخلاق بالقرآن الكريم ص٣١- الفكر الاسلامى- السنة الرابعة- لعدد الخامس ١٩٧٣م.
(٥) صحيح مسلم جـ١٦- باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ص١٣٩.

الاجتماعى فى طبيعته من أن الحبس الأنفرادى يعتبر عقوبة بالغة الشدة ويبدو الجانب الآخر فى حبه للاستقلال بأموره الخاصة وعدم التحدث فيها للغرباء ولأننا لسنا اجتماعيين تماما فنحن فى حاجة إلى أخلاق لتوحى لنا بالأهداف والى قواعد أخلاقية لتفرض علينا قواعد التصرفات[1] ومن هنا يجب علينا أن نتبين من الذى يضع للإنسان القواعد الأخلاقية الصحيحة، وما الذى يحدد للإنسان سلوكه المستقيم- هل هو القانون أم معايير الفلسفة الأخلاقية أم هو الدين والعقيدة؟.

ويحسن هنا أن نقف لبيان هذه المفاهيم بشئ من التوضيح.

القانون فى اللغة:

هو مقياس كل شئ[2] وعرفه العلماء بأنه مجموعة القواعد التى تنظم العلاقات الاجتماعية. والتى يلتزم الأفراد باتباعها خشية توقيع الجزاء المقرر على مخالفتهم إيـاهـا[3] فالقانون لايوجد فى فراغ بل يوجد جنبا إلى جنب مع المبادئ الخلقية المتعاونة. ومن الواضح أن علاقة القانون بالقواعد والقوانين الخلقية ذات أهمية عظمى فى كل مجتمع بشرى[4] وعلى ذلك فالإنسان يعيش فى هذه الحياة وهو محاط بقوانين مختلفة ملزم بالخضوع لها، إذا ماتتبعنا هذه القوانين وجدناها تتمثل فى الأنواع الآتية:

(١) قانون طبيعى.

(٢) قانون بشرى وضعى.

(٣) قانون إلهى.

(٤) قانون أخلاقى.

أما القانون الطبيعي.. فهو النظام الثابت الذى يدبر الله به الكون والسنن التى تسير عليها الكائنات ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[5]

---

(١) الاستاذ برتراند رسل- المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة ص١١ نقلا من كتاب الايمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوى ص١٧٢ ط السابعة.

(٢) راجع دكتور محمد يوسف موسى مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٦٠.

(٣) راجع دكتور منصور رجب تأملات فى فلسفة الاخلاق ص٢٨٨.

(٤) اللورد دنيس لويد- فكرة القانون ص٥ تعريب المحامى سليم الصويصى. مراجعة سليم بسيسو عالم المعرفة بالكويت العدد ٤٧ عام ١٩٨١م.

(٥) سورة يس آية (٣٧- ٤٠).

وذلك يشمل القوانين التى يدركها العقل بالمشاهدة والتجربة المطردة كقانون الجاذبية وتمدد الأجسام بالحرارة..

فالقانون الطبيعى قانون عام ثابت صالح لكل زمان ومكان وهذا اللون من القوانين لاتتعلق به الإرادة الانسانية ومن هنا فلا تعلق له بالبحث فى الجانب الأخلاقى.

وأما القانون الوضعي: فهو مجموعة القواعد التى تنظم الحياة الاجتماعية والتى يلزم الأفراد باتباعها. خشية توقيع الجزاء المقرر على مخالفتهم اياها فهو غير ثابت يستطيع أى إنسان ألا يعتّد به ولذلك احتاج لقوة خارجة عنه لتنفيذه[1] بقوة القانون ومن هنا فهو لايصلح أن يكون مقياسا أخلاقيا عاما ودائما.

وأما القانون الإلهي: فهو عبارة عن القواعد التى فرضها الله تبارك وتعالى بوحى إلهى ينزل من السماء على من إختصهم الله برسالته وإلى هذا يشير القرآن الكريم قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾[2].

وهكذا تتفق الأديان كلها فى الأصل وتختلف فى السبل الموصلة إلى هذا الأصل[3] فهى تجمع على أنواع البر من الطهارة والصلاة والتقرب إلى الله فالقانون الإلهى خالد واتباعه كفيل بسعادة الدنيا والآخرة.

أما القانون الاخلاقي: فهو عبارة عن مجموع القواعد الأدبية التى تنظم سلوك البشر، والتى يحس الإنسان بأنه ملزم بالعمل عليها وهذه القواعد تشرعها وتنفذها السلطة الباطنية فى الإنسان وهى الضمير أو الوجدان فهى قوانين ثابتة لا تتغير وان تفاوتت الضمائر البشرية قليلا أو كثيرا فى فهم معانيها أو تنظيمها بتأثير الزمن أو الملابسات المختلفة[4].

وعلى ذلك ندرك أن القانون الطبيعى ليس- كما قدمنا- محل بحث الأخلاق فهو محل بحث العلوم الطبيعية[5]- وأيضا ندرك أن الفرق بين القانون الإلهى والقانون الأخلاقى لايكاد يذكر فالقصد منهما واحد. وإن كان بينهما من فروق من جهات أخرى تتمثل فى الآتى:

---

(١) راجع دكتور منصور رجب- تأملات فى فلسفة الأخلاق ص٢٦٣.

(٢) سورة النساء آية (١٦٣). (٣) راجع المرجع السابق.

(٤) راجع دكتور محمد يوسف موسى- مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٦٤.

(٥) ذلك أن الانسان لايستطيع أن يمنع الحديد أن يتمدد بالحرارة والتفاحة حين تنفصل من الشجرة أن تصعد إلى أعلى بدلا من أن تسقط إلى أسفل.

أ- من ناحية المشرع: فالقانون الإلهى من وضع الله تبارك وتعالى- أما القانون الأخلاقى فتشرعه سلطة باطنية هى الضمير أو الوجدان.. أو العقل[1].

ب- وهناك فرق آخر من ناحية الجزاء:

فالجزاء فى القانون الإلهى يأتى فى اليوم الآخر أى فى الدار الآخرة.. أما القانون الأخلاقى فيكون فى الدنيا من تأنيب الضمير وإن كان هذا لايمنع من أن يلقى المخالف للقانون الدينى جزاءه فى هذه الدار أيضا[2].

ولما كان القانون الأخلاقى ينفرد به الإنسان والقانون الوضعى يضعه الإنسان إلا أنهما يختلفان فى عموم الموضوع وخصوصه وبيان ذلك.

(١) ان القانون الوضعى من وضع الإنسان فهو قانون فرضى قابل للتغيير وذلك لأن الإنسان الذى وضعه راعى الظروف والأحوال حين وضعها هذا من ناحية ومن ناحية ثانية أنه قد يظهر بالتطبيق عدم صلاحية القانون الوضعى- إما لجهل واضعه بشئون الأمة التى يشرع لها أو لمضى الزمن[3] واختلاف الحال فهو قد يكون فاسدا[4].

أما القانون الأخلاقى فحتمى وغير قابل للتغير فهو من وضع القلب الصحيح وعلى ذلك لايكون إلا صالحا متى ثبت أنه اخلاقى.

(٢) ان القانون الوضعى لايهتم إلا بالأفعال الضرورية التى تهمة وتهم المجتمع الذى يعيش فيه- كما أنه لايؤاخذ إلا على نتائج الأعمال دون نظر لبواعثها.

أما القانون الأخلاقى فيعنى بالأفعال وبواعثها التى تزيد فى سعادة الإنسانية عامة وتصل بين المرء والمثل الأعلى للحياة الأخلاقية الكاملة[5].

---

(١) راجع الدكتور منصور رجب- تأملات فى فلسفة الاخلاق ص٢٩٩.

(٢) المراجع السابق ص٣٠٠ وراجع الدكتور محمد يوسف- مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٩٥.

(٣) فمثلا مبدأ المحافظة على الحياة يقدسه كل فرد وأن أباح البعض قديما قتل الأسرى لضرورة حربية- وأيضا وأد البنات لضرورة اجتماعية مع وجود من كان ينكر هذه العادة- أشد الأنكار ولهذا روى لنا المؤرخون أنه كان هناك من أشراف تميم فى الجاهلية من مقت الوأد وعابه فكان يشتريهما من ذويهم وممن عرف ذلك عنه غاكب بن أبى صعصعة الشاعر.. نقلا عن الدكتور محمد يوسف موسى- مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٦٥.

(٤) راجع دكتور منصور رجب- تأملات فى فلسفة الأخلاق.

(٥) فمثلا يطالبنا القانون الوضعى بالمحافظة على أموال الناس أما أموالنا الخاصة فأباح لنا حرية التصرف فيها بما نريد ولكن قانون الأخلاق يأمرنا فوق المحافظة على أموال الغير بالتصرف فى أموالنا بما فيه خيرنا وخير الأمة جميعا. نقلا من كتاب مباحث فى فلسفة الاخلاق دكتور محمد يوسف ص١٦٦.

(٣) ان القانون الوضعى يحتاج إلى قوة خارجة لتشريعة وتنفيذه .. أما القانون الأخلاقى فقوته هى القلب– فهى سلطة باطنية[1] .

(٤) ان القانون الوضعى لايثب المطيع وإنما يؤاخذ العاصى المتمرد عليه أما القانون الأخلاقى فيثب الطائع بالرضا النفسى والهدوء وطمأنينة القلب كما يعاقب العاصى بالتأنيب الداخلى والاحتقار[2] .

بعد توضيح القانون وبيان مفهومه . نقول ،إن الاعتراف بأن نظاما من القواعد والقوانين ضرورى حتى فى أبسط أشكال المجتمع يبدو أمرا ضروريا لا مفر منه[3] فهو أمر لابد منه لتنظيم شئون الجماعة وتحديد علاقتها ولكنه لايصلح وحده ضابطا للسلوك البشرى لأن سلطانه على الظاهر لا على الباطن ودائرته فى العلاقات العامة لا فى الشئون الخاصة ومهمته أن يعاقب المسئ دون أن يستطيع مكافأة المحسن على أن التحايل على القوانين ميسور وتطويع نصوصها للأهواء مستطاع والهروب من عقوباتها ليس بالشئ العسير. وإذا كان القانون عاجزا عن أن يكون زاجرا عن الشرور رادعاً عن الجريمة والفساد فإنه لأعجز وأعجز عن أن يكون دافعا إلى خير أو باعثا على حق أو حافزا على عمل صالح، ومهما افترضنا فى القانون الإنسانى من مطابقة العدل والحق فإنه على كل حال ليس له قوة ذاتية[4] وعلى هذا فلا قيام للحياة فى الجماعة إلا بالتعاون بين أعضائها وهذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته ويحدد حقوقه وواجباته وهذا القانون لاغنى له عن سلطان نازع وازع يكفل مهابته فى النفوس ويمنع انتهاك حرماته[5] .

وعلى ضوء هذا نقرر أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة العقيدة الإسلامية أو تدانيها فى كفالة احترام القانون وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه والتئام أسباب الراحة والطمأنينة[6] فيه والسر فى ذلك أن الانسان يمتاز عن سائر

(١) راجع دكتور منصور رجب تأملات فى فلسفة الأخلاق ص٢٩٧ .

(٢) راجع دكتور محمد يوسف موسى مباحث فى فلسفة الاخلاق ص١٦٦ .

(٣) اللوردة دنيس لويد فكرة القانون ص٢٩ تعريب المحامى سليم الصويعى مراعة بسيسو– عالم المعرفة بالكويت عام ١٩٨١ عدد٤٧ .

(٤) دكتور يوسف القرضاوى الايمان والحياة ص١٧٣ ط السابعة عام ٨٠– غريب.

(٥) دكتور محمد عبد الله دراز– الدين ص١٠١ .

(٦) المرجع السابق.

الحيوانات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شئ لايقع عليه سمعه ولا بصره ولايوضع فى يده ولا فى عنقه. ولايجرى فى دمه ولا فى عضلاته ولا فى أعصابه. وإنما هو معنى إنسانى روحانى اسمه الفكر والعقيدة ولقد ضل قوم حسبوا أن الفكر والضمير لايؤثران فى الحياة المادية والاقتصادية بل يتأثران بها... ونقصد الماركسيين[1] على أن العلم لايتناول الظواهر المحسوسة جميعها بل يقف حائرا أمام مشكلاتها جميعا وإلى هذا أشار القرآن الكريم بدقة بالغة فى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[2] «فهم لايعلمون جميع الظواهر وإنما يعلمون ظاهرا ساقه الله منكّرا للدلالة على ضلالتهم ثم كرر الضمير «هم» وهم عن الاخرة هم غافلون.. لابراز ضلالتهم على الرغم مما يتبجحون به من ادعاءات[3] فالانسان مقود أبدا بفكرة صحيحة أو فاسدة فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شئ وإن فسدت فسد كل شئ.

أجل إن الإنسان يساق من باطنه لامن ظاهرة وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون[4] وعلى ذلك فالقانون لايتجه إلى الإصلاح بقدر مايتجه إلى العقاب وماتحتاج إليه المجتمعات أولا إنما هوالاصلاح والتوجيه لا العقاب ومن الخطأ البين أن نظن أن فى نشر العلوم والثقافات وحدها ضمانا للسلام والرخاء وعوضا عن التربية والتهذيب الدينى والخلقى ذلك لأن العلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير. ولا بد فى حسن استخدامه من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض لا إلى الشر والفساد ذلك الرقيب هو العقيدة والإيمان،[5] فلا أخلاق من غير إيمان. وأما

(١) دكتور محمد عبد الله دراز كتاب الدين ص١٠١ عام ١٩٦٩ بتصرف يسير.

(٢) سورة الروم الآية (٧).

(٣) الاستاذ على عبد العظيم- إن الدين عند الله الاسلام المؤتمر ٨ لمجمع البحوث ص٣٤٨ جـ٢ عام ١٩٧٧م.

(٤) دكتور دراز الدين ص١٠٢ ط السعادة.

(٥) دكتور محمد عبد الله دراز- كتاب الدين ص١٠٢ وراجع الدكتور يوسف القرضاوى- الايمان والحياة ص١٧٤ ط السابعة عام ١٩٨٠م.

معايير الفلسفة الخلقية فلا يمكنها توجيه البشر عامة إلى الفضيلة والسعادة وذلك لما بينا من ازدواج الطبيعة البشرية وعلاقتها المعقدة هذا من جهة... ومن جهة أخرى فإنه من الواضح أن هناك نوعين من الخير يهدف التشريع الأخلاقى إلى تحقيقهما.

أولهما: السعادة: ومصدرها الشعور والوجدان.

وثانيهما: الفضيلة: ومصدرها العقل والقلب.

وعلم الأخلاق يسعى جاهدا فى توحيد هذين النوعين من الخير: السعادة والفضيلة- كغاية قصو للسلوك الإنسانى[1] ولكن هل برهن علم الأخلاق على هذا الهدف؟ هذا مانشك فيه بل هذا هو السؤال الذى فشل العقل فى الإجابة عليه. كيف يمكن التوفيق بين السعادة والفضيلة. رغم أختلاف مصدرهما؟.

فالسعادة كما قلنا مصدرها الإحساس، والفضيلة مصدرها العقل كما أن الفضيلة تتحقق بالتخلص من ضغط رغباتنا وأهوائنا والتضحية بها فى سبيل الحق الواجب. بينما سعادتنا تتحقق بإشباع رغباتنا وعواطفنا والبعد عن كل ما يؤلمنا، وهكذا نجد أنه بينما تتحقق الفضيلة بالجهاد والتضحية نجد السعادة فى الراحة والهدوء والاطمئنان من هذا نشأت المشكلة الخلقية كيف يمكن أن يكون الإنسان سعيدا وفاضلا فى أن واحد؟.

هذا مالم تستطيع كل المعايير الفلسفية والمذاهب الوضعية على مر التاريخ أن تضع له حلا متكاملا أو معيارا متوازنا[2] فأى فلسفة أخلاقية تلك التى يتبعها الناس وكل فليسوف له مذهب وكل مذهب له مقياس[3]؟.

ولعل أكبر دليل على فشلها كثرة المعايير والنظريات المتضاربة وماترتب عليها من نتائج جاءت بعكس الحقيقة ورفضنا للفلسفة الأخلاقية ليس رفضا للأخلاق نفسها فالأخلاق ملاك الفرد الفاضل وقوام المجتمع الراقى يبقى ويستقر مابقيت ويذهب ويتلاشى إن ذهبت بل لاحياة له بغيرها[4]. فالإنسان فوق مافى طبيعته من تعقيد

(١) دكتور حمدى حيا الله الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٨٧.
(٢) المرجع السابق بتصرف ص٨٨ بتصرف يسير.
(٣) دكتور القرضاوى الايمان والحياة ص١٧٤.
(٤) دكتور يوسف القرضاوى- الايمان والحياة ص١٧٥.

وتركيب وتنوع كائن ينفرد بالإرادة مما يجعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل التنبؤ اليقينى بسلوكه واختياراته كما أنه ليس من صنع نفسه أو غيره من المخلوقات فكيف يمكن لأحد من البشر مهما عظم قدره وضع تشريع يوفق ويحيط بطبيعة معقدة لم يخلقها ولم يكن له دخل فى ابداعها[1]. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فقد قررنا عند بيان مفهوم الخلق أن الأخلاق علم معيارى بمعنى أنه يضع القواعد العامة والثابتة كنموذج مثالى للسلوك يجب الالتزام به فى كل الأحوال. فأصحاب المعايير الأخلاقية فى الوقت الذى يقولون فيه إن موضوع علم الأخلاق هو السلوك الارادى من حيث مايجب أن يكون فهم يوقعون أنفسهم فى إشكال من الصعب إزالته لأنه لما كانت حياة الإنسان وحاجاته متنوعة ومتجددة باستمرار فسوف نجد أنفسنا أمام الاشكال التالى:

كيف يمكن التوفيق بين القاعدة التى يضعها علم الأخلاق للسلوك وبين واقع الانسان الذى يصدر عنه هذا السلوك؟.

إننا إن أخذنا بالقاعدة دون التفات إلى الواقع كان معنى ذلك رد السلوك الانسانى إلى نموذج ثابت جامد متماثل مثل القانون الرياضى أو الطبيعى. وفى هذا إلغاء للواقع وتجاهل لطبيعة الإنسان وتنوع رغباته وميوله ونزعاته وقدراته وظروفه المختلفة زمانية أو مكانية. وإن أخذنا بالواقع فمعنى ذلك الاعتراف بإلغاء القاعدة والقانون وعدم جدوى ما يسمى علم الأخلاق.

ومن هنا فالمعايير الأخلاقية الوضعية– أو علم الأخلاق الوضعى سيجد نفسه بين خيارين: إما أن يحافظ على القاعدة التى يضعها كنموذج للسلوك الأخلاقى ويهمل الواقع. وإما أن يحترم تنوع الطبيعة الانسانية وتفاوت الأفراد فى قدراتهم وغاياتهم وظروفهم المختلفة وينهى الحديث عن قاعدة عامة تحيط بهذا الواقع ويعلن فشله فى وضع علم فى هذا الخصوص[2] غير أن الدين لايقف عند حد الدعوة إلى مكارم الأخلاق وتمجيدها إنه هو الذى يرسى قواعدها ويحدد معالمها ويضبط مقاييسها الكلية[3]. فمحاولة القول بأن الإنسان أصبح راشدا وليس فى حاجة إلى توجيه إلهى هو

(١) د. حمدى حيا الله الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٨٩.
(٢) راجع دكتور– حمدى حيا الله– الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٨٩.
(٣) دكتور يوسف القرضاوى– الايمان والحياه– ص١٧٦.

من الآراء الزائفة والشبهات الباطلة ذلك أنه إذا كان الانسان فى حاجة إلى هذا التوجيه فى القديم فما الذى جد عليه من معطيات جعلته مستغنيا عن ذلك التوجيه فى الحاضر. هل هى معطيات العلم المادى والتكنولوجيا وهى فى مجموعها لاتتصل بالنفس الانسانية بل لعلها قد أقامت حجابا إزداد كثافة حول مفاهيم الايمان[1] ؟ فالانسان فى حاجة دائمة إلى التوجيه الإلهى وذلك لأن طبيعته قائمة على هذا، وهى طبيعة ثابتة فالانسان خلق هلوعا إذا مسه ضر لجأ إلى الله فإذا خوله نعمة نسى وقال إنما أوتيته على علم وهذه الجبلة ثابتة لاتختلف وعلى ذلك فهى فى حاجة دائمة إلى موقظ ولايتحقق ذلك إلا بالايمان بالله. فاعتماد الإنسان على العقل البشرى وحده واستقلاله به وحده ليس كافيا فى تقديم المعرفة الحقة ولافى بناء اليقين والطمأنينة النفسية وعلى ذلك فالعقل البشرى لايستطيع أن يعطينا الصورة الكاملة إلا إذا دعم بالوحى. ومن هنا يتضح لنا ان استقلال الإنسان بالتشريع الأخلاقى كان السبب المباشر لعجزه عن التوفيق بين الفضيلة والسعادة أو تحقيق الانسجام والتوافق بين طبيعته المادية والروحية لأنه دائما: إما أن يقنن لطبيعته الروحية متجاهلا فى ذلك طبيعته المادية أو يشرع لطبيعته المادية متجاهلا أثر طبيعته الروحية. مع اعترافه بأنه لم يخلق هذا ولاذاك ولم يكن شريكا فى خلقهما وهذا ما ينبه به القرآن الكريم ذوى البصائر فى قوله تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[2] فالانسان فى حاجة إلى أن يعرف مهمته فى هذه الحياة ورسالته وبذلك تتضح الحقيقة التى بها فقط يتم للانسان مايصبو إليه من السعادة والفضيلة وهى التسليم بأن التشريع الأخلاقى ليس له إلا مصدر واحد هو الوحى الإلهى. فهو وحده الذى يتوجه إلى النفس بأكملها ويقدم إليها زادا متكاملا يتغذى منه القلب والعقل والجسد بدرجة متساوية[3] وعلى ضوء ذلك نقرر أن العقيدة الاسلامية هى النور الكاشف للنفس الانسانية قال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[4] أى طريق النجاه والسلامة ومناهج الاستقامة[5] فلقد جاء الإسلام ليحمى النفس الإنسانية من التمزق.

(١) الاستاذ أنور الجندى- مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق فى الاسلام ص٤٥.
(٢) سورة الكهف الآية (٥١) (وراجع الدكتور حمدى حيا الله الاخلاق ص٩٠).
(٣) المرجع السابق.
(٤) سورة المائدة جزء من الآية (١٥).
(٥) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٣٤.

فالإنسان فى كل زمان ومكان فى حاجة إلى ذلك الضوء الذى يحميه ويحول بينه وبين تدمير نفسه والتردى فى مهاوى الشقاء ذلك هو نور الله الذى جاء عن طريق الدين الحق الذى يوائم له بين جسمه ونفسه، وبين ماديته وروحانيته، والذى يضع له الضوابط فى الأساس والإطار[1] وبذلك نتبين فساد الفكرة القائلة «بأن المجتمع البشرى على أى مستوى كان يمكن أن يقوم على أساس أن بمقدور كل فرد أن يعمل ما يعتقده صوابا فى حالته الخاصة فهى فكرة خيالية لاتستحق الاعتبار. ذلك أن مجتمعا كهذا لن يكون قط مجتمعا بدون نظام كما يقول «ريد» بل سيكون الغاء ونفيا للمجتمع نفسه»[2]

ومن هنا تكون ضرورة القانون فى المجتمع البشرى. فلقد صور البعض علاقة القانون بالأخلاق بدائرتين متداخلتين[3] فبالإضافة إلى أن الإسلام عقيدة وقانون، فإنه لايكفى ليكون الإنسان مؤمنا حقيقيا أن يؤمن إيمانا عميقا بالحقائق المنزلة فحسب، وإنما يجب أن يكرس حياته وأمواله فى خدمة هذه العقيدة[4] وعلى هذا يتبين أنه بدون الدين لايمكن أن تكون هناك أخلاق وبدون الأخلاق لايمكن أن يكون هناك قانون[5] وذلك للتطابق الوثيق بين قواعد الأخلاق والقانون ويتضح ذلك فى اللغة التى يستعملانها فكلاهما معنى بوضع قواعد أو معايير للسلوك البشرى[6].

بقى أن نتساءل هل هناك ضرورة للبحث الخلقى مع وجود القانون الإلهى؟ لماذا لانكتفى بأن ندرس ضوابط السلوك الانسانى التى أتى بها الدين بدلا من أن نخوض فى هذه المعايير الخلقية الطويلة العريضة المضنية؟. وأخيرا أليس الغرض من القانون الإلهى هو نفسه الغرض من القانون الأخلاقى؟.

وجوابنا عن ذلك أن القانون الأخلاقى لاينبع إلا من الدين الحق ولابد أن يؤخذ الدين بكل ما فيه ليمكن أن يؤدى رسالته الإصلاحية المنشودة والتى أشار الله إليها فى

---

(١) راجع الاستاذ أنور الجندى. مفاهيم العلوم الاجتماعية ص٥٤.
(٢) اللورد دنيس لويد- فكرة القانون ص٢٦ تعريب المحامى سليم الصويصى مراجعة سليم بسيسو- عالم المعرفة بالكويت عدد٤٧. (٣) المرجع السابق.
(٤) راجع الدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة فى التصوف والأخلاق ص٩.
(٥) راجع الدكتور دنيس لويد فكرة القانون ص٧١.
(٦) اللورد دنييس لويد فكرة القانون ص٧١.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١] لابد أن يكمل الاعتقاد ويقوى في النفوس. لأن العقائد هي التي توجه السلوك فهي تدفع الإنسان للحق. والواقع أن القرآن الكريم الذي أهدى إلى البشرية منذ خمسة عشر قرنا قد قام على محور واضح الدلالة في التركيز على بناء الانسان على نحو شامل جامع، ومن خلال منهج يربط بين المادة والروح فيه[٢] ولاريب أن هذه الحقيقة تجعلنا نعتقد أن الكتب السماوية السابقة له والتي جاء مصدقا لها، وكذلك رسالات السماء كلها التي جاء الإسلام متمما لها قد أولت الإنسان عناية كبرى وأن كل المعاني التي كانت تزخر بها الحياة البشرية قبل الإسلام من قيم الأخلاق إنما تعود إلى تراث الأديان أساسا وإلى الفكر الرباني الأصل، الإنساني الطابع بينما تعود كل مفاهيم الوثنية والالحاد والظلم والجحود إلى تراث- الفكر البشري ولا ريب أن هذا الصراع الحاد بين العقل والروح من ناحية وبين النفس والجسد من ناحية أخرى هو ثمرة الفكر البشري الذي تخطى القيم والضوابط والحدود التي رسمتها الأديان للإنسان وانطلق نحو الغاية الموحشة[٣]. فلقد كانت البشرية في حاجة إلى ثبات المصدر العلوي وتحريره من التفسيرات الفاسدة والتماس مفهومه الأصيل فإذا صححت البشرية مفاهيمها على ضوء التوحيد استطاعت أن تعتصم بقيم الثبات وتتحرك حركتها الأخلاقية في وجهة الخير والتقدم المعنوي والمادي معا، غير أن انفصال الدين عن مفهومه الحق وخضوعه للتفسيرات البشرية أخرجه عن حقيقته[٤]. والقرآن الكريم يقرر أن الكتب السماوية كلها أصل واحد على لسان جميع الأنبياء. والدين أصله وحي من الله تبارك وتعالى أرسل الله به رسلا اصطفاهم من عباده لهداية البشر، ولقد كانت الرسالات السابقة على الاسلام كلها خاصة غير أن القدر المشترك بين الرسالات جميعا هو تصحيح العقيدة أولا ثم معالجة الأمراض الخلقية والاجتماعية، وتأكيد القيم الخلقية العامة التي لا تتغير بتغير الأقوام والأزمان قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[٥]

(١) سورة المائدة الآية (١٦).
(٢) راجع الاستاذ أنور الجندي- مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق ص٣٠.
(٣) الاستاذ أنو الجندي- مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق ص١٢.
(٤) المرجع السابق ص٧٣.
(٥) سورة النحل الآية (٣٦) وراجع دراسات اسلامية للأستاذ عطية صقر ص٨ ط عام ١٩٨٠.

ولقد كانت طبيعة الاجتماع البشرى قاضية بخصوصية هذه الرسالات. والواقع أن البشر لم يجمعوا بعد على دين وأحد يعمهم أجمعين بل يدينون بأديان مختلفة فإذا نحينا الأخلاق المتصلة بالدين والمستمدة من الوحى والمتصلة بالعقيدة والشريعة، والتى تحمل طابع الثبات، واذا نحيناها عن هذا البحث، كان كل مايدور فيه بمثابة وجهات نظر تتغير بتغير الأفراد[1] وعلى ذلك فالقانون الأخلاقى أعم من القانون الدينى. ذلك فى الوقت الذى يقر فيه البشر جميعا للأخلاق بمبادئ مقبولة لدى بنى الإنسان عموما[2]، وإن كانت هذه الأخلاق لاتتمثل إلا فى الظاهر ولايفوتنا هنا أن نقرر أن الإسلام حين جاء كان لدى العرب عرف وعادات، منها الصحيح وغير الصحيح. فلم يلبث الإسلام أن أقام شريعته ونشر قانونه الأخلاقى فما صلح للبقاء من هذه الأعراف والعادات بقى وماتعارض معه سقط. أما مابقى فقد أخذ طابعا جديدا ومفهوما مغايرا[3]، ومن هنا كانت هناك الحاجة والضرورة للبحث الخلقى مع وجود القانون الدينى وأيضا على مثل هذا قلنا: ان القانون الأخلاقى أعم من القانون الدينى.

كما أن القانون الإلهى، وإن بين لنا الفضائل والرذائل والخير والشر ورسم لنا ما نعمل ومالا نعمل إلا أنه كما قلنا سابقا لم يفصل لفاعله ماجعله خيرا أو شرا من الأعمال[4]. فلما كان البحث الخلقى يعنى بتعليل وجهات النظر فى المقياس الأخلاقى. ويعنى ببيان المستوى الذى عنده ينبغى أن يقف ميزان الأعمال وما إلى ذلك كانت هناك حاجة إلى البحث الخلقى مع وجود القانون الإلهى أيضا[5].

فالغرض من القانون الإلهى والقانون الخلقى واحد وهو إيجاد مجموعة من المشاعر والأمانى والأفكار تؤثر فى العلائق المشتركة بين الناس تأثيرا يوجههم إلى حياة فاضلة بالفعل. فالغرض الذى يهدف إليه قانون الأخلاق هو عين الغرض الذى يهدف إليه الدين وهو الحب والاخلاص والتقوى والايثار، والخلاف بينهما إنما يأتى من ناحيتين اثنتين كما هو واضح فى مكانه من البحث وهما ناحية المشرع وناحية الجزاء[6] وإذا كنا قد رأينا مابين التصور المعيارى والتصور الوضعى من خلاف حول

(١) الاستاذ أنور الجندى مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس الأخلاقى فى ضوء الاسلام ص٦٩.
(٢) دكتور منصور رجب تأملات فى فلسفة الأخلاق ص٣٠٠.
(٣) الاستاذ أنور الجندى- مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق ص٧١.
(٤) دكتور محمد يوسف موسى- مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٦٧.
(٥) دكتور منصور رجب- تأملات فى فلسنة الاخلاق ص٣٠١.
(٦) راجع دكتور منصور رجب- تأملات فى فلسفة الأخلاق ص٢٩٩.

جوهر الأخلاق. والمنهج الذى ينبغى اتباعه فيه، فقد رأينا أيضا أن التصور المعيارى محاولة لوضع مبادئ نظرية عامة تصلح لحال الانسانية وطبيعتها فى كل زمان ومكان، وذلك من الناحية النظرية. فهى لاتضع فى اعتبارها التطبيقات العملية أو حالة الجماعات البشرية الأخلاقية أما التصور الوضعى فيقوم على أساس دراسة الأخلاق والتقاليد السائدة فى كل جماعة بشرية على حدة، وذلك من خلال المنهج الذى يدرس ماهو كائن ولا يهتم بما ينبغى أن يكون أما الأخلاق الاسلامية فلقد عنى الإسلام بالنفس الانسانية وحرص على تعاليم الأخلاق للبشرية عامة فأرسل الله رسول ﷺ ليعلم البشرية ويصلح الإنسانية بالأخلاق، وقد توجه الاسلام بتعاليمه الأخلاقية إلى الإنسان ولم يكن يريد من الانسان جماعة معينة وإنما يريد كل إنسان يتمتع بصفات الإنسانية وعلى ذلك نرى أن الأخلاق الإسلامية تجمع بين كل من التصورين المعيارى والوضعى فى تكامل وانسجام فهى لاتقتصر على مجرد وضع المثل الأعلى للسلوك وضعا نظريا خالصا وفى نفس الوقت لا تعبر عما ينبغى أن يكون عليه سلوك الإنسان المجرد بدون النظر إلى واقع المجتمعات التى يتم فيها تطبيق ذلك السلوك كما هو حال التصور المعيارى، وعلى ذلك فالأخلاق الإسلامية وقوانينها موحاة من قبل الخالق إلى الإنسان منذ أن بدأ الإنسان الأول حياته فوق هذا الكوكب وتتابعت الرسالات الإلهية إلى الناس عن طريق الرسل جيلا بعد جيل يتسع نطاقها ومحتواها كلما زادت رقعة العلاقات الاجتماعية وزاد نضج العقلية الإنسانية حتى اكتملت صورة النظام الأخلاقى برسالة النبى ﷺ خاتم الأنبياء وكانت الوصايا الهامة التى ناد بها كل رسول تمثل دستور النظام الأخلاقى[1] وعلى ذلك يتبين القول الحق فى العلاقة بين العقيدة والأخلاق وأنه، ليست هناك حاجة إلى القانون الأخلاقى مع وجود القانون الإلهى عند من يدين بدين الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يدية ولا مخلفه[2] قال تعالى﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[3] فالوحى هو المصدر المعصوم وتسليم الإنسان بتلك الحقيقة يكون فى الواقع استواء مع الحق والعدل فالصانع فى كل صناعة أعلم بها

(١) راجع دكتور مقداد يلجن- الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام ص١٩٤.
(٢) راجع دكتور منصور رجب- تأملات فى فلسفة الأخلاق- ص٣٠١.
(٣) سورة الشورى الآية (١٣).

ويقانون صيانتها. قال تعالى ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1] فالله تعالى هو الصانع والمبدع للإنسان والواقع الذى يعيش فيه، كما أنه العالم بماضيه وحاضره ومستقبله فمن العدل والمنطق أن يكون هو المشرع الوحيد لما يجب أن يكون عليه الانسان، وللسبل التى تحقق السعادة والفضيلة فى آن واحد[2] والقرآن الكريم كثيرا مايحذرنا من الغرور الذى يطمس فى نفوسنا معنى الحق والخير والمصير الذى ينتظرنا من الاعراض عن سبله فيقول ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[3] ولذلك نرى أن الاسلام حينما يعطى النفس البشرية رغائبها ويدعوها إل التناسق حتى يتحقق التعادل بين الرغبات المادية والأشواق الروحية قال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[4] والإسلام بذلك يهدف إلى التخفيف عن النفس الإنسانية مالا تستطيع احتماله من الأهواء التى تودى بكيانها النفسى والعقلى. قال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[5].

ونستخلص مما سبق أن قوانين الأخلاق تعتمد على قوانين الطبيعة وعلى قوانين الحياة الإنسانية. ثم على جهد الإنسان بذاته وروحه، ولكن هذا الاعتماد لم يكن خضوعا لتلك الطبيعة بقدر ماكان تكيفا وتحويرا لها. فالسلوك الصادر من الإنسان يعتبر مادة الأخلاق، وتكييفه وفقا للمبادئ الأخلاقية يعتبر صورة الأخلاق. إذن فالأخلاق قالب للحياة الانسانية الطبيعية والحياة بقوانينها الطبيعية مادتها[6]. ويبين ذلك أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز فيقول: «ذلك لأن شريعة الضمير– طبقا

(١) سورة الملك الآية (١٤).

(٢) راجع دكتور حمدى حيا الله الأخلاق ومعيارها – والدكتور عبد الكريم عثمان معالم الثقافة الاسلامية ص٨٦.

(٣) سورة الأنفطار الآية (٦ – ١٤)

(٤) سورة الشمس الآية (١٠) وراجع مفاهيم العلوم الاجتماعية للاستاذ أنو الجندى ص٧٤.

(٥) سورة الحشر الآية (٧).

(٦) راجع دكتور مقداد يلجن الاتجاه الاخلاقى ص١٩٠.

للقرآن تعد سابقة فى الوجود على شريعة الدين الإيجابية، فلقد نفخ الشعور بالخير والشر، وبالعدل والظلم فى كل نفس انسانية منذ كان الخلق، أولسنا نشهد فى الواقع ظهور الحس الأخلاقى عند الأطفال ابتداء من عمر التمييز، واستمراره خلال جميع الأعمار حتى لدى الملاحدة؟.. ثم ألسنا نشهد بين المذنبين أنفسهم من يعترفون بذنوبهم. ويأسون عليها دون أن يملكوا الشجاعة للتخلص منها؟.. أليس هؤلاء هم الجمهور الغفير؟ فالشريعة الإيجابية لم تأت لتنسخ الشريعة الطبيعية، ولكى تعزل السلطة الخاصة التى تثبت هذه دعائمها فهى لم تبطل الشريعة القديمة، وإنما صدقتها ومدت فى عمرها وحددتها أما فيما يتعلق بالضمير، فهى لاتكتفى بأن تستلزمه فحسب بل انها بعد أن تغذيه، وتنوره، تعتمد عليه من جديد لدعم سلطانها الخاص[1]، واعتمادا على هذه الموضوعية يخاطب الإسلام أنصاره وأتباعه مؤكدا أن الخير معروف، وأن الشر منكر.. وعلى أن الموضوعية فى الصفات الأخلاقية لم تكن لتكفى للحديث عنها بهذا الاسلوب العالم مالم يكن فى البشر فطرة تمكنهم من إدراكها ومعرفة مافى الخير وما فى الشر. فالموضوعية التى للأخلاق لاتتم فائدتها إلا إذا كانت لدينا نحن البشر الحاسة الأخلاقية التى تميز بين الخير والشر بميزاتها الذاتية، والتى تدرك هذه الموضوعية بصرف النظر عن الميول الفردية والأهواء الشخصية[2] ويؤكد هذا صاحب كتاب دستور الأخلاق فى القرآن الكريم فيقول:

«والواقع أن الشريعة الايجابية لاتستطيع أكثر مما تستطيع الشريعة الطبيعية فى أن تكون اكراها يفرض نفسه علينا دون مراعاة لقبولنا وموافقتنا فإن الأمر الإلهى لايمكن أن يصبح بالنسبة إلينا تكليفا أخلاقيا إلا برضانا ولايعتبر الإنسان أنه قد أطاع واجبه الدينى إذا كان يؤديه دون إيمان بطابعه التكليفى. كأساس فى نظام الأشياء الثابتة[3] وعلى ذلك يتبين لنا أن الترابط بين الموضوعية وبين القوة التى تدرك الناحية الخلقية بصورتها الموضوعية ضرورة عملية لإثمار الفائدة المطلوبة[4] فالواجب الأول هو الايمان بالواجب، ويجب أن أتلقى من ذاتى الباطنة الأمر بطاعة هذا الأمر

(١) راجع دكتور محمد عبد الله دراز دستور الأخلاق ص٦٧٨.
(٢) راجع الدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة فى الأخلاق والتصوف ص١٦.
(٣) راجع دكتور دراز- دستور الأخلاق ص٦٧٩.
(٤) راجع دكتور عبد الفتاح بركة فى التصوف والأخلاق ص١٧.

الأعلى. ولذلك نجد القرآن الكريم يذكر المؤمنين بالتزامهم العام بموجب عقد الإيمان. قبل أن يطلب منهم طاعتهم المخلصة[1]. وهكذا لاتكون الصفة الالهية للأمر القرآنى سوى التناسق بين شعورين إنسانيتين يستحثهما دائما. فعلى هذه الناحية الموضوعية للأخلاق، وعلى هذه البصيرة الأخلاقية فى الإنسان يعتمد القرآن الكريم فى دعوة الناس إلى اتباعه والإيمان بتعاليمه من حيث أن من يهدى إلى الحق أحق أن يتبع، وبناء على هذا الأساس يقيم الاسلام صرحه الأخلاقى المتين[2]. كما يتبّين لنا أن عدول الإنسان عن أنوار الوحى إلى نور العقل المحدود وحده هو التفسير الصحيح للعماء والظلام الذى تردى فيه الفكر الإنسانى فى مجال التشريع الأخلاقى- إذ لا أحد يعرف جوهر النفس- وشريعة سعادتها وكمالها مع الصلاحية الكاملة والبصيرة النافذة- غير خالق وجودها ذاته- ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[3] فنور الوحى وحده هو الذى يمكن أن يحل محل النور الفطرى ذلك أن الشرع الإيجابى هو الذى يجب أن يستمر ويكمل الشرع الأخلاقى الفطرى وفى القرآن الكريم يسير العقل والنقل معا جنبا إلى جنب وهو ما يفهم منه قوله تعالى ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا فى أصحاب السعير﴾ وفى قلب المؤمن يستقر نوران- على حين لايجد الملحد سوى نور واحد وهذا هو معنى رمز النور المزدوج فى قوله تعالى ﴿نور على نور﴾[4] وعلى ذلك ندرك أن النور الفطرى والموحى ينبثقان من مصدر واحد هو الله سبحانه وتعالى.

والخلاصة: أن صورة الأخلاق نابعة من السماء ومادتها نابعة من الأرض ولكن لما كان خالق الصورة وخالق المادة هو الله فمصدر الأخلاق ومنبعها إذن هو الله الذى خلق الصورة وفقا للمادة وخلق المادة وفقا للصورة[5].

(١) راجع دكتور دراز المرجع السابق ص٦٧٦.
(٢) راجع دكتور عبد الفتاح بركة المرجع السابق ص١٨.
(٣) سورة الملك الآية (١٤) وراجع الدكتور دراز دستور الأخلاق ص٣٤.
(٤) راجع دكتور محمد عبد الله دراز دستور الأخلاق ص ٣٤.
(٥) راجع دكتور مقداد يلجن- الاتجاه الخلقى ص١٦٥.
ومن هذا المنطلق فلست أرى إلا الرجوع إلى مكمن الخلق الاسلامى والالتزام بمنهجه القويم الذى فيه تمام شفاء الإنسان من الأمراض التى عجز الفلاسفة والمفكرون عن علاجها فمرة نرى أن العلاج عندهم هو سماع نداء العقل وحده وتاره سماع مطالب الجسد وحده- وتارة فى النداء إلى المجتمع- لكن ذلك لاتتحقق به فائدة كاملة. فلو عالج هذا أو ذاك جانبا فعلى حساب جوانب أخرى- وإذن فليس من منهج كامل شامل لجميع مطالب الإنسان إلا منهج خالق الإنسان الذى أحاط بكل شئ علما.

معيار الأخلاق الاسلامية[1]

مما تقدم يتضح لنا أن معيار الأخلاق الحق هو الوحى الإلهى- فمن الثابت المحقق أن الإسلام تنظيم إلهى لسلوك البشر وأعمالهم ولذلك يجب التسليم والإذعان والاعتقاد لكل ماجاء به من أمر أو نهى.

فعقيدة التوحيد كانت ولا زالت التعبير الدقيق عن هذا المعيار الحقيقى للإنسانية- فلقد تواصى بها كل الأنبياء والرسل كأساس لسعادتهم فى الدارين- والأمر فى ذلك يرجع إلى طبيعة العقيدة الاسلامية وجمعها بين الدنيا والآخرة من ناحية والقلب والعقل من ناحية أخرى[2].

فالقانون الأخلاقى الإسلامى مصدره إلهى صرف[3] وعلى ذلك فالإلزام الأدبى للأخلاق الاسلامية يتبين فى القرآن الكريم من حيث كونه حافظا لما سبقه- واستمرارا له.

ومن هنا فقد تميزت الأخلاق الإسلامية بذلك الامتداد الرحب الذى ضم فيه جوهر القانون الأخلاقى كله. وهو الذى ظل متفرقا فى تعاليم القديسين والحكماء من المؤسيسين والمصلحين الذين تباعد بعضهم عن بعض زمانا ومكانا- وربما لم يترك بعضهم أثر من بعده يحفظ تعاليمه ولعل هذا الجانب هو السمة البارزة من سمات الأخلاق الاسلامية.

إن لم يكن أثمن سماتها[4] قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[5].

فالقانون الأخلاقى الإسلامى لم يدع أمرا يتعلق بالإنسان إلا وقد بين له الطريق الحق فيه، حيث نظم القرآن الكريم علاقة الإنسان بربه تبارك وتعالى. ونظم علاقة

(١) قيل أن الأخلاق تنقسم باعتبار مصدرها إلى ثلاث أقسام دينية ويسميها الفقهاء الآداب الشرعية وعقلية ويسميها علماء الكلام بالحسن والقبح- وغائية أى أن اخلاقية الفعل تتبع المصلحة سواء كانت هذه المصلحة لذة أم سعادة أم مجرد دعاة اجتماعية ونحن نحصر اخلاقية الفعل بما وافق الوحى والعقل السليم ولا نقيم أى وزن لغيرها.
نقلا من كتاب فلسفة الأخلاق للأستاذ محمد جواد مغنية ص٦١.
(٢) راجع الاستاذ أنور الجندى- القيم الأساسية للفكر الاسلامى ص٣٦٠.
(٣) راجع الاستاذ منصور رجب- تأملات فى فلسفة الأخلاق ص٣١٢.
(٤) راجع الدكتور محمد عبد الله دراز. دستور الأخلاق فى القرآن ص٨.
(٥) سورة النحل ١٠٢.

الانسان بنفسه، ونظم علاقته ببنى جنسه[1] فلم يدع للنشاط الانسانى فى ناحيته الفردية والاجتماعية مجالا حيويا أو فكريا أو أدبيا أو روحيا إلا رسم له منهجا للسلوك وفق قاعدة معينة. بل نقول إنه تخطى علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته ببنى جنسه حتى شمل علاقة الانسان بالكون فى جملته وتفصيله، وهكذا فلقد جمع ما فرقه الناس باسم الدين أولا وباسم الفلسفة ثانيا ثم كان له عليهما المزيد[2].. والمتتبع لشريعة الإسلام يستطيع أن يحصر هذه الأهداف فى أمور ثلاثة:

١ – اصلاح حال العباد فيما بينهم وبين ربهم.
٢ – اصلاح حال العبد فيما بينه وبين نفسه.
٣ – اصلاح حال المجتمع الإسلامى.

تلك أهداف ثلاثة يرتبط بعضها ببعض، أولها يعتبر أساسا لثانيها وثالثها، وسعادة العبد فى دنياه وآخرته لاتتم إلا بتحقيق هذه الأهداف الثلاثة.

وذلك أنه بالهدف الأول يكون إصلاح حال العباد فيما بينهم وبين خالقهم وذلك بتصحيح عقائدهم أولا، ليطهروا قلوبهم من دنس الشرك والوثنية حيث يؤمنوا بالله ربهم وتكون أعمالهم على أساس الإيمان الصادق والتوحيد الخالص وذلك بحيث يكون لهذه العقيدة الإشراف الكامل على أعمالهم[3] قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[4] ففى هاتين الآيتين تتلاقى غايات ثلاث أرادتها العناية الإلهية من بعثة سيدنا محمد رسول الله ﷺ إلى الناس، من عاصره منهم، ومن يجيئ من بعدهم إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها.

الغاية الأولى: تلاوة آيات الله البينات، وهى تدعو إلى الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر مقرونة إلى مالابد منه فى الدعوات من العظة والزجر والبشارة والإنذار فى كتب الله على لسان رسله جميعا عليهم السلام.

(١) راجع الدكتور منصور رجب– تأملات فى فلسفة الأخلاق ٣٠٦.
(٢) راجع دكتور محمد عبد الله دراز كلمات فى مبادئ علم الأخلاق ص٢٩.
(٣) راجع الاستاذ كامل محمد حسن– أهداف الرسالة الاسلامية بالتوجيه الاجتماعى فى الاسلام جـ٤ ص٦٠ ط– مجمع البحوث الاسلامية.
(٤) سورة الجمعة الآية (٣).

الغاية الثانية: دعوة الناس إلى محاسن الأخلاق إرادة تزكيهم وإعدادهم إعدادا يستبين به خيرهم، ويزيد فضلهم(١).

الغاية الثالثة: تعليم الناس الكتاب والحكمة والمراد بالكتاب فى هذه الآية القرآن الكريم(٢).

وبذلك تكون العقيدة هى المعتصم وهى التى تصل العبد بربه كما أنها أوسع أفقا من رقابة القوانين الوضعية(٣)، ولأهمية ذلك فأول شئ عنى به الرسول ﷺ فى بدء دعوته هو إصلاح القلوب وتطهيرها وذلك أن القلوب إذا أخلصت والنفوس إذا صفت زالت الحجب فتتوثق صلتها بالله وتستقبل المدد الإلهى، والإلهام السماوى- والإلهام نور من نور الله، ونور الله لايهدى العاص فكان على الإنسان أن يصلح أولا مابينه وبين مولاه فإن الله لايعطى مدده ولايمنح العبد معونته إلا إذا خشع قلبه(٤) ولهذا يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه «ألا وإن فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»(٥).

من هذا يتبين أن الهدف الأول لاقامة الأخلاق الاسلامية هو اصلاح حال العباد فيما بينهم وبين ربهم، وذلك بتطهير قلوبهم وتصحيح عقائدهم ولهذا عنى الرسول ﷺ فى بدء دعوته بتوجيه الناس إلى النظر فى الآيات والآفاق ليعتبروا بما فى ملكوت

(١) والمراد هنا بالزكاة زيادة الخير والفضل.

(٢) راجع فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى- الأزهر فى خدمة الاسلام ص٩ جـ٤ التوجيه الاجتماعى فى الاسلام ط مجمع البحوث الاسلامية.

(٣) وذلك أن الانسان الذى يمتنع عن ارتكاب الجريمة خوفا من رقابة القوانين الوضعية فإنه قد يفلت إلى ارتكاب الجريمة إذا أمن من يطلع عليه من البشر. ويشهد عليه- ولكن رقابة العقيدة التى هى فى ظل الرقابة الإلهية تمنعه من ارتكاب الجريمة فى أى زمان وفى أى مكان لأن الله رقيب عليه وعالم بما يجرى بين جنبيه فيخشى ربه أينما كان.

(٤) وذلك أن كل عمل يصدر من الانسان، ولا يقوم على أساس من التقوى وصدق الايمان فهو باطل حتى ولو ألبسه صاحبه أحسن صورة من البر والاحسان، كما أن كل قول يصدر عن قلب لا يؤمن بالله فان الله لايرفعه إليه ولا يثيب صاحبه عليه لأنه صادر عن عقيدة مشلولة ترعى فى عملها وأقوالها المخلوق دون الخالق. نقلا من بحث أهداف الرسالة الاسلامية- الاستاذ كامل محمد حسن التوجيه الاجتماعى فى الاسلام ط- مجمع البحوث ص٤٠.

(٥) راجع فتح البارى جـ١ كتاب الايمان- باب فضل من يستبرئ لدينه ص١٣٤.
صحيح مسلم جـ٣ كتاب المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات ص٢٢٢٢.

السموات والأرض، كما أنه قد وردت نصوص متعددة تعبر كلها عن أثر الايمان فى الأخلاق- والسلوك وذلك فى الجانبين الايجابى والسلبى.

أما فى الجانب الأول: فقد قال الله تبارك وتعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾(١).

وفى الجانب الآخر: قال تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٢).

وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(٣).

وقال تعالى ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا فى أصحاب السعير﴾.

وهكذا كان جواب الرسول ﷺ للرجل الذى جاء إليه يطلب منه- ويقول- قل لى يارسول الله فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك فقال له -قل آمنت بالله ثم استقم»(٤).

وبذلك يتبين معنى الهدف الأول من أهداف الأخلاق الإسلامية التى وضحها الرسول ﷺ فى كلمته الجامعة التى جاءت على صورة أسلوب القصر «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(٥).. وذلك باصلاح حال العباد أولا فيما بينهم وبين ربهم ولا يكون إلا بتحقيق الايمان الصادق والتوحيد الخالص.

أما عن الهدف الثانى الذى هو إصلاح حال العبد فيما بينه وبين نفسه..

فذلك أن المسلم الكامل الاسلام بهذا البيان السابق قد عرف من أين يبدأ عمله وعرف أن الأساس الذى تبنى عليه الأعمال هو إصلاح القلوب وتطهير النفوس وإدرك

(١) سورة البقرة الآية (١٧٧). (٢) سورة الشعراء الآية (٨٨و ٨٩).
(٣) سورة الأعراف الآية (١٧٩).
(٤) هذا قول نبوى من جوامع الكلام. أشار فيه إلى أن الإيمان أولا لانه كالأساس لقبول الأعمال. فالإيمان أساس والأعمال بعده لبناء البيت عليه، ولا يعول على بناء بدون أساس ومن هنا فلا خير فى عمل يقوم على غير إيمان بالله تعالى- صحيح مسلم جـ١ كتاب الايمان- باب جامع أوصاف الاسلام ص٦٥ ط عيسى الحلبى تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى والآية (١٠) من سورة الملك.
(٥) سنن البيهقى جـ١٠ كتاب الشهادات باب فى بيان مكارم الأخلاق ص١٩٢ ط دائرة المعارف الاسلامية- الهند- حيدر اباد الداكن الهند، عن أبو هريرة.

أن القلوب المؤمنة ينبعث منها نور العقلية الإسلامية كما أن القلوب التى عمرت بالإيمان تقوم فيها الرقابة الدينية الذاتية فى كل عمل. ومن هنا لايصدر عنه قول ولا عمل إلا فى ظل الخشية من الله، وبذلك ترتبط القلوب بعلام الغيوب الذى يعلم السر والنجوى، والله عليم بذات الصدور فإذا ماعرف المؤمن كل ذلك صلحت نفسه واستعدت لتحقيق الهدف الثانى من أهداف الأخلاق الإسلامية وهو إصلاح حال العبد فى خاصة نفسه، وذلك لايكون إلا إذا استقام، واستجاب لله ورسوله فلا يخرج عن حدود الله فيما رسمته الشريعة الإسلامية ووضحته السنة النبوية فيخلص لله فى عبادته ويصدق مع الغير فى معاملته ويعمل على حب الخير والاستعداد للآخرة فهو فى هذه الحالة يسخر امكانياته المادية ودوافعه الحيوانية فى سبيل جلب الخيرات له ولغيره ولا يبالى فى سبيل ذلك ما يعانيه من النصب والتعب، فمن هنا تنشأ جميع الفضائل الأخلاقية، وتلك مرتبة تأتى بعد صدق الإيمان ولذلك فقد وصف الله تبارك وتعالى هذه الطائفة من الناس بعباد الرحمن لأنهم خرجوا من عبودية الشهوات ودواعى الهوى واتباع خطوات الشيطان إلى عبودية الرحمن واتباع طريقه بالعمل الصالح قال تعالى فى وصف هؤلاء ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا... وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا... وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾[1].

وأما الهدف الثالث الذى هو إصلاح حال المجتمع الإسلامى..

فيتحقق ببيان واجب كل فرد يعيش فيه ولذلك كان إصلاح– المجتمعات هو **المهمة الأولى والمقصودة من ارسال جميع الأنبياء والمرسلين فكل نبى كانت مهمته هى إصلاح حال المجتمع الذى أرسل إليه– يرشده أولا إلى حسن الصلة بالله وتوثيق**

(١) سورة الفرقان الآيات من ٦٣– ٦٥، ٦٧– ٦٨، ٧٢– ٧٥.

العلاقة بين العباد وربهم وذلك على أساس الصدق فى الايمان، والاخلاص فى التوحيد وكل نبى يدعو أمته بدعوة واحدة فى قضية واحدة هى قول الحق تبارك وتعالى لهم ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1] وقوله ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[2]. وقوله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[3]. وتلك هى الأصول التى اتفق فيها جميع الأنبياء فى كل عصر من عصور النبوات ويشير إلى ذلك المعنى قول الرسول عليه الصلاة والسلام «الأنبياء أولاد علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[4] ومن هنا نقرر: أن عقيدة التوحيد دعوة جميع الأنبياء قد أرست قواعد الأخلاق الإسلامية وعلى ذلك فمهمة إتمام مكارم الأخلاق جاءت بعد بناء العقيدة الصحيحة كما أنها قامت على التنسيق بين قوى الطبيعة الإنسانية هذا من ناحية ثم بينها وبين السلوك الإنسانى من ناحية أخرى ،كما أنها عملية تهذيب وتربية لهذه الطبيعة ليس ذلك فحسب بل يلى ذلك عملية توجيه الإنسان إلى السلوك اللائق به فى الحياة كأفضل مخلوق على الأرض من أجل رسالة معينة خلقت من أجله هذه الدنيا لتحقيق تلك الرسالة قال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[5] كما بين تكريمه للإنسان فقال ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[6] وعلى ذلك ندرك أن المعايير الأخلاقية المتعددة مهما تتنوع فى مصدر الإلزام الأدبى، فإنها كلها تلتقى عند كلمة واحدة وهى أنه مصدر إنسانى، وأن مستنده فى التشريع اعتبارات إنسانية تبرر حكمه لدى العقل أو العاطفة[7] **أما الإلزام الإلهى فيشمل العقل والشرع وهما لا يأمران بما تقتضيه الفطرة السليمة، كما أن الرسل إنما**

(١) سورة الشورى بعض من الآية (١٣). (٢) سورة الأعراف الآية (٦٥).
(٣) سورة الشورى الآية (١٣).
(٤) صحيح مسلم جـ٤ كتاب الفضائل- باب فضل عيسى عليه السلام ١٨٣٧. ط/ عيسى الحلبى- تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.
(٥) سورة ابراهيم الآية (٣٤). (٦) سورة الاسراء الآية (٧٠).
(٧) راجع دكتور محمد عبد الله دراز كتاب فى مبادئ علم الأخلاق ص٢٧.

بعثوا لتكميل هذه الفطرة وتقويتها فلو لم تكن الفطرة مركوزة على التمييز بين الحسن والقبح لما قبلت دعوة الرسل إلى ذلك، وما استجابت لها لأن أوامر الشرع ونواهيه إنما جاءت لتأكيد ما فطرت عليه النفوس فتأمر بما ينفع الإنسان دينا ودنيا، وتنهى عما يفسد حاله ولا قبل له بالعلم بوجه قبحه[1] ولاشك أن العقيدة والشريعة معا تمثلان منهج الإسلام فى العلاقة بين الانسان والله من ناحية وبينه وبين المجتمع من ناحية أخرى فهما يتكاملان معا ولا يمكن الفصل بينهما وقد جرى التطور من خلالهما فى سبيل الوصول إلى بلوغ مذهب كامل فى كليهما فالعقيدة تمثل خط الفرد فى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجزاء، والشريعة تمثل خط الجماعة فى العبادات والمعاملات التى تنظم المجتمع وذلك من حيث أن طابع الأخلاق الإسلامية هو الشمول والتكامل فإنه لايمكن التفرقة بين العقيدة والشريعة ولابين الفرد والجماعة[2] ولهذا بعث الرسل بتحصيل المصالح ودرء المفاسد. ولو نظرنا فى المبادئ الأخلاقية التى جاءت بها التوراة والانجيل وقارناها بما جاء فى القران الكريم من ذلك فإننا نجد أن القواعد الأساسية الأخلاقية التى دعا إليها الأنبياء واحدة كالعدل. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والاحسان إلى الغير، والصدق والأمانة، وغير ذلك من الأمور التى تمثل دعائم البناء الأخلاقى فى دعوة كل رسول وهى كلها أمور تميل إليها الفطرة السليمة، وتسعى إلى تحقيقها لأنها تلائم ماطبعت عليه أزلا من معرفة الحق ومحبة الخير[3] وعلى ذلك فالأخلاق الاسلامية التى تنبع من القرآن الكريم تقوم بمخاطبة الإدراك السليم والوجدان النبيل بالأسباب المقنعة التى تبرر أمرها بما تأمر به ونهيها عما تنهى عنه تفصيلا فى ذلك تارة واجمالا فيه تارة أخرى[4]. قال تعالى:

---

(١) راجع دكتور محمد عبد الله دراز- كتاب مدخل القرآن الكريم ص١٠٥ بتصرف يسير.

(٢) راجع الاستاذ أنور الجندى- القيم الاسلامية للفكر الإسلامى ص٤٩.

(٣) راجع دكتور محمد عبد الله دراز مدخل إلى القرآن الكريم ص١٠٥ بتصرف يسير.

(٤) قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ العنكبوت بعض من الآية ٤٥ وقال ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ سورة الحجرات الآية ١٠ ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ سورة الحجرات الآية ١٢ ففى الاسلوب التفصيلى وردت هذه الايات. وفى الاسلوب الاجمالى يقول الحق: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ سورة النساء الآية ٥٨. ويقول ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ سورة الجمعة الآية٩. نقلا من كتاب كلمات فى مبادئ علم الأخلاق للدكتور دراز ص٢٩.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾[1] ويقول الله تعالى لرسوله ﷺ بعد أن عدد من سبقه من الرسل ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[2] فالأخلاق الإسلامية تقوم على أساس عقلى وروحى معا، فهى ليست عقلا خالصا، ولا روحا خالصة، وذلك هو امتيازها الذى انفردت به عن المعايير الأخلاقية المختلفة، وهو فى نفس الوقت مصدر اختلافها وتباينها عن الأخلاق اليونانية وغيرها، وليس ذلك فحسب ،بل لها فى نفس الوقت نظرتها الكاملة والمتميزة فى مواجهة التطور الإنسانى فى قطاعية الأفقى والرأسى. الأفقى مع تغير الأزمنة والرأسى مع اختلاف البيئات[3].

فالاسلام كان ولا يزال، المعيار الحق لواقع الانسان فى الدنيا والآخرة تواصى به كل الأنبياء والرسل كأساس لسعادة الإنسان وخيره ومن هنا ندرك أن الاسلام بما يشتمل عليه من عقيدة وشريعة وأخلاق يتضمن فى داخله معايير أخلاقية متعددة. ونستطيع فى البداية أن نؤكد أن هذه المعايير والقيم الأخلاقية بمثابة الطريق الواضح للإنسانية، وهى بوجه عام تنقسم إلى قسمين:

- المعايير الموضوعية الخارجية.
- المعايير الذاتية الداخلية.

أولا: أما المعايير الموضوعية الخارجية:

فهى التى تتمثل فى المبادئ الأخلاقية التى جاءت بها الشريعة الإسلامية، والتى تحدد بصفة عامة إرادة الله فيما ينبغى أن يكون عليه سلوك الإنسان فى هذه الحياة سواء كان هذا السلوك متعلقا بصلته مع الغير أو بالنفس، وهذه المبادئ متمثلة فى القرآن الكريم والسنة بصورة قانونية أو تشريعية وعلى هذا الأساس يعد كلاهما معيار واحدا[4] فشريعة الله هى المعيار الحق المستقيم الذى يصون الإنسانية من الانحراف ويجنبها مزالق الشر ونوازع الهوى، وهى المورد العذب الذى يشفى غلتها ويحيى نفوسها، وترتوى به عقولها، ولهذا كانت الغاية من تشريع الله استقامة الإنسان على الجادة لينال عز الدنيا وسعادة الآخرة، والشريعة بهذا المعنى خاصة بما جاء عن الله

(١) سورة النساء الآية ٢٦.
(٢) سورة الأنعام الآية ٩٠ وراجع دكتور محمد عبد الله دراز كتاب مدخل الى القرآن الكريم ص٩٢.
(٣) راجع الاستاذ أنور الجندى- القيم الاساسية للفكر الاسلامى ص٤٣.
(٤) راجع مقداد يلجن الاتجاه الاخلاقى ص٢٧٨.

تعالى ويلغه رسله لعبادة، والله هو المشرع الأول وأحكامه هى التى تسمى شرعا[١].
فالوحى الإلهى المتتابع يمثل نهرا تكونت له روافد، وتفرعت منه جداول تروى مايذبل من أيك العقيدة، وما يجف من أعواد الفضيلة، لتبقى خصائص الإنسانية البناءة فى ازدهار ونمو تؤتى أكلها لخير الناس كل حين بإذن ربها. ينبع هذا النهر ويفيض خيره حيث يوحى الله إلى ملائكته سفرائه إلى رسله، أو يكلم رسله سفراءه إلى خلقه، وقد انتهى مصب هذا الماء الغدق برسالة سيدنا محمد ﷺ والقرآن الكريم يعلن وحدة هذا التشريع من منبعه إلى مصبه قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٢] فقد اتفقت الشرائع السماوية فى أصل العقيدة بالدعوة إلى توحيد الله تعالى والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وقال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٣] كما اتفقت فى أصول العبادات والأخلاق والتهذيب النفسى قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[٤] ولذلك فقد اكتسبت نصوص الشريعة الإسلامية من الشمول والعموم ما جعل قواعدها صالحة للناس كافة فى كل عصر من العصور تساير عوامل النمو والارتقاء وتقود الحضارة الإنسانية إلى معالم الحق وسبيل الرشاد، ولهذا أكمل الله بها الدين، وأتم النعمة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[٥] ومن هنا فقد وضع الله تبارك وتعالى هذا المعيار أمام الإنسان ليكون منارا لطريق السعادة. يميز به بين الخير والشر فى السلوك وبين الحق والباطل فى الرأى، والهدى من الضلال والنور من الظلام فى هذه الحياة ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ

(١) ولذلك لايجوز إطلاق هذا على القوانين الوضعية لأنها من صنع البشر، إلا بضرب من التجوز المقيد وهذا ماجرى عليه عرف كثير من الكاتبين فى تسمية القوانين الوضعية بالتشريع الوضعى وتسمية الوحى الإلهى بالتشريع السماوى. ولو انتصف الحق لنفسه ماجاز اطلاق الشرع والشريعة والتشريع إلا على الطريقة الإلهية دون سواها من طرائق الناس وأنظمتهم.. نقلا من ندوة المحاضرات لرابطة العالم الاسلامى تحت موضوع لمحة من تاريخ التشريع الاسلامى للاستاذ مناع القطان ص٢١٣ مكة المكرمة.

(٢) سورة الشورى الآية (١٣).
(٣) سورة الأنبياء آية رقم (٢٥).
(٤) سورة الأعلى آية رقم (١٩).
(٥) سورة المائدة جزء من آية (٣).

اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[1] وقال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[2] وقال الرسول ﷺ «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ماتمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسول الله»[3].

غير أن تحديد الإسلام لسلوك الإنسان لم يكن على مستوى واحد فى مختلف الميادين، فهناك مجال قد حدد فيه السلوك بدقة من حركات وسكنات وذلك فيما يتصل بتحديد علاقة الإنسان بربه. ولهذا جاءت صورة العبادات مرسومة بطريق لم يبق فيها مجال للاجتهاد أو إعمال العقل والفكر لأنه مجال طاعة الله، وعبادته، فهو حدد صورة عبادته وطريقة تقديسه بالطريق التى أراد أن يعبد ويقدس بها[4]. فقد بينت الشريعة الإسلامية الأصول الكلية التى تقوم عليها حياة البشر، ولا سبيل إلى الأخذ فيها بالرأى المجرد عن الدليل والنبى ﷺ مع عصمته لا يتبع إلا الوحى.. ﴿إن أتبع الا مايوحى إلى﴾ ولا يكون حكمه إلا بما علم عن الله... ﴿إنا انزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ وانتزاع التشريع من أيدى البشر ورده إلى الله ورسوله يضع لنا شريعة ربانية ثابتة المقياس لايعتريها خلل أو قصور[5] وذلك أن الطريقة التى يؤدى بها المرء عبادته لخالقه لو ترك له أن ينظمها فلن يخلو الأمر من احتمالين: إما أن يبقى متحيِّرا لايفعل شيئا، وإما أن يلجأ إلى كل ضرب من ضروب التخيل والاعتساف[6] وفى كلتا الحالتين هو غير مسئول لأنه غير ملزم ولست أدعى هنا أن العبارات لاتخضع لمنطقّ العقل بصورة عامة ولكننى أرى أنها لا تخضع لهذا المنطق فى تفصيلاتها العملية والزمانية. وإذا كان هناك مجال لتدخل الإنسان هنا فهو فى مجال النية ودرجة الإخلاص فى هذه العبادة أو تلك[7] وقد سار الإمام الغزالى وابن عربى قريبا من هذا المعنى فى هذه النقطة فيقول الغزالى فى صدد بيان مجال

(١) سورة المائدة آية (١٥).
(٢) سورة ابراهيم آية (١) وراجع مقداد يلجن الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام ص٢٧٨.
(٣) راجع الشيخ منصور على ناصف التاج الجامع لاصول أحاديث الرسول ص٤٧ جـ١.
(٤) راجع دكتور مقداد يلجن الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام ص٢٧٨.
(٥) راجع الاستاذ مناع القطان- لمحة من تاريخ التشريع الاسلامى بندوة المحاضرات رابطة العالم الاسلامى ص٢٢٣ عام ١٣٨٦- ١٩٦٧م مكة المكرمة.
(٦) راجع دكتور محمد عبد الله دراز كتاب دستور الاخلاق ص٣١.
(٧) راجع دكتور مقداد يلجن- الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام ص٢٧٨.

العقل «فإن العقلاء بأجمعهم معترفون بأن العقل لايهتدى إلى ما بعد الموت ولا يرشد إلى وجه ضرر المعاصى ونفع الطاعات ولاسيما على سبيل التفصيل والتحديد كما وردت به الشرائع- بل أقروا بجملتهم أن ذلك لايدرك إلا بنور النبوة وهى قوة وراء العقل يدرك بها أمورا لا عن طريق التعرف بالأسباب العقلية ولهذا يمضى الإمام الغزالى ليؤكد مايقول فى هذا المقام فيقول: «ولقد تحامق وتجاهل جدا من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق لا عن سر إلهى فيها[١].

ويقول ابن عربى «إن كل عمل لايظهر له الشارع من وجهته تعليلا فهو تعبد، فتكون العبادة فى كل عمل غير معلل أظهر منها فى العمل المعلل- فإن العمل إذا علل ربما أقام العبد إليه حكمة تلك العلة. وإذا لم يعلل لا تقيمه إلى ذلك العمل إلا العبادة المحضة»[٢].

فالشريعة الإسلامية تنبثق من فكرة الحلال والحرام والإيمان بالدار الآخرة وتعمل على تربية الضمير الإنسانى ليكون رقيبا على المسلم فى السر والعلن يخشى عقاب الله الأخروى أكثر من خشيته للعقاب الدنيوى.. فالعمل التعبدى له أثره المترتب عليه فى الدنيا من أداء الواجب كما أن له أثر آخر مترتبا عليه فى الآخرة هو المثوبة أو العقوبة الأخروية. وعلى ذلك فهناك مجال آخر وهو مجال التعامل الاجتماعى وهو أقل تحديدا من المجال السابق. فليس فيه تحديد زمنى وحركى للسلوك كالأول، كما أنه ليس هناك سلوك غير خاضع لمنطق العقل. وذلك أن الأخلاق الإسلامية غاية تربوية للعبادات، والتزام أدبى فى المعاملات، تجعل حياة الناس قائمة على المعروف والحسنى. ولذلك فلقد حث الإسلام على أمهات الفضائل الإنسانية ودعا إلى المثل العليا ونستطيع أن نقول إنها معايير عامة للتعامل الاجتماعى وفيما يلى أهمها:-

(١) راجع دكتور محمود قاسم دراسات فى الفلسفة الاسلامية ص٨٠- ط.٣ والنص من المقصد الأسنى- صحيح أن الناس تعودوا الا يفرقوا بين الإيمان والعمل عند الحكم على عقيدة الإنسان وذلك لأن العمل هو جسم الإيمان.. والإيمان هو روح العمل- غير أن ذلك لا يبيح لنا أن نقول إن العمل الصالح هو كل الدين وأنه يعفى صاحبه من اعتناق العقيدة التى تنسجم مع بناء الكون ومنطق العقل.

راجع الاستاذ أنور الجندى- قضايا العصر ص٢٠٩ ط- مجمع البحوث.

(٢) راجع دكتور محمود قاسم- دراسات فى الفلسفة الاسلامية ص٨٠- والنص من الفتوحات المكية جـ٣ ص٥٣٧.

(١) مقتضى الإيمان بالله تعالى أن يضع المسلم نفسه موضع غيره عند التعامل معه يقول الرسول ﷺ «لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه»[١] «والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه»[٢] وقال «خياركم أحاسنكم أخلاقا»[٣] وقال «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»[٤].

وعلى ذلك فإن مقتضى الإيمان أن يبعث فى النفس القيم الأخلاقية الثابتة فى الفعل والسلوك الخارجى ولذلك فقط ربط الاسلام بين محكمة العقيدة ومحكمة الأخلاق ربطا لا إنفصام له.

قال تعالى ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٥]، ولأهمية هذه الصلة فى السلوك الإنسانى قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٦]. بحيث يصبح الإنسان جديرا بنور الإيمان يسير على هديه. فيعم الإيمان جميع مشاعر الإنسان ويسيطر عليه سيطرة تامة حتى أن - القرآن ليربى فى المسلم ملكة الحمد والشكر لله سبحانه على نعمة التوحيد والوحدانية باعتبار هذه النعمة أساس صلاح الإنسان والمجتمع ومن ثمرات هذه الخاصية صدق العبودية لله ومع العبودية الصادقة تكون سعادة النفس وطمأنينة القلب وقوة الإرادة والاحساس بالعزة فى غير كبر والتواضع فى غير ضعف حيث يتحرر المجتمع المسلم بالتوحيد من ربقة الهوى وحب الذات.

(٢) الإخلاص: وذلك أنه يجب على المسلم الكامل الإسلام الاخلاص لوجه الله عند العمل ومعاملة الغير لأنه الله يجازى العبد على عمله بمقدار إخلاصه له كما أنه يجب أن يشعر الإنسان فى معاملته للناس أنه يعامل الله لأنه مطالب من قبله . وأن

(١) فتح البارى جـ١ ص٦٣.

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الذكريات فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ص٢١ جـ١٧ شرح النووى ط حجازى.

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب- باب حسن الخلق ص٦٦ جـ ١٣ ط الحلبى.

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان- باب الحث على اكرام الجار ص١٨، ١٩، ٢٠ جـ١.

(٥) سورة الشعراء الآية ٨٩.

(٦) سورة الرعد الآية ١١ وذلك كالصدق وإتقان العمل والإحسان والتعاون وآداب السلوك والأمانة والمساواة.

ينتظر جزاء عمله منه لا من غيره. وهذه النقطة ذات أهمية كبرى فى التعامل الاجتماعى. ولأهمية ذلك فقد بين الحق تبارك وتعالى قيمة هذا العمل فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾(١). وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢) فلقد وعد الحق تبارك وتعالى المخصلين فى أعمالهم أن يكافئهم وذلك كما بينته الآية السابقة حيث تكون المجازاة فى الدنيا والآخرة قال تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾(٣).

(٣) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

هذا المبدأ من أهم المبادئ فى الأخلاق الإسلامية ويظهر الأمر جليا فى ما يسمى بلسان الشرع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حماية للمجتمع من الانحراف والانحلال. قال تعالى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٤).. فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على كل مسلم بقدر جهده. وعلمه وفى محيطه الذى يعيش فيه(٥).. قولا وعملا

(٤) المحافظة عل العهود والأمانات:

وهو الالتزام القائم على الصدق والعدل .. قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾(٦).

وقال تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾(٧)

---

(١) سورة الإنسان من (٨-١٢). (٢) سورة النحل الآية ٩٧.
(٣) سورة الليل (٥-١٠). (٤) سورة آل عمران الآية ١٠٤.
(٥) راجع الدكتور أحمد عبدالحميد الشاعر - مناهج البحث ص٩٧.
(٦) سورة النساء الآية ٥٨.
(٧) سورة الإسراء الآية ٣٤.

وقال الرسول ﷺ (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم)[1].

وعلى ذلك قال ﷺ (عمل الجنة الصدق وإذا صدق العبد بر وإذا بر آمن وإذا آمن دخل الجنة – وعمل النار الكذب وإذا كذب العبد فجروإذا فجر كفر، وإذا كفر دخل النار)[2].

(٥) العدل:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[3] وقال ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[4].

ومما يبين ذلك فى السنة المطهرة قول النبى ﷺ (إنما أهلك الذين من قبلكم .. أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد)[5].

ومن هنا نقرر أن العدل فى الإسلام ليس عدلا تجريديا نظريا، وإنما هو لحماية المجتمع والحقوق العامة والخاصة، فالعدل إذن فى منهاج الإسلام مقدماته ونتائجه وأهدافه العملية، فكل ما فى المنهاج الإسلامى يؤدى للعدل تربية واعتقادا ، وقضاءا واقتضاءا، وهذا يستلزم واقعا عمليا متكاملا ترعى فيه الحقوق والواجبات ..[6].

---

(١) رياض الصالحين ص١٠٦.

(٢) رواه الإمام أحمد مسنده جـ٢ ص١٧٦ . وهو حديث حسن كما ذكره السيوطى ومثل مارواه النسائى قوله صلى الله عليه وسلم (إن تصدق الله يصدقك) رواه – النسائى – كتاب الجنائز باب الصلاة على الشهداء حـ٤ ص٦١ . حديث صحيح.

(٣) سورة النحل الآية ٩٠.

(٤) سورة المائدة الآية ٨.

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء – باب – كما ذكر عن بني اسرائيل ص٣٢٩ حـ٧ ط الحلبى وأخرجه مسلم فى كتاب الحدود – باب النهى عن الشفاعة فى الحدود ص١٨٦ حـ١١ شرح النووى. ط حجازى، وأخرجه الترمذى فى كتاب الحدود.

(٦) أنظر دكتور مصطفى كمال وصفى فى بحثه عن كفاية الشريعة الإسلامية ص١٧٥ فى الجزء الثالث من التوجيه التشريعى فى الإسلام مؤتمر مجمع البحوث ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م.

(٦) المساواة:

إن الإسلام ينظر إلى الناس نظرة مساواة من حيث أصل الخلقة وهذا يعنى أن الناس يتساوون فى الكرامة الإنسانية من حيث أنهم جميعا بنو آدم حيث قال الله تبارك وتعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[١].

وعلى ذلك فإذا كان هناك تفاضل بينهم. فإنما يكون على قيمة الفضائل التى يكتسبونها بجهودهم ولذا كان النداء الإلهى للإنسانية عامة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢].

وقال الرسول ﷺ (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق)[٣]. وهذه المساواة المنطلقة من نور الحق تبارك وتعالى تقتضى العدالة.. وذلك كما تبين فيما مضى قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[٤].

(٧) الامتثال للسلوك الطيب وتجنب السلوك الخبيث:

وذلك لأن الفعل لايعد سلوكا إلا إذا صدر عن إرادة – واختيار كما قلنا وهذا هو أهم معيار جامع مانع للسلوك الأخلاقى وأصدق دليل على ذلك قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾[٥].

وعلى ضوء ما سبق نستطيع أن نقول: إن هذه القواعد عبارة عن معايير عامة تنير الطريق للإنسان فى داخل الإطارالاجتماعى، فليس الخير عندئذ مايراه الإنسان خيرا، بل لابد أن يكون بحسب ما تراه البصيرة الأخلاقية خيرا، كما أنه ليس ذلك فحسب ، بل يجب أن يجتمع له مع ذلك التشريع الإسلامى – بمعنى أن يكون أداؤه امتثالا للأمر الإسلامى. فإذا كان خاليا من هذا المعنى لم يكن فى حقيقة أمره خيرا

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠. (٢) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٣) أحرجه أحمد حـ٣ ص١٩٩ وفى فيض القدير شرح الجامع الصغير حـ١ ص٣.

(٤) سورة النساء بعض من الآية ٥٨.

(٥) راجع الأستاذ محمد جاد المولى بك «كتاب الخلق الكامل» حـ٢ ص٣٣٣ سورة ال عمران الآية ١١٤.

وكان ما يبدو فيه من الخير مسألة ظاهرية[1] ويبين ذلك الدكتور عبدالفتاح بركة فيقول: (لأنه عندئذ إما أن يكون خيرا فى ذاته وإما أن تحتال النفس والهوى فى الباسه ثوب الخير .. وعلى كلا الحالين لا اعتداد به فى الإسلام، ولايدخل فى عداد الأخلاق الإسلامية بينما نجد على العكس من ذلك أمورا يلتبس فيها وجه الصواب أو تبدو فى ظاهرها مخالفة لوجه المصلحة، أو يوجد عنها للمسلم مندوحة ومع ذلك يؤديها المسلم امتثالا لدينه، واتباعا لعقيدته كالإيثار على النفس مع وجود الخصاصة[2]، والإقدام إلى حد الاستشهاد ولو كان فى معركة يائسة، ورفض الإذعان للإكراه مع اعتبار الإكراه عذرا إلى غير ذلك. تلك هى الصبغة الإسلامية التى بها تكون الأخلاق إسلامية، والتى تمتاز بها الأخلاق الإسلامية عن كل ماعداها من أفكار وتطبيقات أخلاقية[3]..

وعلى ذلك يمكننا أن نقسم هذا المعيار الخارجى من هذه الناحية إلى ثلاثة فروع:

- معيار التخلق مع الله.

- معيار التخلق مع الناس.

- معيار التخلق فى ميدان العمل عموما، وذلك ينطلق من قاعدة عدم الكسب عن طريق ارتكاب المحرمات، وقاعدة عدم الاضرار بالغير، ويدخل فى هذا المعيار التخلق مع الكائنات الأخرى بصفة عامة[4].

من هذا يتبين لنا أن هناك مجالات واسعة أطلق الإسلام فيها حرية السلوك والتصرف داخل إطار مفهوم كلمة (ينبغى) ونستطيع فى نهاية الأمر أن نقول إن هذه

---

(١) راجع الدكتور عبدالفتاح بركة فى التصوف والأخلاق ص٢٦ ط الأولى عام ١٩٨٢ بتصرف يسير.

(٢) وذلك كجريح مخلف من المعركة يعرض عليه الماء وهو أحوج ما يكون إليه لابقاء الرمق ومع ذلك يؤثر به جريحا آخر حبا لله ورسوله ولأخيه فى الله الذى مازال يقدم العطاء لاعلاء كلمة الله. نقلا من المرجع السابق ص٢٧.

(٣) راجع د كتور عبدالفتاح عبد الله بركة - فى التصوف والأخلاق ص٢٧.

(٤) راجع دكتور محمد عبد الله دراز - دستور الأخلاق فى القرآن ص٤٥١ .. ودكتورمقداد يلجن الاتجاه الأخلاقى ص٢٨٥.

المعايير ما هى إلا واجبات نحو أنفسنا لتزكية النفس واستقامتها وعلى ذلك فطاعتنا أو معصيتنا لايمكن أن تزيدا أو تنقصا شيئا من العظمة الإلهية أو قداستها.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[1]

والتزكية على الرغم من أنها مسألة داخلية لكنها تتم – كما عرفنا – من خلال ممارسات ذاتية مع النفس وممارسات أخرى فى السلوك مع الآخرين. وهى فى ذلك تشمل الظاهر والباطن ، فلا يكفى أن يتنزه الإنسان فى سلوكه الخارجى دون أن يكون لذلك دافعه فى سلوكه النفسى[2].

وعلى ذلك فمفهوم (ينبغى) واسع فى بعض المجالات وضيق فى بعض المجالات الأخرى. وذلك لأنه إذا كان ظاهره يخالف باطنه. بحيث يتنزه فى ظاهره دون أن يتزكى فى باطنه كان معنى ذلك أنه مازال يجاهد هواه ويقاوم رغباته ونزعاته، وإذا كانت مخالفة ظاهره لباطنه غير ناشئة عن هذا المعنى الذى هو مجاهدة الهوى ومخالفته لم يكن فى هذا الظاهر أى معنى من معانى الخلق الصحيح وإنما كان رياء أو سمعة أو كان لغرض من الأغراض الخارجية التى لادخل فيها لتزكية النفس[3]، ويمضى أستاذى الدكتور عبدالفتاح بركة فى بيان ذلك فيقول: (فإذا استمر يخالف هواه وبالتالى يخالف بظاهره ما يوحى إليه باطنه فقد يأتى الوقت الذى يتطابق فيه باطنه مع ظاهره، بحيث لاتصبح هناك منازعة بين مايريد، وبين ماينبغى منه أن يكون يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[4] هذا الجهد فى تزكية النفس على الرغم من عوامل الرغبة والرهبة التى تعين عليه متواصل وشاق. لكنه يؤدى فى النهاية إلى خير الإنسان نفسه لأنه يحقق بذلك ذاته، ويرقى بنفسه ويرتفع بانسانيته. قال تعالى ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[5].

(١) سورة الأعلى الآية ١٥ وراجع الدكتور عبدالفتاح بركة فى التصوف والأخلاق ص٣٣.
(٢) راجع الدكتور عبدالفتاح بركة فى التصوف والأخلاق ص٣٣.
(٣) راجع المصدرالسابق ص٣٣.
(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٩.
(٥) سورة فاطر الآية ١٨ وراجع الدكتورعبدالفتاح بركة المرجع السابق ص٣٤.

وعلى ذلك ، فلما كان مفهوم (ينبغى) واسعا فى بعض المجالات وضيقا فى بعض المجالات الأخرى كما قلنا. فمن هنا نحتاج إلى معيار آخر يساعدنا على معرفة أخلاقية كل سلوك وكل حركة من سلوكنا هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن السلوك الخاضع للصورة الأخلاقية الخارجية لايعد سلوكا أخلاقيا بمعنى الكلمة مالم يخضع للمعيار الأخلاقى الداخلى[1] وقبل بيان المعاييرالداخلية أريد أن أقف على العلاقة بين الفطرة والحاسة الخلقية وذلك لربط المعايير الخارجية بالمعايير الداخلية، وهنا نرى أن القرآن الكريم قد اعتمد فى معظم الأحيان وفى كثير من الآيات على هذا المعيار ومصدره الإحساس الداخلى الذى يستمد أساسا من نور البصيرة النظرية التى زود الله الإنسان بها، هذا الشعور العام وذلك الاحساس الذاتى القادر على التمييز بين أنماط السلوك المختلفة ، ومعرفة الخير من الشر والعدل من الظلم، كما اعتبر أساسا فى اقامة النظام الخلقى للفرد والجماعة واعتمد عليه فى عرض القضايا العامة على المسلمين فالرسول ﷺ (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) .. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ إلى غير ذلك من الآيات[2] التى تخاطب المسلم من جانبه الوجدانى الذى ينبع من الضمير الأخلاقى فى التمييز بين الخير والشر، وان هذا الشعور عام ومشترك بين جميع الناس.[3] فالقرآن الكريم يقدم لنا الواجبات الأساسية التى ترتكز على هذه الفطرة الغريزة على أنها دعوة كل الرسل السابقين ومهمتهم وسبيلهم المستقيم. وعلى ذلك فالعقل والشرع لايأمران إلا بما تقتضيه الفطرة السليمة

---

(١) راجع مقداد يلجن – الاتجاه الأخلاقى ص٢٨٥ .

(٢) يقول الحق تبارك وتعالى ﴿قل إن الله لايأمر بالفحشاء . قل أمر ربى بالقسط﴾(الأعراف ٢٩) .. ﴿قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها و مابطن، والاثم والبغى بغير الحق﴾(الأعراف ٣٢) .. ﴿يأيها الرسل كلوا من الطيبات وأعملوا صالحا﴾(المؤمنون الآية٥١) .. وقال تعالى ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾(الأنبياء بعض من الآية ٧٣) .

(٣) لقد أمر الله كل الرسل باقامة ميزان العدل والقسط ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأمروا أن يكسبوا رزقهم من الحلال ويعملوا صالحا، وليس من الصدفة العارضة أن يدعوا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ما سبق أن دعا إليه جميع الرسل السابقون ولكن هذا يبين لنا أن هناك قدرا مشتركا بين دعوة كل الرسل وهذا القدر يتمثل أساسا فى العقيدة التى فطر الله تبارك وتعالى عليها الخلق.

وأن الرسل إنما بعثوا لايضاح الطريق أمام هذه الفطرة وتقويتها. فالله تبارك وتعالى قد منح الإنسان هذه الفطرة ليتمكن بها من تحقيق سعادته ومصالحه وما فيه نفعه ودفع ما يضره وأعانه على ذلك بمعايير ظاهرة وباطنة ومهد له الطريق بالفطرة ثم أرسل رسله وأنزل كتبه لبيان ما غمض وتفصيل ما أجمل فى الفطرة وأزال عنه كل علة يحتج بها على الله. لأن كثيرا مما ينفع الإنسان أو يضره لاعلم له بتفصيله إلا عن طريق الوحى والرسل فهناك إذن عاملان يكمل أحدهما الآخر: عامل الفطرة ومايشتمل عليه .. وعامل الشريعة ..

والعامل الأول (الفطرة) .. هو الذى يجعل القلب متفتحا لتقبل العامل الثانى لأن ذلك من مقتضاها. والله قد فطر عباده على معرفة كل حق ومحبة الخير ولكن لاينبغى أن يفهم من فطرية الحاسة الخلقية أن جميع المبادئ الأخلاقية منقوشة فى الفطر بل إنها مجرد قوة مستعدة للتمييز بين الخير والشر والطيب والخبيث، وانما تنقش فى النفس الطيبات والخبائث عن طريق البيئة والمجتمع والتربية ومن هنا نجد الاختلاف ، فى وجدانات الناس وضمائرهم فى بعض النواحى الخلقية بحسب الحياة الاجتماعية التى يتبعونها أو التى نشئوا فيها فالأخلاق الإسلامية إذن وعلى هذا البيان السابق هى محاولة لاقامة تنسيق بين قوى الطبيعة الانسانية نفسها من ناحية ثم بينها وبين السلوك الانسانى من ناحية أخرى كما أنها عملية تهذيب وتربية لهذه الطبيعة ثم عملية توجيه الانسان إلى السلوك اللائق به فى الحياة كأفضل مخلوق فى الأرض من أجل رسالة معينة خلقت من أجله هذه الدنيا لتحقيق تلك الرسالة فقال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1].

وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[2].

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٤.
(٢) سورة الإسراء آية ٧٠ وراجع دكتور مقداد يلجن الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام ص١٩٣.

والواقع أن الخير الأخلاقى فى مجموعه لاينحصر فى حالة باطنية محضة ولا فى حالة ظاهرية محضة، بل هو ينحصر فى الانتقال من احداهما إلى الأخرى وهو انتقال لكى يكون جديرا باسمه ، يجب أن يضم كلا العنصرين على السواء(١) فالسلوك الخاضع للصورة الأخلاقية الخارجية وحدها لايعد سلوكا أخلاقيا بمعنى الكلمة مالم يخضع للمعيار الأخلاقى .. الداخلى. والحق أن القرآن الكريم يلح غالبا على دور العاملين معا فى آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾(٢) وقوله ﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾(٣) .

ومن هنا يتبين قيمة المعايير الذاتية الداخلية وأنها أساس للسلوك الأخلاقى فالانسان فيه عنصران أحدهما روحى والآخر مادى وقد اهتم الإسلام بتربية هذين العنصرين وحمايتهما مما يفسدهما أو ينحدربهما إلى طرق الشر والغواية – فإن اكتمالهما وتجانسهما وانسجامهما ينهض بالإنسان إلى قمة الفضيلة(٤) .

ولما كانت المعايير الأخلاقية الإسلامية الخارجية والذاتية مرتبطان بعضهما ببعض فقد أثرت أن أعرض للمعايير الذاتية بعد بيان المعايير الخارجية لبيان الارتباط بينهما وليقف القارئ على حقيقة هذا الارتباط.

القسم الثاني: من المعايير الأخلاقية .. المعايير الأخلاقية الذاتية

وهو أهم العنصرين فهو الطريق إلى الصلة بالله وهو الذى يوجه الإنسان إلى طاعة ربه وامتثال أوامره(٥) .

---

(١) راجع دكتور محمد عبدالله دراز -- دستور الأخلاق فى القرآن ص٤٤٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ٦٩ وراجع المرجع السابق.

(٣) سورة الأنعام .. الآية ١٥١ .

(٤) راجع الأستاذ عبدالحميد حسن – روح الإسلام أقوى دعائمه لاصلاح المجتمع – التوجيه الاجتماعى فى الإسلام ص١٣٦ – الجزء الثانى من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية.

(٥) ولذلك يشير الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تربية المعيار الداخلى على الأعمال للانسان فيقول صلى الله عليه وسلم إذا ساءتك سيئتك وسرتك حسنتك فأنت مؤمن.

رواه أحمد من طريقة أبى امامه فى حـ٥ ص٢٥١ ، ٢٥٢ من طريق عمر بن الخطاب حـ١ ص١٨ ، ٢٦ ومن حديث عمر بن ربيعة حـ٣ ص٤٤٦ وذكره الترمذى والحديث أسناده صحيح.

وهذا العنصر الروحى أو النفسى له مظاهر ثلاثة تهدف كل منها إلى غاية نبيلة فى الحياة وهى : العقل وغايته معرفة الحق.

الوجدان وغايته العواطف النبيلة وجمال النفس.

الإرادة وغايتها الوصول إلى الخير.

هذه النواحى الثلاث هى الدعامة للكيان الروحى للإنسان(١).

فهذه هى المعايير الداخلية وقد اعتد بها الإسلام لوزن الأعمال الأخلاقية إلى جانب المعيار الخارجى الذى هو المبادئ التشريعية أو – الأخلاقية التى جاء بها الإسلام ووضعها فى صورة قوانين لنظام الحياة(٢).

وفيا يلى نعرض لمظاهر هذا المعيار الذاتى بشىء من التوضيح لأهميتها ودورها فى تأصيل الجانب الخلقى لدى الإنسان :

أما العقل: فهو الذى يختص بالتمييز بين الحق والباطل، والحق خير والباطل شر، فيتبين دور العقل باعتباره معيارا لوزن الأعمال الأخلاقية وتمييز أخلاقيتها من عدم أخلاقيتها. وقد جعل القرآن الكريم للعقل السليم السلطان الأعلى فى إدراك كل معانى الحق والخير(٣) وقد أقر الرسول ﷺ معيارية العقل وذلك أنه عندما أرسل معاذ بن جبل قاضيا إلى اليمن قال له كيف تقضى ؟ قال أقضى بما فى كتاب الله قال: فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال فبسنة رسول الله. قال فإن لم يكن فى سنة رسول الله؟ قال أجتهد برأيى قال: الرسول ﷺ عندئذ (الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله إلى ما يرضى به الله)(٤) وليست السنة هى التى أجازت القياس العقلى واستعملته كما بينا فحسب بل إن السبيل لتنمية العقل هو ماحث عليه القرآن الكريم من النظر فى آيات الله فى الكون وفى النفس .. قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا

---

(١) راجع الأستاذ عبدالحميد حسن روح الإسلام أقوى دعائمه لاصلاح المجتمع – التوجيه الاجتماعى فى الإسلام ص١٣٦.

(٢) راجع دكتورمقداد يلجن الاتجاه الاخلاقى ص ٢٨٦.

(٣) راجع الأستاذ أنور الجندى – القيم الأساسية للفكر الإسلامى ص٤٥١.

(٤) التاج الجامع لأحاديث الرسول ص٦٦ حـ٣.

تُبْصِرُونَ﴾[1].. ويقول جل شأنه ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾[2] والنظر إنما يتم بالمعرفة وإعمال الفكر والاقتناع وذلك بلفت أنظار الناس إلى التفكر فى الكون وتدبر مافيه من دلائل القدرة وبديع الخلق فلقد ترك الله لنا أن نستنبط عن طريق القياس العقلى كل ذلك ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[3] فلقد وجه الله تبارك وتعالى على ما أنكره المنكر – الكافر – بالقياس وذلك بقياس الآخر على الأول. وهو أن الذى أنشأه أول مرة من العدم لايعجز عن انشائه واعادته مرة أخرى والإسلام بهذا يدفع الإنسان إلى النظر فى أعماق الكون ودلائل القدرة الإلهية فيعمق الإيمان فى النفس وتتحقق ذاتية الانسان[4].

وعلى ذلك فإن القدرالإلهى لم يلغ دور الإنسان وفاعليته فى الكون مع وجود يد الله تعالى فيه ومع انعدام التكافؤ بين الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية وبين قدرة الخالق وقدرة المخلوق وكذلك لايلغى الوحى الإلهى دور العقل الإنسانى وإيجابيته فى فهم الوحى والاستنباط منه والقياس عليه وملء ماسكت عنه من فراغات تشريعية. والذى يعنينا فى هذا المقام هو أن نتبين دورالإرادة[5] الإنسانية وبهذا يتبين لنا أن الوحى الإلهى لم يشل الفكرالإنسان ولم يجمده بل كان له هاديا ومعينا فى بعض المجالات وترك له الحرية الكاملة والاستقلال المطلق فى مجالات أخرى.

أما الوجدان الأخلاقى: فالوجدان بما له من قوة وشعور متدفق ينفعل به الإنسان فيحتل الجانب الأكبر من تفكيره ويعتبر قوة فطرية تجعل المرء يشعر بالرضى إذا سلك

---

(١) سورة الذاريات الآية ٢١.

(٢) سورة الطارق الآية ٥.

(٣) سورة يس الآية ٧٩ وراجع الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام ص٢٨٧ وراجع الأستاذ مناع القطان لمحة من تاريخ التشريع الإسلامى ص٢١٣ – ندوة المحاضرات برابطة العالم الإسلامى ١٣٨٦هـ – ١٩٦٧م.

(٤) راجع الدكتور أحمد الشاعر مناهج البحث الخلقى ص٧٢.

(٥) فلقد ترك الوحى للعقل فى مجال العقيدة أن يهتدى بفطرته إلى وجود الله ووحدانيته ثم ترك الوحى للعقل بعد ذلك أن يجول فى أفاق الكون وترك له أن يستفيد من تجارب الآخرين. راجع الدكتور يوسف القرضاوى الخصائص العامة للإسلام من ٥٧ – ٦١ وراجع الدكتور محمد عبدالله دراز كلمات فى مبادئ الأخلاق.

طريق الخير وبالندم إذا سلك طريق الشر وذلك لمايتفرع عنه من عواطف. ومن هنا فقد قوى الإسلام رباطها وأحكم أواصرها[١].. قال ﷺ (البر ما أطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ماحاك فى نفسك وتردد فى الصدر. وفى رواية وكرهت أن يطلع عليه الناس وإن أفتاك الناس وأفتوك[٢] وقال ﷺ أيضا (دع مايريبك إلى مالايريبك)[٣] وعلى ذلك فالشعور الوجدانى هو تكيف النفس بكيفية السرور أو الألم. فهناك إذن الحالة الشعورية أى الحالة النفسية، وناحية توجيهها نحو شيئ معين فالتعريف يشير إلى ناحيتين ومن ثم كان لنا أن نقول إن الوجدانات ذاتية والاحساسات موضوعية[٤]. وعلى ذلك ندرك الفرق بين معيار العقل، ومعيار الوجدان من حيث التمييز والتأثر والتأثير. أما من حيث التمييز: فالعقل يميز بالنظر والتأمل والتفكير. أما الوجدان فإنه يميز بين الأمور من غير تفكير ولاروية ولهذا عبر الحق تبارك وتعالى عن هذا الإدراك – بالرؤية فقال تعالى ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[٥] وأما من ناحية التأثير فتأثير العقل غير مباشر وذلك بمعنى أننا إذا أردنا التوصل إلى معرفة شيئ عن طريق العقل احتجنا إلى واسطة وهى الاستدلال. أما الوجدان فتأثيره مباشر وذلك بمعنى أنه لايحتاج إلى واسطة. ويؤيد ذلك ماجاء فى سورة الكهف على لسان الخضر عليه السلام حيث قال ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[٦] فلقد وضع المولى عز وجل أسس هذا الوجدان فى أول القصة حيث قال لسيدنا موسى: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[٧] . وعلى ذلك نلاحظ أن هذا العلم هو الوجدان الداخلى أما من ناحية التأثر: فيقول الدكتور مقداد يلجن أن العقل لايتأثر وإنما يؤثر. وأما الوجدان فيؤثرويتأثر ومن هنا نجد الوخز والتأنيب فى الوجدان إذا فعلنا عملا لاينبغى فعله،

---

(١) راجع الأستاذ عبدالحميد حسن روح الإسلام أقوى دعامة لاصلاح المجتمع التوجيه الاجتماعى فى الإسلام ص١٣٨ البحوث.

(٢) التاج – كتاب البر والأخلاق ص٣ جـ٥ وراجع صحيح مسلم كتاب البر والإثم وسنن الدارمى جـ٢ كتاب البيوع – باب دع مايريبك ص١٦١ شركة الطباعة الفنية المتحدة.

(٣) راجع الجامع الصغير جـ٢ ص١٥.

(٤) راجع دكتور محمود حب الله – الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص٩.

(٥) سورة النجم الآية ١١.

(٦) سورة الكهف الآية ٨٢.

(٧) سورة الكهف الآية ٦٥.

وانشراحا وسرورا إذا فعلنا بالفطرة فإنها تزيد أو تنقص بحسب اختلاف الناس وهذا يرجع إلى الفروق التى بين البشر[١]. ولكننا نرى أن المعرفة عن طريق الوجدان هى أصفى المعارف وأرقاها[٢].

أما الإرادة والغاية:

ففى هذا الجانب نجد الإسلام يربى فى الإنسان إرادة انسانية كريمة وذلك أنه إذا فكر الإنسان فى العمل الذى يرغبه ويتبين له امكانه وأزاح من طريقه كل العقبات التى تحول دونه وصمم على تنفيذه كان ذلك ما يسمى بالإرادة.. فالإرادة قوة نفسية يخصص الإنسان بها وجود أفعاله التى يميل إليها ويقدر عليها ولايحول بينه وبينها حائل[٣] ويجدر بنا قبل بيان دور هذا المعيار الأخلاقى أن نقف على حقيقته النية لما لها من أهمية فى هذا الصدد.

فالنية: هى قصد الشيء وعزم القلب عليه[٤] وهى بهذا تتكون من:

- القصد وهو إرادة الفعل حالا.
- والعزم وهو إرادة الفعل مستقبلا.

وقالوا إن النية والإرداة شيء واحد، أو ان الإرادة تشملها وبناء على هذا فالقصد والعزم جزء من الإرادة، وتطلق الإرادة على كل واحد منهما من اطلاق الكل على الجزء كاطلاق النية[٥]. ثم إن الإرادة أو النية قد تنصب على الفعل ذاته، وقد تنصب

(١) راجع مقداد يلجن الاتجاه الأخلاقى ص٢٨٩.

(٢) ذلك لأنها تأتى عن طريق خالق الوجدان فتؤثر ولاتتأثر كما أنها تأتى منقاة عن كل هوى. والمطلوب من هذه المعرفة تنفيذ صاحب الوجدان لما عرفه. ليس هذا فحسب بل الخطورة كل الخطورة فى المخالفة، وذلك بخلاف المعرفة العقلية حيث نرى أنها تتأثر بما حولها. وتؤثر فيما حولها - فمثلا العقل أمره الله بالنظر فى الكون حتى يخرج من هذا النظر بالإيمان الكامل والامتثال لما أمر به خالق الكون عز وجل.

والقرآن الكريم يوجه الخطاب للإنسان ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور ثم إرجع البصر كرتين﴾ سورة الملك الآية٤.

فقد أمر الحق تبارك وتعالى الإنسان أن ينظر، وهذا النظر هو وسيلة للمعرفة ليصل إلى النتائج وهى معرفة الخالق عز وجل وعبادته.

(٣) راجع دكتورعثمان عيش، الظاهرة الأخلاقية ص٧٠.

(٤) نهاية الأحكام فى بيان ما للنية من الأحكام ص٨.

(٥) المرجع السابق ص٨.

على شىء خارج عنه أى على النتيجة أو الغاية منه.. فدور الإرادة والغاية فى السلوك الأخلاقى هام إذ لايكفى أن يكون السلوك مطابقا للقانون الأخلاقى.

من حيث الصورة الخارجية بل لابد للسلوك الأخلاقى من شكل ومضمون أو مـادة وروح[1] - ولهذا قال الرسول ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى)[2].

ولكن قد يقال هل الإرادة الخيرة تجعل الأعمال كلها خيرة ولو كانت شرا - والإرادة السيئة تجعل الأعمال كلها قبيحة ولو كانت حسنة يبين ذلك أستاذنا الدكتورمحمد عبدالله دراز فيقول: ان النبى ﷺ - لم يقصد بقوله (إنما الأعمال بالنيات) أن الأعمال لاتقوم ولاتوجد إلابالنيات - فحسب بل قال أيضا عن عائشة رضى الله عنها • من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد. أليس هذا هو أفضل برهان على أن المسلك الحسن لاينحصر فى حسن النية وحده، ولا فى دقة العمل وحدها - بل فى مجموع من الشكل، والمادة بحيث لايمكن أن يستغنى أحدهما عن الآخر[3] - وعلى ذلك فالنية ليست كل شىء فى العمل الأخلاقى وإنما هى ركن فيه فالعمل الأخلاقى له كيان مادى ومعنوى والأول يتمثل فى الفعل والثانى فى النية والإرادة الحسنة[4] .. فإن الله تبارك وتعالى لاينظر إلى الصور والأموال ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال.

ويقول الرسول ﷺ : لايقبل الله قولا إلابعمل، ولايقبل قولا ولاعملا إلابنية. ولقد تناول الحسن البصرى، وسعيد ابن جبير رضى الله عنهما هذا الحديث . فكان من قولهما لايصلح قول وعمل إلا بنية ولايصلح قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة. ومع

(١) راجع دكتور مقداد يلجن - الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام ص٢٩٠.
(٢) صحيح البخارى - فصل بدء الوحى جـ١ ص١٣ وسبق تخريجه.
وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (ان الله تجاوز عن أمتى ماحدثت به أنفسها، ما لم تعمل به) - أخرجه البخارى فى كتاب الطلاق ص٣١١ حـ١١ ط الحلبى - وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان ص٣٥٧ حـ١٤٤ ط الحلبى.
(٣) دكتور محمد عبدالله دراز - دستورالأخلاق فى القرآن الكريم ص٤٤٣.
(٤) راجع دكتور مقداد يلجن - الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام ص٢٦١.

ذلك فإن هذين الشرطين لايمضيان دون شرط ثالث يستتبعانه فليس يكفى أن يتوافق العمل مع القاعد فحسب بل يجب أن يكون هذا التوافق أو التطابق مرادا ومرضيا بكل حرية[1] وذلك فى العناصر الثلاثة ولهذا قال رسول الله ﷺ فى حديث قدسى .ان الله عز وجل قال: من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وماتقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضت عليه ومايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وان سألنى لأعطينه.. ولئن استعاذنى لأعيذنه وماترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته[2] .. فالنية الطيبة لاتحول فعلا شريرا فى ذاته إلى فعل خيره بل تحول الفعل الذى ليس شرا فى ذاته إلى درجة من الخير لا الخيرة الكاملة .. ولكن ماذا تكون النتيجة إذا أخطأت النية الخيرة الصورة الأخلاقية؟.

يبين ذلك حديث الرسول ﷺ فى قوله: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر[3]. فالأخلاق لها مادة وروح وهناك تفاوت فى قيمة الصورة الأخلاقية وفى قيمة روح هذه الصورة من حيث التقييم الموضوعى والذاتى، وإذا كان الأمر كذلك فإن القيمة المعنوية لمعيار الأخلاق الإسلامية تأتى من نية فاعلها وغايتها ولذا كان للنية والغاية كمعيار أخلاقى دور كبير فى السلوك الأخلاقى[4] وهكذا نجد أن الشرط الأول للفعل الأخلاقى هو وجود إرادة تشرع فى العمل مرتبطة بالقاعدة ولكن إذا كان هذا الإدراك شرطا ضروريا فإنه ليس الشرط الكافى لتوفير نية حسنة من الناحية الأخلاقية. فان هناك فوق الاختيارالأخلاقى للموضوع المباشر. وهو العمل – اختيار الهدف البعيد (الغاية) فى هذا الاختيارتتمثل النية الأخلاقية بأخص معانيها[5].

---

(١) راجع دكتور محمد عبدالله دراز – دستور الأخلاق ص٤٤٤. وراجع الخلق الكامل ص٣ جـ١ محمد جاد المولى.

(٢) الأحاديث القدسية حـ١ ص٨١.

(٣) راجع فتح البارى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة .. باب إذا إجتهد الحاكم أو أخطأ حـ٧؛ ص٨٣.

(٤) راجع دكتور مقداد يلجن الاتجاه الأخلاقى ص٢٩٩.

(٥) راجع دكتور محمد عبدالله دراز – دستور الأخلاق ص٥٧٨.

وبهذه الجوانب الثلاثة تتحقق ذاتية الإنسان فبالتفكير يصل إلى الحق وبالوجدان يتذوق الجمال فى كل شئ وبالإرادة يهدف إلى الخير[1] . كما أننا ندرك أن هذه المعايير الذاتية للأخلاق الإسلامية هى العوامل النفسية لتكوين العقيدة الإسلامية. وبذلك يتأكد أن بين العقيدة والأخلاق وشائج وصلات من حيث وحدة الغاية وهى صلاح الإنسان.

ولاريب أن الأخلاق الإسلامية لاتذهب إلى حد أن تقبل من مفاهيمنا الأخلاقية معيارا وحيدا يعفينا من مطابقتها للشريعة[2].. وذلك أنه لما نضج العقل البشرى وتعقدت أمامه مشاكل حياته أذن الله بفجر دين جديد يلقى أضواءه على جوانب الحياة كلها. ليكتمل صرح الأخلاق الإسلامية التى بناها رسل الله. فكان هذا الدين هو شريعة الإسلام[3] ومن هنا فقد وضع الإسلام المعايير المتعددة لقياس الأخلاق وبيان قيمتها، والفائدة من تعدد هذه المعايير هى تنمية المبادئ الأخلاقية الفاضلة فى النفوس الإنسانية. وهذا ماجعلها عظيمة الاداء كثيرة العطاء كما أنه لايمكن للقانون الأخلاقى أن يسود، ولايمكن للإرادة أن تخلص فى اتجاهها نحوه إلا إذا وجدت معنيا من الرغبة والرهبة بحيث يكون موضوع.. الرغبة والرهبة عاما شاملا، خارجا عن محيط السيطرة البشرية حتى يكون المرغوب فيه والمرهوب منه غير خاضع للتلاعب والتحريف والتوجيه تبعا للهوى والأغراض وإنما تكون له السيطرة المحايدة والهيمنة المنزهة والتوجيه المطلق[4] وهكذا يجد أصحاب البصائر الأخلاقية اليقظة فى ذلك حماية لإرادتهم ومعينا لعزيمتهم. كما يجد هؤلاء الذين تغلب عليهم أهواؤهم وتسيطر عليهم شهواتهم ويميلون إلى انتهاك القوانين الأخلاقية عوامل الردع والتحذير ولايوجد هذا المعين الذى تنشده الإرادة الأخلاقية ، ولايتمثل موضوع الرغبة والرهبة هذا إلا فى العقيدة الإسلامية التى تؤمن بالله الواحد الحق. ولما كانت إرادة الفرد المسلم تعتمد على عقيدته ودينه ومافيه من أوامر ونواه، وكان كل ما يترتب عليها من سلوك

---

(١) راجع دكتورأحمد عبدالحميد الشاعر – مناهج البحث الخلقى – ص٧٤.
(٢) راجع دكتورمحمد عبدالله دراز – دستورالأخلاق ص٥٧٨.
(٣) راجع مقداد يلجن الاتجاه الأخلاقى ص٢٩٩.
(٤) راجع الدكتور عبدالفتاح عبدالله بركة فى التصوف والأخلاق ص٢٢.

وتصرف مصطبغا بالصبغة نفسها[1]. فالإسلام لم يكتف بوضع معيار واحد لقياس العمل الأخلاقى كما فعلت كل أخلاقية أخرى إذ وضعت لنفسها معيارا واحدا بل إنه جعل المعايير موضوعية خارجية، وذاتية داخلية وقد بينا أهمها من قبل وهى الشرع والعقل ثم الإرادة والغاية، والوجدان الأخلاقى.

ولكن قد يقول قائل .. هل تعدد المعايير يعد ميزة؟ .. وللبيان نقول: إنه إذا كان اختلاف المعايير يؤدى إلى قياس القيمة من عدة وجوه، أو يساعد الإنسان على قياس السلوك الأخلاقى بوضوح. فلاشك أنه يعد ميزة فى هذه الحالة أما إذا كان اختلاف المعايير يؤدى إلى اختلاف الناس فى التقييم الأخلاقى. فلاشك أنه فى هذه الحالة لايعتبر ميزة، ولكن مهما كان الأمر فإن ذلك لايدل على أن الشئ ليس له إلاقيمة واحدة. بل إنه قد يكون لشى واحد عدة قيم وكذلك السلوك الأخلاقى له قيمة لدى جميع الناس.

ولكن هذه القيمة تختلف باختلاف معاييرهم فمنهم من يقيسهابالمعيار العقلى والآخر يقيسها بالمعيار الجمالى والأخر يقيسها بالمعيار النفعى .. وما إلى ذلك وكل يعطى له قيمة بحسب معياره وتزيد هذه القيمة فى نظر إنسان يقيسها بجميع تلك المعايير هذه من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن تعدد هذه المعايير وكونهاتشمل الظاهر والباطن يساعد الناس على قياس الأخلاق لأنه يتناسب مع اختلاف الطبائع[2] والغاية منه.

– ونستطيع أن نقول إن المعايير الأخلاقية فى نظر الإسلام تتمثل فى الآتى:

أولا: المعيار الخارجى الموضوعي:

وهو المبادىء الأخلاقية الموضوعية أو المشروعة.

ثانيا: المعيار الذاتى الداخلي:

ويشمل العقل والإرادة والوجدان والغاية كما أن الغاية والإرادة تتناولان السلوك الأخلاقى من حيث الظاهر والباطن.

أما العقل والوجدان فيقومان بتمييز السلوك الأخلاقى من غيره .. وعلى ذلك نقرر شمول الأخلاق الإسلامية للظاهر والباطن.

---

(1) المرجع السابق ص٢٣.

(2) د. مقداد يلجن .. الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام ص٢٥٩.

طبيعة الأخلاق الإسلامية

إن القرآن الكريم حين يعرض مبادئه المتمثلة فى الدعوة إلى الحق والفضيلة والخير والمعروف يضفى على الصورة الموضوعية للأخلاق صورته الإسلامية، والإسلام يعتمد على هذه الموضوعية فى مطالبة الناس جميعا باتباعه بل إنه لايأخذ صورة الأمر والقسر.

وإن كان أمرا الهيا لاريب فيه وإنما يعرض الحق بصورة موضوعية[1] فـــى تزكية نفوس المسلمين واعلاء شأنهم ويتمثل الحق فى العقيدة الصحيحة الدافعة إلى العمل الصالح والخلق الكريم لذلك نجد القرآن الكريم يطلق اسم الحق على الإسلام قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[2].

والإسلام فى تقرير هذا المعنى مكمل لرسالة الرسل جميعا، فقد كانت دعوة الحق دعوة الأنبياء قاطبة فالإسلام يعرض الحق بصوره موضوعية ليختار الإنسان مايشاء بصرف النظر مبدئيا عن الأمر ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[3] – فالرشد لم يصبح رشدا لأن الإسلام قد جاء به والغى لم يصر غيا لأن الإسلام ندد به وإنما الرشد رشد فى نفسه وقد جاء الإسلام للدلالة عليه ولإيجابه على الناس والغى غى قبل مجئ الإسلام وبعد مجيئه وقد جاء الإسلام للتنفير منه وتحريمه على الناس[4] فالأخلاق الإسلامية تفترق عن غيرها من الأخلاق الوضعية فى أنها أخلاق عملية موضوعية لاتقبل الجدل.[5]

---

(١) دكتور / عبدالفتاح بركة – التصوف والأخلاق بتصرف يسير ص١٠ ط. الأولى عام ١٩٨٠ دار الطباعة المحمدية.

(٢) سورة الفتح الآية / ٢٨.

(٣) سورة البقرة الآية / ٢٥٦ وراجع الدكتور/ عبدالفتاح بركة فى المرجع السابق ص١٠.

(٤) دكتور/ عبدالفتاح بركة – التصوف والأخلاق ص١٠ ط الأولى عام ١٩٨٠م دار الطباعة المحمدية.

(٥) ولذلك نتبين معنى الجدل: الجدل نوعان – نوع للفهم ومعرفة الحقيقة وهذا مالا تنفر منه الأخلاق الإسلامية . ونوع آخر للمارة والغلبة وهو ما تنفر منه الأخلاق الإسلامية ولاتقبله.

والقرآن الكريم حين يقدم لنا الفضائل والواجبات الأخلاقية إنما يقدمها على أنها أمر واجب النفاذ والنهوض بأعبائه وتكاليفه لا على أنها نظريات قابلة للجدل أو المناقشة[1] غير الموضوعية ومن هنا فالتمسك بالأخلاق الإسلامية هو الدواء الكامل لكل مايعترض الإنسان من مشكلات تحول بينه وبين خيره وسعادته فهى غير قابلة للجدل - هذا من ناحية.

ومن ناحية ثانية فإن أى تقصير فى تطبيقهاعلى الوجه الذى خطه الوحى يبعدها عن حقيقتها ويفقدها فاعليتها فى تحقيق ماتهدف إليه من إسعاد الإنسان فى دنياه وآخرته. بهذا المعنى كانت الأخلاق الإسلامية أخلاقا عملية وموضوعية.

ودور الإرادة الإنسانية حيالها هو الاخلاص التام فى تطبيقها على الوجه الذى وردت به، وعدم السماح لأى مصدر آخر بمزاحمة الوحى كسلطان وحيد قائم على وحدة العقيدة الإسلامية فلايجب أن تدين الإرادة بالطاعة والولاء إلا إليه.

هذا هو الأساس الذى تبنى عليه الأخلاق الإسلامية والمحور الذى تدور حوله كل تعاليم القرآن الكريم التى تؤكد هذا المعنى بوضوح قاطع لا لبس فيه ولا مواريه.

يتضح هذا من قول الله تعالى ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾[2] وقوله تعالى ﴿أَلا لَهُ الْحُكْمُ﴾[3] وقوله تعالى ﴿لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾[4] وقوله تعالى ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

---

(١) والإسلام يعتمد على ذلك فى كثير من مناقشاته للخصوم ويقرر أن الفاحشة فاحشة ولايصح أن ينسب الأمر بها إلى الله - ولو أن الفاحشة ليست فى نفسها فاحشة لأصبحت بمجرد نسبتها إلى الله عملا من أعمال البر ولايمكن الرد على الخصوم حينئذ ولكن القرآن الكريم يرد عليهم اعتمادا على أن الفاحشة لايتغير وصفها بتغير النسبة. وهى لذلك لايصح نسبة الأمر بها إلى الله ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ فهل يكفى ذلك لكى يسلبها وصف الفحشاء كلا بل تظل كما هى ولذلك ينفى الله تبارك وتعالى أن يكون قد أمر بها ويرد عليهم فحشاءهم ﴿قل إن الله لايأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لاتعلمون قل أمر ربى بالقسط﴾الأعراف ٢٨، ٢٩ من أجل هذه الموضوعية الثابتة فى هذه الحقائق الأخلاقية ورد ذكرها فى كثير من آيات القرآن الكريم، والأحاديث بوصفها العام المعنوى فهو يذكر الخير والطيب والإحسان والعدل والبر كما يذكر الإثم والبغى والعدوان والفحشاء دون أن يذكر من جزئياتها إلا مايقتضيه المقام أوالمناسبة فالبنسبة للحق والباطل يقول الحق تبارك وتعالى ... ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾ سورة الأنفال الآية./٨ نقلا عن الدكتور/ عبدالفتاح بركة - التصوف والأخلاق ص ١١.

(٢) سورة الأنعام الآية / ٥٧. (٣) سورة الأنعام الآية / ٦٢. (٤) سورة الرعد الآية / ٤١.

﴿يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(١).

ولعلنا نستطيع على ضوء بيان طبيعة الأخلاق الإسلامية. وأيضا على ضوء التعريفات السابقة وتعقيبنا عليها أن نتبين أن للقانون الأخلاقى الإسلامى سمات ومميزات لاتتوفر لغيره.

وعلى ذلك فالأخلاق الإسلامية تتصف:-

١- بالعمومية ٢- والثبات ٣- والكمال ٤- والإلزم السماوى

وهى سمات خاصة بالأخلاق الإسلامية وحدها وبيان ذلك:-

أولا: أما العموم فنرى أن الأخلاق الإسلامية تتسم بالشمول والعموم فلم تدع جانبا من جوانب الحياة الإنسانية إلارسمت له المنهج الأمثل للسلوك. فما فرقته البشرية فى مجال الأخلاق باسم الدين وباسم الفلسفة وباسم العرف أو المجتمع مما هو حق قد ضمه القانون الأخلاقى الإسلامى. فلم تكن الأخلاق الإسلامية كأخلاق الجاهلية التى كانت تقوم على العصبية بل لقد عدل الإسلام من هذه النظرة الضيقة فلم يجعل نصرة المسلم مقصورة على قبيلته بل جعل النصرة للمسلمين عامة لأنهم جميعا أخوه فى العقيدة التى أظلهم الله بلوائها ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٢) ثم لم يجعل النصرة بالحق وبالباطل. وإنماجعلها نصرة فى الحق فقط وجعل من نصرة المؤمن لأخيه أن يكفه عن الظلم وأن يمنعه عن العدوان. ومن هنا فلقد نظم القانون الأخلاقى الإسلامى علاقة الإنسان بخالقه وعلاقته بنفسه وعلاقته ببنى جنسه، بل وبكل عناصرالكون. ولذلك فقد وصف الله الأنصار بما يبين ذلك فى قوله تعالى ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(٣) فـهم الذين آثروا اخوانهم المهاجرين على أنفسهم وقاسموهم أموالهم وديارهم وهذا يوضح التكامل والشمول النابع من وحدة العقيدة فلقد بلغ الحديث عن سمو الأخلاق الإسلامية أنها دعت المسلمين إلى أن يتصفوا بالعدل حتى مع أعدائهم ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ

---

(١) سورة النساء الآية / ٦٥.
(٢) سورة الحجرات الآية : ١٠.
(٣) سورة الحشر الآية : ٩.

عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1] وإذا كانت الأخلاق الإسلامية تقوم على الأخوة والعدالة فإنها تقوم كذلك على الرحمة، وهى رحمة شامله عامة لبنى الإنسان جميعا بل لهم وللحيوان[2] أيضا كما أن القانون الأخلاقى الإسلامى يقنع العقل ويرضى القلب والوجدان، فما من خلق حث عليه الإسلام، أو حذر منه يتعارض مع العقل الصحيح ، فالقرآن الكريم حينما ينهى عن الغيبه مثلا يقول ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا- ثم يتبع النهى بقول - أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[3] والرسول ﷺ حينما يعرف البر والإثم يقول: البر ما أطمأنت إليه النفس وأطمأن إليه القلب، والإثم : ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك[4]. ولقد شاء الله للإسلام أن يكون الرسالة العامة، الخالدة فهو هداية الله للناس كافة، من كل الأمم وكل الطبقات، وكل الأفراد، وكل الأجيال. والناس تختلف مواهبهم وطاقاتهم الروحية والعقلية والوجدانية، وتتفاوت مطامحهم وآمالهم ، ودرجات اهتمامهم، ولهذا جمعت الأخلاق الإسلامية وجهات النظر الصحيحة مما فرقته عامة الطوائف والمذاهب الأخلاقية فى نظرتها إلى الأخلاق وتفسيرها لمصدرالألزام الخلقى[5] حيث أنه كان قبل الإسلام يرتبط بالبشر ولكن بعد الامتثال بالإسلام ربطت الفضائل بالله وعلى ذلك فالأخلاق الإسلامية ثابته بثبوت الإسلام وقد أودع الله تبارك وتعالى : فى فطرة البشر العقيدة الصحيحة التى تشبع كل نهمة معتدلة وبها أيضا ما يقنع كل ذى وجهه ويلائم كل تطور سليم. فمن كان مثاليا ينزع إلى الخير لذات الخير وجد فى الأخلاق الإسلامية ما يرضى مثاليته ومن كان يؤم بمقياس السعادة وجد فى الأخلاق الإسلامية ما يحقق سعادته وسعادة المجموع معه، ومن كان يؤمن بمقياس المنفعة - فرديه أو اجتماعية- وجد فى الإسلام ما يرضى

---

(١) سورة المائدة الآية :٨.

(٢) ونذكر فى هذا المقام حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن تلك المرأة التى دخلت النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من حشاش الأرض: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان جـ٣ ص٢٠١.

(٣) سورة الحجرات الآية :١٢.

(٤) سبق تخريجه .

(٥) راجع د. يوسف القرضاوى الخصائص العامة للإسلام ص١١٣ بتصرف يسير .

نفعيته، ومن كان يؤمن بالترقى إلى الكمال وجد فيه ما يحقق طلبته، ومن كان همه التكيف مع المجتمع وجد فيه ما يلائم اجتماعيته حتى الذى يؤمن بأهمية اللذة الحسية يستطيع أن يجدها فيما أعد الله للمؤمن فى الدنيا والآخرة من نعيم مادى، ومتاع حسى[1]. ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾[2] وبهذا تسمع كل أذن الأنشودة التى تحبها ، وتجد كل نفس الأمنية التى تهفو إليها[3] فالأخلاق الإسلامية تعبر عن مطالب الإنسان الفرد وعن مطالب الجماعة تعبيراً متكاملا ينتهى بغرائزها[4] ومشتهياتها إلى غاياتها المشروعة الصحيحة فهى لاتكتفى بمجرد وضع المثل الأعلى للسلوك العقلى الذى ينشده الإنسان بعقله فقط، بل إنها لتقيم المثل الأعلى للإنسان فى جميع أنماط سلوكه الوجدانية والغريزية والعقلية فهى لاتقوم على المعصية أو التفرقة العنصرية.

إن الأخلاق الإسلامية أخلاق متكاملة تكتنف الإنسان فى جميع جوانبه قلبا وروحا وعقلا وعاطفة ووجدانا[5] فهى عامة لكل الناس فى أى مكان على وجه الأرض لأنها مشتقة من الفطرة الإنسانية الأصلية. كما أنها شاملة للإنسان فى ذاته قلبا وقالبا فتخلق فيه وحدة ذاتيه متكاملة لاتنفصم عراها ولايختل انسجامها وتوازنها[6] فهى مستمده من عقيدة التوحيد الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان ويبين ذلك فضيلة الشيخ محمد أبو زهره فيقول (والشريعة الإسلامية لأنها قائمة على الفضيلة ومشتقة من الفطرة الإنسانية كانت فى نظم الأخلاق عامه لاتخص اقليما

---

(١) دكتور/ يوسف القرضاوى الخصائص العامة للإسلام ص١١٤ بتصرف يسير.

(٢) سورة الزخرف الآية: ٧١.

(٣) دكتور/ محمد عبدالله دراز كلمات فى مبادئ على الأخلاق ص٣٦ عام ١٩٥٣م.

(٤) وذلك كغريزة اقتناء المال: فهى غريزة فطرية مغروسة فى الفطرة البشرية ومن ثم فلا سبيل إلى تعديلها إلا بالأخلاق الإسلامية الممتدة من العقيدة الصحيحة فيها يستطيع الفرد أن يعدل اكتساب المال لئلا يتحول هذا الأمر الفطرى إلى سعار مادى به يكون القضاء على الآخرين وذلك بأن يمنعهم حقوقهم فى اقتناء المال واكتسابه فالأخلاق الإسلامية تضع الضوابط والشروط المشروعة لكل هذا وعلى نحو لايضيربقية أفراد المجتمع وأيضا غريزة الجنس: فهى غريزة فطرية مغروسة فى الإنسان فلم ينكرها الإسلام أو يتجاهلها باعتبار أنها من الغرائز الدنيا ولم يضعها وضعا موضوعيا لكل ما تنطوى عليه من آثام وشرور وانحرافات كما تفعل الأخلاق الوضعية بل يعترف الإسلام بأهميتها ويضع لها الضوابط والمعايير التى بهاتحقق سعادة البشرية.

(٥) راجع دكتور/ أحمد عبدالحميد الشاعر مناهج البحث الخلقى ص١٣٥.

(٦) راجع المرجع السابق ص١٣٥، ٤٤.

دون اقليم وليست للعرب وحدهم ولكنها للناس جميعا لأن الأساس الخلقى الفاضل الذى قامت عليه يعم العالم كله ولايخص جنسا أو لونا أو أرضا معينة. فهى تحقق الوحدة القانونية كما هى جامعة لمعانى الفضيلة التى تتفق أتفاقا تاما وطبيعة الإنسان كما توائم بين الفرد والمجتمع[1] ونستخلص مما سبق أن الأخلاق الإسلامية بوحدتها هذه وشمولها هذا وتلبيتها لنداءات الحياه النفسية بكل جوانبها ومطامحها إنماتساعد على تكوين شخصية إنسانية سويه موحدة الجوانب هادفة إلى المثل الأعلى للسلوك الواقعى العملى التطبيقى. بما يجعل صاحبها يسير فى إتساق وتكامل مع بقية أفراد المجتمع وبقية أفراد الأسر الإنسانية الشاملة كما تحقق التوزان بين الروح والمادة، وبين العقل والبصيرة، فالأخلاق الإسلامية شاملة للتوازن فى هذه الحياة ولكنه توازن بكل ماتحمل الكلمة من معنى وهذا الاتجاه الشامل فى كل تعاليم الدين والأخلاق ينبثق أساسا من فطرة الإنسان الذى خلقه الله من مادة وروح.

وما ذلك إلا لأن الأخلاق الإسلامية تستهدف النفس الإنسانية بكل قواها وفى كل أعماقها ولأنها تدعو جميع الناس فى جميع الطبقات ومن جميع درجات العقل[2] وبهذا يكون تماسك الفرد فى ذاته وتدعيم كيان المجتمع فى بنائه[3] كما أنها تقوم على دفع المضار والأذى ثم تحض على التعاون والرحمة والإيثار لبناء الأخوة الشاملة للإنسانية عامة.

ثانيا: أما الثبات:

فالأخلاق الإسلامية ثابتة فى جميع أدوارالإنسانية وتطورها مع الزمن تساير الحياة وتصلح لكل العصور فكما قامت عليها مجتمعات فاضلة فى القديم من الزمن كذلك تقوم عليها أصلح المجتمعات فى العصر الحديث وإلى ماشاء الله[4] فالأخلاق الإسلامية تنبثق عن العقيدة ، فلا تمليهاالمصلحة ولاتسيرها المنفعة فإذا انتهت المصلحة أو تحققت المنفعة انتهى الخلق وتركت القيمة، بل هى أخلاق ثابتة وقيم

(١) فضيلة الشيخ محمد أبو زهره، المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام ص٣٤٧، بحث فى المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية.
(٢) دكتورمحمد عبدالله دراز - دستور الأخلاق ص٤١٦.
(٣) دكتور/ أحمد عبدالحميد الشاعر - مناهج البحث الخلقى ص١٣٥.
(٤) المرجع السابق ص٤٥.

لاتتغير لأن المسلم يتلقى الأوامر والنواهى من الله سبحانه وتعالى والله عز وجل قد بين جملة الأخلاق الصالحة والآداب الحميده فى القرآن الكريم والسنة النبوية ووضحها توضيحا لا لبس فيه ولاغموض ليحفظ على المجتمع المسلم تماسكه افرادا وأسرا وجماعات وليحفظ هذا المجتمع وحدته المتراصة وشخصيته المتميزة.[1] فالقرآن الكريم حين يعرض مبادئه المتمثلة فى الدعوة إلى الحق والفضيلة والخير والمعروف كما قلنا لايكتفى بالعرض النظرى المجرد ولايتوقف عن حد التذكير بهذه المبادئ بل إنه يضيف إليها ما يدل على إمكان وقوعها فى دنيا الواقع ولعل ذلك كان هدفا من أهداف القصص القرآنى الذى حفل بالنماذج الخلقية الرفيعة وخاصة ما يتعلق منه بقصص الأنبياء ، ومن سارعوا إلى الإيمان بهم من أتباعهم حيث كان هؤلاء يقدمون مثلا رفيعة للقوة فى الحق والصبر على الشدائد. والثقة بوعد الله كما كانوا نماذج للطاعة والوفاء والرضا بالقضاء والشكر على أنعم الله وبذلك كانت الأخلاق الإسلامية كلا لايتجزأ فى بنيان الإسلام[2] .

إن القرآن الكريم لم يذكر لنا قصص الأنبياء والرسل السابقين على هذا النحو المفصل الواضح المؤكد الذى نلمسه فى آياته الكريمة لمجرد التسلية أو الحكاية بل لأنها نماذج اجتماعية لجماعات بشرية أصيبت بأدواء وأمراض تصاب بها البشرية فى مختلف عصورها، والهدف من ذلك أن نرى ونلمس كيف عالجها أولئك الرسل والأنبياء علاجا إلهيا انتهى بها إلى الاستقامة[3] والاصلاح ومما يؤكد ماتذهب إليه فى هذا المقام أننا لانجد مرضا من هذه الأمراض أو داء من الأدواء التى قص القرآن الكريم علينا تطوراتها ونهاياتها إلا نجده حاصلا متحققا بصورة أو بأخرى فى مجتمعنا هذا المعاصر وفى القرن الذى نعيش فيه ومن هذا البيان نفهم وندرك ثبات الأخلاق الإسلامية المستمدة من عقيدة الإسلام وشموله وضمه لجميع الرسالات فمرد ذلك كله

---

(١) دكتور عبدالعزيز الخياط – المجتمع المتكافل فى الإسلام ص١٧ مؤسسة الرسالة.

(٢) دكتور عبدالفتاح بركة. فى الأخلاق والتصوف ص٩ ط الأولى عام ١٩٨٠ .

(٣) ويكفى أن تذكر فى هذا المقام. قصة سيدنا إبراهيم وذبحه لولده اسماعيل وقصة سيدنا يوسف وصبره على ما ابتلى به حتى أفاء الله عليه نعمته وجدواه كذلك كان يتضمن القصص القرآنى التحذير من بعض المنكرات والرزائل الأخلاقية كقصة صاحب الجنتين.

فيما يبدو لنا إلى أن الإسلام قد تضمن واشتمل على كل أنواع العلاجات التى قررتها تلك الرسالات وطبقتها لجميع الأدواء والأمراض التى أفرزها تاريخ البشرية الطويل[1] – وأصبح المجال الدينى والأخلاقى بمبادئه ومعاييره تاما كاملا.. ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[2]. ومن هنا فالأخلاق الإسلامية تجعل الإنسان مسئولا عن أعماله كلها قال تعالى ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[3] ويقول سبحانه وتعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[4]. وعلى ذلك فالمجتمع الذى تنظمه عقيدة صالحة ينبثق عنها تشريع ينظم علاقات الناس وأخلاق وقيم تبنى عليها أعرافهم وعاداتهم هو المجتمع الذى تضمن له الوحدة والتماسك[5] ومما يؤكد أن الأخلاق الإسلامية ثابتة لاتتغير أن وصفها القرآن الكريم بأن جعل أعلاها ارضاءالله تبارك وتعالى فأى عمل يقوم به المسلم انما ينبغى به مرضاة الله سبحانه ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾[6] ووصف المؤمنين بأنهم رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك (أى الرضوان) ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[7] وأنهم يتبعون رضوان الله ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[8] وبين أن خير ما يطمح إليه المسلم هورضوان الله قال تعالى ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾[9] وقال: ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾[10] وعن هذا الرضوان تنشأ الطمأنينة، والأمن، والتحرر من الخوف والاستقرار لأن الإنسان المسلم فى المجتمع المسلم يتجه إلى رب العالمين يطلب رضوانه[11]. وعلى ذلك

(١) وذلك أن ما يقوله البعض من التطور أو التقدم فى الأخلاق فنحن نرى أن التقدم أو التطور بالنسبة للمسلمين هو العودة إلى الماضى وعصرالرسول (صلى الله عليه وسلم) أما بالنسبة لغير المسلمين هو التطلع إلى المستقبل وهو المستقبل الذى يتطلعون إليه أو يتطلع إليه غير المسلمين هو ماضينا الذى عاشه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وطبقه على أصحابه الكرام.

(٢) سورة المائدة جزء من الآية رقم: ٣. (٣) سورة الإسراء الآية: ٣٦.

(٤) سورة فصلت جزء من الآية: ٤٦ وسورة الغاشية الآية: ١٥.

(٥) دكتور عبدالعزيزالخياط – المجتمع المتكافل فى الإسلام ص١٣.

(٦) سورة القصص الآية: ٧٧. (٧) سورة البينة الآية: ٨.

(٨) سورة آل عمران الآية: ١٧٤. (٩) سورة آل عمران الآية: ١٦٢.

(١٠) سورة الليل الآية: ٢١. وراجع د. عبدالعزيز الخياط المجتمع المتكافل فى الإسلام ص٢٣، عام ١٩٧٢م. (١١) نفس المرجع السابق.

فالأخلاق الإسلامية تجمع بين النظرية والتطبيق، ولقد كان تطبيقها الأعظم ممثلا فى أخلاق رسول الله ﷺ الذى وصفه الله بقوله ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ ثم كان فى صحابته الأطهار الذين تربوا على مائدة معارفه. والذين اقتبسوا من أنواره مانفعهم عند الله وعند الناس (فهى طريق للسلوك الإنسانى الرفيع وجماع الفضائل الإنسانية المطابقة للفطرة فتحقق وحدة إنسانية كريمة[1] ثابتة مع الزمن ودائمة دوام الحياة لما تتمتع به من مرونة وصلاحية لكل زمان ومكان.

ثالثا: أما الكمال:

فالأخلاق الإسلامية كاملة كمال العقيدة الإسلامية لأنها فى صورتها المثلى[2] كامنة فى كتاب الله الحكيم[3] فترجع الأخلاق الإسلامية فى مصدرها - كما يرجع الإسلام كله - إلى الله عز وجل خالق الإنسان وهو الأعلم بصلاحه إذ لا أحد يعرف جوهر النفس وشريعة سعادتها وكمالها مع الصلاحية الكاملة والبصيرة النافذة غير خالق وجودها ذاته ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[4] فرجوع الأخلاق الإسلامية إلى الله يبين ارجاعها إلى مصدر العلم الشامل والرحمة العامة والخير المطلق والحق الكامل: فالله تعالى ﴿لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[5] فالله تبارك وتعالى ينادى عباده نداء رحمة ولطف معلنا لهم طريق الحق والكمال (ياعبادي إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما بينكم ألاتظالموا)[6].

---

(١) دكتور/ أحمد عبدالحميد الشاعر، مناهج البحث الخلقى ص٤٦.

(٢) وذلك أن الشرع قد نهى عن التشدد والمبالغة والاسراف حتى فى الطاعة ولذلك كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول: إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه - ومن هنا فقد وقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى وجه الذين يريدون أن تكون حياتهم صياما دائما أوقياما لليل متواصلا أو انعزالا كاملا للنساء مبينا لهم أن من سنة الإسلام الرفق والسماحة والاعتدال. وجملة ذلك فى قوله (إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أقوم وأرقد ، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى) ومن هنا ندرك أن الأخلاق الإسلامية قائمة على الاعتدال والتناسق كما أنها مبنية على الإرادة والروية - لا على الشهوة والانفعال والأمر - بل على الاستطاعة.

(٣) دكتور/ أحمد عبدالحميد الشاعر مناهج البحث الخلقى ص٤٥.

(٤) سورة الملك الآى : ١٤. وراجع دكتور/ محمد عبدالله دراز. دستور الأخلاق ص٣٤.

(٥) سورة يونس الآية: ٤٤.

(٦) سبق تخريجه.

كما أن رحمته لاتقف عند هذا الحد بل تتعدى ذلك إلى الرحمة بعباده ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ ومن هنا كان البيان الكامل بالعفو عن السيئات ومضاعفة الحسنات وذلك الارتباط بين شريعة الأخلاق وشريعة الفطرة فالأخلاق الإسلامية هى التشريع الكامل البعيد عن الحرج والمشقة ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1]– كمادفع الحرج عنا فيما لم تتعمده قلوبنا ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[2].

فالقانون الأخلاقى الإسلامى لايكتفى بالحكم على الأعمال الظاهرة بالخير أو بالشر ولكنه يمتد إلى الحكم على النوايا والمقاصد فجعل الأعمال بالنيات (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى)[3] ومن هنا فلقد كانت للنية الجانب الأكبر فى تقويم العمل الأخلاقى فنية المؤمن خير من عمله.

ولذلك يتقبل الله من الإنسان عمله مادام قد أخلص النية فيه حتى ولو لم يتحقق له فى الظاهر ما كان يسعى إلى تحقيقه فعلا ولذلك تقبل الله صدقة أحد أصحاب الصدقات مع أن صدقته وقعت مرة فى يد زانية ووقعت ثانية فى يد غنى ووقعت ثالثة فى يد سارق ولكن الله تقبل صدقته وقيل للرجل: أما صدقتك فقد قبلت – وأما الزانية فلعلها تستعف بها عن زناها، ولعل الغنى يعتبر فينفق مما أعطاه الله ولعل السارق يستعف بها عن سرقته[4] أما الذين لايهتمون بالنية فإن عملهم غير مقبول بقول الرسول ﷺ (لايقبل الله قولا إلا بعمل. ولايقبل قولا ولاعملا إلا بنية)[5] ولكن الإسلام لم يهتم بالنية وحدها مع اعترافه بقيمتها وأهميتها ذلك أنه أراد أن يحقق

(١) سورة الحج جزء من الآية: ٧٨.
(٢) سورة الأحزاب جزء من الآية: ٥.
(٣) البخارى الحديث الأول وراجع احياء علوم الدين ص٣٥١ حـ٤ الحلبى وصحيح مسلم حـ٣- كتاب الاماره – باب بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم ص١٥١٥، ص١٥١٦ ط عيسى الحلبى – تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى. واخرجه البخارى فى باب بدء الوحى ص١٣ ط الحلبى وفى كتاب الإيمان باب ما جاء أن الأعمال بالنية ص٢٤ ط الحلبى.
(٤) راجع صحيح مسلم جـ٣ ص٦١ ط الشعب.
(٥) أبو طالب المكى، قوت القلوب حـ٢ ص٣٢٦، والحسن لابن تيميه ص٩٢ نقلا من دستور الأخلاق ص٤٤٤.

المؤمن نيته الصالحة فى عمل صالح، فقد جعل الإسلام العمل الصالح قرينا للإيمان وفى هذا أفضل برهان على أن المسلك الحسن لاينحصر فى حسن النية وحده، ولا فى دقة العمل وحدها، بل فى مجموع من الشكل والمادة، بحيث لايمكن أن يستغنى أحدهما عن الآخر[1]. وأنا لنجد المقولة الكاملة فى الحديث المشهور (إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[2] وفى بيان الإسلام لقيمة النية اعتراف بجوهر العمل الأخلاقى (والحق أن النية هى العنصر الجوهرى فى الأخلاقية بأسرها)[3] قال تعالى ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾[4] كمارفع الحرج عنا فيما لاتصل إليه قوانا ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[5] ومن هنا يتحول المبدأ الخلقى إلى جزء من كيان المطبق له، فيندفع إلى تنفيذه طواعية واختيارا دون شعوربالنفور أو بالرفض وعلى ضوء هذا البيان الحق نستطيع أن نقول أن الرقابة فى القانون الأخلاقى الإسلامى تختلف عن الرقابة فى مصادرالأخلاق الفلسفية والمذاهب الأخلاقية الأخرى[6]. فالرقيب الذى يجب أن يراعى فى القانون الأخلاقى الإسلامى هو الله يعلم السر وأخفى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[7] فالإنسان مركب من جسد وروح ولكل منهما متطلباته ،وتغليب حياة الجسد بالاسترسال مع الشهوات والاقبال على اللذات الحيوانية دون غيرها يباعد بين فطرته والمنهج السليم. يقول العقاد ،وفى الإسلام عصمة من كل داء من أدواء هذا الانفصام الى يمزق طوية الفرد أو يمزق صورة الوجود كله بين خصومات الفكر وخصومات العقيدة وخصومات المثل العليا فى كل قبلة يتجه إليها فليس فى الإسلام عداء بين الروح والجسد وليس للجسد فيه محنة تمتحنه بالصراع بين الطيبات من متعة الروح أومتعة الجسد،[8] ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ

(١) دكتور محمد عبدالله دراز ، دستور الأخلاق ص٤٤٤.
(٢) التاج حـ١ كتاب النية والأخلاص ص٥٥، وصحيح مسلم كتاب اللباس .
(٣) د. زكريا ابراهيم ، المشكلة الخلقية ص١٨٦ ط الثالثة سنة ١٩٨٠ دار مصر للطباعة.
(٤) سورة البقرة جزء من الآية: ٢٨٤ . (٥) سورة التوبة الآية: ٩١.
(٦) راجع دكتور توفيق الطويل – الفلسفة الخلقية ص١٣٨ .
(٧) سورة غافر الآية: ١٩.
(٨) راجع الأستاذ أنور الجندى – القيم الأساسية للفكر الإسلامى.

الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[1] فالكمال فى الأخلاق الإسلامية معناه ألانجعل الجسد يطغى على الروح أو الروح تطغى على الجسد قال تعالى «﴿إنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العـالمين»[2]. وهذا التكامل للأخلاق الإسلامية خطة مصدرها فى قول الحق تبارك وتعالى ﴿ولاتنسى نصيبك من الدنيا﴾ فى بيان الجانب الأول وقال تعالى ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[3] فى البيان للجانب الثانى ومن هنا فلا توجد فيها شائبة ينفر منها العقل الصحيح وذلك لأن الأخلاق الإسلامية تنظيم إلهى لسلوك البشر وصنوف تصرفاتهم فمن الطبيعى لها مادامت صادرة عن الله تبارك وتعالى العالم بمايصلح النفوس وبما يضمن لها الاستقامة.

نقول: إن من الطبيعى أن تكون حسنه لدى العقل السليم الخالى من الأمراض والبرئ عن نزوات النفس وشهواتها المنحرفة ذلك لأن هذه الأخلاق على اتساق تام مع العقل وهى فى نفس الوقت تحقق لصاحبها وللمجتمع بل وللبشرية كلها طريق الحق وتهيئ السبل أمامهم لإقامة المجتمع المتكامل فعقلانية الأخلاق الإسلامية وانسانيتها تنطلق من رضى الله تبارك وتعالى عنها أو سخطه عليها وعلى هذا فليس صحيحا أن يقال أن مشروعية الأخلاق الدينية الإسلامية تقوم على مجرد التذكير بنعيم الجنة أو عذاب النار وإنما مقياس الأخلاق الإسلامية للكمال الإنسانى هو المقياس الحق لأنها فى حقيتها إنما تقاس بما تحققه من الكمال الإنسانى الذى يتفق والفطرة الإنسانية الطاهرة والتى تقوم على طاعة الإنسان لخالقه وحسن صلته بأخيه الإنسان وهى ماتسمى بلسان الإسلام (التقوى)[4].

رابعاً: أما الالزام السماوى فى الأخلاق الإسلامية فلأنها تنبثق عن الوحى السماوى. والأمر الإلهى الذى يسمو فوق كل الزام ولن يشذ عن الالتزام بها سوى العقول الضالة والضمائر المنحرفة[5] وبذلك تتميزالأخلاق الإسلامية والنظرة

(١) سورة القصص جزء من الآية : ٧٧.
(٢) الإمام أبى حامد الغزالى، احياء علوم الدين جـ٣ ص٥٢ ط الحلبى.
(٣) سورة الرعد الآية: ٢٨.
(٤) دكتور أحمد الشاعر – مناهج البحث الخلقى ص١٢٥.
(٥) دكتور/ أحمد عبد الحميد الشاعر، مناهج البحث الخلقى ص١٢٥ ط. الأولى سنة ١٩٧٩م.

الأخلاقية إلى الانسان فى الإسلام باعتبار أن الإنسان يولد ولديه القدرة والصلاحية على فعل الخير والشر معا، وقد دعا القرآن الكريم إلى الالزام الخلقى قال تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(١) والإنسان بذلك قادر على أن يختار طريقه فى الحياة بما أودع الله فيه من القوى والملكات التى ترشده وتهديه ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(٢) والإنسان ذو الفطرة الرشيدة أقرب إلى عمل الخير منه إلى عمل الشر وذلك بما منحه الله تبارك وتعالى من الكرامة ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(٣) وكذلك يقول الحق تبارك وتعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(٤) فالتمييز بين الخير والشر هو الهام داخلى مركوز فى النفس الإنسانية قبل أن يكون شرعة سماوية، والفضيلة إنما تتخذ مرقاتها من طبيعتها الخاصة ومن قيمتها الذاتية. وبأن العقل والوحى على هذا ليس سوى ضوء هاد مزدوج لموضوع واحد وترجمة مزدوجة لواقع واحد أصيل(٥) فلا يستغنى بأحدهما عن الآخر ومن هنا نقول إن الإلزام فى الأخلاق الإسلامية يفترق عن الإلزام فى المذاهب الأخلاقية – فهى لاتؤثر إلا على جانب واحد من النفس هو الجانب العقلى(٦) على أن للأخلاق الإسلامية منهجها الذى يتوجه إلى النفس بأكملها فهى تقدم إليه غذاء كاملا يستمد منه العقل والقلب كلاهما نصيبا متساويا(٧) وعلى ضوء ذلك فإننا نقرر أن الأخلاق الإسلامية تجمع بين إلزام العقل وإلزام القلب وفوق ذلك إلزام السماء «الوحى» الذى يسمو فوق كل الزام، مما يدفع الإنسان إلى السير عليها والالتزام بها عن رغبة ورضى. كما ندرك أن الأخلاق الإسلامية ليست مثالية فقط بل وواقعية عملية تستمد قيمتها من صميم واقع الإنسان(٨) فيتصف المثل الأعلى فى الأخلاق الإسلامية بأنه

(١) سورة الشمس الآية: ٨.
(٢) سورة البلد الآية رقم : ١٠.
(٣) سورة الإسراء الآية رقم: ٧٠.
(٤) سورة التين الآية رقم : ٤.
(٥) دكتور محمد عبدالله دراز، دستورالأخلاق فى القرآن الكريم ص٦.
(٦) نفس المرجع ص١٤.
(٧) دكتور محمد عبدالله دراز، نفس المرجع ص ١٤.
(٨) الأستاذ أنورالجندى القيم الأساسية للفكر الإسلامى ص٤٠٨.

يجمع بين المثالية والواقعية فهو لم يكتف بالمثالية وحدها حتى لايكلف الناس فوق طاقتهم أو يقهر بعضهم على ما لا تستطيعه طبائعهم. كما أنه لم يكتف بالقدر الواقعى وحده حتى لايبعد أصحاب المجاهدة والقلوب القوية من أن يصعدوا فى مدارج الكمال وإنما جمع بين الأمرين معا على نحو يتيح لأتباعه حرية الحركة بين الجانبين على قدر يتحقق لكل منهم من أخلاق الإسلام هذا من ناحية – ومن ناحية ثانية ندرك أن المثل الأعلى للأخلاق الإسلامية المستمدة من وحدة العقيدة الإسلامية التى يدعو الإسلام أتباعه إلى التخلق بها تجمع بين الضبط والحرية فهى قاسم مشترك توفق بين الاعتقاد بالله وبخلود النفس والجزاء فى الدار الآخرة وتتمثل أبعاد الأخلاق الإسلامية فى بعدين هامين نفسى واجتماعى ..

الأول: يعنى بالفرد فى نفسه وعباداته وصلته بالله تعالى.

الثانى: مع مجتمعه وسلوكه ومعاملاته مع الناس وذلك وفق مفهوم الإسلام فى تكامله[1].

ونقصد بالضبط أن هذا المثل الأعلى للأخلاق الإسلامية محدد فى مصادر الإسلام. فهو ضبط الغرائز وتركيزها وترويضها وتصعيدها والسمو بها. بحيث تكون محفوظة من الفوضى أو التحريف ثم يكون للمسلم بعد ذلك أن يطبق هذا فى حدود طاقته وأمكاناته وظروفه، وفكرة تصعيد الغرائز مستفادة من القرآن الكريم ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[2] فأساس الأخلاق الإسلامية، الإلزام والالتزام الخلقى وهو فى مصدر الأخلاق الإسلامية يقوم على مراعاة هذه الحقيقة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[3] ليس فيها صفة الأمر بل صفة الاستطاعة وبذلك وازنت الأخلاق الإسلامية وعادلت بين الانطلاق ،الحرية، والانضباط قال تعالى ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا

---

(١) راجع الأستاذ أنور الجندى، القيم الأساسية للفكر الإسلامى ص٤٠٧ .

(٢) سورة الشمس الآية: ٧، ٨، ٩ وراجع الأستاذ أنور الجندى، القيم الأساسية للفكر الإسلامى ص٤٠٧ .

(٣) سورة التغابن جزء من الآية ١٦ .

تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾(١) وفى هذا المقام يدعو مفهوم الأخلاق إلى اتقاء الشبهات ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(٢) (الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه)(٣) وأيضا يرسم الرسول ﷺ مفهوم الخير والشر (استفت قلبك)(٤) (البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر)(٥) وهكذا تنفرد الأخلاق الإسلامية مفهوما وغاية بالتناسق والمرونة بالنسبة للالتزام الخلقى(٦) ويمكن أن نتمثل هنا بما أمر به الإسلام إزاء العبادات. فالله سبحانه وتعالى قد فرض منها ما يجب على كل مسلم أداؤه بحيث يكون مقصرا إذا لم يمتثل لما أمره الله به فيها ثم فتح باب التطوع واسعا ليتزود كل مسلم من طاعة الله بما يتسير له، وينطبق ذلك على الأخلاق أيضا فالمؤمن مطالب بأن يتجنب الحرام، فإذا ماتوثقت عرى الإيمان فى قلبه لم يكتف بأن يبتعد عن الحرام بل أنه يتورع من بعض الحلال خشية أن يقع فى الحرام وهكذا.

وبهذه السمات يتحقق طابع الأخلاق الإسلامية فتسمو على كل المذاهب والنظريات الأخلاقية التى لاتزال حائرة تنشد المقياس الخلقى الثابت ولن تكون إلا فى الهدى الإلهى المحكم(٧) وهكذا كان للأخلاق الإسلامية التى ترجع فى مصدرها إلى الكتاب والسنة هذه السمات التى تتحقق لها ولاتحقق فى غيرها على هذا النحو من الكمال وذلك لأنها ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾(٨) فهى تجمع بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع فى نسق فريد فالأخلاق الإسلامية بهذا المفهوم تعد حجر الزاوية فى البناء كما أنها توحد بين الدنيا الآخرة فى نظام ليس فيه صراع ولاتناقض وتقوم على العدالة والرحمة الشاملة والثبات ومع ذلك كله يرجع المرء إلى

---

(١) سورة الأحزاب جزء من الآية: ٥.
(٢) سورة الإسراء جزءمن الآية: ٣٦.
(٣) فتح البارى بشرح البخارى جـ١ كتاب الإيمان - باب فضل من استبرء لدينه ص١٣٤.
(٤) مسند الإمام أحمد جـ٤ ص١٨٤.
(٥) التاج جـ٥، كتاب البر والأخلاق - باب أنواع البر ص٣.
(٦) الأستاذ أنور الجندى، القيم الأساسية للفكر الإسلامى ص٤٢٦ بتصرف يسير.
(٧) دكتور/ أحمد عبدالحميد الشاعر، مناهج البحث الخلقى ص٤٥.
(٨) سورة البقرة الآية رقم ١٣٨.

المذاهب الأخلاقية والفلسفات قديما وحديثا فيجدها محدودة بالزمان والمكان والمعتقدات الموروثة ولا أدل على ذلك من تعددها وتناحرها. فهناك مذاهب اللذة والكمال والواجبية والسعادة والوجودية والبرجماتية والشيوعية والرأسمالية والاشتراكية. مذاهب، وآراء، وأقوال[1] قاصرة عن تحقيق التوازن فى الإنسان ، وقد يتفق بعض المذاهب الأخلاقية مع الأخلاق الإسلامية فيكون ذلك شهادة لهذه المذاهب بأنها ارتفعت إلى شئ يسير مما تحقق لأخلاق الإسلام من كمال وقد تختلف معها هذه المذاهب الأخلاقية فيكون ذلك الاختلاف برهانا على قصورها عن السمو الذى تحقق للأخلاق الإسلامية، والعقل البشرى لايستقر على حال.

ونظرة إلى كل ما قيل ويقال يتضح أن مرد ذلك كله إلى ما جبل عليه الإنسان خلقا وتكوينا: حيث المادة ومتطلباتها والروح وحاجاتها ولأيهما كانت الغلبة، كان انقياد الإنسان واتجاهه فى الحياة[2] فهى لاتؤثر إلا على جانب واحد من جوانب النفس. والعقل الإنسانى مهما كان أمره من الإدراك والمعرفة ليس بمعصوم عن الانحراف، ومن ثم فهو قاصر عن أن يكون مقياسا ثابتا للأخلاق الإنسانية الفاضلة – والذى نخلص إليه: أن المذاهب الأخلاقية على كثرتها هى من صنع الإنسان: أما الأخلاق الإسلامية فهى وضع الله خالق الإنسان ..

---

(٣) دكتور/ أحمد عبدالحميد الشاعر، مناهج البحث الخلقى ص٤٥.

(١) دكتور/ أحمد عبدالحميد الشاعر، مناهج البحث الخلقى ص٤٦.



(الباب الثالث)

مظاهر العلاقة بين العقيدة والأخلاق

ويشتمل هذا الباب علي الفصول التالية:

الفصل الأول: بنية الأخلاق الإسلامية.

الفصل الثاني: المسئولية الخلقية.

الفصل الثالث: الجزاء الخلقى.



الفصل الأول

بنية الأخلاق في الإسلام

ويتكون هذا الفصل من العناصر الآتية:

- بين العقيدة والأخلاق.

- صلة الشريعة بالأخلاق.

- الضمير.

- القلب لا الضمير.

- الإلزام الخلقي في الإسلام.

مظاهر العلاقة بين العقيدة والأخلاق

تمهيد:

درسنا فى الباب الأول من هذا البحث أهم ما ينبغى أن يعلمه المكلف من أمور . وهنا نريد أن نقف على العلاقة بين العقيدة والأخلق ومن ثم نرى أن ترتيب هذين المبحثين لم يكن عبثا وإنما جاء موافقا للترتيب الطبيعى إذ الغاية التى يهدفان إليها هى تصحيح العقيدة أولا ثم التطبيق العملى للقواعد والأحكام التى جاء بها الجانب العملى للدين، ولقد كانت مهمة إتمام مكارم الأخلاق بعد بناء العقيدة الصحيحة أهم المقاصد التى جاء بها الرسل والأنبياء وكان هذا الأمر أظهر ما يكون وهذا يجعلنا ندرك أن تتميم مكارم الأخلاق هو غاية الغايات وهذا الفهم يؤكده قول الرسول صلى الله عليه وسلم الذى جاء على صورة أسلوب القصر، وهو قوله (إنمابعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[1] فعلى بركة الله نسير لبيان مظاهر العلاقة بين العقيدة والأخلاق.

معنى العلاقة

العلاقة: بالفتح الارتباط وبالكسر ما يعلق به السيف ونحوه فالمفتوحة تستعمل فى المعانى. والمكسورة فى المحسوسات. وسميت العلاقة لما بين الشيئين من تعلق أو ربط[2] وتطلق العلاقة فى اصطلاح المنطقيين على ما بسببه يستصحب شىء شيئا آخر. كعلاقة المقدم بالتالى فى القضايا الشرطية المتصلة مثل قولنا فى اللزوميات إذا كانت الشمس طالعة فالنهار موجود، ومن معانى العلاقة فى الفلسفة الحديثة العلاقة بالمعنى العام وهى: تطلق على كل ارتباط بين موضعين أو أكثر من موضوعات الفكر بحيث يدرك العقل علاقة أحدهما بالآخر[3] وعلى هذا الفهم للعلاقة نتناول العلاقة بين العقيدة والأخلاق ولاشك أن العلاقة بين القسمين وثيقة سواء كان ذلك من الناحية النظرية العلمية أو من الناحية السلوكية العملية. وذلك لأن فى دراسة العقيدة بيانا لأهم مصادرالإلزام فى الأخلاق ، كما أن السلوك السوى وهو الجانب التطبيقى

---

(١) مسند الامام أحمد بن حنبل جـ٢ ص٣٨١، منتخب كنز العمال وفى السنن الكبرى للبيهقى جـ١٠ كتاب الشهادات- باب فى مكارم الاخلاق ص١٩٢ط. دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الهند عن أبى هريرة.

(٢) راجع دكتور منصور رجب تأملات ص٢٠٠.

(٣) راجع دكتور جميل صليبيا- المعجم الفلسفى جـ٢ ص٩٤ بتصرف واختصار مع تقديم وتأخير ط. دار الكتب اللبنانى- بيروت.

للأخلاق تأكيد لرسوخ العقيدة الصحية فى نفس الشخص السالك[١] فتأثير العقيدة فى الأخلاق أمر ظاهر لايسع أحد إنكار سلطانها على القلوب. وتأثيرها فى النفوس حتى إننا كثيرا ما نرى الأخلاق تدرس بإسم العقيدة، والعقيدة تدافع عن نفسها ضد الملحدين بإسم الأخلاق فهما يتبادلان العون ويقاتلان معا نفس الاعداء ويكاد مدلول إحدى الكلمتين يتطابق مع مدلول الأخرى فى بعض المواقف لشدة مابينهما من قرب ونسب، ولاغزو فهما من أسرة واحدة مثل «الرأفة والرحمة» والبر والتقوى، والإيمان والإسلام وغير ذلك من هذه الكلمات التوائم التى كلما إجتمعت فى العبارة أفترقت فى المعنى. وكلما أفترقت فى العبارة إجتمعت أو مالت إلى الاجتماع فى المعنى بقدر الامكان[٢] ونستطيع أن نبرهن على هذا المعنى من نواح ثلاث:

أ- إذا قلنا فلان ذو عقيدة وخلق وجب لكى تخلو العبارة من عيب التكرار واللغو أن تؤدى كل من الكلمتين معنى مستقلا منعزلا عن الأخر إنعزالا كليا بحيث تختص العقيدة بالجانب الإلهى والخُلُق بالجانب الإنسانى فيكون معنى الكلمة الأولى الإيمان الكامل أعنى القيام بفرائض العبادة.[٣] ويكون معنى الكلمة الثانية التحلى بالفضائل والآداب.[٤]

---

(١) راجع دكتور محمد عبد الستار نصار العقيدة والاخلاق ص١١١، ط الأولى عام ١٩٧٢م.

(٢) راجع دكتور محمد عبد الله دراز- كتاب الدين ص٥٨ ط السعادة سنة ١٩٦٩م بتصرف مع تقديم وتأخير.

(٣) وبذلك يكون كيان المجتمع الانسانى قويا متماسكا- إن فى اعداده أو فى عدته ولذلك فقد بين الحق تبارك وتعالى الخصومة التى تنادى بها المادية التى يصورها الشرك فى الاعتقاد، والروحية الانسانية التى يمثلها الايمان بالله وما ينبت فى النفس عنه، ولذلك كان البيان الكامل من الحق تبارك وتعالى للوسيلة والغاية التى ترسب الايمان بالله فى نفس الانسان وتجعله حقيقة نفسية بعد أن يكون قولا تردده الشفاه، أو بعد أن يكون موضوعا من موضوعات المنطق الانسانى يعالج بالحجة وحدها ومن هنا كانت التقوى العملية بصورها المتعددة- نقلا من دكتور محمد البهى- الدين والدولة- ص٥ مكتبه وهبه.

(٤) وسر الاعجاز فى الاسلام أنه يجمع بين هذين الامرين دون أدنى صدمة تحس بها الارادة الحرة فى الانسان ونعنى بهذين الأمرين التكليف مع الرغبة والحب والرضا بالتكليف قال تعالى ﴿ولكن الله حبب إليكم الايمان وزينه فى قلوبكم﴾ الحجرات جزء من ٧. وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وان يحب المرء لايحبه إلا لله وأن يكره ان يعود للكفر كما يكره أن يقذف فى النار).
البخارى كتاب الايمان باب حلاوة الايمان ص٦٦ واخرجه مسلم فى كتاب الايمان ص١٣ جـ٢ شرح النووى ط حجازى.

ب- أما إذا إكتفينا بقولنا: فلان ذو عقيدة وكان المفروض أن العقيدة التى نشير إليها من العقائد الخلقية الصحيحة فإن كلمة العقيدة هنا تتسع لمعنى كلمة الخلق المطوية أيضا وحينئذ يراد منها التقوى الشاملة الكاملة أعنى القيام بالفروض الإلهية والإنسانية معا.

حـ- وإذا اكتفينا بقولنا فلان ذو خلق، وكان مفهوما أن الأخلاق المتواضع عليها جامعة للحقوق الإلهية والإنسانية فإن ذلك لايعد كافيا لأن المطابقة ليست تامة لتمييز العقيدة بعنصر نظرى جوهرى هو عنصر الإعتقاد والمعرفة بالإله والإيمان به، وهو عنصر لايدخل فى طبيعة مفهوم الأخلاق لأنها ذات طابع عملى غالبا[1]. وفى الجملة فإن مركز المعنيين واحد ولكن محيط أحدهما أكبر من محيط الآخر.[2] من حيث الإدراك وعلى ذلك فالشعور الأخلاقى أقدم وأرسخ فى النفس من الشعور الدينى[3] ولكن معرفة الحق وتعظيمه لايخلوان فى غالب الأمر من مظهر يتمثلان فيه ولذلك تكاد لاتخلو حقيقة الإعتقاد عن عنصر عملى يكون حلقة الإتصال بين العقيدة والأخلاق كما أنه من وجه آخر يمكننا أن نقول لبيان العلاقة بين العقيدة والأخلاق هاهنا نوعان من الدراسة للصلة بينهما:

أما الجانب الأول فهو دراسة نظرية تجريدية تنظر إليهما كما يمكن أو كما يجب أن تكون ... والجانب الثانى دراسة واقعية تاريخية تنظر إليهما كما كانت بالفعل ... فمن الناحية التجريدية يمكننا بوجهة من النظر أن نجعل من هذين المعنيين حقيقتين متغايرتين. وبالإمكان من وجه آخر أن نجعل منهما مفهومين متداخلين.[4]

ذلك أننا إذانظرنا إلى العقيدة من حيث هى الإيمان بالحق الأعلى وتوقيره. وإلى الخلّق من حيث هو قوة النزوع إلى فعل الخير وضبط النفس عن الهوى كان أمامنا حقيقتان مستقلتان تختص أولاهما بالفضيلة النظرية والأخرى بالفضيلة العملية[5]

(١) راجع دكتور محمد عبد الله دراز «كتاب الدين» ص٥٨ بتصدف يسير.
(٢) راجع فضيلة الشيخ محمد أحمد ابو زهرة المجتمع الانسانى فى ظل الاسلام بحث بالتوجيه الاجتماعى من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث جـ٢ ص٣٠.
(٣) راجع الدكتور محمد عبد الله دراز «الدين» ص٥٦، ٥٧.
(٤) انظر المرجع السابق ص٥٥ ط دار السعادة ١٩٦٩م بتصرف.
(٥) انظر المرجع السابق.

فالناظر فى قضايا العقيدة يجدها تضم المسائل المتعلقة بالإيمان بالله وصفاته وما يجب له ومايجوز عليه ومايستحيل، وبالرسل ومايجب لهم وما يجوز عليهم ومايستحيل، وبالبعث ومافيه. وهى كلها مسائل تتعلق بالإنسان من حيث إرشاده وتقويمه على الإيمان بالله وبرسله الذين جعلهم الله تعالى برسالتهم الصلة بينه وبين البشر يقومون معوجهم ويصلحون فاسدهم وهنا تظهر قيمة الأخلاق كضرورة حتمية لمسائل العقيدة هذا من حيث الصلة بينهما.

وخلاصة القول فى هذه الناحية التجريدية أن العقيدة والأخلاق فى أصلهما حقيقتان منفصلتان النزعة والموضوع، ولكنهما تلتقيان فى نهايتهما فينظر كل منهما إلى موضوع الآخر من وجهة نظره الخاصة وذلك كمثل شجرتين متجاورتين تمتد فروعهما وتتعانق أغصانهما حتى تظلل إحداهما الأخرى.[1]

أما من الوجهة الواقعية أى من حيث الاختلاف فإننا لانرى الصلة بينهما تبلغ دائما هذا الحد من التساند والتعانق لا فى مبدأ نشأتهما فى نفس الفرد ولا فى دور تكونهما وتمركزهما فى قوانين وقواعد مقررة فى المجتمع[2] فقواعد الأخلاق تقوم ببيان ماينبغى أن يكون عليه الخلق أما العقيدة فتقوم بالإيمان بما يجب أن يكون عليه اعتقاد الإنسان وإيمانه بالغيب... فإذا كانت الأخلاق تقوم على التحلى بالفضائل الظاهرة فإن العقيدة تقوم على الإيمان الذى أساسه الغيب وسنتناول كلمة المتقين التى جاءت فى أول سورة البقرة لتكون بيانا على هذه العلاقة إن كلمة «المتقين» كانت منطلقا انبعثت وظهرت منه أبعاد متعددة تشمل كل ما فى الحياة وهذه الجوانب المتكاملة تتبين فى الآتى:-

١- جانب العقيدة.

٢- جانب العبادة.

٣- جانب المعاملات.

---

(١) راجع الدكتور محمد عبد الله دراز كتاب الدين ص٥٦ ط. دار السعادة سنة ١٩٦٩م.
(٢) انظر المرجع السابق.

٤- جانب الأخلاق.

ولبيان ذلك نتأمل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]. فقد وردت أركان التقوى كماذكرناها فى أوصاف المتقين. ومن الواضح أن وصف المتقين الوارد فى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ الذين يؤمنون بالغيب﴾ إنما يشتمل من التقوى جانب العقيدة الصحيحة فى الإيمان بالغيب كله فيما ورد به الوحى وأبلغته النبوة عن الله سبحانه كما قلنا بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء والقدر وبالبعث والحساب والصراط والميزان والجزاء والجنة والنار وكل ما وردت به الأدلة النقلية من القضايا التى يعجز العقل عن الإستقلال بإدراكها.

أما قوله تعالى: ﴿ويقيمون الصلاة﴾ فإنه يشير إلى جانب العبادات عامة فامتثال الإنسان لخالقه بالسجود والركوع فى الصلاة يعنى استجابته المطلقة والكاملة فى الصوم والحج وغيرهما من الأركان والعبادات وذلك لأن الصلاة هى الخاصة المشتركة فى أوقات العبادات كلها، فهى تؤدى مع الصوم ومع الحج ليس ذلك فحسب بل ومع الجهاد ولذلك فلقد وردت فى أول الآية بعد الإيمان بالغيب. وذلك لأنها تشير إلى العبادات كلها وسوف يتضح ذلك فى صلة العبادات بالأخلاق.

أما الركن الثالث من أركان التقوى فقد أشارت إليه السمة الثالثة من أوصاف المتقين فى قوله تعالى ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ فصفة الانفاق تعنى جانب المعاملات باعتبارها أبرز مظهر من مظاهر التعامل وأدلها على التزام الإنسان بما أمر به. فالانفاق هنا من الرزق أعم من الصدقة والزكاة وذلك بمعنى أنه يشتمل على كل أنواع العطاء المشروع كما أن الرزق لايختص بالمال وحده فالعلم رزق ونشره وتعليمه نفقة وكذا الرأى السديد رزق نفقته بذل المشورة واسداء النصح وعلى هذا كان الإنفاق فى قوله تعالى ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ وصفا عاما لجانب المعاملات كله بإعتباره ركنا رئيسيا من أركان التقوى.

(١) سورة البقرة الآية من (١- ٥).

أما الجانب الأخلاقى الفسيح فقد تكفل ببيانه وصف المتقين بالإيمان العملى بما أنزل على رسول الله ﷺ . فمقتضى الإيمان الصحيح هو التخلق بالقرآن، والأخلاق الإسلامية العملية هنا واسعة المدى فسيحة الأرجاء فقد اتسعت لتشمل مع البيئة الإسلامية كل البيئات الدينية التى قبلها. وهذه الأخلاق العملية نتيجة وثمرة لقوة الإيمان وعمق اليقين بكل ما أنزل الله.

ويتحقق ذلك على الأقل فى الجانب الإلهى من الواجبات الذى نسميه[1] عبادة ولذلك فقد إنفردت الأخلاق الإسلامية بأصول اعتقادية وتتمثل فى صلة الإيمان بالعمل لأن الإيمان هو الذى يحدد العمل والإعتقاد هو الذى ينظم السلوك. فالأوامر الإلهية ليست قائمة على إقامة العبادة فحسب ولكنها تنطوى عى فضائل خلقية وعلى هذا الأساس قامت الأخلاق الإسلامية تستند إلى أصول دينية وأسس عقائدية حتى إننا نجد الإمام الغزالى ينص صراحة على ذلك فى كتابه إحياء علوم الدين فيقول (إن الأخلاق ليست مجرد سلوك يمارسه الإنسان إنما لايصدر السلوك إلا عن إعتقاد فالإيمان القلبى هو الذى يحرك الإرادة، والإرادة تحرك السلوك أى أن أصول الإعتقاد كانت من الضرورة بحيث يجب أن تسبق العمل سبقا زمنيا وعقليا إذ كيف تمارس العبادات دون أن يسبقها إيمان وبهذا الشكل تلتقى الحقيقة الخلقية مع الحقيقة العقدية فى أن كلا منهما يمثل جانبا من جوانب شخصية الإنسان وطاقة من طاقاته الدينية والسلوكية[2] ولهذا كانت الصلة بينهما قوية وقامت العلاقة الوثيقة بين العقيدة والأخلاق على أسس نفسية وعوامل بعضها وجدانى وبعضها عقلى حتى لقد قيل إن نزعة التدين والأخلاق ليست إلا إمتدادا لقوى النفس الثلاث: الفكر وبه يكون التطلع إلى المبادئ والعلل والغايات البعيدة والعقل بهذا يدفع الإنسان إلى النظر فى أعماق الكون ودلائل القدرة الإلهية فيستقر الإيمان فى النفس وتحقق ذاتية الإنسان.

---

(١) راجع الدكتور محمد عبد الله دراز ص٥٧.

(٢) راجع الامام الغزالى احياء علوم الدين جـ٣ ص٦٤ نقلا عن الفلسفة الانسانية فى الاسلام للدكتوره سهير أبو وافيه ص١٣٣.

والوجدان: وهو الذى يمد العواطف النبيلة بحاجاتها من الوقود الدافع المحرك إلى خير الأعمال وجميلها وذلك بأن يربى الإنسان على تذوق الجمال فى كل شىء وبخاصة الأخلاق.ولذا قال الرسول ﷺ (إن الله جميل يحب الجمال)[١]

والإرادة : وهى التى تكون البواعث على العمل والدوافع إليه إذ العقيدة كامنة فى النفس الإنسانية ملازمة لكيان الإنسان البشرى وحقيقته الذاتية تؤثر فيه وتحدد سلوكه وتنظم أخلاقه وعلى ذلك فلا يمكن قيام أخلاق حقيقية بدون معتقدات على حد تعبير سانتهلير[٢] فالإيمان يجب أن يسبق العمل واليقين أساس طمأنينة النفس قبل أن تحدد لنفسها السلوك[٣] ويبين ذلك المعنى فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبدالحليم محمود فيقول: (والواقع أن الأخلاق فى جو الإسلام مرتبطة بالدين إرتباطا لاينفصل، منه تنبع وعلى أساسه تقوم، وعنه تصدر ... ومصدرها هو مصدر إلهى ربانى)[٤] فالإنسان إذا كان كما وصفنا صاحب عقيدة وخلق فهو لايستمد ذلك إلا من خالقه وبذلك يكون منهج الإنسان مستمدا من ربه فلا يشرع للإنسان إلا خالق الإنسان ولايتلقى الناس من هذا المجال إلا عن ربهم قال تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٥] كما أنه لايمكن أن تعتبر العقيدة منفصلة عن الشريعة[٦] بحال من الأحوال وكلاهما وحى من الله وكلاهما متمم للآخر فعقيدة

---

(١) التاج: كتاب البر والاخلاق ص٣٢.

(٢) راجع سانتهلير- مقدمة علم الاخلاق إلى نيقوماخوس. ترجمه أحمد لطفى السيد جـ١ ص٢١، جـ١ ص١.

(٣) راجع دكتوره سهير أبو وافيه ص١٣٤.

(٤) راجع فضيلة الاستاذ الدكتور عبد الحليم محمود كتاب الرسول ﷺ ص١٢٩ ط مجمع البحوث الاسلامية.

(٥) سورة الجاثية الآية ١٨.

(٦) وذلك أن الشريعة المعصومة ليست تكاليفها موضوعة حيثما اتفق لمجرد ادخال الناس تحت سلطة الدين، بل وضعت لتحقيق مقاصد الشارع فى قيام مصالحهم فى الدين والدنيا معا وروعى فى كل حكم منها ما يأتى:

أ- إما حفظ شئ ضرورى من الضرورات الخمسة.. الدين- النفس- العقل- النسل- المال- التى هى اسس العمران المرعية فى كل ملة، والتى لولاها لم تجر مصالح الدنيا على استقامه ولفاتت النجاه فى الآخرة. =

التوحيد استكملت كل تشريعاتها وحيا نازلا من السماءبقوله سبحانه﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[1].

وبهذا البلاغ الشامل تكون الصيغة النهائية للتشريع الإسلامى من عقيدة وشريعة وأخلاق، والأخلاق بهذا المفهوم تعد حجر الزاوية فى البناء الإسلامى وتتحقق إيجابية هذه الأخلاق إذا تكامل مفهوم الإسلام، وقد أقرالقرآن أساس لمفهوم الأخلاق فى جانبين متكاملين: المعرفة والسلوك:

فالمعرفة هى الناحية النظرية والسلوك هو الناحية العملية[2] وعلى ذلك نرى أن ترتكز الأخلاق الإسلامية على العقيدة الدينية التى تربط الإنسان بخالقه فما هى إلا نتاج هذه العقيدة فى النفس تأثيرا وتفاعلا وبمقدار مايتمتع به الإنسان من طاعة لربه ورعاية لحرماته فى سلوكه وأسلوب حياته، بمقدار ما يكون عليه من الخلق الإنسانى الكريم، فليست الأخلاق إلا الترجمة العملية للعقيدة الإسلامية المستكنة فى النفس الإنسانية فحين تكون العقيدة صحيحة فى إعتقاد المؤمنين فإنها تضئ جوانب النفس وتكتسح جميع الظلمات وإعتمادا على هذه العقيدة الصحيحة يخاطب الإسلام المسلمين ومؤكدا أن الخير معروف، وأن الشر منكر وأنه بنظرة فاحصة يتبين لنا أن العقيدة الإسلامية تقوم على أساس أخلاقى من الصدق فيها والإخلاص لها، ومن هنا فمن لم يعمر الإيمان قلبه بصدق وإخلاص كان منافقا فى عقيدته ومخادعا فى سلوكه وأخلاقه[3] فقد ربط الإسلام بين العقيدة وبين الأخلاق ربطا وثيقا، وذلك يبدو واضحا

= ب- وإما حفظ شئ من الحاجات، كأنواع المعاملات التى لولا ورودها على الضروريات لوقع الناس فى الضيق والحرج.

جـ- وإما حفظ شئ من التحسينات التى ترجع إلى مكارم الأخلاق ومحاسن العادات.

د- وإما تكميل نوع من الأنواع الثلاثة بما يعين على تحققه ولايخلو باب من ابواب الفقه عبادات ومعاملات وجنايات.. وغيرها- من رعاية هذه المقاصد التى لم توضع الاحكام إلا لتحقيقها.

دكتور محمد عبد الله دراز مقدمة الموافقات ص٣-٤ جـ١.

(١) سورة المائدة جزء من الآية ٣.

(٢) راجع الاستاذ انور الجندى القيم الاساسية للفكر الاسلامى ص٤٠٩.

وراجع دكتور محمد البهى الدين والدولة من توجيهات القرآن الكريم ص٨١ ط الثانية ١٩٨٠م.

(٣) دكتور أحمد عبد الحميد الشاعر مناهج البحث الخلقى فى الفكر الاسلامى ص٤٠.

من خلال آيات القرآن الكريم والسنة المطهرة فإن مقتضى الإيمان بالله تعالى أن يكون المؤمن ذا خلق طيب محمود، وأن الأخلاق المذمومة دليل على عدم وجود الإيمان فمن تأمل مقاصد الأوامر والنواهى الدينية وتغلغل فى فهم أسرارها عرف أنها ترمى إلى غرض واحد، هو طهارة النفس وكمالها الإنسانى الذى تسعد به فى الدنيا والآخرة[1] يقول الحق تعالى ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[2] ، ففلاح الإنسان منوط بسلامة عقيدته وصلاح أعماله ومتانة أخلاقه وعلى ضوء هذا تقرر أن المتتبع لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ لن يجد أمرا من أوامر الله ولا نهيا من نواهيه إلا وهو خُلق يطلب من الإنسان أن يتحلى به لحسنه. أو يطلب منه الابتعاد عنه والتطهر منه لقبحه فالأخلاق الإسلامية ليست قاصرة على تحديد الفضائل والرذائل وتوضيح الخير والشر بل من أهميتها التأثير فى إرادة الإنسان وهدايته وهى إنما تؤثر أثرها وتؤتى أكلها إذا طاوعت الإنسان طبيعته الخيرة وفطرته السليمة فالإيمان بالله الخالق هو الفطرة التى جبل عليها الإنسان[3] ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[4] فلقد جمعت العقيدة الإسلامية قواعد الأخلاق[5] ونستطيع أن نقول إن القرآن الكريم عرض لكل هذا بطريقته الخاصة فى كثير من آياته ولكن آية البر فيما نرى، وكما قلنا هى جماع محكم لكل هذه الأمور. يقول الله سبحانه:

- لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.
- وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ.
- وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ.

---

(١) الاستاذ محمد أحمد جاد المولى بك- كتاب الخلق الكامل جـ١ ص٣ ط الاولى سنة ١٣٥١هـ-١٩٣٢م.

(٢) سورة العصر الآيات من (١-٣).

(٣) دكتور أحمد عبد الحميد الشاعر مناهج البحث الخلقى ص٧٥.

(٤) سورة الروم الآية (٣٠).

(٥) محمد أحمد جاد المولى بك- كتاب الخلق الكامل ص٤ جـ١.

– وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ.

– أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ[1]

والقرآن الكريم فى هذه الآية يقيم الأخلاق الإسلامية على العقيدة الدينية كما أوضحتها الفقرة الثانية وفى الفقرة الثالثة تقريرالعلاقات الإنسانية مع الأخرين على البذل والعطاء ورعاية الفقراء والمساكين وفى الفقرة الرابعة تقرير للأخلاق على حسن الصلة بالله وتدعيم الصلة بالأخرين على الوفاء بالعهد والصبر فى الشدائد والمحن وفى الفقرة الأخيرة تقرر الآية الكريمة جماع هذا كله وهو الصدق والتقوى[2] يقررذلك الإمام البيضاوى فى تفسيره لهذه الآية فيقول: (إنها جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها دالة عليها صريحا أو ضمنا. فإنها بكثرتها وتشعبها منحصرة فى ثلاثة أشياء:

١– صحة الاعتقاد.

٢– حسن المعاشرة مع العباد.

٣– تهذيب النفس.

ولذلك وصفت المستجمع لهابالصدق نظرا إلى إيمانه واعتقاده وبالتقوى اعتبارا بمعاشرته للخلق ومعاملته للحق، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان.[3]

ويقول المرحوم الشيخ محمود شلتوت فى تفسيره: (هذه الآية هى أجمع الآيات فى تحديد معنى البر من النواحى الواقعية، وروح التكاليف ويرشد إلى أن البر أنواع ثلاثة جامعة لكل خير: بر العقيدة وبر العمل وبر الخلق[4]) . ولست أقصد فى هذا الموضوع أن اختص القرآن وحده بوضوح الواقعية فى عقيدته دون سواه من سائر الكتب السماوية وإنما أريد أن أقف على الحقيقة وهى أن الكتب السماوية كلها إنما

(١) سورة البقرة الآية (١٧).

(٢) دكتور أحمد عبد الحميد الشاعر مناهج البحث الخلقى ص١١٨.

(٣) الامام البيضاوى– تفسير البيضاوى آية (١٧٧).

(٤) الامام الاكبر الشيخ محمود شلتوت– تفسير ص٨ وراجع المرجع السابق.

صدرت عن الحق تبارك وتعالى فى أزمنة متطاولة وتلقاها الرسل الكرام فقاموا على تنفيذ ما جاء فيها وتوجيه الحياة الضالة على هديها ونورها وقد تحدث القرآن الكريم عنها وذكرها بالإجلال فى مواطن كثيرة لتكون مصدرا للتأسى والعظة بالنسبة لرسول الله ﷺ – ويبين الحق تبارك وتعالى ذلك فيقول ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[1] ويقول تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[2] وهكذا يستمد العزاء ويستلهم السكينة ويمضى على درب النبوات السابقة غير حائد عنها. بل إن الرسول الكريم كان كثيرا مايستمد القدوة من سلوك الرسل قبله ويشيد بهم وكان يقول فى مقام التأسى (يرحم الله أخى موسى ... لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر) وهكذا نجد الإسلام يزود الإنسان بالقوة الحيوية التى تمكنه من أن يحيا حياة طيبة.، ليس ذلك فحسب بل يستطيع أن يحيا حياة دائمة ولهذا سمى الإسلام دعوته دعوة الحياة فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[3] ومن هذا المنطلق يمزج الرسول ﷺ شعور الأخوة بينه وبين الأنبياء فيقول: (الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد[4]) ومعنى ذلك أن الكتب السماوية كلها وثائق تتضمن توحيد الله وهداية البشر ومقاومة الإنحرافات وكل كتاب سماوى كان مطابقا لعصره ما فى ذلك شك واقعيا مع مجتمعه يكافح ضلالات سائدة ويحل أزمة الضمير، ويقود المجتمع على بصيرة ونور وكل هذه الكتب تتضمن العقيدة والشريعة أى احتياجات النفوس واحتياجات الحياة لإصلاح النفوس وإصلاح الحياة وعلى ضوء هذا نقرر أن المعنى الأخلاقى كامن فى عقائد الإسلام وتشريعاته فهى جميعا تبتغى تهذيب النفس وإصلاح المجتمع والرقى بالأخلاق إلى أرفع المنازل وأكرمها . ومن هنا كان للإيمان أثر واضح فى الأخلاق . يقول النبى ﷺ (الحياء والأيمان قرناء جميعا فإذا رفع أحدهما رفع الآخـر)[1] ولو نظرنا فى أغلب الأوامرالأخلاقية لوجدناها للمؤمنين لأنهم أهل

---

(١) سورة الأحقاف جزء من الآية ٣٥.

(٢) سورة فصلت جزء من الآية ٤٣.

(٣) سورة الأنفال الآية ٢٤.

(٤) أخرجه مسلم جـ٤– كتاب الفضائل– باب فضل عيسى عليه السلام ص١٨٣٧ ط عيسى الحلبى. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.

الطاعة وهم الحريصون على إيمانهم وصيانته ومن أمثالها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٢] . فالعلاقة بين الإنسان وخالقه تقوم أساسا على هذا الاعتقاد. فهو الرباط الذى يملأ النفس والقلب لايتعارض مع العقل. فقد قضت سنة الله فى خلقه أن يكون للعقائد سلطان على الأعمال البدنية .فما يكون فى الأعمال من صلاح أوفساد إنما مرجعه إلى فساد العقيدة أو صلاحها فالتوحيد فى الإسلام الخالص من الشوائب، الصادر من القلب تتبعه حتما جميع الفضائل هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فعقيدة التوحيد رباط روحى إيمانى يؤلف بين قلوب المعتقدين جميعا على كلمة واحدة. فهو قوة إيمانية تدفع النفس إلى الامتثال لما أمر الله به والابتعاد والاجتناب عما نهى الله عنه. وبهذا يكون الإيمان قوة تضئ جوانب النفس وتكتسح جميع الظلمات[٣] ويشرق نور الإيمان فى القلوب بعقيدة التوحيد وعلى ذلك ندرك صلة العقيدة بالأخلاق فلقد ربط الإسلام بين عقيدة التوحيد وبين الأخلاق ربطا وثيقا وذلك يبدو واضحا من خلال آيات القرآن الكريم والسنة المطهرة فإن مقتضى الإيمان بالله تعالى أن يكون المؤمن ذا خلق محمود فالأخلاق الإسلامية وليدة العقيدة الإسلامية النقية المشرقة المؤثرة وعلى ذلك فعقيدة التوحيد تقع من الأخلاق الإسلامية موقع القلب من الجسد أو المركز من الدائرة. لأن التوحيد أساسه وثمرته تحرير الإنسان من الخضوع للمعايير الذاتية مهما كان سلطانها، وتفريغ القلب من الأهواء والميول الدنيا وملؤه بنور الحق.[٤] ويتضح ذلك فى حديث القرآن الكريم عن النماذج العليا والمثل الرفيعة التى امتثلت لما أمر به الإسلام وطبقت مبادئه وتعاليمه فكانت أهلا لثناءالله تبارك وتعالى ووعده لها بالثواب الجميل والنعيم المقيم، ولهذا كان النص شاملا واضحا فى قوله تعالى عن المتقين ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[١] والذى أنزل على رسول الله ﷺ القرآن الكريم وإذا أطلق الإيمان هنا

---

(١) موطأ مالك كتاب حسن الخلق باب ماجاء فى الحياء ص٩٠٥ ط. عيسى الحلبى تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى. وقال أيضا «الحياء من الايمان» شعب الايمان للبيهقى ص٩٧ .

(٢) سورة التوبة الآية ١١٩ .

(٣) راجع الاستاذ حسن أيوب تبسيط العقائد الاسلامية ص٢٨٠ ط. الثانية ١٩٧٨ الاعتصام.

(٤) راجع دكتور حمدى حيا الله الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص١٠٢ ط الثانية ١٩٧٧ .

فبعض الذى يراد منه أثره العملى الذى وصفته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فقالت عن النبى ﷺ (كان خلقه القرآن)(٢) والذى شملته الآية التى خاطبه بها ربه فقال ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾(٣).

أما الذى أنزل من قبل النبى ﷺ فكل كتاب نزل على أى رسول كما أشارت الآيات الأخيرة من سورة البقرة ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾(٤) كى تتعاون خاتمة السورة مع بدايتها فى تأكيد وحدة العقيدة وعالمية الدعوة زمانيا ومكانيا فإذا رجعنا إلى أوائل السورة مرة أخرى وجدنا أن القرآن الكريم يشير إلى أن هذا المنهج الذى يتكون من مجموعة الأوصاف للمتقين نهج ربانى مضمون النتيجة لأنه يضمن الهداية والفلاح: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٥).

ومن روائع الوحدة القرآنية والموضوعية فى القرآن الكريم أن نرى أطول سورة فى القرآن وهى سورة البقرة تبدأ بأركان التقوى ثم تأتى قبيل النصف من هذه السورة الطويلة لتذكرنا مرة أخرى بأركان التقوى بصور إجمالية عملية وإن كانت أكثر تفصيلا، ولو تأملنا ما فيها من تفصيل لأدركنا أسرار التكامل بينه وبين أوائل السورة، بل ولوجدناه كالتوضيح بالنسبة لأوصاف المتقين التى سبقت وهذه الآية الكريمة التى سبق البيان عنها أيضا فى قول الحق تبارك وتعالى ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة الآية ٤.
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ٦ ص١٨٩ ط دار بيروت- واخرجه مسلم فى كتاب المسافرين فى حديث طويل ص١٦٩ جـ٢ ط صبيح.
(٣) سورة ن الآية ٤.　　(٤) سورة البقرة الآية ٢٨٥.
(٥) سورة البقرة الآية ٥.
(٦) سورة البقرة الآية ١٧٧.

وإذا تأملنا هذه الأوصاف فى هذه الآية من سورة البقرة مقارنة بأوصاف الآيات الأولى من السورة نفسها نلاحظ مايأتى:-

١- كلمة المتقين جاءت فى الآية الأولى قبل الأوصاف فى قوله تعالى ﴿هدى للمتقين﴾ بينما جاءت كلمة المتقين فى هذه الآية بعد الأوصاف أخر الآية فى قوله تعالى ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾.

٢- أشارت الآيات الأولى إلى جانب العقيدة : بقوله تعالى ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ وجاءت هذه الآية لتلقى على هذا الجانب بعض التوضيح والتفسير بقوله تعالى ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

٣- ذكر جانب العبادة فى الموضعين بصورة مجملة ففى أول سورة البقرة قوله تعالى ﴿ويقيمون الصلاة وهنا قوله تعالى ﴿وأقام الصلاة) .

٤- أما جانب المعاملات فقد كان مجملا فى أول سورة البقرة فى قوله تعالى ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ بينما هنا فى آية البر كان التفصيل والتوضيح أكثر فى قوله تعالى: ﴿وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب﴾ وذكرت هذه الآية الزكاة على حده فقالت بعد ذلك ﴿وآتى الزكاة﴾.

٥- أما الأخلاق الإسلامية العملية التى وردت فى أول السورة عن طريق الإلتزام بمقتضى الإيمان بالكتاب فى قوله تعالى ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ فقد جاءت هنا شاملة لما تقدم، ومفصلة لما أجمل فهى:

- مجملة فى قوله تعالى ﴿والكتاب والنبيين﴾.

- ومفصلة حين تعرضت الآية لذكر التطبيق العملى فى الوفاء والصبر وقوة الاحتمال والصدق فى قوله تعالى ﴿والموفون بعدهم إذاعاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾.

٦- ترى أن مجموعة الأوصاف فى هذه الآية جعلت البر فى علاقة المسلم بربه وبالمجتمع هو الثمرة العملية الطبيعية للتقوى ورفضت الآية أن يكون البر مجرد

دعوى أو مظهر لاتملؤه حقيقة صادقة ومجموع هذه الأوصاف العملية يعطى الحكم النهائى فى الآية لأصحابها المؤمنين عن جدية الاتصاف بها: ﴿وأولئك هم المتقون﴾.

وهذه الملاحظات تعنى أن الإجمال فى أوصاف المتقين يتخذ طريقه إلى التفصيل والتوضيح، بمعنى أن يتكامل الإيمان الباطنى وهو الاعتقاد مع الأثر الظاهرى العملى فى كل مجالات الاعتقاد والعبادات والمعاملات والسلوك ولعلنا بعد هذا العرض لأركان التقوى نكون قد أوضحنا العلاقة بين العقيدة والسلوك وقد تبين أن هذه الأصول فى جوانب الإيمان والعبادات والمعاملات والأخلاق قد تكاملت كلها فى كلمة المتقين[1] وبهذا البيان لأركان التقوى ندرك العلاقة العضوية والموضوعية[2] بين العقيدة والأخلاق.

ويقوم الأساس الاعتقادى على ثلاثة أركان:

الركن الأول:

الإيمان بوجود الله الذى خلق الكون وخلق الإنسان وخلق الموت والحياة فالإيمان بالله تعالى ربا وخالقا ومعبودا لاشريك له يقتضى الإيمان بعلمه المحيط وإرادته المطلقة وقدرته النافذة وهذا يمنح النفس صفة المراقبة له والحياء منه والثقة به فهو العالم بكل شىء فى الماضى والحاضر والمستقبل حتى إنه ليعلم مايدور فى خلجات الأنفس من النيات الخيرة والشريرة يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾[3] كما يقتضى هذا الإيمان تحرر الإنسان من العبودية لغير الله لأن من سوى الله تعالى لايملك لنفسه – فضلا عن غيره – شرا ولانفعا ولاموتا

(١) وهذه النقاط تفيد التكامل والشمول وذلك بمعنى أن يتكامل الايمان الباطنى مع الأثر الظاهرى العملى فى الاعتقاد والعبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك- راجع الدكتور حسن صالح العنانى «المسئولية والجزاء فى السنة المطهرة» ص٣٣٧.

(٢) ولهذا أيضا كان الاسلام حكيما عندما ربط الفرد بالمجتمع ربطا كربط العضو بالجسم فقال الرسول ﷺ «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» صحيح مسلم جـ١٦، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ص١٣٩.

(٣) سورة ق الآية ١٦.

ولاحياة ولانشورا ومن شأن هذا الشعور أن يملأ الإنسان ثقة بنفسه ويربه وعلى ذلك يتبين لنا الصلة بين الإيمان بالله وبين الأخلاق ، كمايتبين أن الأخلاق المذمومة دليل على عدم وجود الإيمان أو وصفه فحينما يطالب القرآن الكريم المؤمنين بالعدل يذكر قبل المطلب وصف الإيمان للإشارة إلى أن العدل مقتضى الإيمان فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1] فمما لاشك فيه أن الفضائل الخلقية هى ثمرة من ثمرات الإيمان بالله.

ومجمل القول أن الإيمان كأساس من أسس الأخلاق يقوم بالشمول للحياة الأخلاقية من حيث أنه أكبر دافع يدفع المسلم إلى الإمتثال للأعمال الصالحة وأقوى رادع يكفه عن إتباع الهوى والشهوات ليس ذلك فحسب بل هو المنبع الذى يستقى منه الضمير الأدبى حياته الوجدانية فنرى سانتهلير يقول: (فإن العلاقة الأدبية الكافية هى العلاقة بين النفس وبين الله ويقطع النظر عن القوانين الخارجية فالقانون الداخلى وهو الإيمان بالله هو المعتصم)[2].

الركن الثاني:

أن الله منذ أن خلق الإنسان فوق هذا الكوكب عرفه بنفسه وعرفه طريق الخير والشر والحق والباطل برسالات أوحى بها إلى من اختارهم من الناس كما شاء. قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[3] ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[4] ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[5] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[6] فمن أصلح نفسه واتبع الهدى فقد امتثل للنور وإلا خاب

(١) سورة المائدة الآية ٨.
(٢) راجع سانتهلير- مقدمة علم الأخلاق الى نيقوماقوس ص٢١.
(٣) سورة الاعلى الآية ٣. (٤) سورة البلد الآية ١٠.
(٥) سورة هود الآية ٤٩. (٦) سورة الشورى الآية (٥٢).

وخسر، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1] ثم إن الله خلق فى الإنسان قدرة لإدراك تلك الحقائق وأقام دلائل على جميع ذلك فى هذه الطبيعة يدركها من يتأمل فيها ويبحث عنها فى ثنايا هذا الوجود بوحى الله وبوحى من عقله قال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[2] وعلى هذا الأساس كان تكليف الإنسان بإتباع الحق والخير، وإجتناب الباطل والشر. كما بين واجبات الإنسان نحو خالقه ونحو المخلوقات الأخرى من الإنس وغير الإنس وبين المحرمات التى يجب إجتنابها وكل ذلك تبع للتفرقة بين الحق والباطل من جهة وللتفرقة بين الخير والشر من جهة أخـــــرى[3]. ولذلك فقد ربط الحق تبارك وتعالى بين الإيمان وعمل الصالحات والإحسان فيقول ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[4].

أما الركن الثالث:

فهو وجود الحياة بعد الموت. وهذه الحياة إما نعيم أو جحيم فالأولى يكافأ بها من اتبع الحق وفعل الخير واجتنب الشر والمحرمات فى هذه الدنيا، والثانية يجازى بها من إتبع الباطل وفعل الشر، فالنعيم لمن إستقام فى هذه الحياة والجحيم لمن انحرف فيها وهذه وتلك تكون بعد حساب دقيق يقوم به الخالق العليم يحاسب فيه كل إنسان بما عمل من خير أو شر صغيرا كان عمله أم كبيرا، وقد بين الحق تبارك وتعالى ذلك المعنى حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[5] ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾[6]

(١) سورة الشمس الآية ١٠ وراجع الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام للدكتور مقداد يلجن ص١١٦.
(٢) سورة فصلت الآية (٥٣) وراجع الدكتور مقدا يلجن الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام ص١٢٠.
(٣) دكتور مقداد يجلن الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام ص١٢٠.
(٤) سورة النساء الآية ١٢٤، ١٢٥.
(٥) سورة يس الآية ١٢.
(٦) سورة الاسراء الآية ١٣- وراجع دكتور مقداد يلجن الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام ص١٢٠.

وعلى ذلك فالإيمان باليوم الآخر من شأنه أن يدفع الإنسان إلى الإمتثال لأوامر الله تبارك وتعالى وإلى التخلق بأخلاق الإسلام لأن الله سيجمع الخلائق بين يديه ليحاسبهم على ماقدمت أيديهم ولن يستوى أمام العدل الإلهى المسيئ والمحسن ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين؟ مالكم كيف تحكمون﴾[1] - ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[2] ولذلك ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[3] إذن فهذه الحياة ميدان عمل وإختبار للإنسان لمن يريد الخير ولمن يريد الشر ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[4] إنه ابتلاء فعلا لمن يريد إتباع منهاج الله فى الحياة ولمن يريد الإنحراف عنه وتلك الحياة الأخرى مكافأة وجزاء لعمل الإنسان فى هذه الحياة من خير أو شر وهذا الأساس بأركانه فى غاية الأهمية ذلك أنه يعتبر أساسا للحياة إذ لامعنى لها دون هذا الأساس ودون الإعتماد عليه[5] ولايمكن أن ينبت هذا الباعث إلا فى نفس تؤمن بالله وباليوم الآخر فالإيمان بالله وباليوم الآخر وبما فيه من ثواب وعقاب هو الباعث الخصب للأخلاق بين عامة الناس[6].

ومجمل القول أن هذا الأساس يتمثل فى العقيدة الإسلامية، والعقيدة كأساس للأخلاق تؤثر تأثيرا قويا فى الحياة الأخلاقية وذلك من حيث أنها أكبر دافع يدفع الإنسان إلى الأعمال الإيجابية الخيرة، ومن حيث أنها المصدر الرئيسى للإحساس بقدسية القوانين الأخلاقية. وهذا بدوره هو المنبع الوحيد الذى يستقى منه الضمير الأدبى حياته الوجدانية ولقد إعترف الدكتور «الكسيس كارل» بهذه الحقيقة وبين أن العقيدة تضفى على العمل الأخلاقى فعالية لاتوجد فى الأخلاق المدنية فيقول: (فالفكرة المجردة لاتصبح عاملا فعالا إلا إذا تضمنت عنصرا رئيسيا وهذا هو السبب فى أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة. ولذلك لايتحمس الإنسان فى الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق إلا إذا نظر

(١) سورة ن الآية ٣٦. (٢) سورة ص الآية ٢٨.
(٣) سورة الزلزلة الآية ٧، ٨. (٤) سورة الملك الآية (٢).
(٥) راجع دكتور مقداد يلجن الاتجاه الاخلاق ص١٢١.
(٦) راجع دكتور محمد يوسف موسى فى تأملات فى فلسفة الاخلاق ص٢٢٢.

إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية[1] فالعقيدة الإسلامية هى التى تصلح النفس الإنسانية وبدونها لايمكن أن يتحقق إصلاح ولا أن يتم إستقرار ولايتقوم خلق، ولهذه الصلة الوثيقة بين الإيمان والأخلاق والرابطة المتينة بين الإيمان والعمل انتبه علماء التربية والإجتماع فى الغرب وفى كثير من الأمم .. فأصدروا توجيهاتهم وأعلنوا عن آرائهم ووجهات نظرهم بأنه من غير دين لايتم إستقرار وبغير إيمان بالله لايتحقق إصلاح ولايتقوى خلق ولذلك نرى الفيلسوف ا لألمانى «فيخته» يقول: (الأخلق من غير دين عبث) وقال الزعيم الهندى المعروف «غاندى» (إن الدين ومكارم الأخلاق هما شىء واحد لايقبلان الإنفصال، ولايفترق بعضهما عن بعض فهما وحدة لاتتجزأ. إن الدين كالروح للأخلاق، والأخلاق كالجو للروح وبعبارة أخرى الدين يغذى الأخلاق وينميها وينعشها كما أن الماء يغذى الزرع وينميه[2] ويرى باستالوتزى (أن حياة الإنسان الأدبية ونموه فى الفضيلة يتوقف على احياء الإيمان بالله فى فؤاده)[3] وقال القاضى البريطانى «رينج» بدون الدين لايمكن أن تكون هناك أخلاق. وبدون أخلاق لايمكن أن يكون هناك قانون فالدين هو المصدر الفذ المعصوم الذى يعرف منه حسن الأخلاق من قبيحها، والدين هو الذى يربط الإنسان بمثل أعلى يرنو إليه ويعمل له. والدين هو الذى يحد من أنانية الفرد ويكفكف من طغيان غرائزه وسيطرة عادته، ويخضعها لأهدافه ومثله، ويربى فيه الضمير الحى الذى على أساسه يرتفع صرح الأخلاق[4]. ويرى أفلاطون أن الإنسان بغير الإيمان بالله يضل فى الحياة[5]. كما يقول كانت (لاوجود للأخلاق دون إعتقادات ثلاثة وجود الإله وخلود الروح والحساب بعد الموت)[6] ولبيان أثر العقيدة فى الأخلاق والسلوك نقول لقد وقفنا على أن الإيمان بالله تعالى هو التصديق القاطع الجازم بوجود

---

(١) راجع دكتور الكسيس كارل تأملات فى سلوك الانسانية ص١٤٠، ترجمة الدكتور محمد القصاص ومراجعة الدكتور محمود قاسم مكتبه مصر.
(٢) راجع الاستاذ عبد الله علوان تربية الاولاد فى الاسلام جـ١ ص١٧١.
(٣) راجع الاستاذ آبادير حكيم التربية الاخلاقية ص١١٩ نقلا عن الاتجاه الاخلاقى ص١٢٣.
(٤) راجع الاستاذ عبد الله علوان التربية فى الاسلام ص١٧٨.
(٥) راجع مقدمة كتاب السياسة لارسطو.
(٦) راجع الاستاذ عبد الله علوان التربية فى الاسلام ص١٧٩ جـ١.

الله تعالى كما أخبر سبحانه وتعالى به واطمئنان القلب وسكون النفس بحيث لايبقى فى القلب أدنى مرض أو ظلمة ولا فى العقل أقل شبهة أو ريبة فى وجود الله جل جلاله ووجوب الإيمان به سبحانه وتعالى فلو زالت الجبال عن مواضعها مازال إيمان المؤمن عن قلبه.(١)

وعلى ذلك نرى أن مما تثمره العقيدة القويمة فى أخلاق المسلم وسلوكه تصويب نظرته للحياة فيؤمن بسننها، والإيمان بسنن الله الكونية مظهر لصحة العقيدة ليس ذلك فحسب بل لاتستقيم العقيدة بدون هذا الإيمان، وقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى بأن سننه الكونية إذا عرفناها ستوصل غير المؤمنين إلى الإيمان الصحيح فقال سبحانه وتعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(٢) فهو الإيقاع الأخير وإنه لإيقاع كبير فلقد وعد الله عباده أن يطلعهم على شيئ من خفايا أنفسهم على السواء. ولقد صدقهم الله وعده فعرفوا أشياء كثيرة ولو أدركوا كيف عرفوها وشكروا لكان لهم فيها خير كثير(٣) فهذه آيات من كتاب الله نتلوها ونتأملها فلانجد فيها سوى شيء واحد ، هو تثبيت قول الرسول ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)(٤) ونجد فيها شيئا آخر وهو ثمرة بحثنا هذا ودعوته وجوهر فكرته وهو ماتضمنته الآية الكريمة ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(٥) ولبيان ذلك لانكاد نجد آية من كتاب الله تذكر فيها الأوامر والتكاليف إلا مقرونا بها الأمر بالفضائل الخلقية من الإيمان وإحسان العمل والبر والمعروف والصدق والمودة وما إلى ذلك وهذا معناه أن الفضائل الخلقية قرينة الإيمان أو قرينة الأوامر والتكاليف والعبادات قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٦) وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾

---

(١) راجع الاستاذ وهبى سليمان الألبانى- كتاب أركان الايمان ص١٢.

(٢) سورة فصلت الآية (٥٣) وراجع دكتور محمد البهى- الدين والدولة من توجيهات القرآن الكريم ص٢٤٢ ط الثانية مكتبة وهبة ١٩٨٠.

(٣) راجع الاستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن ص٢٥٢ جـ٧.

(٤) السنن الكبرى للبيهقى جـ١٠ كتاب الشهادات باب فى مكارم الأخلاق ص١٩٢ ط دائرة المعارف العثمانية بحيدر آبدا- الهند عن أبى هريرة وفى مسند أحمد جـ٢ ص٣١٨.

(٥) سورة العنكبوت الآية ٤٥.   (٦) سورة الحج الآية (٧٧).

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[1] وقـوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[2] وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[3]

فالإيمان بالعقيدة لايكون إيمانا حتى يبلغ من المكانة فى النفس بحيث يصيردافعا إلى السلوك وهو مـايفيده القرآن الكريم بربطه هذا، قد عبر ابن خلدون عن هذا المعنى بقوله (أعلى مراتب الإيمان حصـول كيفيـة من ذلك الإعتقـاد القلبى الموافق للسان ومايتبعه من العمل مستولية على القلب فتستتبع الجوارح وتندرج فى طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الأفعال كلها فى طاعة ذلك التصديق الإيمانى)[4] هـذا مـن ناحيـة كما أنه من جهـة أخرى فإن أى سلوك لايكون دافعه الإيمان لايعتبـر سلوكا مقبولا من الوجهـة الإسلاميـة وإن كان فى ظاهره يلائم الأوامر والنواهى الإلهيـة فالسلوك إذا لكى يكون سلوكا مقبولا معتدا به لابد أن يكون ثمرة للعقيدة ومتأتيا من دفعها، بل وأن يكون مطابقا لما رسمتـه الشريعة الإسلاميـة ولهذا نجد أن الفضائل الخلقية قد ذكرت وحدها أى لم يذكر معها شيئ وذلك فى قول الحق تبارك وتعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[5] وعلى ذلك ندرك أن الإيمان الصـادق بالله والعبودية الخالصة له وحده تنتهى بالمسلم فى مجال السلوك إلى الثقة المطلقة فيما يأمر به الله ويدعو إليه[6] ومن هذا المنطق لابد للمسلم الكامل الإسـلام من الإلزام والإلتزام فيمتثل للأمر وينفذه ويبتعد عما نهى الله عنه حيث يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ

(١) سورة الأحزاب الآية (٧١).
(٢) سورة الحجرات الآية ١٥.
(٣) سورة النساء جزء من الآية ٥٧.
(٤) ابن خلدون- المقدمة ص٤٢٦ ط. الشعب القاهرة.
(٥) سورة النساء الآية ٥٨.
(٦) راجع دكتور السيد رزق الطويل كتاب العقيدة فى الاسلام منهج حياة ص١٠٣ ط. المجلس الاعلى.

وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(١) ومن هنا فكل ما جاء به القرآن من أحكام وشرائع نجد الآيات المتضمنة لذلك قد بدئت بنداء المؤمنين، أو ختمت بشرط الإيمان مما يؤكد أن العقيدة السليمة تثمر العمل الصالح وعندما نرى العقيدة غير مثمرة فى الخلق والسلوك نستطيع أن نقرر أن ذلك يدل على انحرافها عن الجادة وبعدها عن الطريق السوى وذلك لأنه إذا فسدت العقيدة فسد تصور الإنسان وتفكيره وحاق به سوء عمله.(٢)

ومن هنا نرى الإسلام يدعو إلى تحكيم العقيدة وذلك بأثر الإيمان فى السلوك فأصحاب الإيمان هم أصحاب الخلق وكلما كان الإيمان قويا كان الخلق كذلك. وليس ما أقوله هنا مجرد دعوى بدون دليل أو فكرة مفروضة على الإسلام بل إنها مستوحاة من روح الإسلام ولذلك نجد الآيات والنصوص القرآنية الواردة فى هذا الشأن غالبا ماتوجه للمؤمنين، ثم للذين أوتو الكتاب، ثم للكافرين ولنذكر بعض هذه النصوص لتكون أساس لدراستنا فى بيان أثر العقيدة فى الأخلاق والسلوك فكما قلنا إن النداء الغالب فى القرآن الكريم للمؤمنين حيث يقول الحق تبارك وتعالى ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ لأنهم أصحاب العقيدة السليمة كما أنهم المعنيون بما فى القرآن الكريم من توجيه وتشريع فمعظم الآيات تخاطبهم حيث يقول الحق تبارك وتعالى﴿هدى للمتقين﴾(٣) فالحق تبارك وتعالى يبين حقيقة الكتاب وماهيته. ولكن لمن يكون ذلك؟ للمتقين فالتقوى فى القلب هى التى تؤهله للإنتفاع بهذا الكتاب وعلى ذلك تكون التقوى هى التى تفتح مغاليق القلب كما أنها هى التى تهئ لهذا القلب أن يتلقى وأن يستجيب(٤) وبذلك تثمر طاعة الله فى قلب المسلم ولذلك قال تعالى ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾(٥) . فلقد رضى الله الإسلام دينا، وهو يهدى من يتبع رضوانه هذا ويرتضيه لنفسه كما رضيه الله له – فيهديه سبل السلام والسلام هو مايكسبه هذا الدين

---

(١) سورة الاعراف الآية ٢٩ بعض منها.
(٢) راجع المرجع السابق ص١٠٤ للدكتور السيد رزق الطويل.
(٣) سورة البقرة الآية ٢ جزء منها.
(٤) راجع الاستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن جـ١ ص٣٩.
(٥) سورة المائدة الآية (١٦).

فى الحياة كلها للفرد والجماعة وهو السلام الذى لاتجده البشرية ولم تجده إلا فى هذا الـديـن[1] ثم يأتى نداء الحق تبارك وتعالى للناس الذين لم يملكوا مصابيح العقيدة فيتوجهون إلى نصائح عامة تلزمهم بالعقيدة السليمة وماوراءها من تبعات حيث يقول الحق تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾[2] فلقد نودى أهل الكتاب بهذه الصورة مرة واحدة فى القرآن وفى الآية دعوة إلى الإيمان وتحذير لهم من الكفر فلقد أوتوا الكتاب، والله الذى آتاهم الكتاب هو الذى يدعوهم إلى الإيمان بما أنزل مصدقا لما معهم ومن هنا ندرك قيمة دعوة الحق لهم وأيضا فلقد ورد نداء الكافرين مرة واحدة. إذ يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾[3] أى لاتعتذروا فليس اليوم يوم إعتذار إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل وقد عملتم ماتجزون عليه وهذه الآيات كلها تفيد أن الفترة التى سعدت فيها الأرض بالرسالة المحمدية كانت فترة قيام الأخلاق الإسلامية على أسس دينية قوية ظهرت عظمتها وقوتها أمام التحديات التى واجهتها والأحوال التى غيرتها والنفوس التى أصلحتها.

والواقع أن القرآن الكريم الذى أهدى إلى البشرية منذ أربعة عشر قرنا قد قام على محور واضح الدلالة فى التركيز على بناء الإنسان على نحو شامل جامع، ومن خلال منهج يربط بين المادة والروح ولاريب أن هذه الحقيقة تجعلنا نعتقد أن الكتب السماوية السابقة له التى جاء مصدقا لها وكذلك رسالات السماء كلها[4] التى جـاء الإسلام متمما لها قد أولت عناية كبرى بالإنسان وان كل المعانى التى كانت تزخر بها الحياة البشرية قبل الإسلام من قيم الأخلاق والعلم إنما تعود إلى تراث الأديان أساسا وإلى الفكر الربانى الأصل الإنسانى الطابع بينما تعود كل مفاهيم الوثنية والإلحاد

(١) راجع الاستاذ سيد قطب المرجع السابق جـ٢ ص٦٨٢.
(٢) سورة النساء الآية (٤٧).
(٣) سورة التحريم. بعض من الآية (٧).
(٤) كما تبين فى الباب الاول من البحث.

والظلم والجحود إلى تراث الفكر البشرى[1] من هذا كله يظهر بوضوح كيف عنى الإسلام بالأخلاق وتهذيبها، وكيف حرص على غرسها وتربيتها فى النفوس الإنسانية[2] وهذه الآيات كلها تفيد أن الإيمان بالعقيدة لايكون الإيمان المطلوب المعتد به دينيا حتى يبلغ من المكانة فى النفس بحيث يصير دافعا إلى السلوك وهذا ماوضحه القرآن الكريم بربطه الدائم بين الإيمان وبين العمل الصالح كبيان للإيمان الكامل الذى ينبغى أن يكون عليه المسلم ليس ذلك فحسب بل إننا ندرك أن ترتيب الآيات بهذه الصورة يؤكد هذه الفكرة كما أننا ندرك القاعدة العامة التى أرستها العقيدة الإسلامية فى تدعيمها لحق الإخاء بين البشر إذ تمنحهم التصور الصحيح للحياة وللناس حيث يقول الرسول ﷺ (كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى)[3].

والقرآن الكريم أكد هذه الأخوة عندما تحدث إلى البشر عن أصل اخوتهم فقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[4] كما أكد حديث الأخوة عند وصف الرسل بالأخوة لأقوامهم الذين أرسلوا فيهم فيقول ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[5] ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾[6] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾[7] ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[8] كماقال الرسول ﷺ (كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب)[9] وقال أيضا لأبى ذر: (انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله)[10].

---

(١) راجع دكتور محمد البهى- الاسلام فى حياة المسلم ص٧٧ وما بعدها- ط. الخامسة عام ١٩٧٧م. وراجع الاستاذ انور الجندى مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والاخلاق فى ضوء الاسلام ص٣٢ ط. الاعتصام.

(٢) راجع دكتوره سهير فضل الله أبو وافية الفلسفة الانسانية فى الاسلام ص٩٩.

(٣) مسند الامام أحمد جـ٤ ص٢١٧ رواية احمد.

(٤) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٥) سورة الأعراف بعض من الآية (٦٥).

(٦) سورة الأحقاف بعض من الآية (٢١).

(٧) سورة الأعراف بعض من الآية (٧٣).

(٨) سورة الأعراف بعض من الآية (٨٥).

(٩) رواه احمد جـ٤ ص٢١٧ تفسير ابن كثير.

(١٠) تفسير ابن كثير رواية حذيفة جـ٤ ص٢١٧.

وهناك حق آخر تمنحه عقيدة الإسلام للإنسان ولم يمنحه هذا الحق تشريع بشرى وهو حق الخطأ إذ يقول ﷺ كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون فالخطأ من حق الإنسان لما ينزعه من شهوات غالبة وأهواء ضارية وجهالة لاهية وقد أعطته الشريعة الإسلامية لهذا حق التوبة وأكد الله له فى الكتاب أنه التواب إذ يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾(1)، ويؤكد القرآن الكريم منزلة العبد التائب ودرجته العظيمة عند الله. وأنه يسمى الأواب كما أكدت الأحاديث أن رب العزة يفرح بعودة عبده التائب ولايؤاخذ الإنسان على خطئه إلا بالاستمرار عليه والتمادى فيه.

وبعد ذلك البيان العام الشامل لأثر العقيدة فى السلوك والأخلاق نسير لاستكمال الرؤية الكاشفة وعرض الأمثلة للربط بين العقيدة والسلوك يقول الحق تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾(2) ويقول ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(3) وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾(4) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾(5) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾(6) وقال تعالى ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾(7) وقال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(8).

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾(9).

(1) سورة الشورى الآية (25).
(2) سورة الاحزاب الآية (71).
(3) سورة الانفال (3).
(4) سورة البقرة الآية (267).
(5) سورة المائدة جزء من الآية (95).
(6) سورة البقرة الآية (282).
(7) سورة الأنعام الآية (118).
(8) سورة الانفال الآية (1).
(9) سورة الانفال الآية (27).

هذه أمثلة لتشريعات القرآن الكريم وتوجيهاته وهى تبين بوضوح الإرتباط الوثيق بين العقيدة والسلوك وان صحة العقيدة تثمر الالتزام الراشد بالعقيدة والشريعة والأخلاق وذلك يستدعى تربية المسلم على الشعور المستديم بالحضور الإلهى فى كل مايأتيه من الأعمال وذلك بالاحساس الباطنى بأن كل إيتاء لفعل أو إنتهاء عن فعل إنما هو تحقيق لمعنى الطاعة المطلقة لله تعالى وقد جاء تعبير عن هذا المعنى فى حديث الإيمان حينما سئل الرسول عليه السلام عن الإحسان ماهو ؟ فأجاب (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1] وقد تمثل هذا المعنى فى مبدأ النية وهو قول الرسول ﷺ (إنما الأعمال بالنيات)[2] ذلك المبدأ الإسلامى الذى تقاس به الأعمال جميعا وعلى أساسه تقبل أو ترفض لكن النبى ﷺ لم يقصد بقوله أن الأعمال لاتقوم ولاتوجد إلا بالنيات فحسب بل قال أيضا عن عائشة رضى الله عنها (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) وفى رواية أخرى: (إن الله لايقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه وابتغى به وجهه)[3] ومن هنا نرى أن المسلك الحسن لاينحصر فى حسن النية وحده ولا فى دقة العمل وحدها؟ بل فى مجموع من الشكل والمادة وقد عرف الإمام الغزالى النية بأنها الإرادة وانبعاث النفس، بحكم الرغبة والميل إلى ماهو موافق الغرض. أما فى الحال واما فى المآل فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب الباعث. والغرض الباعث هو المقصد المعنوى والإنبعاث هو القصد والنية وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الاعضاء وهو العمل[4] ومعناه اتجاه القلب إلى إختيار أمر دون آخر بعزم ثابت لايحول بينه وبين النفاذ إلا عائق خارج الإرادة[5] فالنية بالمعنى السابق هى دالة التلازم بين الدافع أو الباعث أى العقيدة وبين العمل السلوكى.

---

(١) البخارى الحديث الاول جـ١ ص١٩ كتاب الايمان- باب سؤال جبريل وراجع الدكتور دراز دستور الاخلاق ص٤٤٣.

(٢) سبق تخريجه فيما مضى.

(٣) سنن النسائى جـ٦- كتاب الجهاد- باب من غزا يلتمس الاجر والذكر ص٢٥ ط المطبعة السلفية بالازهر.

(٤) الامام الغزالى- احياء علوم الدين جـ٤ ص٣١٥ ط الحلبى.

(٥) راجع دكتور حمدى حيا الله- الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص١١٣. وراجع دكتور محمد البهى- الاسلام فى حياة المسلم ص١٦٠ ط الخامسة عام ١٩٧٧م.

وجعل الإسلام هذه النية شرطا فى قبول الأعمال إنما هو أسلوب عملى يجعل المسلم دائب الربط بين عقيدته وبين عمله فيتكون له بذلك خلق من إجراء الأفعال الظاهرة وفق العقيدة الباطنة بل إن العمل الذى تتحقق فيه النية ربما أصبح هو نفسه عاملا بكثرة التكرار على تقوية الإيمان وتعميقه كما يفيد قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾(1) فمجرد البدء يتبعه العون من الله ويتبعه التثبيت على المضى فى الطريق ويتبعه الأجر العظيم وتتبعه الهداية إلى الطريق المستقيم(2) فأشد تثبتا لهم فى إيمانهم أى أن الامتثال إيمانا يتضمن الذكرى وصدق الله العظيم فما يخدع الله سبحانه وتعالى عباده. ولايعدهم وعدا لايفى لهم به ولايحدثهم إلا حديث الصدق ومن أصدق من الله حديثا(3) وإمرار هذه الذكرى على القلب عند كل عمل مشروع يقوى الإيمان ويثبته فمراقبة الله فى السر والعلن التى يدور محورها على كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» تبدأ بالمعرفة الصحيحة بالذات العلية وتنتهى باليقين به فيظل بحكم هذه العقيدة وبسلطانها مراقبا الله وحده يرجو رحمته ويخشى عذابه ويظل وجدانه ممتلئا بالشعور بهيبته وسلطانه فيقبل على الخير إحتسابا لله ويبتعد عن الشر إبتغاء مرضاته ولايحيد عن طريقه قيد أنمله(4) فمراقبة الله هى الضوء الكاشف على الطريق تبصر المسلم بعثراته وتنبهه إلى عقباته وبقدر مايجعل المسلم فى حسابه الخوف من الله ومراقبته يستحى من معصيته ويخجل من مخالفته ومصداق ذلك قول الرسول ﷺ (لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء)(5) والحياء من أعظم دلائل العقيدة فالحياء من الإيمان كما ورد فى قول للرسول ﷺ (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمـــان)(6) إن الحياء بهذه المنزلة الخلقية الكبيرة ثمرة هامة من ثمرات العقيدة

---

(1) سورة النساء جزء من الآية ٦٦ .
(2) راجع الاستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن جـ٢ ص٤٢٩ .
(3) راجع الاستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن جـ٢ ص٤٢٩ .
(4) راجع دكتور السيد رزق الطويل- العقيدة فى الاسلام ص١٠٦ ، ط المجلس الاعلى.
(5) موطأ مالك- كتاب حسن الخلق- باب ماجاء فى الحياء ص٩٠٥ ط عيسى الحلبى. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.
(6) مختصر شعب الايمان للبيهقى- باب الحياء ص٩٨ .

الراشدة كما أن الترقى بمدلول العبادة إلى مفهوم شامل يجمع كل أعمال الإنسان ولايقتصر على العبادة بالمعنى الخاص من صلاة وصوم وزكاة وحج. فكل ائتمار بأمر وكل انتهاء بنهى هو عبادة لله تعالى سواء كان فى علاقة الإنسان بنفسه أو فى علاقته بمجتمعه أو فى علاقته بربه حيث يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1]. يقول الأستاذ سيد قطب: (إن هذا النص الصغير ليحوى حقيقة ضخمة هائلة من أضخم الحقائق التى لايستقيم حياة البشر فى الأرض بدون إدراكها سواء كانت حياة فرد أم جماعة أم حياة الإنسانية كلها ومن ثم يتبين أن مدلول العبادة لابد أن يكون أوسع واشمل من مجرد إقامة الشعائر. فالجن والإنس لايقضون حياتهم فى إقامة الشعائر ومن ثم يتجلى ان معنى العبادة وحقيقتها تتمثل فى أمرين رئيسين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله فى النفس.

الثـانى: هو التوجه إلى الله بكل حركة فى الحياة. أى التوجه إلى الله بالعبادة خالصة والتجرد من كل شعور آخر ومن كل معنى غير معنى التعبد لله.

بهذا وذاك يتحقق معنى العبادة ويصبح العمل كالشعائر[2] ولهذا نستطيع أن نقرر أن هذا المعنى يجعل الصلة مستديمة بين العبد وربه وعندئذ يعيش الإنسان فى هذه الدار شاعرا أنه وجد للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى جاء لينهض بها فترة ولا غاية من ورائها إلا الطاعة وجزاؤها الذى يجده فى نفسه من طمأنينة ورضا عن وضعه وعمله ومن أنس برضا الله عنه ورعايته له. ثم يجده فى الآخرة تكريما ونعيما وفضلا عظيما ولايتم ذلك إلا بالعقيدة الإسلامية لأنها بيان حكيم من لدن العليم الخبير تكشف عن أبعاد الصلة بين العبد وربه وبين الإنسان وأخيه الإنسان ليس ذلك فحسب بل بينه وبين غيره من الكائنات هذه العقيدة التى من شأنها أن تمنح الفرد المسلم تصورات صادقة منها - كما أسلفنا - مراقبة الله فى السر والعلن ومنها إحسان العمل أى عمل للدين أعنى شئون العلاقة مع الله، أو للدنيا أى فى مجال العلاقات مع الناس ومنها

---

(١) سورة الذاريات الآية (٥٦).
وراجع دكتور السيد رزق الطويل العقيدة الاسلامية ص١٠٦.
(٢) الاستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن ص٥٩ جـ٧.

الحرية التى ينعم بها الإنسان فى أوسع مدى عندما يتجه بعبوديته لله وحده والعبودية لله وحده تزيل الفوارق بين الطبقات وما إلى ذلك ومن هذه المعطيات تحدث القرآن الكريم عن الإحسان والمحسنين فى مواضع كثيرة بين فيها مكانتهم عند الله ومنزلتهم من النعيم فى رحابه لما أثمرته العقيدة القويمة فيهم حيث يقول الحق تبارك وتعالى ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1] ويقول تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2] وكأن الإحسان هو ثمرة العقيدة هو الضابط الصحيح لقضية الحلال والحرام كما بينت هذه الآية يقول تعالى فى ثواب المحسنين ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[3] والإحسان يلازم التقوى فى أكثر الآيات التى ورد فيها وما ذلك إلا لأنه ثمرتها إذ التقوى الصورة المكتملة للعقيدة الإسلامية بما تتطلبه من عبودية وإخلاص وتوحيد يقول تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[4].

والإحسان بمعنى إجادة العمل وإتقانه يستلزم الإخلاص والإنسان مطالبا به فى علاقاته مع الله ومع الناس ومع عناصر الكون كله ومن هنا تكون الهداية التى هى من أبرز آثار العقيدة الإسلامية فى الأخلاق والسلوك إنها تهدى وهدايتها فى تقديرى أنها تمنح الإنسان وتعطيه التصور السديد والصحيح للأشياء فيعرف مواطن الخير وتستبين له وجوه الحق. فالهداية حاسة أخرى يملكها المؤمنون الصادقون الذين صلحت عقيدتهم واستقامت مع الله خطتهم وبناء على هذا يكون سلوك المؤمن فى الحياة وسيرته فيها على ضو ء ماتهديه إليه عقيدته ومن التوجيهات القرآنية السديدة قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[5] فما العلم الذى تمنحه التقوى للمتقين؟ إنه الإدراك السليم والمعرفة الصحيحة بالأشياء فمع العقيدة

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٧٢).
(٢) سورة المائدة الآية (٩٣).
(٣) سورة يونس الآية: ٢٦ بعض منها.
(٤) سورة النحل الآية (١٢٨).
(٥) سورة البقرة جزء من الآية (٢٨٢).

الصحيحة ينزل الناس منازلهم ويمنح كل إنسان قدره ويعطى كل ذى حق حقه وعلى ذلك نرى أنه قد ربط هذا العلم بمفهوم خاص هو التصور الذهنى للحقائق الذى يقترن بالسلوك العملى ولذلك فإن العلم الذى هو مجرد التصور ليس هو العلم المطلوب ولعله من بين المقصود بقوله ﷺ (نعوذ بالله من علم لاينفع)(١) وهو ماعبر عنه الإمام الشاطبى بقوله (كل مسأله لاينبنى عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعى)(٢) وإن هذا الربط بين الصورة والعمل فى مفهوم العلم مع الترقى فى طلبه إلى درجة الواجب لهو تمرين تربوى من شأنه أن يجعل الإنسان مفيضا من أفكاره مايجرى عملا على جوارحه وإن أول العلم الذى دعى الإنسان إلى تحصيله هو العلم بالعقيدة فهذه التربية إذا عاملة على أن تدفع العقيدة إلى السوك.(٣)

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾(٤) فهذه الآية تبين أن العقيدة السليمة القائمة على الخوف من الله وحده، صاحبها ذو قدرة عقلية تمكنه من أن يميز بين الخبيث والطيب وأن ينأى عن كل موضع فيه ريبه أو شبهه وجاء هذا المعنى فى هذه الآية أيضا ثمره للعقيده فيقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٥) وقد ربط القرآن الكريم الهداية بالإيمان الصحيح فى موضع ونفاها نفيا قاطعا عن غير المؤمنين فى موضع آخر. وذلك لكى تستقيم الحجة من وجهيها قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾(٦).

---

(١) اخرجه ابن ماجة.
(٢) الشاطبى الموافقات جـ١ ص١٨ ط صبيح القاهرة ١٩٦٩ نقلا من صلة العقيدة بالسلوك. للاستاذ عبد المجيد النجار- جوهر الاسلام العدد ٥٤ ص٣٤ عام ١٩٧٧م. بتونس.
(٣) راجع الاستاذ/ عبد المجيد النجار. صلة العقيدة بالسلوك فى المفهوم الاسلامى مقال من مجلة جوهر الاسلام العدد ٤، ٥ ص٣٤ عام ١٩٧٧م.
(٤) سورة الأنفال جزء من الآية (٢٩).
(٥) سورة الحديد الآية (٢٨).
(٦) سورة يونس الآية (٩).

وجاء نفى الهداية عن غير المؤمن فى هذا الموضع ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾[2] وقال فى السورة نفسها ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾[3] فقد أكدت هاتان الآيتان ما أكدته الآية السابقة من أن فاسد العقيدة تعطلت فيه حاسة الهداية . وقد فصل الله سبحانه هدايته للمؤمنين بقوله ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4] فالهداية إلى سبل السلام وإلى الصراط المستقيم نتيجة لازمة من قانون الله لاتباع المنهج الذى اختاره وارتضاه .

وإذا كانت الهداية الممنوحة لأصحاب العقيدة تعنى فى الدنيا التبصر بالحلال والحرام ومواقع الخير والشر فإن هدايتها فى الآخرة لمكان النعيم لهؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله دون عقيدتهم. فيقول سبحانه ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[5] وهذه الهداية الإلهية التى تشير إليها الآيات ثمرة للإيمان الصحيح تتبعها هدايات أخرى تختلف عنها فى أنها ممنوحة للجميع. لايختلف فيها إنسان عن مثل هداية الفطرة ،، إذ فطر كل بنى الإنسان على الإيمان بالربوبية. وهداية السمع والبصر والعقل. يقول تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[6] ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[7] وهناك هداية ثالثة وهى هداية الرسل الذين أرسلهم الله كما قال: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[8] والانتفاع

(١) سورة النحل الآية (١٠٤).
(٢) سورة النساء الآية (١٣٧).
(٣) سورة النساء الآية (١٦٨).
(٤) سورة المائدة الآية (١٦).
(٥) سورة محمد الآية (٤، ٥، ٦).
(٦) سورة الشمس الآية (٨).
(٧) سورة الانسان الآية (٣).
(٨) سورة النساء الآية (١٦٥) وراجع فى ذلك دكتور/ السيد رزق الطويل العقيدة فى الاسلام منهج حياه ص١١٤.

بهذه الهدايات لايكون إلا بالاستمساك بالعقيدة الصحيحة فلقد نزل الإسلام منهج حياة شامل للإنسان والحياة، والحياة هى قبل كل شىء عمل وسلوك ولذلك فقد اعتبر هذا السلوك هو الثمرة التى يسعى إليها ولكنها ثمرة لاتنضج إلا بتلك الحقيقة الكبرى حقيقة العقيد ة التى أمر الإنسان أن يعتقدها لأنها الحق وهدى إلى الطريقة التى تكون بها تلك العقيدة مؤدية إلى حياة السعادة فكانت الصلة بين العقيدة والسلوك والأخلاق فى المفهوم الإسلامى صلة المؤثر بأثره يستمد أحدهما قيمته من وجود الآخر ويفقدها بفقدانه، وعلى ذلك فالعقيدة الصحيحة تثمر العمل الصالح والخلق القويم وعندما تعجز العقيدة عن تحقيق هذا الجانب يدل ذلك على فسادها وإنها عاطفة بلا يقين ودعوى بلا دليل وشجرة بلا ثمر. فالإيمان يعتبر الأساس الذى يعتمد عليه فى إقامة النظام الخلقى، وفى عملية الالتزم به فبدون هذا الأساس تفقد الأخلاق قيمتها وعظيم تأثيرها فى سلوك، الإنسان، ولايمكن أن تطبق الأخلاق تطبيقا عمليا دقيقا فى الظاهر والباطن إلا إذا اتخذ هذا الأساس فى قلوب البشر مكانا وآمنوا به إيمانا صادقا. فالإيمان كما يقول «فرويل» (يجعل الإنسان يعيش ساكنا قويا فى كل الأحوال)[1] وعلى ذلك فالإيمان ليس أساسا للسلوك الأخلاقى فقط بل إنه أساس للحياة - إذ لامعنى للحياة بدون هذا الأساس والاعتماد عليه[2].

---

(١) التربية الاخلاقية لابأدير حكيم ص١٤ نقلا من الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام ص١٢١ مقداد يلجن.

(٢) «ومما يؤيد صدق ماندعى أننا نرى الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر كم يعانون من الاضطراب النفسى والقلق فى أعماق قلوبهم، وهم يحاولون أن يبرروا ذلك كله باسناده إلى الطبيعة أو إلى طبيعة الحياه، والحقيقة أنه ليس من الطبيعة بدليل أننا لانجد هذه الظاهرة عند غيرهم بصوره عامه ولكن ذلك من طبيعةعدم الايمان اذ أن فى طبيعة الحياة الانسانية جانبا لا يملأه الا الايمان فوجود هذا الفراغ فى حياة هؤلاء هو السبب فى احساسهم بالنقص والقلق والاضطراب فى الحياة وذلك الاحساس هو الذى يدفعهم فى بعض الظروف الى محاولة التخلص من هذه الحياة وذلك اما بالانتحار واما بالتردى فى حياة السكر وهذا قضاء على الحياه بطريق غير مباشر فهم لا يفعلون ذلك لضيق معيشتهم أو لفقد صحتهم بل إننا نجد منهم من هم أغنى الناس لا ينقصهم مال ولا جاه ولا أى متع من متع الحياة وإنما ينقصهم فى الحقيقة الطمأنينة الداخلية التى يخلقها الايمان أو العقيدة السليمة ولا أقول هنا أن افتقاد عامل العقيدة هو السبب الوحيد فى الانتحار وإنما أقول انه من أهم الأسباب» نقلا من الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام ص١٢٢ مع تقديم وتأخير.

ولهذا فقد نص الرسول ﷺ على أن الإيمان عمل فقال عندما سأله رجل أى العمل أفضل: (إيمان بالله وجهاد فى سبيله)[1] ولأهمية ذلك كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهو باب من أبواب الجهاد ودعوة إلى الحق ومقاومة الضلال والباطل واعتبر القيام بذلك من عزائم الأمور قال تعالى ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[2] ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقف على أن هناك فروقا بين القوانين الأخلاقية والقوانين الوضعية ومن مميزات تلك العقيدة أنها تضفى على القوانين الأخلاقية قيمة تسمو بها وترفعها عن أن لاتكون مجرد نظام وضعى يحدد علاقة الناس فيما بينهم لتحقيق مصلحة فردية أواجتماعية تخضع لرغبات الأفراد والمجتمعات بل نجدها تتمثل فى عدة جوانب

أولا: إيجابية القوانين الأخلاقية وشمولها ويؤدى ذلك إلى أمرين:

أولهما: إيجابية الأخلاق الإسلامية ومن ثم تكون لها سلطة تشمل حياة الإنسان وتصرفاته فى الظاهر والباطن.

وثانيهما: أن هذه القوانين الأخلاقية تؤثر فى الإنسان عمليا من الناحية الإيجابية أو السلبية نتيجة تطبيقها أو عدم تطبيقها فيكون أثر التطبيق الإحساس بالسرور والانشراح فى أعماق النفس الإنسانية ويكون أثر عدم تطبيقها الإحساس بالوخز والضيق والتأنيب الذاتى، أى بصرف النظر عن ملاحظة الأخرين لهذه الأفعال أو تلك ومن هنا تكون للأخلاق الإسلامية قدسية، ذلك الإحساس بقدسيتها يجعل من نفس الإنسان رقيبا داخلياً على تصرفاته ولايرتبط ذلك التطبيق للقوانين الأخلاقية بالمنفعة أو المظهر الاجتماعى فحسب شأن القوانين الوضعية، بل يرتبط إلى جانب ذلك بظاهره أعمق من ذلك وهى الإحساس بالواجب وبراحة القلب[3].

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما أتفق عليه الشيخان ١٦/١.
(٢) سورة لقمان الآية (١٧).
(١) راجع مقداد يلجن ص١٢٢. والجندى ص١٩٣. قضايا العصر.

ثانيـاً: أن الأخلاق الإسلامية تحقق للإنسان السعادة فى الحياة لأنها تجمع بين الفضائل والنعم المادية والمعنوية. أما الأخلاق الوضعية فلا تراعى كل ذلك هذا من ناحية. كما أنها من ناحية أخرى لاتدفع الإنسان إلى ذلك دفعا كالأخلاق الإسلامية القائمة على الأساس الاعتقادى وبهذا المفهوم ترتبط الأخلاق بالاعتقاد من ناحية وبالطبيعة الإنسانية من ناحية أخرى فرسالة الإسلام فى أخلاقه هى رسالة التعادل والتوازن وهى لذلك رسالة الاطمئنان، والاطمئنان هو السعادة[1].

ثالثاً: أن الأخلاق الإسلامية بهذا التكامل والشمول تعد حجر الأساس فى سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة.

رابعاً: أن أساس الأخلاق الإسلامية الإلزام والإلتزام.

صلة الأخلاق بالعبادات:

نرى أن المعنى الأخلاقى ليس بعيد الصلة بالعبادات. فهى تهدف إلى تهذيب الوجدان وتربية الضمير فى الإنسان ليس ذلك فحسب. بل إنها تحقيق للغاية من خلقـــه[2] وذلك لكى يظل غرس العقيدة الإسلامية قويا فى النفس كان لابد من أن يسقى بماء العبادة بمختلف صورها وأشكالها فبذلك تنمو العقيدة فى الفؤاد وتترعرع وتثبت أمام عواصف الحياة وزعازعها وبذلك تتكامل عناصر الدين وشروطه التى يتوقف عليها إمكان إيجاد انسجام تام بين المؤمن والأخلاق الفاضلة التى دعا إليها الإسلام وعلى ذلك نقرر أولا: أن الهدف من العبادات التى شرعها الإسلام هو السمو الخلقى للإنسانية.

ثانياً: أن هذه العبادات إذا لم تقترن بها الأخلاق الإسلامية فإنها تصبح عبادات جوفاء لافائدة فيها ولاجدوى منها هذا هو الأساس والمحور الذى تدور حوله كل تعاليم القرآن قال تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[3] لكن مع هذه الصيغة التى يقدم بها الوحى

(١) دكتور/ محمد البهى الاسلام فى حياة المسلم ص٨١ الخامسة ١٩٧٧ مكتبة وهبه.
(٢) دكتور/ أحمد الشاعر. مناهج البحث الخلقى ص٤٢.
(٣) سورة النساء الآية (٦٥).

أوامره نجد أنها أوامر بما يلائم الفطرة وتستجيب له النفس برغم أنها أوامر تستمد سلطانها من الخالق القهار الذى لايسأل عما يفعل وهم يسألون (وهذا مبرر كاف فى تنفيذها دون تردد ولذا نجد القرآن الكريم يقدم لنا تلك الأوامر فى ثوب من الإغراء والترغيب وبشتى الوسائل التى تحفزنا على الاستجابة لها والتنافس فى أدائها على الوجه الأكمل. فلانكاد نجد واجبا فى القرآن الكريم إلا وهو مصحوب بمسوغات قبوله ومبررات أدائه. إلا أنه يجب ألا يفهم أن هذه المسوغات علة التنفيذ وإنما العلة فى التنفيذ والامتثال هو الأمر الإلهى[1] ولبيان هذا الفهم نعرض بلمحة عن كل من هذه الواجبات.

فالصلاة: التى هى عماد الدين لاتبلغ درجة القبول عند الله تعالى حتى ينتهى صاحبها عن الرذائل الأخلاقية (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له) وعلى ذلك نرى أن الغاية منها والحكمة التى من أجلها شرعت هى الابتعاد عن الرذائل فحينما يأمرنا الوحى الإلهى بالصلاة. وهى من أخص مايطلب من العبد شكرا لنعم خالقه يأمرنا بها مقترنة بمسوغها من آثارها الحميدة التى تعود على الفرد والجماعة فيقول ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[2] فالصلاة فى حقيقتها صلة بين القلب ومقلب القلوب سبحانه وتعالى – ولن يستقيم أمر هذه الصلة إلا بما تحدثه فى النفس من طهارة وصفاء وبراءة وإخلاص فهى تصفية للنفس من الشوائب وتخليص لها من الأدران وتربية لها على التماسك والانسجام، ومن ثم تنهى عن الفحشاء والمنكر فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر لأنها ليست رسما يؤدى بركعات ولابسجدات تعد وتحصى وإنما تقوم قبل الركوع والسجود على خشية الله .. وما ينطق به المصلى «الله أكبر» إن هو إلا اعتراف قلبى منه بأن: متع الحياة لاتصل أن تكون غاية فى نفسها للإنسان والغاية الأخيرة هى رضا الله وحده. ومن هنا لايدع المصلى نفسه تستجيب لرغبات ذاته وهواها، مما فيه إيذاء الغير وإضراره.[3] كما أن الجماعة فى الصلاة تنمية للشعور الإنسانى الكريم وجمع للقلوب على هدف واحد

---

(١) راجع د. حمدى حيا الله. الأخلاق ص٩٣.
(٢) سورة العنكبوت جزء من الآية (٤٥).
(٣) راجع دكتور/ محمد البهى. الاسلام فى حياة المسلم ص١٧٣.

وغاية كريمة فوق أنها تأكيد للأخوة الإيمانية التى تربط بين المسلمين جميعا.[1] قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2].

أما الصيام: فهو مجاهدة نفسية كبرى وانتصار على نوازع الشرفى الإنسان وسر بين العبد وربه. فيه الإخلاص والصدق والصبر وفيه تقوية للعزيمة وتربية للإرادة. ومبعث للرحمة والعطف.[3] فالصوم واجب يسوغ قبوله مافيه من شحذ الإرادة وتمرسها على الإذعان للحق والصبر على المكاره فى سبيل المثل الأعلى والتخلص من سلطان الهوى والأنانية وحب الذات كما أنه فيه معنى التراحم والتواصل الوجدانى بين طبقات الأمة.

وتحقيق الإخاء الإنسانى بوجدان المشاعر الإنسانية الكريمة التى تغمر المسلمين فى صيامهم[4] فالغاية من تشريع الصيام هى الوصول بالمسلم إلى التقوى التى تتضمن كل الأخلاق الفاضلة الحميدة ومن هنا كان الصوم مدرسة تربت فيها كل الأمم القوية. وهذا مايشير إليه القرآن الكريم فى تقديمه لهذا الواجب حيث يقول ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[5] وليس مصادفة أن يكون الوقت الذى فرض لأداء هذا الواجب أنسب الأوقات التى يتلقى فيها الإنسان تشريع الخير والحق والعمل به فيكون ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [6] والرسول ﷺ يوضح أن الهدف من الصوم هو البعد عن الرذائل الخلقية

(١) راجع دكتور/ أحمد عبد الحميد الشاعر. مناهج البحث الخلقى ص٤٢.
(٢) سورة المؤمنون الآية (١١).
(٣) راجع دكتور/ أحمد عبد الحميد الشاعر. مناهج البحث الخلقى ص٤٢.
(٤) راجع دكتور/ محمد البهى الاسلام فى حياة مسلم ص١٧٣ ط الخامسة ١٩٧٧ مكتبة وهبة.
راجع دكتور/ حمدى حيا الله. الاخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٩٥.
(٥) سورة البقرة الآية (١٨٣).
(٦) سورة البقرة الآية (١٨٥) وراجع د. حمدى حيا الله الاخلاق ص٩٥.

فيقول: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه)[1] فلقد شرط الله لقبوله أن ينهى صاحبه عن الأخلاق الذميمة وبقدر ما يتلوث الصائمون به من سوء الأخلاق بقدر ماينقص من قيمة صيامهم.[2]

وأما الزكاة: فهى حق الفقراء فى مال الأغنياء وتطهير للقلوب وانتصار على غرور المادة، وتأكيد للصلات الإنسانية ونموذج كامل للتكافل الاجتماعى بها تنطبع النفس على البذل والعطاء فيكون التعاون والإخاء طواعية ورضى ولايبتغى المزكى بزكاته إلا شكر الله تعالى لا للترفع على الفقراء ولا الامتهان لهم. إذ هى حقهم ولذلك فإنها إن أصيبت بمن أو أذى فقدت خاصية قبولها فلاتصل بالإنسان إلى الغاية المرجوة[3] ولذلك حين يأمرنا الله تبارك وتعالى بها. يسوغ أمره بآثرها الطيبة فى نفوسنا وفى بنيانا الأسرى والاجتماعى. وحتى فى تسميته لهذا الواجب مايعطى كل المعانى التى يقصد تحقيقها منه. فبذل المال فوق مافيه من تراحم وتعاون وتقوية لأواصر المحبة الاجتماعية. تطهير للنفس من رذيلة البخل والشح وتزكية لفطرتها الخيرة ومن هنا أردفها الصلاة من قوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[4] والغاية من فرض الزكاة التطهير والتزكية وتعليم الرحمة والرأفة بالغير فلقد شرعها الله تطهيرا للمال ولصاحبه من رذائل الشح والبخل ولذلك قال الله فى مقام تشريعها ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[5] ثم يوضح الحق تبارك وتعالى آثرها فيقول ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[6].

أما الحج: فهو الجامع الشامل لأنوار تلك الواجبات وثمارها فيجمع بين عبادتى المال والبدن. فيهذب النفس ويدفعها إلى البذل والعطاء والنموذج الذى يتحقق فيه الطهر الإنسانى، والاجتماع الإنسانى. فالغاية من تأدية فريضة الحج وتحمل مشاقه

(١) وراجع احياء علوم الدين جـ٣ ص ٦٤ للامام الغزالى.
(٢) راجع دكتور أحمد الشاعر مناهج البحث الخلقى ص٤٢.
(٣) راجع دكتور أحمد عبد الحميد الشاعر. مناهج البحث الخلقى ص٤٣.
(٤) سورة البقرة الآية (١١٠،٤٣) من نفس السورة.
(٥) سورة التوبة الآية (١٠٣).
(٦) سورة التغابن الآية (١٦).

هى أيضا التحلى بمكارم الأخلاق فلقد أوصى الله تبارك وتعالى قاصده . بأن يكف لسانه عن الفحش والجدال وسوء المقال. ليس ذلك فحسب بل أمره بالتقوى التى هى غاية الأخلاق ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾[2] فالحج من بين واجبات الإسلام الأساسية طوق النجاة الذى يحمل الإنسان بأمان إلى الشاطئ الآخر. وهو ختام الأمر وبه تمام الإسلام ولهذا نجد القرآن الكريم حين يقدم لنا هذا الواجب وهو مقرون بنفع الإنسانية وصلاحها لايحدد لناهذه المنافع بل يطلقها لتستوعب كل آفاق الخير الإنسانى ولينبهنا إلى أهمية القيام بهذا الواجب وما فيه من خير غير محدود ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[3] فالحج هو الواجب الجامع لأنوار الواجبات الأخرى من صلاة وصيام وزكاة كما أنه يحتوى على امتداد لانهائى من الخيرات والمنافع التى يطلقها القرآن الكريم من غير حصر أو تحديد بزمان أو مكان كما أنه المرآة التى تعكس الصورة الكاملة للاجتماع الإسلامى شكلا وموضوعا يتجلى كل هذا فى قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾[4] فلقد وضح لنا أن الغاية من العبادات هى السمو الخلقى للمسلم كما أن هذه العبادات إذا لم تلازمها أخلاق حميده فاضلة تصبح لافائدة منها وقد أشار فضيلة الشيخ محمد أبوزهره إلى أن العبادات

---

(١) سورة البقرة الآية (١٩٧) . وراجع دكتور محمد البهى الاسلام فى حياة المسلم ص٤٨ ط الخامسة ١٩٧٧م مكتبه وهبه.

(٢) سورة الحج الآية (٣٧) .

(٣) سورة الحج الآية (٢٨) جزء من الآية.

(٤) سورة الحج الآية (٢٦- ٣٠) . وراجع دكتور/ حمدى حيا الله الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٩٦ .

تنتهى إلى نتيجتين أولاهما: الاتجاه إلى تربية الوجدان الدينى الذى يجعل المؤمن بالإسلام مؤتلفا مع غيره ليتكون من هذا الائتلاف مجتمع إنسانى متواد متحاب.

الثانية: أن غاية العبادات فى الإسلام ليست التقوى السلبية لأنها تتجه إلى النفع الإنسانى فى العالم وإلى إيجاد مجتمع متحاب غير متباغض ولامتنازع فعلامة الإخلاص لله فيها أن تكون مطهرة للقلب قاضية على الشرفية مؤلفة بينه وبين الناس من غير مراءاة ولا مغالاة[1] ومن أهم ما تمتاز به العبادات الإسلامية أنها خالصة لله وحده فالمتعبد لايتوجه بعبادته لنبى أو غيره. وإنما يتوجه بها للذى فطر السموات والأرض وهى صلة مباشرة بين الإنسان وربه لاتحتاج إلى واسطة أو وسيلة.

وبهذه اللمحة الخاطفة عن غاية العبادات الإسلامية يتبين لنا ما تهدف إليه من تنمية الشعورالدينى فى الإنسان وتربية ضميره ووجدانه فيندفع إلى الإيجابية فى الحياة وتحقيق ذاتيته وهذه هى طبيعة الأخلاق الإسلامية أخلاق عملية على المسلم الالتزام بتطبيقها لأنها الحل الوحيد والأمثل لكل ما يعترض طريقه نحو تحقيق خيره وسعادته.

كما أنها الإشباع الحقيقى لحاجات الإنسان العقلية والروحية والجسدية كما أنها تفرض الأخذ بها لابالقهر والقوة وإنما بدليل واضح على خيرها وصدقها وهو التطبيق العملى لها فاستقراء التاريخ والواقع يؤكد لذوى البصائر أن سعادة الإنسان مرهونة بهذا التطبيق[2].

وعلى ذلك ندرك أن أخلاقية الإيمان تقوم على أن الإيمان فى حقيقته عمل القلب بالامتثال والاعتراف والتسليم بالحقيقة الإلهية[3] ولهذا بين الله تبارك وتعالى أن الإيمان به بر لأنه من أعمال القلوب الإيجابية والأخلاقية كما أن الشكر على هذا واجب وأداء الواجب أخلاق. ومن ها نجد أن روح العبادة روح أخلاقية فى جوهرها لأنها أداء للواجبات الإلهية كما نجد الأخلاق الإسلامية سائدة فى جميع العبادات كما

---

(١) فضيلة الشيخ محمد ابو زهره- المجتمع الانسانى فى ظل الاسلام. بحث بالتوجيه الاجتماعى جـ٢ ص٦٢ طبع البحوث.

(٢) دكتور حمدى حيا الله الاخلاق ص١٠٠.

(٣) وذلك لأن الاعتراف بالحقيقة فضيلة وعدم الاعتراف بها مكابره وهى خروج عن الخلق الحسن.

قلنا فى الصلاة. قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[1] كما بين الرسول ﷺ أن من لم يتخلق لايقبل الله منه الصوم فقال: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه)[2].

وقال تعالى فى الحج ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[3] وقال فى الزكاة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[4] ومن هنا فقد وضحت السمات التى انفردت بها الأخلاق الإسلامية وقد جمعتها الآية الكريمة فى التقوى والطهارة والتزكية. والتزكية لاتكون إلا بالعمل وهكذا نرى العقيدة تمد العبادة بالقوة والفاعلية، وتكون لها حافزا إيجابيا يضمن استمرارها حتى تؤدى خالصة لوجه الله، ولنقرأ فى ذلك قول الله تبارك وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[5] وفى ضوء هذه الآية الكريمة نستطيع أن نلمح رحلة المؤمن فى الوجود كما تصوره الآية الكريمة من العمل إلى العبادة، ومن العبادة إلى العمل وهو فى كلا الحالين تحت مظلة الله. فالعمل فى الإسلام عبادة خالصة لله رب العالمين. والعبادات فى تنوعها أشبه بقوة معنوية تشد المسلم إلى ربه فى جانبيه: فى روحه وحسه ليظل مرتبطا بالله مصيرا وقدرا من كل ناحية من نواحيه وبذلك تسيطر عليه روح العبودية لله سبحانه، متجها إليه بالقلب والروح والوجدان. والعبادات فى الإسلام تهدف إلى أمور شتى ويمكن إرجاعها جميعا إلى الخصال الأربع التالية:

(١) سورة العنكبوت الآية (٤٥).
(٢) التاج الجامع للاصول فى احاديث الرسول جـ٢ ص٦١. رواه الخمسة الامسلما وقال ﷺ «أحب الأعمال إلى الله أدومها وان قل» فتح البارى- باب القصد والمداومة على العمل جـ١٤ ص٧٨.
(٣) سورة البقرة الآية (١٩٧).
(٤) سورة التوبة جزء من الآية (١٠٣).
(٥) سورة الجمعة الآية (٩، ١٠).

١- إشعار الإنسان بوجود كامل. دائم لايفنى فى مقابل وجود الناقص المحدود المتناهى.

٢- إشعار الإنسان بضرورة أن يربط وجوده بهذا الوجود وأن يسير تحت كنفه وفى رعايته.

٣- تذكير الإنسان بالذات المتصفة بذلك الوجود ومايجب لها من كمال وسمو وطاعة وانقياد وتذلل وخضوع[١].

٤- تقويم سلوك الفرد بالتقوى واصلاح المجتمع بالعمل الصالح.

وهذه الأمور الأربعة متحققة فى كل شعيره من شعائر الإسلام فالصلاة عماد الدين ومعنى ذلك أن لها من هذه الأمور الأربعة النصيب الأوفى فالصلاة هى الصلة بين العبد وربه فهى مناجاة بين العابد والمعبود يقول الرسول ﷺ (إذا قام أحدكم يصلى فـإنه يناجى ربه)[٢] ثم أنه بموالاة العبد على هذه الفريضة خمس مرات فى اليوم والليلة يكون فى ذلك التذكير الكافى للعبد بربه وهذه الموالاة بين الصلوات تجعل العبد دائم الاتصال بربه. فلاتترك له فرصة الانحراف إلى طريق الشيطان وفى هذا تقويم لسلوكه فالصلاة لاتكون محمودة إلا إذا هذبت النفس الإنساينة وطهرتها.[٣] قـــال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[٤] والصلاة فى الأوقات الخمسة المتفرقة فى النهار وطرفى الليل لتجلو صدأ القلوب كلما علاها صدأ فيبتدئ المسلم يومه بصلاة الفجر ويستحضر الله تعالى فيشرق النور فى قلبه ويقدم العمل بقلب سليم ويتعامل مع الناس بتلك النفس الطاهرة حتى إذا أخذ القلب يصدأ أو تعتريه الغفلة عن ذكر الله تعالى كانت الصلاة وهكذا حتى يختم يومه بذكر الله تعالى كما ابتدأه به. والزكاة حق الضعفاء فى مال الأغنياء وهى حق الله للجهاد فى سبيله يبذل جزء من المال لمن

---

(١) راجع دكتور/ محمود مزروعه. الدين وحاجة الانسان اليه ص٢٥٦.
(٢) ولذلك فقد قال الرسول ﷺ «يحب الله العامل إذا عمل أن يحسن» الجامع الصغير جـ٢ ص٢٠٥.
(٣) راجع دكتور/ محمد البهى- الاسلام فى حياة المسلم ص٣٨- ٤٨ ط. الخامسة ١٩٧٧ وهبه.
وراجع دكتور/ محمود محمد مزروعه. الدين وحاجة الانسان اليه ص٢٥٦.
(٤) سورة العنكبوت الآية (٤٥).

يتسحقه، وذلك تقربا إلى الله وهى تزكى النفس كما أنها ذات أثر قوى فى سلوك الفرد فتعمل على تطهير النفس من البخل والشح وتربط بين قلوب المجتمع، و تتجه إلى حماية المجتمع من الآفات الداخلية والاعتداء الخارجى. والصيام يهذب النفس كالصلاة فهو رياضة روحيه ويقوى الإرادة الإنسانية فى قرب العبد من ربه كما أنه تقويم لسلوك المسلم وتقويم لسلوك المجتمع وبذلك يشيع الحب والتراحم والتعاطف. وهذا جماع التقوى.[1]

فشريعة الإسلام هى شجرة مكتملة تؤدى نفعها لخير الإنسانية يتفيأ البشر ظلالها ويأكلون من ثمارها ويستروحون عبير أزاهيرها فشريعة الإسلام تلك الشجرة والعقيدة جذورها، والعبادات ساقها والأخلاق أوراقها. وعلى ضوء ماتقدم نقف على بيان حقيقة الإلزام فى الأخلاق الإسلامية.

الضمير فى اللغة:

ما استكن فى النفس والصدر من السر الذى لايطلع عليه إلا صاحبه[2] يقول صاحب لسان العرب: «الضمير، السر، وداخل الخاطر، والجمع الضمائر، والضمير الشئ الذى تضمره فى قلبك ، وأضمرت فى نفسى شيئا. وأضمرت الشئ أخفيته»[3] وفى القاموس المحيط: «والضمير العنب الذابل والسر وداخل الخاطر، جمعه ضمائر، وأضمره أخفاه»[4] فهو خاصة يصدر بها الإنسان أحكاما مباشرة على القيم الأخلاقية لأعمال معينة فإن تعلق بما وقع صاحبه ارتياح أو تأنيب، وان تعلق بما سيقع كان آمرا أو ناهيا»[5].

---

(١) والحج هو مسك الختام بين العبادات فالحج هو العبادة التى تجمع بين عبادة البدن وعبادة المال. وفيه تهذيب روحى للنفس.

(٢) راجع دكتور/ قنديل محمد قنديل فى العقيدة الإسلامية والأخلاق ص٢٣٧ .

(٣) راجع ابن منظور صاحب كتاب لسان العرب ط دار المعارف.

(٤) القاموس المحيط.

(٥) راجع المعجم الفلسفى – مجمع اللغة العربية ص ١١٠ .

وأما فى الاصطلاح:

فهو تلك القوة الروحية الخفية التى يشعر بها الإنسان فى نفسه تحثه على فعل الواجب وتحسنه له وتشجعه عليه وتبعث فيه الطمأنينة والسرور عند فعل كل حسن نافع، وتهون عليه ما يلقى من الأذى فى سبيل نصرة الحق وأداء الواجب، وهى التى تقبح له القبيح. وتوبخه على عمله ويحس وخزها وبشدة تبكيتها إذا طاوع هوى النفس وعصى تلك القوة أو قصر فى أداء الواجب، ركونا إلى الراحة وطمعا فى لذة قصيرة المـــدى،[1] وذلك لأن الإنسان قد يشتبه عليه فعل الخير والشر فى فعل من الأفعال فيندفع نحو تبين الأمر ولاتهدأ نفسه حتى تنكشف له الحقيقة ثم يحكم على عمله بناء عليها. فإذا ما أدرك أنه خير وحكم بذلك شعر بقوة داخلية تحثه على فعله، وإذا فعله على الوجه الأكمل تولد فى نفسه الشعور بالبهجة والارتياح. أما إذا كان الفعل شراً فإنه يشعرك بتلك القوة الداخلية تأمره بتركه فإذا خالفها وفعله شعر داخل نفسه باللوم والتأنيب ولاتهدأ نفسه إلا إذا ندم وأصلح ما أفسد وعزم على ألا يعود إلى مثل ما فـعل[2] فالإنسان حين يقوم بعمل الخير يشعر بالسرور والرضا والاطمئنان ويشعر أن بداخله من يقول له قد أحسنت ويشعر كذلك بالتأنيب والندم من نفسه إذا فعل أمرا سيئا هذا الشعور الداخلى هو الذى يميز بين الخير والشر ويأمر بالأول ويثب عليه بالارتياح والطمأنينة وينهى عن الثانى ويعاقب على فعله بالتأنيب والندم[3] هذا هو المسمى فى عرف الأخلاق باسم الضمير، فالضمير حاكم والحكم يستلزم محكمة وهى قائمة فى نفس الإنسان فى شخصيته العاقلة يمثلها الضمير الذى يعتبر شارعا و قاضيا ومنفذا[4] وهكذا يبد أن الضمير إحساس يجمع بين السلطات الثلاث السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، والسلطة القضائية فهو مشرع لأنه يبين الخير من الشر ويلزم بفعل الأول وباجتناب الثانى، وهو قاض لأنه يحكم على المحسن بأنه فعل خيرا وأنه يستحق الثواب وعلى المسئ بأنه فعل شرا وأنه يستحق العقاب، وهو منفذ لحكم القضاء لأنه

---

(١) راجع الأستاذ محمد جاد المولى بك – الخلق الكامل ص٣٠٩ جـ٢.
(٢) راجع دكتور/ محمد يوسف موسى. مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٢٤.
(٣) راجع الأستاذ / أحمد أمين فى كتاب الأخلاق ص١١ ط. الثالثة سنة ١٩٣١م.
(٤) راجع الدكتور/ محمد يوسف موسى. مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٢٥.

يجازى فاعل الخير بالارتياح والطمأنينة وفاعل الشر بالتأنيب الذى يؤثر فى النفس حتى يسلمه للندم والتوبة.[1] وهذه القوة التى وجدناها تحكم على أفعالنا وتأمرنا بالخير وتنهانا عن الشر ليس ذلك فحسب بل وتميز بين الخير والشر قد تحدث عنها النفعيون والعقليون واتخذتها بعض المذاهب الأخلاقية مصدرا للإلزام النفسى وعلى ذلك فما مصدرها؟ وما سبب وجودها فى الإنسان. أو بماذا يفسر لنا الأخلاقيون وجود الضمير فى الإنسان؟

يتفق معظمهم على إثبات الضمير كحاكم تعتوره المؤثرات الثلاثة السابقة ولكنهم يختلفون فى تفسيره هل هو قوة فطرية أم كسبية ولهم فى ذلك مذاهب متعددة[2].

أولا: أصحاب مذهب الحاسة الخلقية:-

يرى أصحاب هذا المذهب أن الإنسان يولد مزودا بحاسة خلقيه تميز بطبيعتها بين الخير والشر دون أن تحتاج إلى التفكير والنظر وذلك بمعنى أن الذى يدرك الخلق ويميز بين الخير والشر ويحكم على أعمال الإنسان ويلزمه بها هو حاسة موجوده فيه كبقية الحواس فإذا كان الإنسان يسمع بحاسة الأذن ويرى بحاسة البصر ويشم بحاسة الأنف فإنه تبعا لذلك يدرك الأخلاق ويميز بين الخير والشر بحاسة أخلاقية فطريه أشبه ماتكون بالوجدان[3] ويرى فلاسفة هذه المدرسة بصفة عامة أنه لايصح أن نجعل الحكم على عمل بالخيرية أو الشرارة تابعا لنتيجته وأن ليس من الحق ألا نرى فى النفس الإنسانية إلا بواعث وعواطف ترجع كلها إلى مبدأ الأثرة وحب الذات[4] وعلى هذا يكون الضمير نابعا من داخل الإنسان غريزة فيه كسائر الغرائز والحواس تدرك الخير وتميل إليه وتدرك الشر وتنفر منه وهى كبقية الحواس لاتحتاج فى فعلها هذا إلى

---

(١) راجع دكتور/ محمد يوسف موسى. مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٢٦ بتصرف.
راجع الأستاذ محمد جاد المولى بك – الخاق الكامل جـ٢ ص٣١٦.
راجع الدكتور/ منصور رجب. تأملات فى فلسفة الأخلاق ص٢٢٨.

(٢) راجع المرجع السابق ص٣١٦ جـ٢. الخلق الكامل.

(٣) راجع دكتور/ محمد يوسف موسى مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٢٧.
والأستاذ / محمد جاد المولى بك الخلق الكامل ص٣١١ جـ٢.

(٤) وراجع دكتور/ محمد يوسف موسى تاريخ الأخلاق ص٢٦٤ط الثانية ١٩٤٧.

أمر خارج عنها وهذا المذهب غير صحيح. إذ لو كانت الأخلاق حاسة لكانت كبقية الحواس لايختلف حكمها من شخص إلى شخص كما هو مشاهد لنا من الحواس الخمس الظاهرة حيث لايختلف اثنان فى شئ واحد رأياه أو سمعاه على عكس ما هو واقع فى الحكم الخلقى وكذلك بالنسبة للحواس الباطنة، فإن وجدان ألم الجوع والاحساس به لايختلف فيه جائع عن جائع.

ثانياً: أصحاب المذهب العقلى :

وإذا كان هذا الذى سبق هو الموقف من الذين فسروا الضمير على أنه حاسة خلقية فلننظر إلى أصحاب المذهب العقلى: وهم من يرون أن الضمير الإنسانى ليس حاسة وإنما هو العقل الإنسانى الذى يقدر الأفعال ويحكم عليها بالخير أو الشر ولذلك فقد قالوا إن العقل نور ألقى فى النفس وهو يوجد لدى الناس جميعا ولايحتاج فى عمله إلى الخبرة والتجارب فالوازع الخلقى إنما ينشأ ويقوى بالعقيدة الدينية وبدونه يبقى مجرد شىء نظرى صرف لايغير من واقع الأمر شيئا فالقيمة الخلقية لاتأتى من الفلسفة وإنما تنبع من إيمان الفرد بالعقيدة الصحيحة. ليس ذلك فحسب بل وتمثله لهذه العقيدة فى سلوكه وعمله ، ولعل هذا هو السر الذى جعل الأخلاق تثمر فى المجتمعات المتدينة بالعقيدة الصحيحة وتفشل فى المجتمعات التى ضعفت فيها قوة العقيدة الدينية وأثرها فى النفوس ولذلك كان هناك الضمير الذى وضعه البعض فى قوة مركز العقيدة لتوجيه الأخلاق والتحكم فى السلوك ولكن ما هو الضمير وما مصدره؟

إنه الملكة التى يدرك بها الإنسان القواعد التى فرضت عليه أو بعبارة أخرى هو مشرع فى باطن الإنسان يطالب بالسيطرة المطلقة التى لايحدها قيد ولاشرط[1] ،وبشىء من التأمل يظهر أن الضمير كاد يرقى إلى مستوى الألوهية فهو يتولى السيطر المطلقة على كافة المنابع التى تصدر منها أعمال الإنسان،[2] ولقد بلغ من خطره أن

(١) راجع المجمل فى تاريخ الأخلاق لسد جويك ترجمة الأستاذان توفيق الطويل وعبدالحميد حمدى ص٧٦ نقلا من معالم الأخلاق فى القرآن الكريم للأستاذ محمد السوسى ص٣٦ مقال بمجلة دعوة الحق العدد الخامس السنة العاشرة ذو الحجة ١٩٧٦م.

(٢) المرجع السابق.

يقول الفيلسوف الألمانى «كانت» إن الضمير الخلقى هو العقل العملى وأن العقل فى الواقع ضربان:

أ- عقلى نظرى:

وهو الذى ينقِّرُ عن حقائق الأمور وأسبابها ومصائرها لإدراك العالم المحسوس بالاعتماد على الحس والتجارب ويزن ما يأتيه بنو الإنسان من التجارب وماتنفتق عنه عقولهم من كل مستحدث خيرا كان أو شرا وهذا لايصلح أن يكون أساس للأخلاق لأن الحواس والتجارب كثيرا ما تغفل وتخطئ.

ب- عقلى عملى:

وهو الذى يرتب الأعمال ويجعلها درجات فيضع كلا منها فى الدرجة اللائقة به – ويجعل لها حدودا ورسوما ويميزها بألفاظ ليس فيها إيهام وهذا الضرب من العقل هو مادة الضمير الخلقى الذى يفرق بين صنوف الخير والشر ويبين رتب الخير وما أعد لنا عليها من المثوبة والجزاء[1] فالضرب العملى هو مالا يستند فى معرفته إلى وسائل قد تخطئ وتصيب وعلى ذلك فلينظر أولئك الذين قالوا إن العقل نور ألقى فى النفس ولعل ابرزهم «كانت» لا أظن أن أحدا أعجب بالضمير وجعله فى مركز أسمى من قيمته كما فعل «كانت». لقد رآه ذلك الشعاع الصادر من القوة العليا ومادام هذا الشعاع صادرا من القوة العليا حيث أجده يملأ النفس ولست مصدره فيجب أن أسلم بوجود تلك القوة العليا وهو «الله» وأصدق بخلود الروح وهنا كان إثبات وجود الإله عند كانت تابعا لإثبات ضميره الأخلاقى، هذا النور قوة فطريه ووجوده فى الإنسان لايحتاج إلى نظر ولادليل ولا يتصل بالتجربة ولا عالم المحسوسات المادية. إنه شعاع هبط من القوة المطلقة غير المحدوده، إنه معصوم من الزلل وعادل فى حكمه لايعتريه ظلم. إنه يصدر أمره للإرادة بلا قيد المنفعة فتنفذه ومن هنا فإن الواجب الذى هو مصدر الإلزام عند كانت لايزيد عن كونه صدى لهذا الضمير[2] «فلقد حاول بعض علماء الأخلاق أن ينزعوا من العقيدة الدينية أخص خصائصها وهى توجيه سلوك الإنسان وأن

(١) راجع الأستاذ / محمد جاد المولى الخلق الكامل جـ٢ ص٣١٤.
(١) راجع الدكتور/ محمد ضياء الدين دراسات فى علم الأخلاق ص٦٧.

يعطوها للضمير وحتى إذا اعترفوا للعقيدة بالتدخل فى توجيه الأخلاق اعتبروا الوازع الذى تنشئه تنشئة وازعا خارجيا واعتبروا وازع الضمير وازعا ذاتيا باطنيا وكأن العقيدة توجد خارج الإنسان فما العقيدة الدينية إلا ذلك الشعور الباطنى الذى يسيطر على الإنسان ويملك عليه احساسه ومشاعره مهما تظاهر بالتنكر له أو الافلات من سيطرته،[1] ومن هنا نلاحظ الاسراف الفكرى من كانت فى ضميره الذى لايثبت الله عنده إلا إذا ثبت هذا الضمير أنه جعل التابع متبوعا والإيمان الذى هو مصدرالفضيله جعل الفضيلة مصدره وأدخلنا بهذا الضمير فى الواجب الذى يقلق النفوس بالقنوط منه[2] ومن ثم فإن التلاؤم بين الأخلاق الناشئة عن أوامر الدين وبين الناشئة عن الضمير ليس ممكنا فقط بل إن الدين هو أصل الضمير والعقيدة مركز اشعاع له ونقطة أنطلاقه.

ثالثا: مذهب الكسبيين:

يقول أصحاب هذا المذهب إن الضمير قوة من الشعور الكسبى استفادها الإنسان من المجتمع الذى يستمد منه نظمه وتقاليده بل ومن المجتمع أخذ فكرة الثواب والعقاب الدينيين وارتبط بهما من كل هذا نكون ما عرف فى الأخلاق باسم الضمير وعلى هذا فهو كسب وليد المجتمع ولذلك يختلف باختلاف البيئات والعصور وممن قال بذلك «سبنسر» و«استيوارت ميل» ويوضح هذا الرأى فيقول: أن المرء نشأ عادة فى جماعة لها عرفها وتقاليدها التى تبيح أعمالا وتثيب عليها وتحرم أخرى وتعاقب عليها فكان الناس يألفون الخير ويفعلوه ويكرهون الشر ويحذرونه رغبا ورهبا ثم نما هذا الشعور بوازع الشرائع ثم تطاول الزمن فنسى الناس أو تناسوا الأسباب الأولى الحقيقية لحب الخير والميل إليه وبغض الشر والبعد عنه وزعموا أنهم يفعلون الأول وينأون عن الثانى بدافع نفسى باطنى وهذا مايسمى بالضمير[3] وقد نوقش هذا الرأى بأن الضمير لو كان كسبيا يتفاوت بهذا القدر لاختلف الناس فى أصول الفضائل والرذائل باختلاف البيئات والعصور كما تختلف التقاليد والقوانين وهذا غير مسلم. لاتفاق الناس على

---

(١) راجع الأستاذ / محمد السوسى معالم الأخلاق فى القرآن الكريم ص٧٨. مقال بمجلة دعوة الحق العدد الخامس السنة العاشرة من ذى الحجة ١٩٧٦.

(٢) راجع دكتور محمد ضياء الدين دراسات فى علم الأخلاق ص٦٦. عام ١٤٠١هـ.

(٣) راجع دكتور محمد يوسف مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٤٠.

المبادئ الخلقية الأولى فى كل زمان ومكان وان اختلفوا فى بعض الجزئيات فالناس مجمعون على فضيلة العدل والحب والرحمة وعلى رذيلة الظلم والبغض والقسوة وان كان التطبيق على الفروع والجزئيات قد تتفاوت فيه الأنظار وهذه المبادئ العامة والأصول الأخلاقية الأولى هى التى اعتمد عليها المشرعون فى وضع القوانين والمصلحون فى القيام بالنهضات ولولا مبادئ الفضيلة والرذيلة المتفق عليها مااستطاعوا النجاح فيما يفعلون[1] إن الضمير الذى يقول به الفلاسفة إذا نظرنا إليه على أنه قوة فطرية أودعها الله فى الإنسان معصومه من الخطأ ولايصدر عنها إلا الخير يبدو لنا أنها عندهم لاتقبل التهذيب ولا التربية ولكن هذا غيرحقيقى إذا أنها تضعف من زيادة سيطرة الشهوة وغلبة الجهل وانحراف المزاج وقوة العزيمة وهى أمور تحتاج إلى تربية وتهذيب وإصلاح ومن هنا اختلفت ضمائر الناس ،فقد يعترى الضمير حالات تجعله غير مأمون الحكم صائب القضاء، ولذا كان من الضمائر الضمير المستقيم، والضمير الجاهل والضمير الشاك المرتاب. فالأول هو الذى لم تستطع القوى الأخرى الشهوانية والغضبية أن تلوى عنانه إلى ناحية الشر وتحيله عن جهة الخير.

أما الضمير الجاهل: فهو الضمير الذى يوحى بالشر وهو جاهل أنه شر كالأطفال الذين يعذبون الحيوانات ظانين أنهم يداعبونها، فهم لايفعلون ذلك عن قسوة أو غلظة ممقوته، بل يجهلون أو لايفكرون فى أنهم بهذا الصنيع يعذبونها. وكذلك ما نقل إلينا من أن بعض المتوحشين كانوا يقتلون آباءهم المسنين، حين لايستطيعون إطعامهم معتقدين أن ذلك خير لأنه ينجيهم من عذاب الجوع، وعلاج أمثال هذه الضمائر يكون بتوسيع المدارك العقلية لأصحابها حتى يفقهوا الأمور على وجوهها.[2]

وأخيرا يحدث للضمير الشك والارتياب والتردد والحيرة لا فى معرفة الخير من الشر. بل إذا عرض للمرء واجبات مختلفة يطلب منه الحكم فيها واختيار أحدها. وعلاج هذه الحالة الانتفاع بمشورة ذوى الآراء الحكيمة. ومع هذه الحالات، التى

(١) راجع الأستاذ/ عطيه صقر. دراسات إسلامية ص٣١٦.
(٢) راجع دكتور/ محمد يوسف موسى مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٤٣.

يتعثر فى بعضها الضمير فى أحكامه، فإنه ليس للأخلاقى أن يطلب من أحد إلا إطاعة ضميره، فإن فعل ذلك أصاب وكان خيرا، وليس عليه إذا كان الحكم الذى أصدره الضمير خاطئا لذلك وجب أن يمكّن للضمير من القيام بمهمته السامية على الوجه الأكمل ولايكون ذلك إلا بتربيته وتهذيبه،[1] فإن كل حاسة تخطئ وتصيب وكل نور يلمع ويخفت ولكن أن يكون الحكم واحدا للبريق والخفوت فذلك هو الأمر العجب فى الضمير الأخلاقى.

إن الضمير الأخلاقى يجعل أصحابه من المفكرين يتساوى عندهم من يكرم والده ومن يقلته حيث إن كلا منهما قد أطاع فى فعله صوت ضميره، وهنا أزمة الضمير لا فى تحققها فى الخارج بل فى وجودها عند أصحابها حيث حكم الأخلاقيون على اكرام الوالد بأنه عمل خلقى أطاع صاحبه الضمير وعلى قتل الوالد بأنه عمل أخلاقى حيث أطاع صاحبه صوت الضمير. والعربى الذى كان يسمح له ضميره بقتل بنته ووأدها خشية العار والفقر[2]. ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[3] تغير خلقه وأصبح لابنته عنده شأن آخر، وكل هذا الاختلاف، باسم الضمير، ولست أدرى كيف نسمح بعد كل هذا التناقض وهذا الاختلاف أن نسمح لأنفسنا بجعل الضمير هو القوة الموجهة لأخلاق الناس والحاكمة عليها وهنا نسائل أنفسنا: إذا كان أسمى ما وصل إليه علماء الأخلاق لايصلح للإحتكام إليه ولا للحكم. فمن هو إذن الحاكم الملزم للأخلاق ؟ إنه القلب !!!.

القلب لا الضمير:

إن الضمير كمارأيناه لايصلح حاكما خلقيا، والسؤال الآن ماهو الحكم الخلقى إذن الذى يوجه أعمالنا وهو نابع من داخلنا؟

لبيان ذلك أولا نعود إلى ماقاله صاحب لسان العرب فى حقيقة الضمير[4] لنجد أن الضمير لايخرج عن الأمر الذى يخفيه الإنسان فى نفسه سواء كان هذا الأمر خيرا

---

(١) دكتور/ محمد يوسف موسى – نفس المرجع السابق.
(٢) دكتور/ محمد ضياء الدين الكردى – دراسات فى علم الأخلاق ص٧٠.
(٣) سورة التكوير الآية/ ٩.
(٤) ابن منظور صاحب لسان العرب. وراجع المعجم الوسيط جـ١ ص٥٤٣.

أم كان شرا. فالضمير إذن لايحكم بخيرية ولاشرية وإنما هو ما فى خاطر الانسان وضميره من الأفعال التى يريدها لنفسه أو للناس وقد يكون ما يضمره الإنسان لنفسه لايعود عليه بالخير إلا إذا أضر بالآخرين كالغنى عن طريق غير مشروع. أو يكون ما يضمره للناس شرا من سرقة وقتل وهنا تتغير وجهة البحث من قوة هادية إلى قوة ظالمة وعلى ذلك نرى أن الضمير لايصدر عنه خير ولايصدر عنه شر. بل هو نفس إما الخير وإما الشر. المضمر فى داخل الإنسان والذى عرف فى اللغة العربية باسم الضمير. وهذا الضمير كما نرى عند صاحب اللسان محله القلب فالضمير الشئ الذى تضمره فى قلبك. وهذا المحل إذن هو الذى يجب أن يكون موضوع الحديث فى الإلزام الخلقى وإليه أشار النبى ﷺ بقوله «إن الله تعالى لاينظر إلى صوركم وأموالم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1] وعلى ذلك نرى أن فى كل واحد من المذاهب الثلاثة السابقة فى الضمير جانبا من الحق وجانبا من الباطل : فالضمير كيان يجمع العناصر الثلاثة الفطرة الوجدانية التى تجعل الإنسان يحب الخير وينفر من الشر، والعقل الذى يدركهما، والتجارب الإنسانية التى تمحص إدراك العقل وتهذب شطحات الفطرة، ويضاف إلى ذلك العنصر الدينى الذى يهدى الضمير إلى الحق فيما اشتبه عليه من الخيرات والشرور ويؤكد للإنسان أنه لابد من مراعاة الله ومراقبته[2] والإمام الغزالى يشير إلى ذلك عند الحديث عن محاسبة النفس لتخلص العمل لله فيرى أن نشاط الضمير يظهر فى ثلاثة مواطن:

الأول: قبل الشروع فى العمل وذلك بالنظر فى الباعث عليه هل هو الإخلاص لله، أو لهوى النفس ومتابعة الشيطان. فإن كان لله أمضاه وإن كان لغيره استحيا منه وانكشف عنه.

والثانى: عند الشروع فى العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويخلص النية فى اتمامه وانجازه على أكمل مايمكن.

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة انظر فيض القدير جـ٢ ص٢٧٧.

(٢) راجع دكتور/ قنديل محمد قنديل فى العقيدة والأخلاق ص٢٤٢.

والثالث: بعد العمل وذلك بمحاسبة النفس على ما وقع منها، والنفس المطمئنة الواردة فى قول الحق تبارك وتعالى ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[1] يراد بها تميز الخير من الشر ومـاتثـيب على الأول بالرضا عنه والأطمئنان إليه – أى المطمئنة إلى ربها. المطمئنة إلى طريقها المطمئنة إلى قدر الله بها . المطمئنة فى السراء والضراء. وفى البسط والقبض وفى المنع والعطاء. المطمئنة فلا ترتاب ولاتنحرف. والمطمئنة فلا ترتاع فى يوم الهول الرهيب[2] والنفس اللوامة الوارد فى قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[3] .

هذا التلويح بالقسم مع العدول عنه أوقع فى الحس من القسم المباشر ولذلك كانت النفس اللوامة المتيقظة النقية الخائفة التى تحاسب نفسها وتتلفت حولها وتبين حقيقة هواها وتحذر خداع ذاتها هى النفس الكريمة على الله[4] ومهما يكن من شىء فإن الضمير بالمعنى الذى يريده فلاسفة الغرب قد تحدث عنه علماء الدين الإسلامى وذكروا أن النفس فى بعض حالاتها تؤدى معنى الضمير. ويبين ذلك فضيلة الدكتور محمد عبدالله دراز فيقول: «بل هاهنا ما هو أعظم من ذلك خطرا. يفخر الحكماء بأنهم أكتشفوا للإلزام الأدبى مصدرا آخر، غير الوحى السماوى. ذلك هو النور العقلى أو الإحساس الأخلاقى، الذى ينطوى عليه كل قلب إنسانى ألا فليعلموا أنهم لم يأتوا بجديد غريب عن الإسلام فالقانون الإسلامى فى رجوعه إلى العقل السليم والوجدان النبيل يرجع إليهما باعتبار أنهما شهيدان له فحسب يؤيدان حكمه ويشفعان له عند المخاطبين. بل أنه يقلدهما مقاليد الحكم، ويخولهما حق الأمر والنهى.

فالقرآن الكريم يقرر فى أصرح عبارة أن النفوس كلها قد منحت بفطرتها قوة التمييز بين الخير والشر والعدل والظلم والتقوى والفجور: «ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها» «بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو القى معاذيره» ثم لايكتفى بأن يجعل هذه البصيرة قوة كاشفة معرفة بل يجعلها آمرة ناهية وينعى على من يخالفها

(١) سورة الفجر الآية / ٢٧ .
(٢) راجع الأستاذ/ سيد قطب – فى ظلال القرآن جـ٨ ص٥٧٦ .
(٣) سورة القيامة الآية / ٢ .
(٤) راجع الأستاذ/ سيد قطب – المرجع السابق جـ٨ ص٣٧٩ .

بأنه من أهل الضلال والطغيان «أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون» هذه القضية المنفصلة لاتدع مجالا للشك فى وجوب الخضوع لأوامر الأحلام والعقول، متى أتضح أمامها طريق الحق والخير وكذلك يقول صاحب الرسالة الباهرة صلوات الله عليه «إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من نفسه يأمره وينهاه»[1]

ولذلك فلقد كنت أوثر واحدة من ثلاث القلب أو النفس أو واعظ القلب فقد جاء فى الحديث الشريف عن النبى ﷺ أنه قال «استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وفى رواية أخرى: استفت نفسك وإن أفتاك المفتون»[2] وجاء فى حديث آخر لما سئل رسول الله ﷺ عن البر والإثم قال: «البرما سكنت إليه النفس واطمأن له القلب والإثم ماحاك فى الصدر وخفت أن يطلع عليه الناس»[3] وجاء فى حديث آخر «ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعن جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول: أيهاالناس، هلم أدخلوا الصراط المستقيم جميعا ولاتتفرقوا، وداع يدعو من جوف الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال له ويحك لاتفتحه. فإنك إن تفتحه تلجه: فالصراط الإسلام والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله، والداعى من جوف الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن»[4] بيد أن لكلمتى القلب والنفس معانى مختلفة ولا يصرفها إلى المعنى المراد من الضمير إلا السياق والقرنية المعينة والكلمات الاصطلاحية يجب أن تكون دالة على معانيها دلالة محددوة وكذلك كلمة واعظ القلب لاتفى بجميع ما يعنى من الضمير لأنه عند علماء الأخلاق يوصف

---

(١) الأستاذ/ الدكتور محمد عبدالله دراز. كلمات فى مبادئ علم الأخلاق ص٣٠. عام ١٩٥٣م. والحديث ذكره السيوطى فى الجامع الصغير طـ ص١٧.

(٢) مسند الإمام أحمد جـ٤ ص٢٢٨.

(٣) سنن الدارمى جـ٢ كتاب البيوع – باب دع مايريبك إلى مالا يريبك ص١٦١ ط. شركة الطباعة الفنية المتحدة.

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد فى مسنده والحاكم فى المستدرك «الجامع الصغير» وهو فى أحمد جـ٤ ص١٨٢، ١٨٣.

حينا بالصلاح وآخر بالفساد ، وواعظ القلب لا يكون إلا صالحا[1] وعلى ذلك نرى أن وظيفة هذه القوة الباطنة تتلخص فى أمورثلاثة

أ- التمييز بين الخير والشر.

ب- الاغراء بفعل الأول والتنفير من الثانى.

جـ- الحكم على السلوك أو وضع ثواب على فعل الخير وعقاب على فعل الشر يتمثل الثواب فى الارتياح النفسى والطمأنينة والرضا ويتمثل العقاب فى الامتعاض واللوم والتأنيب. بهذه العناصر يتحقق للإنسان ما أطلق عليه القرآن الكريم اسم البصيره فى قول الحق تبارك وتعالى ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾[2].

إن هذا الحاكم الموجه هو القلب.

يقول صاحب المعجم الفلسفى «أننا لاندرك الحقيقة بالاستدلال العقلى وحده بل ندركها بالقلب أيضا»[3] والقلب يطلق على معنيين أحدهما اللحم الصنبورى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر والثانى هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق، وتلك هى حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الانسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب، ولها علاقة مع القلب الجسمانى، وتعلقها به أيضا هو تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات،[4] ولذلك نرى أن النفس أيضا لها معنيان: أحدهما أن يراد بها المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان.

والمعنى الثانى: هو اللطيفة التى ذكرناها والتى هى الإنسان بالحقيقة وهى نفس الإنسان وذاته ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فإذا سكنت

---

(١) من ذلك كله آثرت استعمال كلمة الضمير ولأنى عثرت على ما يؤيد هذا الاستعمال لغويا فقد جاء فى شعر ابن هرمة يمدح الخليفة المنصور فيقول:

إذا ما أراد الأمر ناجى ضميره ... فناجى ضميرا غير مختلف العقل

راجع أحمد جاد المولى بك. الخلق الكامل ص٣٠٨ جـ٢ . مطبعة حجازى.

(٢) سورة القيامة الآية / ١٤ .

(٣) الأستاذ/ جميل صليبيا - المعجم الفلسفى جـ٢ ص١٩٨ .

(٤) الإمام الغزالى - أحياء علوم الدين جـ٣ ص٣.

أصبحت النفس المطمئنة، وإذا دافعت النفس الشهوانية واعترضت عليها سميت النفس اللوامة لأنهاتلوم صاحبها فى تقصرها فالله تبارك وتعالى أمتحن الإنسان بأن زوده بهاتين النفسين الأمارة واللوامة كما أكرمه بالمطمئنة[1] فاللإنسان بصيره هى التى تساعده على اجتياز الإمتحان: تكون أحيانا أمارة فإذا استطاعت أن تتغلب على الشر وتكرهه تكون نفسا لوامة فإذا ارتفعت وعرفت ربها ورضيت به صارت مطمئنة وهذا هو غاية الإيمان والأخلاق ولذلك نقرر أن هذه البصيرة هى وسيلة مراقبة الله تعالى فى باطن الإنسان ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[2] وهى التى تدفع الإنسان إلى احسان العمل وكأنه يرى الله سبحانه وتعالى. كما أنها تنبه الغافل كما قلنا حينما تهجم عليه الشهوات إلى أن يجاهدها وينتصر عليها لأن الله مطلع عليه ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[3] وهى اللوامة، وهى المطمئنة وعلى ذلك يكون الجواب : إن هذا الحاكم الموجه هو القلب الذى ارتبطت به حياة الإنسان فى الظاهر والباطن ففى الجانب الأول نرى أنه تلك العضلة التى ارتبت بها حياة الإنسان الظاهرة. فهو فى صلاح وصحه مادامت تلك العضلة المسماه بالقلب تؤدى وظيفتها، وهو فى سقم ومرض إن أصابها خلل ويصل إلى الموت أن توقفت. هذه العضلة نفسها، كما ترتبط بها الحياة الظاهرة للإنسان ترتبط بها الحياة الباطنة للإنسان وإذا كانت فى صورتها الظاهرة يدركها الكمال الخلقى ويصيبها المرض العضوى وقد تتوقف فيكون الموت، كذلك يعرض هذا لصورتها الباطنة ولعل هذا ما قصده الرسول ﷺ بقوله الذى يوضح فيه مدى هذه الصلة بين الجانب المادى والمعنوى وهو حديث القلب« ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»[4] وعلى ذلك فإذا ماحاولنا أن نفسر اتصال

---

(١) راجع دكتورة/ سهير فضل الله أبو وافيه – الفلسفة الإنسانية فى الإسلام ص٨٤ ، وراجع دكتور/ مقداد بلجن الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام ص١٦٥.

(٢) سورة الملك ا لآية رقم /١٢.　　(٣) سورة الأعراف الآية/٢٠١.

(٤) صحيح مسلم جـ٣ كتاب الساقاه – باب أخذ الحلال وترك الشهبات ص١٢١٩ إلى ص١٢٢٠ ط عيسى الحلبى. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى.

صحيح البخارى – كتاب الإيمان – باب فضل من استبرأ لدينه جـ١

فتح البارى جـ١ – كتاب الإيمان – باب فضل من يستبرأ لدينه ص١٣٤.

الروح بالنفس فإننا لن نستطيع تفسير ذلك إلا عن طريق القلب فكما ارتبطت الحياة الظاهرة عن طريق ضخ الدم ارتبطت به الحياة الباطنة عن طريق اتصاله بالروح وهنا نجد الارتباط بين الجانبين، فقد روى سعيد بن جبير عن الرسول ﷺ أنه قال «لما دخل الروح فى عينى آدم عليه السلام نظر فى ثمار الجنة فلما دخل الجنة اشتهى الطعام فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة»[1] ومن هنا فقد كانت الروح سببا لحركة الجسم، وبذلك يتأتى لنا أن نضع مركزا يتصل فيه الروح بالجسم ويؤثر كل منهما فى الآخر. ومما يؤيد هذا المعنى أننا نجد أن القرآن الكريم عندما يتحدث عن صلاح الإنسان وفساده فى الحياة الباطنة يحدثنا عن القلب. حيث يقول الحق تبارك وتعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[2] ويقول ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾[3] ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[4] وإذانظرنا إلى هذه الآيات نجدها تتحدث عن أمراض مختلفة تصيب القلوب فمن الجنون بعدم استعمال وظيفة القلب فى الإدراك فى الآية الأولى لأنهم يرون ولا يدركون ويسمعون ولايعتبرون إلى العمى فى الآية نفسها أيضا وإلى عدم استقامة الفطرة فأما الذين فى قلوبهم زيغ وانحراف وضلال عن سوء الفطرة فيتركون الأصول الواضحة التى تقوم عليها العقيدة والشريعة والأخلاق وينغمسون فى الزيغ والضلال، وهو الضلال فى الآية الثالثة كذلك بمثل هذه الطريقة ولمثل هذا السبب يكون هؤلاءالذين لايعملون مطموسى القلوب لا تتفتح بصيرتهم لإدراك آيات الله وهو المظهر الذى ينبئ عن استقرار حقيقة الإيمان فى القلب والقرآن الكريم يثبت ذلك ويقرره ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا﴾[5] ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾[6] فنرى السؤال الأول للإثبات فمرض القلب جدير بأن ينشئ مثل هذا

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ١ ح١٦.

(٢) سورة الحج الآية. ٤٦.

(٣) سورة آل عمران جزء من الآية/ ٧.

(٤) سورة الروم الآية/ ٥٩.

(٥) سورة النور جزء من الآية/ ٥٠.

(٦) سورة المدثر جزء من الآية/ ٣١.

الأثر وما ينحرف الإنسان هذا الانحراف وهو سليم الفطرة إنما هو المرض الذى تختل به فطرته عن استقامتها فلا تتذوق حقيقة الإيمان ولاتسير على نهجه القويم.

والسؤال الثانى للتعجب فهل هم يشكون فى حكم الله وهم يزعمون الإيمان؟!!! وهكذا تترك الحقيقة الواحدة أثرين مختلفين فى القلوب المختلفة. فبينما الذين أوتوا الكتاب يستيقنون والذين آمنوا يزيدون إيمانا إذ بالذين كفروا وضعاف القلوب المنافقين فى حيرة يتساءلون ماذا أراد الله بهذا مثلا وهذه الآيات تفيد أن القلب يصيبه المرض، وقبل المرض تكون الصحة التى يؤثر فيها المزاج وتفسدها الإيقاعات المضلة للفطرة ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] فالإنسان هو الإنسان فى مختلف العصور والبيئات، والأخلاق منوطة به هو وهى عامل حياته ودفعه إلى الأمام وتنظيم حياته وترقية نفسه والارتفاع به، فهى لاتخضع للحواس ولاتستسلم لها لأن مهمتها الأساسية هى التوجيه والترويض للحــواس[2] ليس ذلك فحسب بل هى فى نفس الوقت لاتخرج الإنسان عن طبيعته ورغبته بل تقبل الاستجابة لها فى إطار واضح وحدود صريحة وضوابط مقررة وهى فى نفس الوقت تقوم على قواعد رحبة متسعة تضمن الحرية الشخصية وتحقق الجهود الفردية وتكفل للاجيال المتعاقبة الحياة الطيبة.

وذلك بمعنى أنها تضع الضوابط التى تصون حريته بحيث لايكون عدوانا على حــرية الآخــرين وتضع له الزواجــر والروادع. وليس الإنســان هو الذى يضع هذه الضوابط وإنما يضعها له الدين الحق الذى ينظم حياته،[3] ولقد قررت مفاهيم الإسلام أن كل مورّث يمكن تغيره وهذه مهمة الرسالات السماوية والعقيدة ولكن لاتخضع العقيدة ولا الأخلاق للبيئة ولا للموروثات ولاتتقيد بها لأنها تستمد مقوماتها من مصدر أعلى ... ولذلك نرى أن الإنسان عجينة طيعه بحيث يمكن تشكيله وفق الأصول

(١) سورة الروم الآية/ ٣٠ وراجع دكتور/ محمد ضياء الدين الكردى. دراسات فى علم الأخلاق ص٧٦. سنة ١٤٠١هـ.
(٢) الأستاذ أنور الجندى – مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق ص٨١.
(٣) المصدر السابق ص٧٩.

الصحيحة عن طريق التربية والقدوة وفهم الأصول الإسلامية لدين الله وعقيدة التوحيد.[1] وفى الحديث «كل مولود يولد على الفطرة فإما أبواه يهودانه أوينصرانه أويمجسانه[2] فالقلب إذن يولد صحيحا وقد تدركه الأمراض بعد ذلك.

ونخلص من هذا إلى أن الناس فى أخلاقهم يتبعون مقدار ما فى قلوبهم من نور الحكمة النابعة من الإيمان، وكلام أئمة الأخلاق فى الإسلام يشير إلى هذا والله سبحانه وتعالى يشير فى القرآن الكريم إلى أن للإنسان دخلا كبيرا فى تقوية هذه الحاسة الأخلاقية فيقول ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[3] فالتعبير بالتسوية والهام الفجور والتقوى اشارة إلى عمل الإنسان «فهو قادر على التمييز بين ماهو خير وماهو شر. كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر.

وأن هذه القدرة كامنة فى كيانه يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[4] ويعبر عنها بالهداية تارة: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[5] فهى كامنة فى صميمه فى صورة استعداد ، والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك ولكنها لاتخلقها خلقا لأنها مخلوق فطرة. وكائنة طبعا وكامنة إلهاما ليس ذلك فحسب بل هناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة فى ذات الإنسان. وهى التى تناط بها التبعة فمن استخدم هذه القوة فى تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها وتغليبه على استعداد الشر فقد أفلح ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[6] وهناك أيضا تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه ، توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو فى حقل الخير وفى

---

(١) راجع الأستاذ / أنور الجندى المصدرالسابق ص٨٠.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سورة الشمس الآيات من ٧ – ١٠.
(٤) سورة الشمس الآية: ٨.
(٥) سورة البلد الآية: ١٠.
(٦) سورة الشمس الآية: ١٠.

حقل الشر تلك هى الحرية وهى حرية تقابلها تبعة، وقدرة يقابلها تكليف، ومنحة يقابلها واجب، فالتربية البشرية البعيدة عن هداية الدين لاتضمن للقلب استقامته فى أداء مهمته فالبشر يخطؤن ويصيبون، وقضاياهم ومبادئهم فيها الصحيح وفيها العليل إنهم قد يرضون عن الشر ويرونه فضيلة ويأنفون من الخير ويعدونه رذيلة وذلك تبعا لمؤثرات مختلفة ذاتية أو خارجية ومن هنا ندرك رحمة الله بالإنسان حيث لم يتركه لاستعداد فطرته الإلهامى ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف فأعانه بالرسالات التى تضع له الموازين الثابتة الدقيقة وتكشف عن موحيات الإيمان ودلائل الهدى فى نفسه وفى الآفاق من حوله وتجلو عنه غواشى الهوى فيبصر الحق فى صورته الصحيحة..[1] وبذلك يتضح له الطريق وضوحا كاشفا لاغش فيه ولاشبهة فتتعرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذى تختاره وتسير فيه ومن هنا ندرك ما قرره القرآن الكريم فقد ذكر الحق تبارك وتعالى أنه خلق الناس من نفس واحدة وقد وصف هذه النفس بعدة أوصاف منها النفس المطمئنة ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[2] ووصفها مرة أخرى بالنفس الموسوسة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾[3] ومرة ثالثة بالنفس اللوامة ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[4] ومرة رابعة بالنفس الأمارة بالسوء ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[5] وهذه الآيات تفيد أولاً أن النفس واحدة ولكن لها حالات وصفات متعددة.

ثانيا: ترتيب الآيات بهذه الصورة يؤكد أن النفس فى حالتها الفطرية الطبيعية المستقيمة على منهج الله تكون مطمئنة ومستقرة ولكن فى بعض الحالات تأتيها خطرات الخروج على هذه الحالة وتوسوس للإنسان بالشر فإذا خضع الإنسان لهذه الوسوسة وعقد العزم على ارتكاب الشر أو ارتكبه فعلا فإنها تستفيق من الغفلة وتلوم

(١) راجع دكتور/ محمد البهى الإسلام فى حياة المسلم ص٢٧٣ ط الخامسة عام ١٩٧٧ وهبه.
(٢) سورة الفجر الآية/ ٢٨.
(٣) سورة ق الآية/ ١٦.
(٤) سورة القيامة الآية / ٢.
(٥) سورة يوسف الآية/ ٥٣ وراجع مقداد بلجن ص١٦٧.

نفسها فإذا استمرت فى هذا الخضوع تنسى ربها وتصبح أمارة بالسوء وإذا وصلت إلى هذه المرتبة اتخذت إلهها هواها فلا تستطيع بعد ذلك فكاكا إلا برحمة من الله ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[1] ولأهمية هذه القوة فى صلاح الإنسان يقول الحق تبارك وتعالى ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2] وعلى ذلك فالقلب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح... فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نور. وأما القلب الأغلف فقلب الكافر.

وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر ..

وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه[3] فالقلب الأجرد الذى يزهر فيه مثل السراج هو ذاك القلب الذى تفتح واستنار بالقيم الإيمانية القائمة فى أساسها الأول على مراقبة الله وتذكره فى كل الأحوال قبل العمل وفى أثنائه وبعده فالتربية على أساس العقيده تجعل القلب دائما مملؤا بخشية الله مستضيئا بالقيم الإيمانية بكل ما تشتمل عليه وأصبح من حقه الحكم على الأعمال بالخير أو الشر وهو وحده الذى ينطبق عليه حديث «وابصة» الذى رآه علماء الأخلاق من المسلمين يشابه الضمير فى الفلسفات المختلفة روى أحمد فى مسنده عن وابصة بن معبد قال: (أتيت رسول الله ﷺ وأنا أريد ألا أدع شيئا من البر والإثم إلا سألته عنه وإذا عنده جمع فذهبت أتخطى الناس فقالوا: إليك ياوابصة فقلت أنا وابصة دعونى أدنو منه فإنه من أحب الناس إلى أن أدنو منه فقال لى ادن ياوابصة، ادن ياوابصة فدنوت منه حتى مست ركبتى ركبتيه فقال: «ياوابصة أخبرك ماجئت تسألنى عنه أو فقلت: يارسول الله فأخبرنى. قال جئت تسألنى عن البر والإثم (قلت نعم فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكث بها فى صدرى ويقول: ياوابصة : استفت

(١) سورة الفرقان الآية / ٤٣.
(٢) سورة الشعراء الآية / ٨٨ ، ٨٩.
(٣) مسند الإمام أحمد جـ٣ ص١٧.

نفسك البر ما أطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس. والإثم ماحاك فى القلب وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك)[١] هذا الحديث يضعه علماء الأخلاق على أنه كلام عن الضمير وكأنهم خافوا على أنفسهم إن قالوا: القلب أن يخرجوا عن دائرة الفكر الفلسفى ولو تأملوا فى الإطلاق لوجدوا أن الفرق بينهما شاسع جدا. إن القلب الذى وصل إلى هذه المرحلة لايمكن أبدا أن يكون هو الضمير الذى تحدث عنه أصحاب الفكر الفلسفى إذ حكم هذا القلب لايمكن أن يختلف أبدا من زمان إلى زمان ولا من مكان إلى مكان ويبين ذلك الاستاذ «أندريه كريسون» فيقول «إن الناس فى كل العصور وفى جميع الأقطار يستشيرون ضمائرهم ولكنها لاتسمعهم جميعا لحنا واحدا إذ أن ما يظهر عدلا وخيرا لبعض النفوس المخلصة فى عصر خاص لايظهر عدلا ولاخيرا لنفوس أخرى هى أيضا مخلصة ولكنها عاشت فى عصر آخر أو مكان آخر»[٢] ويضرب لنا الأستاذ أندريه كريسون الأمثلة الكثيرة. «ففى العصور القديمة اليونانية كان نظام الرق مشروعا وكان من الطبيعى أن يباع الرجال والنساء والأطفال وأن يعاملوا معاملة السوائم»[٣] ثم تغير هذا المفهوم بعد ذلك فيما تلا من العصور بل وأكثر من ذلك أننا عندما نوازن بين أحوال الضمير فى العصر الواحد فى أقطار مختلفة فإننا نجد فروقا لاتكاد تحصى ولاتعد ويترتب على هذا أيضا أن يكون القانون الأخلاقى غير عام ولا ثابت لأنه يختلف من بيئة إلى بيئة بل يمكن أن نتدرج فى النزول حتى نفسر كل عمل يصدر عن الإنسان مهما كان سيئا بأنه عمل أخلاقى لأنه صادر عن ضمير إذ لايكفى فى هداية البشر وحده لأنه بغير تربية الدين يزل كثيرا ليس ذلك فحسب بل وبالتربية الدينية لايصل إلى درجة العصمة من الخطأ وبهذا لايصلح وحده هاديا للناس وإذا كنا نرى ذلك فى ضمير مهذب بأدب الدين فكيف بالضمير الذى لايعرف للإيمان طعما ولايقيم لتعاليم الدين وزنا ولكن القلب الذى استنار ليس كذلك، إن حكمه لايختلف من بيئة إلى بيئة ولا من زمان إلى زمان، فإذا استنار القلب صار

(١) مسند الإمام أحمد جـ٤ ص٢٢٨ وورد برواية أخرى فى صحيح مسلم جـ١٦ كتاب البر ص١١٠.
(٢) راجع الكاتب اندريه كريسون. المشكلة الأخلاقية والفلاسفة - ترجمة الدكتور عبدالحليم محمود والأستاذ / أبو بكر ذكرى ص٢٣ ط الثانية.
(٣) نفس المرجع السابق.

حكمه واحدا سواء كان غربيا أم شرقيا أنه لايصدر عنه إلا حكم أخلاقى واحد لايمكن أن يختلف أبدا تحت تأثير أى ظرف من الظروف لأنه لايستمد حكمه من معرفة بالقيم. بل هو صادر عن إيمان بتلك القيم ويبين ذلك فضيلة أستاذنا الدكتور/ عبدالحليم محمود فيقول «يريد بعض الناس أن يجعل أساس الأخلاق الضمير بيد أن ذلك خطأ بين ، فالضمير يربى ويكون وتربيته ولونه هما شكله، ونزعته واتجاهه الذى يتكيف بحسب الثقافة والبيئة والعصر والوسط»[1]

ومن الشبه التى جعلت الناس يؤمنون بمنزلة كبرى للضمير ويرفعونه أنه قد شاع بين بعض الطوائف: أن الضمير قوة فطرية معصومة بطبيعتها ولكن هذه الدراسة السابقة تؤدى بنا لا محالة إلى أن الضمير قوة فطرية حقا ولكنها غير معصومة لأنها تربى وتتلون فيما تتعلق باللون الذى تتخذه فالضمير يصنع كما تصنع المزيفات وهو أذن مقياس خاطئ[2] فهى وإن كانت قوة فطرية إلا أنها تتلون بحسب ما تتغذى به.

ولذلك ترى أنه قد اعتاد الذين يستثقلون ظل الدين وتبعاته أن يتواروا من مواجهة هذا الحق، وأن يختصروا الطريق قائلين إن السلوك المستقيم إنما يأتى من يقظة الضمير، فالضمير وحده كاف فى حمل صاحبه على اتباع سبيل الحق وردعه عن الانحراف إلى الباطل، ولست أجد كلام الفساد فيه أوضح وأظهر من هذا الكلام إذ الجميع يعلم أن الضمير حتى ولو انتبه واستيقظ – إنما هو حاكم ومقرر لا أكثر والكل يعلم أن سلوك الإنسان فى الحياة لايخضع لمجرد الحكم والتقرير وإنما هو يخضع فى غالب الأحيان للدوافع النفسية القائمة بين جنبيه وهى دوافع تستقى قوتها من ظروف المجتمع وأحواله ومغرياته فكم من كذوب وهو يعلم فى كل ساعة أن الكذب أمر لاينجى صاحبه ومع ذلك يقول الضمير وليس ما نقوله هنا مجرد دعوى بدون دليل فلقد تضافر وتعاون كل من الضمير والقانون الوضعى وسلطة القضاء لاخضاع الناس لحكم الضمير فلم يستطع كل ذلك أن يتغلب على دوافع النفس وأهوائها. وظلت الجرائم

(١) دكتور/ عبدالحليم محمود كتاب الرسول ﷺ ص ١٢٩ط مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٢م.
(٢) دكتور/ عبدالحليم محمود. نفس المرجع السابق. وراجع دكتور يوسف القرضاوى – الإيمان والحياة ص٢٢٠ ط. السابعة ١٩٨٠م.

كلها ترتكب تحت سمع الضمير والسلطة والقانون وعلى ذلك يكون المعنى أن أولئك يتوارون ويرتكبون، وهؤلاء يظلون يلاحقون ويعاقبون فالوضع الصحيح إذن – بالنسبة لأساس الأخلاق أن نلجأ إلى الدين نستمد منه الهداية والإرشاد فإنه وحده المعصوم[1] وعلى ذلك يتبين الحق الذى لايمترى فيه عاقل وهو أن الدين الإسلامى قد أتى فى الجانب الأخلاقى بكل ما تتطلبه النفوس المرهفة والأفئدة المتعطشة للاستقامة فالعاصم الوحيد الذى يمكنه أن يحجز الإنسان من الانحراف إنما هو أن تقوم محكمة تامة برئيسها اوأعضائها فى داخل الفؤاد. ولن نجد هذه المحكمة مهما حاولنا إلا فى العقيدة الإسلامية إذ تغرس بعناية فى الفؤاد فهى التى تغذى الدوافع النفسية حتى تروضها ثم تتولى هى القيادة. وعلى ذلك نرى أن الأخلاق الإسلامية لاتتأتى بالرقابة من شخص على شخص ولا من هيئة على هيئة وإنما هى رقابة الإنسان لربه ونضج الضمير الدينى عنده وعلى ذلك تكون صلة الدين بالضمير هى صلة هيمنة وتوجيه وإرشاد تستمر مدى الحياه وإذا مازالت وانتهت هذه الهيئة فى أى فترة من فترات الحياة فإن الضمير يختل اتزانه ويتأرجح ويتذبذب لأنه يحتاج باستمرار إلى القائد المربى وليس القائد المربى إلا الدين،[2] ولقد أثر عن أحد الحكماء قوله: إن ضميرا بلا اعتقاد فى الله محكمة بغير قضاة وعلى ذلك فإذا أردنا للإنسانية خيرها. وللقيم بقاءها وعدم الأختلاف عليها من ضمير إلى ضمير فلنرجع إلى الإيمان[3] بكل مايشتمل عليه من قيم غيبية أو خلقية ولايكون ذلك إلا فى القلب فهو محل الإيمان بكل القيم بمعناها الواسع الشامل.

---

(١) دكتور/ يوسف القرضاوى – الإيمان والحياة ص٢٢٠.
(٢) المرجع السابق – بتصريف مع تقديم وتأخير.
(٣) راجع دكتور. محمد البهى – الإسلام فى حياة المسلم ص٢٠٤ ط الخامسة مكتبة وهبه.

الإلزام الخلقى فى الإسلام

تبين من خلال دراستنا أن القلب هو الذى يستطيع أن يحكم على أعمال الإنسان بالخير أو بالشر، لأن الإنسان كما بينا فيه قوة أخلاقية يدرك بها ما هو حسن وجميل من سلوك وما هو قبيح وضار وأنه إذا صلح القلب وصل إلى أن يكون نورا هاديا يكشف عن الخير ويوضح الشر ويبين الحلال والحرام لذا فإن القرآن الكريم يبين أن الإنسان يستطيع أن يدرك من تلقاء نفسه[1] الخير والشر وأن يميز بينها وهذا هو دور القلب البشرى فالقلب ليس قوة مهيأ للتلقى السلبى فحسب بل إنه قوة من شأنها أن تميز بين الصالح والطالح بين الضار والنافع بين ماينبغى فعله ومالا ينبغى إتيانه، ومن ثم تطمئن النفس إلى السلوك الجميل الذى يدفعه إلى الإلتزام بالأول والإبتعاد عن الثانى مصداق ذلك قول الرسول ﷺ (البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس، والإثم ماحاك فى القلب وتردد فى الصدر وان أفتاك الناس)[2] وقال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[3] ولذلك فالقلب لايعيش فى عزلة عن العقل بل هناك تشابك عضوى بينهما ولون من الوحدة والإتساق وبهما معا تكمل وتتم شخصية الإنسان[4] وليس ماأقوله هنا مجرد دعوى بدون دليل، فالإنسان لايدرك الحقيقة بالإستدلال العقلى وحده بل يدركها بالقلب.[5] أيضا. ولهذا كان الواجب فى الإسلام مختلفا تبعا لاختلاف مايتعلق به فهو واجب محدد الجزئيات واضح القسمات والسمات، فمثلا إذا كانت الغريزة تدفع الإنسان إلى التمتع بملاذ الحياة والنفس فإننا نجد أنه قد انقسمت المذاهب إلى اعتبار أن هذا هو الأخلاق فعلا فى مذهب اللذة. وأنه بعيد عنها كل البعد فى مذهب الواجب.

---

(١) المراد بالنفس هنا هى الواردة فى قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ الشمس من الآية ٧- ١٠.

(٢) مسند الإمام أحمد جـ٤ ص٢٢٨ صحيح مسلم جـ٤ ك٤٥ جـ١٥.

(٣) سورة ق الآية (٣٧).

(٤) راجع الاستاذ محمد جواد مغنية- فلسفة الأخلاق فى الإسلام ص٥٩ عام ١٩٧٧ ط بيروت.

(٥) راجع الاستاذ جميل صليبيا المعجم الفلسفى جـ٢ ص١٩٨.

ونرى الإسلام يحكم بواجبيه هذه اللذة عن طريق الإعلاء لها والارتقاء بها. فبدلا من أن تشبع اللذة عن طريق الغريزة البهيمية توضع فى إطار يليق بالإنسان بل ويضعها فى حكم الواجب. وتوجيهها وفقا للمثل العليا التى رسمها أمام الإنسان والتى تدعو إلى عدم إتباع الهوى والشهوات وتدعو إلى التقرب إلى الله بالتسامى الروحى[1]. فإذا فرضنا أن الإنسان تدفعه الشهوة فإن الإسلام لايمنعه منها ولكن يبين له أين يضعها إنه إذا دفعته الغريزة إلى الشهوة فإن الإسلام يحكم هنا وجوب الزواج يقول الرسول ﷺ (يامعشر الشباب من إستطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[2] فالأخلاق فى مفهوم الدين الحق المنزل من عند الله ضوابط وكوابح لتزكية النفس وترويض الغرائز والسمو بها[3] ومن هذا الوجوب يعتبر الإلزام فى السلوك الخلقى الذى يؤدى إلى إبقاء النوع وتحسينه سلوكا أخلاقيا ومن هنا شرع الزواج وكرهت الرهبنة، وإذا كان حب الذات يدفعه إلى طلب الغنى والمال ، فإن الإسلام لايمنعه ذلك وإنما يبين له الطريق الذى يجب أن يتبع فمن حقه أن يتمتع وأن يكون ذا ثراء عريض ولكن ليس من حقه الحصول على الغنى عن طريق الإضرار بالآخرين[4] حيث يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[5] - ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[6]

وعلى ذلك ندرك قيمة الإلزام الذاتى فى الآية الأولى فقد ورد فى الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال (إنما أنا بشر، وإنما يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن

(١) راجع دكتور مقداد يلجن. الإتجاه الأخلاقى فى الإسلام ص١٢٥ .
(٢) صحيح البخارى جـ٧ ص٣ كتاب النكاح باب من لم يستطع الباءة فليصم.
(٣) راجع الأستاذ أنور الجندى مفاهيم فى العلوم الإجتماعية والنفس والأخلاق ص٧٤ .
(٤) دكتور محمد ضياء الدين دراسات فى علم الأخلاق ص٨١.
(٥) سورة البقرة الآية ١٨٨ .
(٦) سورة البقرة الآية (٢٧٥) .

يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من نار فليحملها أو ليذرها) وهكذا يتركهم لمايعلمونه من حقيقة دعواهم فحكم الحاكم لايحل حراما، ولايحرم حلالا، وإنما هو ملزم فى الظاهر وإثمه على المحتال فيه، وهكذا يرتبط الأمر فى التقاضى وفى المال بتقوى الله[1] وفى الآية الثانية ندرك التهديد الحسى البالغ فى الشدة[2] وهكذا فى كل مايتعلق بالبدن نجد أن الإسلام لايلغيه ولايهمله وإنما يجعل متطلباته فى نطاق الواجب المحاط بأسرار الحفظ لصاحبه ولمن يعيشون معه، إذن فهذا الإلزام يستمد قوته من عناصر الإيمان والعمل بمقتضى هذا الإيمان،[3]

ولذلك نرى أن الإلزام الخلقى معيار مطلق يعم ويشمل الإلزام بكل خير دون إستثناء ويخاطب جميع الناس فى كل زمان ومكان وعليه فمن يفعل الخير لوجه الخير بفطرته دون أن ينتبه إلى هذا الإلزام فقد أدى إليه طاعته لأن الإلزام هنا وسيلة للعمل وليس غاية فى نفسه. فلو قلنا إن الإلزام قانون ، فمن شأن القانون أن يضع القيود ويرسم الحدود ولكن إذا التزم الإنسان تلقائيا بكل حد وقيد وبعد عن القانون فقد خرج عن العهدة والمسئولية بل هو الأفضل والأكمل لأنه لم يخرج عن الطبيعة الفطرية ولم يحتج إلى منبه أو موقظ وذلك بمعنى أنه قد وضع القيود والحدود بنفسه لنفسه[4] ومن هنا تعددت أنواع الإلزامات التى توجب الإلتزام بالأخلاق الفاضلة تبعا لإختلاف البشر فى سلوكهم حيث نرى فى قمتهم الفاضلة أولئك الذين يؤدون العمل لذاته ولايطلبون أكثر من رضا ربهم حيث يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[5] فنرى الآيات ترسم سمات هؤلاء الأبرار فى عبارات كلها انعطاف ورقة وجمال وخشوع تناسب ذلك النعيم النهائى الرغيد، فهى صورة مضيئة شفافة لقلوب مخلصة عازمة على الوفاء لله

---

(١) راجع الأستاذ سيد قطب- فى ظلال القرآن جـ١ ص٢٥٢ .
(٢) المرجع السابق جـ١ ص٤٥٧ .
(٣) راجع دكتور محمد ضياء الدين- دراسات فى علم الأخلاق ص٨٢ ط مؤسسة الرسالة للآلة الكاتبة عام ١٤٠١هـ.
(٤) راجع الاستاذ محمد جواد مغنيه «فلسفة الأخلاق فى الأسلام ص٦١ بتصرف» .
(٥) سورة الأنسان الآية (٨، ٩) .

بتكاليف العقيدة مع رحمة وإيثار على النفس وخشية لله.[1] وذلك بمعنى أن ينبع الإحساس بالخير والواجب من معين النفس والوجدان الذاتى لا ينتظر صاحبه عليه أجرا غير طمأنينة القلب ورضا النفس والإحساس بالسعادة والغبطة النابعة من الشعور بعمل الخير لذاته والإتصاف بالفضائل لذاتها[2] فهى تصور شعور البر والعطف والخير ممثلا فى إطعام الطعام مع حبه بسب الحاجة إليه. فمثل هذه القلوب التى تؤثر على المحاويج على إختلاف أنواعهم فهم يطعمون الطعام بأريحّية نفس ورحمة قلب وخلوص نية واتجاه إلى الله بالعمل يحكيه السياق من حالهم، ومن منطوق قلوبهم، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا﴾[3]

والطبقة الثانية تعمل ذلك طلبا للثواب والأجر ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4] فترى الدستورالإلهى لايبدأ بالفرض والتكليف، إنما يبدأ بالحض والتأليف للكيان الإنسانى كله فيعرض هذه الصورة الموحية مثلا للذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله وذلك فى موكب الحياة النامية حيث يتجه بالقلب البشرى إلى البذل والعطاء إنه لايعطى بل يأخذ وإنه لاينقص بل يزيد وهذا الأنفاق ينبعث عن أريحية ونقاء ويتجه إلى الله وحده إبتغاء رضاه[5] ومن هنا تتوجه الآيات الكريمة بالحكم العام لكل منفق لوجه الله. ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[6] ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[7] فالتعبير هنا يصور أداء هذه الطاعات فى صورة حسية حركية يصوره سباقا إلى هدف. أو جائزة تنال. ثم يأخذ فى بيان صفات المتقين فهم ثابتون على البذل، ماضون عى النهج، لاتغيرهم السراء ولاتغيرهم الضراء والسراء لاتبطرهم

(١) الأستاذ سيد قطب– فى ظلال القرآن ص٣٩٢، ٣٩٧ جـ٨.
(٢) راجع الأستاذ محمود الشرقاوى– الدين والضمير ص١٧٢ ط بيروت.
(٣) سورة الأنسان الآية (٩).
(٤) سورة البقرة الآية (٢٦١)، وراجع سيد قطب «فى ظلال القرآن جـ١ ص٣٩٨».
(٥) راجع الأستاذ سيد قطب– فى ظلال القرآن جـ١ ص٣٩٨.
(٦) سورة البقرة الآية ٢٧٤.
(٧) سورة آل عمران الآية: ١٣٣.

فتلهيهم والضراء لاتضجرهم فتيئسهم إنما هو الشعور بالواجب فى كل حال والتحرر من الشح والحرص ومراقبة الله وتقواه... ومايدفع النفس الشحيحة بطبعها المحبة للمال بفطرتها. مايدفع النفس إلى الانفاق فى كل حال إلا دافع أقوى من شهوة المال وربقة الحرص وثقل الشح، دافع التقوى، ذلك الشعور اللطيف العميق الذى تشف به الروح وتخلص.[1]. ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2] فالذين يجودون بالمال فى السراء والضراء محسنون. والذين يجودون بالعفو والسماحة بعد الغيظ والكظم محسنون، والله يحب المحسنين ومن حب الله للإحسان وللمحسنين ينطلق حب الإحسان فى قلوب أحبائه وتنبثق الرغبة الدافعة فى هذه القلوب فليس هو مجرد التعبير الموحى ولكنها الحقيقة كذلك وراء التعبير[3] فهى أخلاق الفطرة أى أخلاق الإنسان الكامل الذى لم يدنس ولم تشوه فطرته الشهوات والنزوات.

والطبقة الثالثة: وهم من يلتزمون بالأخلاق الفاضلة لما فى ذلك من راحة نفس وهدوء بال وإستقرار فى الحياة الإجتماعية، قال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[4] فكلمة الدعوة حينئذ هى أحسن كلمة تقال فى الأرض وتصعد فى مقدمة الكلم الطيب إلى السماء ولكن مع العمل الصالح الذى يصدق الكلمة مع الإستسلام لله وليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ فهو إنما يتقدم بالحسنة[5] ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[6] وهناك أخرون لايلزمهم بالأخلاق الفاضلة إلا التهديد والوعيد، فهم فى أحط دركات الإنسانية ولذلك أيضا وضع لهم الإسلام مايلزمهم من فضائل ويقوم منهم الأخلاق ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ

(١) راجع الأستاذ سيد قطب- فى ظلال القرآن جـ٢ ص٧٧.
(٢) سورة آل عمران الآية (١٣٤).
(٣) راجع الأستاذ سيد قطب- فى ظلال القرآن جـ٢ ص٧٨.
(٤) سورة فصلت الآية ٣٣.
(٥) الأستاذ سيد قطب- فى ظلال القرآن جـ٧ ص٢٤٠.
(٦) سورة فصلت الآية (٣٤) وراجع الدكتور محمد ضياء الدين دراسات فى علم الأخلاق.

أليم ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[1] فنرى رسم المشهد هكذا فى تفصيل وعرض ليطيل المشهد لدى العقل والحس وهى إطالة مقصودة ثم بين الحق سبحانه وتعالى ذلك حيث يقـــول: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[2] ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[3] وقـال تعـالى ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[4] ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾[5] وعلى ذلك نرى أن الإلزام الخلقى قـانون طبـيعى والدليل على صحة مانذهب إليه أن الإسلام نظر إلى الإنسان بكل مكوناته وأعطى لكل عنصر من عناصره ما يتطلبه وما يميل إليه ولم يهمل جانبا من جوانبه هذا من ناحية كما أنه من ناحية ثانية فالناس على مستويات مختلفة من الإدراك وعلى ذلك فالطبيعة الإنسانية متعددة الخصائص ويرجع بعض ذلك إلى التكوين المادى وبعضه الآخر إلى التكوين النفسى والروحى والعقلى وبعضه إلى العلاقة القائمة بينهما وبعضه إلى الكيان الكلى للإنسان فهو أمشاج من هذا كله ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[6].

وعلى ذلك نرى مما تقدم أن الواجب الإنسانى والإلزام الخلقى هو قانون تكوينى طبيعى يهيب بالإنسان إلى عمل الخير، ومبدأ إلهى عقلى ينذر ويحذر من الانحراف إلى الشر وما أنكر من أنكر هذا الإلزام إلا لكى يتحرر من الخير والفضيلة ويفلت من القيود والحدود، وإلا ليحقق رغبة فى الضياع والفوضى وإشباع الغرائز الحيوانية.[7]

---

(١) سورة التوبة الآية (٣٤، ٣٥) وراجع الأستاذ سيد قطب- فى ظلال القرآن جـ٤ ص٢٠٩.

(٢) سورة الأنعام بعض من الآية (٩٣).

(٣) سورة الأعراف جزء من الآية (١٦٥).

(٤) سورة الكهف الآية (٥٩).

(٥) سورة النحل الآية (٨٨).

(٦) سورة الأنسان الآية (٢، ٣) راجع دكتور مقداد يلجن الاتجاه الاخلاقى.

(٧) راجع الأستاذ محمد جواد مغنيه- فلسفة الأخلاق فى الإسلام ص٦٣.

بين الإلزام والإلتزام:

الإلزام: يكون من سلطة عليا تأمر وتنهى، وهى أيضا تمدح وتوبخ وتراقب وتحاسب المنحرفين فى سلوكهم عن الصراط المستقيم[١] وهو أيضا قانون الحرية، ولا معنى له إلا إذا أوجب الإنسان على نفسه فعل الشئ أو عدم فعله من ذاته وبملئ حريته.[٢]

أما الإلتزام: فهو التقيد والتعبد بهذا الواجب أى بالواجبات وترك المحرمات[٣] والتزام الشئ أو العمل أوجبه على نفسه، والملتزم هو الشخص الذى يوجب على نفسه أمرا لايفارقه، ومنه العقل الملتزم وهو العقل الذى ينظر إلى ماتتضمنه أحكامه من النتائج الأخلاقية. ليس ذلك فحسب بل من شرط هذا الإلتزم أن يكون له غاية خلقية وأن يكون مبنيا على مبدأ يقبله المرء بإرادته العاقلة.

ولذلك كان معنى الإلتزام قريبا من معنى الإخلاص والصدق والإستقامة[٤] وعلى ذلك فلاغنى عن مبدأ الإلزام والإلتزام لاية أسرة أو جماعة تعيش حياة مشتركة فهو العهد والميثاق الذى يضمن بقاءها ويصونها من الفوضى والانحلال، بل هو الأساس والقاعدة والمدار الذى يدور حوله كل النظام الأخلاقى، والذى يؤدى فقده إلى سحق جوهر الحكمة العملية ذاته وفناء ماهيتها ذلك أنه إذا لم يعد هناك إلزام فلن تكون هناك مسئولية وإذا عدمت المسئولية، فلا يمكن أن تعود العدالة ، وحينئذ تتفشى الفوضى ويفسد النظام وتعم الهمجية، لا فى مجال الواقع فحسب، بل فى مجال القانون

---

(١) راجع الأستاذ محمد جواد مغنيه- فلسفة الأخلاق فى الإسلام ص٥٧ ط الأولى عام ١٩٧٧ بيروت، وراجع الأستاذ أحمد زكى تفاحة الإسلام عقيدة وشريعة ص٢٩٧ ط الأولى ١٩٧٩ بيروت.

(٢) وذلك بمعنى أن السلطة التشريعية هى السلطة الملزمة للإنسان وليس هناك مصدران للإلزام الخلقى. فإذا كان العقل نورا فإنه يتسمد نوره من النور الأعظم وليس بين النورين تناقض وعلى ذلك «نرى أن وجود قوانين الإلزام والالتزام لاتنفى الحرية بل لاتوجد حرية إلا بوجود القانون. وذلك ان المحاضر مثلا ملتزم بمنهج يقوم بالعمل به لكنه حر فى إختيار الأسلوب الذى يعبر به ليس ذلك فحسب بل وفى اختيار الطريقة التى يراها جيدة ومناسبة لتوصيل المعلومات إلى الطلبة. وعلى ذلك فكلما وجدت القوانين وجدت الحرية والعكس.
ذلك أن الحرية المطلقة والتى هى الإمتناع المطلق أو القبول المطلق هذه الحرية لا وجود لها معنا..»

(٣) راجع الأستاذ محمد جواد مغنيه- فلسفة الأخلاق فى الإسلام ص٥٧.

(٤) راجع الأستاذ جميل صليبيا- المعجم الفلسفى جـ١ ص١١٨.

أيضا وطبقا لما يسمى بالمبدأ الأخلاقى[١] فالشر كل الشر ينبع من اللامبالاة والسلبية والتخلى عن التبعة والشعور بالمسئولية إن جحود الإلزام والإلتزام قضاء على وجود الإنسان بل هو بمثابة الجحود لأصل الوجود والسر الأول والأخير لذلك أن الحياة المشتركة لن تستقيم بحال إلا إذا عاش جميع أفرادها على مستوى واحد فى الحقوق والواجبات وإلا أختفى النظام وشاعت الفوضى والاضطراب والانحلال[٢] وإذا كان الأمر كذلك فلابد من أن تكون هناك حرية تجاه الإلزام وتفضيل السلوك الأخلاقى على السلوك غير الأخلاقى هو الإلتزام الأخلاقى، وكما يكون الإلتزام عن دافع خارجى يكون أيضا عن دافع داخلى ومن هنا كان لابد عن وجود إلزام والتزام فى العمل الأخلاقى ودرجة الإلتزام مبنية على درجة الإلزام من حيث القوة والضعف، ومن ثم من حيث التمسك بالمبادئ ، الأخلاقية وعدم التمسك بها.[٣]

ومفهوم الإلزام يقتضى أن تكون الفضيلة قوة كامنة إذا ملأت نفس المرء حفزته إلى العمل النافع وإلى النشاط المستمر حيث تتحول الفضيلة من قوة معنوية فى النفس إلى قوة حسية ويكون الخير الأخلاقى بمثابة سلطة ملزمة يتقيد بها الجميع[٤]. ومع أن الخلق – كما قررناه فيما سبق – يصدر عن الإنسان بصورة شبه تلقائية من غير فكر ولا روية إلا أن وراء هذا الصدور عملية مراقبة وإلزام من الخارج يقابلها تفاعل واستجابة من داخل الإنسان وعن طريق تفاعل هاتين العمليتين يصدرالخلق بصورة شبه تلقائية من غير فكر ولا روية، وعملية المراقبة والإلزام الخارجى، وعملية الإستجابة والإرتياح الداخلى هو ما أعنيه بمسألة الإلزام الأخلاقى، ولما كان من أهم خصائص الأخلاق القويمة مدى مافيها من قوة تدفع الناس إلى العمل بها كان الإلزام إذن من أهم الأسس التى يقوم عليها صرح بناء الأخلاق ومعرفة مدى الإلزام تستدعى معرفة مصادر الإلزام[٥] وعلى ذلك فمتى أردنا أن نقدر مدى ما فى الأخلاق

(١) راجع دكتور محمد عبد الله دراز– دستور الأخلاق ص٢٢– ط الأولى عام ١٩٧٣م ببروت راجع الأستاذ أنور الجندى القيم الأساسية ص٤٢٠.
(٢) راجع الأستاذ محمد جواد مغنيه– فلسفة الأخلاق فى الإسلام ص٥٨ ط الأولى ١٩٧٧ ببروت.
(٣) راجع دكتور مقداد يلجن الإتجاه الأخلاقى فى الإسلام ص٢١٨.
(٤) راجع الأستاذ أنورالجندى– قضايا العصر فى ضؤ الإسلام ص١٩٨ ط. مجمع البحوث عام ١٩٧١م.
(٥) راجع دكتور مقداد يلجن– الإتجاه الأخلاقى فى الإسلام ص٢١٩.

الإسلامية من إلزام فإنه ينبغى أن نبحث عن مصادره وحين نتجه إلى ذلك ننظر أولا إلى مصدر الإلزام فى الإتجاهات الفلسفية إننا نجد اتجاهين رئيسيين الأول يرجع سلطة الإلزام إلى مصادر خارجية[1] والإتجاه الثانى يعيدها إلى ذات الإنسان[2] وكل من هؤلاء وأولئك يختلفون فيما بينهم ولايتفقون فقد عرف تاريخ الأخلاق اتجاها يرد القوانين الخلقية إلى سلطات خارجية يخضع الفرد بمقتضاها إلى مبادئ تمليها عليه سلطات خارجية فالدين أو الدولة عند أصحاب هذا الإتجاه مصدرالتشريع الخلقى ويقولون برد الإلزام الخلقى إلى سلطة خارج الذات هى الأوامر الإلهية، ولكن طائفة أخرى من فلاسفة الأخلاق ترى أن الإلزام الخلقى ينبغى أن يرتد إلى نزعات وأفكار ذاتية صادرة عن الإنسان من تلقاء نفسه وذاته فعلى حين يرجع الرأى الأول أساس الأخلاق إلى أوامر آتية من الخارج ليس على المرء سوى الخضوع لها والانصياع لمشيئتها فإننا نرى الرأى الثانى يرجع الإلزام الخلقى إلى سلطة نابعة من الذات وحدها غير آتية من خارجها، وقوام هذه السلطة هو إحترام الواجب أو طاعة النفس والقلب ولو عرضنا هذين الرأيين على الأخلاق الإسلامية لوجدنا أن الإلزام فى الأخلاق الإسلامية ذو شقين إلزام داخلى وإلزام خارجى ذلك أن الإسلام يرفض أن يتحدث عن أخلاق يلزمها المجتمع للفرد دون أن يكون لهذا الفرد دورفيها حيث ينبغى للفرد أن يعرضها على عقله وأن يسلك بناء على اقتناع عقلى بها، كذلك فإن الدين الإسلامى يرفض أن يكون الدين من حيث هو مصدرللشعور الخلقى بمعنى أن القرآن يرى أن للفرد دوره سواء فيمايتعلق بالمجتمع وفيمايتعلق بالدين وهما قطبان رئيسان يقتسمان الفرد فلا ينبغى للفرد أن يطيع هذا أو ذاك طاعة عمياء[3] ففى الواقع أن للمجتمع سلطة على الفرد وكذلك الدين لكن هذه السلطة أو تلك إذا سلبت الفرد قدرته، ومن ثم حريته على الفعل فلن يكون سلوكه بناء على ذلك سلوكا أخلاقيا[4] ذلك أن

---

(١) ومع ذلك يختلف أنصار هذا الاتجاه فى مصدر هذ السلطة فمنهم من يرى أنها الجماعة ومنهم من يرى أنه الدين. راجع الدكتور توفيق الطويل- الفلسفة الخلقية من ص١٠٨- ١٩٢.

(٢) وأنصار هذا الاتجاه يختلفون أيضا ولم يتفقوا على مصدر واحد فمنهم من يرى أنها العقل، ومنهم من يرى أنها الحاسة الخلقية ومنهم من يرى أنها دافع المنفعة. راجع المرجع السابق للدكتور توفيق الطويل.

(٣) دكتور فيصل بدرعون محاضرات فى الفلسفة الخلقية ص٢٣٧ مكتبة رأفت سعيد.

(٤) راجع الأستاذ الجندى مفاهيم فى العلوم الإجتماعية والنفس والأخلاق فى ضوء الإسلام ص١٧٩.

الإسلام يرفض أن يكون الفرد بمثابة الآلة فى يد السلطة الدينية أو السلطة الإجتماعية ذلك الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم وكرمه خير تكريم. أن المثل الأعلى المتمثل فى سلطة المجتمع أو المتمثل فى سلطة الدين ينبغى أن ينال رضى الفرد وأن يكون موضع ثقته واحترامه وينبغى أن يعمل تأثيره على الفرد بحيث يسلك الإنسان بناء عليه طبقا لحريته وإرادته واختياره فبدون هذا الإحترام والتقدير المتبادل بين الفرد وبين السلطة المحيطة فلن يكون ثمة إختيار وبالتالى فلن تكون هناك حرية.[1] وعلى ذلك فإن القرآن الكريم – واحتراما منه للفرد طلب منه أن تكون أحكامه واعتقاداته قائمة على البصيرة الأخلاقية وبعيدة عن الهوى. وذلك أن الإسلام حرصا منه أيضا على أن يكون إلتزام الإنسان نابعا من فطرته السليمة ومن عقله الحر فقد بين حيثيات الأحكام التى أمرنا الله بها، وبذلك ندرك أن الإيمان دعوة إلى تحرير الإنسان من سيطرة الأنانية، وعمل لتحقيق هذه الدعوة الإنسانية المهذبة، وذلك أنها دعوة إلى تقدم الإنسان فى إنسانية السلوك[2] «فالإيمان والعمل أخوان شريكان فى قرن لايقبل الله أحدهما إلابصاحبه»[3] وعلى ماتقدم نرى أن الإلزام والإلتزام هما الأمان والضمان للسلوك السليم والخلق القويم، وهما لاينبعان إلا من الدين فمن إستمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى التى تؤيده وتحرصه ولذا فقد أكد القرآن الكريم فى غير موضع أن يسلك الإنسان بعيدا عن هواه وغرائزه من جهة، وألا يؤمن بالدين إيمانا تقليديا بحيث يتابع فى ذلك آباءه وأجداده. كما أنه فى كثير من آياته فى هذا الصدد ينهى عن مجاراة الهوى واتباعه أو إن شئت النفس الأمارة بالسوء فيقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[4] ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾[5] ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[6] ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[7] ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى

(١) راجع دكتور يدرعون «محاضرات فى الفلسفة الخلقية ص٢٣٨، مكتبه سعيد رأفت.
(٢) دكتور محمد البهى «الإسلام فى حياة المسلم ص١٧٣، ٢٠٠، مكتبة وهبة.
(٣) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ورمز له بالحسن– فيض القدير جـ٣ ص١٨٨.
(٤) سورة ص جزء من الآية (٢٦).
(٥) سورة النساء الآية (١٣٥) بعض منها.
(٦) سورة القصص بعض من الآية (٥٠).
(٧) سورة النجم الآية (٣، ٤).

النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[1] وكذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[2] و ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾[3].

أمابشأن محاربة التقليد واتباع معتقدات الآخرين واتباع سلوكهم وقيمهم دون رويه وتفكير أو اعمال ذهن من جهة الفرد فقد نص القرآن الكريم على ذلك فى غير موضع. ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[4] ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾[5] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾[6] وكذلك يذكر سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾[7] وهكذا نجد آيات كثيرة تذم اتباع الهوى وتذم التقليد الأعمى، إن هذه الآيات السابقة توضح أن القرآن الكريم يشير إلى أن ثمة أكثر من باعث على السلوك الإنسانى، فهناك أولا الرغبات والأهواء والميول الشخصية وهناك ثانيا تقليد الآباء أو ما يمكن أن نسميه السلطة الإجتماعية حيث يكون الإنسان حينئذ فى سلوكه مقلدا أو مرددا أفعال وأقوال الآخرين وهناك محرك آخر لسلوك الإنسان وأقصد به الفعل البشرى وهو السلطة الوحيدة المعتدلة فى الإنسان والتى جادلها القرآن وناقشها ووجه حديثه إليها والتى طلب من الإنسان أن تكون الفيصل بينه وبين غيره من الكائنات.

طلب القرآن من الإنسان أن يسير بناء على العقل الذى هو ميزة الإنسان الوحيدة التى إمتاز بها عن غيره من الكائنات. فالقرآن الكريم قد فصل ووضح أن الحديث عن الأخلاق لايمكن أن يتم إلا فى حضور العقل[8] وعلى ذلك فإذا كان العقل حاضرا فإن

(١) سورة النازعات الآية (٤٠، ٤١).
(٢) سورة المؤمنون الآية (٧١).
(٣) سورة القصص بعض من الآية (٥٠).
(٤) سورة الزخرف الآية (٢٢).
(٥) سورة البقرة بعض من الآية (١٧٠).
(٦) سورة الممتحنة جزء من الآية (١).
(٧) سورة الأعراف بعض من الآية (٢٨).
(٨) ليس هنا تناقض بين إلزام العقل والقلب بل لكى يكون الإلزام صحيحا لابد من تعاون القلب والعقل.

المرء حينئذ يكون حرا فى سلوكه وقد أشرنا منذ قليل إلى أنه حيثما توجد الحرية نستطيع أن نتحدث عن سلوك أخلاقى أو غير أخلاقى أما إذا لم يكن الإنسان حرا فى سلوكه فإنه يكون بعيدا عن دائرة الأخلاق. فلقد خلق الله الإنسان ووهبه الإستعداد لعمل الخير والإستعداد لعمل الشر يستطيع أن يسير بناء على العقل الصحيح ويستطيع أن يسير بناء على الرغبة والميل. ولقد وهب الله الإنسان القدرة على ذلك وتركه وشأنه ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(١) ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾(٢) ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(٣) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾(٤) فالإنسان إذن ليس مجبرا على فعل الخير كما أنه ليس مجبرا على فعل الشر، إنه مهيأ لهذا أو ذاك بوسعه أن يتجنب الشر ويعمل الخير وبوسعه أن يقترف الشر ويطرح الخير جانبا. صحيح أن هناك توفيقا من الله تعالى ولكن هذا التوفيق الإلهى لايمنح إلا لمن يستحقه ذلك أن الناس كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى وإتباع العقل ومن هنا نفهم قول الرسول عليه السلام (إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من نفسه يأمره وينهاه)(٥) هذا الواعظ النفسى الداخلى ليس إلا سلطة العقل والقرآن الكريم فى مجادلته أعدائه وأصدقائه(٦) إنما يخاطبهم بالعقل وهو لم ينزل إلا لمخاطبة العقلاء ، بل إن المسئولية والجزاء فى الإسلام لاتقع إلا على العاقلين وكثيرا مايختم القرآن آياته بقوله «لقوم يعقلون ولقوم يتذكرون ولأولى الألباب» فكل خطاب للقرآن الكريم إنما هو موجه فى الحقيقة لهذه السلطة الداخلية الباطنية سلطة العقل والقلب الذى ينبغى أن يحكم ويسود مملكة الإنسان وعلى ذلك فالنفس الإنسانية ليست شريرة

---

(١) سورة الشمس الآية (٧، ٨).
(٢) سورة القيامة الآية (١٤، ١٥).
(٣) سورة البلد الآية من (٨- ١٠).
(٤) سورة النازعات الآية (٤٠، ٤١).
(٥) الديلمى- مسند الفردوس، الجامع الصغير جـ١ ص١٧.
(٦) ولذلك نستطيع أن نقرر أن الجدل المذموم فى القرآن محمول على الجدل فى تقرير الباطل، وطلب المال والجاه... الخ والجدل الممدوح محمول على الجدل فى تقرير الحق ودعوة الخلق إلى الطريق المستقيم- المصباح المنير للفيومى جـ١ ص٤٤ مادة جدل وراجع دكتور محمد عبد الله دراز- دستور الأخلاق فى القرآن الكريم ص٦٧.

فى أصلها وإنما تفسدها الغفلة عن إستخدام القوى والمواهب التى أودعها الله فيها ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(1) والأمر متوقف على مدى إستخدامنا للقوى العليا التى أودعها الله إيانا وتنمية هذه القوى وتزكيتها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾(2) ،وفى النفس قوة كامنة تبذل النصح وتحدد للإنسان مايجب عمله وما يجب تركه، هى العقل،(3) وهناك قوة تكشف عن الخير وعن الشر هى القلب (ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب)(4) فلم يؤمن القرآن الكريم إذن بوجود فطرة إنسانية سيئة، بل آمن بأن الإنسان إن هيئ للخير فعل الخير وإن هيئ للشر فعل الشر. ولقد خلق الله الإنسان ومعه هاتان القوتان وترك له حرية الإختيار، فالعقل إذن من واقع النصوص الدينية له دور رئيسى فى قضية التكليف الإلهى وفى محاسبة الله للإنسان وهو نقطة الإرتكاز التى يعتمد عليها الدين فى مخاطبته للإنسان غير أن الإنسان ليس مكونا من عقل فحسب بل هناك إلى جانبه العواطف والرغبات وماتشتمل عليه النفس من أمور أخرى والقرآن الكريم لم يغفل فى الحقيقة عن أى حس من الحواس أو عاطفة من العواطف بل إنه طالب بالضبط الفردى أى الشخصى منها وسعى إلى تقوية الرغبات الإجتماعية لأن هذه إنما تقوى العقل وتمد له يد العون وتساعده على إنجاز الخير وتحقيق العدالة الإجتماعية(5)

إن الإنسان كما أوضح علماء الإجتماع كائن إجتماعى لايستطيع أن يعيش متقوقعا على ذاته منغلقا فى دائرته الخاصة بل إن من الضرورى له أن يعيش فى دائرة أسرة صغيرة وأن تعيش هذه الأسرة الصغيرة فى مجتمع صغير يشملها وغيرها من الأسر وأن يعيش هذا المجتمع الصغير مع غيره من المجتمعات فى دائرة مجتمع

(1) سورة الأعراف الآية (١٧٩).

(2) سورة الشمس آية (٩، ١٠).

(3) الأستاذ أنور الجندى مفاهيم ص٨٢.

(4) هذا جزء من حديث ذكره البخارى فى كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه جـ١ ص٧ أدلة الحلال بين والحرام بين.

(5) راجع دكتور الكسيس كارل- تأملات فى سلوك الإنسان ص٤٧، ترجمة دكتور محمد القصاص- مكتبة مصر- وراجع دكتور دراز دستور الأخلاق.

عالمى شامل. وللإنسان فى كل واحدة من هذه الدائرة حقوق وعليه واجبات ولابد لهذه الدوائر الثلاث من نظم وقوانين يحتكم إليها الأفراد الذين ينطوون تحتها إذا اشتجر بينهم الخلاف بحيث تنتظم حياتهم فلا يطغى فرد منهم على فرد ولا أسرة على أسرة ولامجتمع على مجتمع، وبحيث تؤدى الحقوق وتلتزم الواجبات بلا طغيان على حق أو افتئات على واجب وربما كان من الجدير بالذكر هنا أن نتساءل: أليس العقل وحده كافيا فى تنظيم هذه العلاقات الإنسانية المختلفة.

والحق أن القرآن الكريم لم يقتصر على الملكات العقلية وحدها فلقد عنى فى الوقت نفسه عناية كبيرة بإيقاظ أشرف مشاعرنا وأزكاها بيد أنه لم يحرك هذه المشاعر إلا تحت رقابة عقلنا فهو يتوجه إلينا دائما أعنى: يتوجه إلى ذلك الجانب المضئ من أنفسنا إلى ملكتنا القادرة على أن تفهم وأن تقدر فى كل شىء مايضر وماينفع، وأن تقوم القيم المختلفة، ومن المشاعر السامية التى حركها القرآن فينا ماجاء فيه دعما لسائر واجباتنا الإجتماعية ألا وهو الشعور بالأخوة الإنسانية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[1] و ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[2] وعلى ذلك فكل هذه القوى الهادية الكامنة فى داخل الإنسان من العقل والقلب والإيمان تزيد من إحساس الإنسان بالخير والعدل وشتى أنواع الفضيلة وتنمى فيه روح الإستقامة على النهج القويم وتدفع به إلى العمل لدنيا أفضل حتى كأنه يعيش أبدا ولآخرة أكمل كأنه يموت غدا وبعد فإن تركيز الواجب الإلهى الإنسانى والإلزام الأدبى الخلقى على هذه الأمورالثلاثة نداءالله والقلب والعقل هو تمكين وتأصيل لحياة وادعة عادلة ومعيشة راضية عالية دنيا وآخرة[3] ولذلك يقول الإمام الغزالى : «أعلم أن العقل لن يهتدى إلا بالشرع والشرع لم يتبين إلا بالعقل فالعقل كالأساس والشرع كالبناء ولم يغنى أساس مالم يكن بناء ولن يثبت بناء مالم يكن أساس وعلى هذا فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان ولكونهما متحدين قال الحق تبارك وتعالى «نور على نور» أى نور العقل ونور الشرع[4] هــذه

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.
(٢) سورة النساء الآية (١) وراجع دكتور محمد عبد الله دراز دستور الأخلاق ص٢٩.
(٣) راجع الأستاذ محمد جواد مغنية فلسفة الأخلاق فى الإسلام ص٦١.
(٤) راجع الإمام الغزالى كتاب معارج القدس ص٥٩ مكتبة الجندى.

الفطرة لواستطاع الإنسان الرجوع إليها وتخليصها من مطالب الحس ومن هموم الحياة لباتت صالحة لأن تسن للمرء قوانيه الخلقية، ذلك لأنه إذا كان العقل مبتدع القانون فإنه سوف يصبح السيد المطلق فيبقى عليه، أويبطله، تبعا لمشيئته. فإذا لم يستطع ذلك فلأنه قانون سبق فى وضعه وجود العقل وأن صانع العقل قد طبعه فيه، كفكرة نظرية لايمكن الفكاك منها[1] ولذلك يؤكد الإمام الغزالى عدم تناقض وحى العقل الصريح ووحى الشرع الصحيح لاتفاق مصدرهما وهو الله، لأنه واهب العقل وواهب الشرع فيقول «وظن قوم أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن وهذا الظن صادر عن عمى فى عين البصيرة لذا نرى أن من يدعو إلى التقليد فى الأمور الدينية ويعزل العقل بالكلية هو جاهل والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار الكتاب والسنة مغرور»[2] ومن هنا ذهب معظم الصوفية إلى ضرورة محاربة الهوى وعدم اتباع الميل وسعى الإنسان إلى الرجوع إلى حالة الفطرة الأولى التى فطر الإنسان عليها فإذا عاد الإنسان إلى هذه الحالة حالةالفطرة، حالة العقل الخالص فإنه يصبح إلهيا يصبح نورانيا وحينئذ يكون معنى أن يستنصح المرء عقله أن يقرأ فى كتاب فطرته النقية والإنسانية بصفة نوعية ما سبق أن فطرها الله عليه وبعبارة أخرى عندما يرجع أشد الناس إلحادا إلى سلطة العقل فإنه لايغفل فى الواقع سوى الانصات إلى ذلكم الصوت الإلهى الذى يتكلم فى داخل كل منا دون أن يذكر اسمه، وهو ينطق به صراحة عندما يتحدث إلى المؤمن[3] فالغنى والفقيروالصغير والكبيريعلمون أن فى تنفيذ تلك النظم طاعة لربهم ومرضاة له وهو أشد منهم حولا وقوة. والضعيف والقوى يعلمان ذلك أيضا ومن هذة الزاوية تشعر النفس بالسكينة ويشعر القلب بالطمأنينة والرضا وبعبارة أخرى فإن القوانين الخلقية الإسلامية تلبى فى الإنسان حاجتين حاجة خارجية: تتمثل فى مرضاة الله تعالى أو سخطه.

وحاجة باطنية داخلية: قوامها الرضا والطمأنينة والسكينة للنفس الإنسانية هذا من ناحية ومن ناحية ثانية نرى أن الإنسان روح وجسد ولكل منهما مطالب وواجبات

(١) راجع دكتور محمد عبد الله دراز دستور الأخلاق فى الإسلام ص٣٥.
(٢) راجع الإمام الغزالى احياء علوم الدين جـ٣ ص١٧.
(٣) راجع دكتور محمد عبد الله دراز- دستور الأخلاق فى الإسلام ص٣٦.

وعملية التوازن بين مطالب الاثنين وواجباتهما تحتاج إلى روية وحكمة وذلك بألا نطلق الحرية والعنان لكل منهما فى مطالبة بل يجب أن نقيد مطالب الجسد بعدم الإضرار والاجحاف كما نقيده بمطالب الروح أيضا بالحرص والمحافظة على مطالب الجسد والطيبات من الرزق، وبكلمة موجزة ألا نؤثر أحدهما على حساب الآخر وبذلك يتحقق الانسجام والترابط فى جامع يقيم مطالب الروح والجسد معا[1] ومصداق ذلك قول الرسول ﷺ (أن لربك عليك حقا وأن لنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط لكل ذى حق حقه)[2] وقال: (ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا من ترك آخرته لدنياه ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه ... من طلب الدنيا مكاثر مفاخر لقى الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استعفافا وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجه كالقمر ليلة البدر) وعلى ذلك نرى أنه لافارق ولا فاصل فى الامتثال للأخلاق الإسلامية بين العمل للدنيا والعمل للآخرة مادام كل منهما امتثالا لما أمر الله به، وإنما الفصل والحد بين الحلال والحرام بين الظلم والعدل بين المحاباه والمساواة بين أن يعيش الإنسان بكد اليمين وأن يعيش على حساب الآخرين ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3] وإذا كنا قد رأينا أن فلاسفة الأخلاق قد اختلفت أراؤهم بصدد رد الإلزام الخلقى إلى سلطة خارجية أو داخلية فقد رأينا من هذا العرض والبيان أن الأخلاق الإسلامية تجمع بين السلطتين فى تركيب بديع فالسلطة الملزمة للإنسان سلطة واحدة وليس هناك مصدران للإلزام الخلقى فإذا كان العقل نورا فإنه يستمد نوره من النور الأعظم وليس بين النورين تناقض[4] فالعقل الإلهى هو الذى يبين لنا الخير من الشر وهو الذى يوضح لنا ما يجب علينا إتيانه ومايجب علينا البعد عنه فقوام السلطة الخارجية فى الأخلاق الإسلامية هو مرضاة الله تعالى وخشيته. وقوام السلطة الباطنية الداخلية هو تحقيق الطمأنينة النفسية والسكينة الداخلية التى تعمق بين الناس أواصر الحب والود والرضا فيصبح آداء الحق والتزام الواجب أعمالا يؤديها الناس بلا إكراه أو قسر وبلاحقد طبقى أو تباغض اجتماعى.

(١) راجع الأستاذ محمد جواد مغنيه- فلسفة الأخلاق فى الإسلام ص٦٢.
(٢) صحيح البخارى- كتاب الأداب- باب ٨٤- ٨٦.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٢٩.
(٤) دكتور محمد عبد الله دراز- دستور الأخلاق فى القرآن الكريم ص٣٦.

وخلاصة القول أن القرآن الكريم يضع مصدرا رئيسيا للإلزام الخلقى هذا المصدر هو الله فإذا تخلى المرء عن أهوائه وميوله البعيدة عن الحق، وأضحى عقلا خالصا فإنه سيدرك أن أحكامه ليست حينئذ إلا امتدادا للأحكام الإلهية، والآن وبعد الحديث عن الإلزام بفعل الخير وترك الشر نرى أن المناقشات فى ذلك تعود إلى ثلاثة معايير فأصحاب المعيار الأول نظروا إلى الجانب الموضوعى المادى البحت وهو نفس الفعل وإهمال شخص الفاعل.

وأصحاب المعيار الثانى بالعكس فقد نظروا إلى الجانب الذاتى وهو شخص الفاعل ومقاصده دون الفعل.

وجمع أصحاب المعيار الثالث بينهما معا بين الفعل والفاعل والذات والموضوع، وهذا هو المعيار الإسلامى السليم والمنهج المنطقى القويم[1] فالله هو الذى خلق الإنسان ووضع النظام الأخلاقى وهو الذى يعلم الظاهر والباطن والسر والعلن ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾[2] وإنه يراقب الناس فى سلوكهم وأعمالهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[3] وأنه يسجل كل شئ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[4] ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[5] وبذلك جمعت الأخلاق الإسلامية بين العمل فى الدنيا والآخرة.

---

(١) راجع الأستاذ محمد جواد مغنية- فلسفة الأخلاق فى الإسلام.
(٢) سورة الأعلى الآية (٧).
(٣) سورة الفجر الآية (١٤).
(٤) سورة يس الآية (١٢).
(٥) سورة آل عمران الآية (٧٦).

مجالات الإلتزام الأخلاقى وسماته

إن مجالات الالتزام الأخلاقى هى مجالات الخير عامة وذلك أن الإنسان ملزم بفعل الخير والابتعاد عن الشر ويتجلى طابع الإلزام الشمولى فى الأخلاق الإسلامية بوضوح لاريب معه وذلك بوحدة العقيدة الإسلامية التى وجهت إلى الإنسانية جميعا، ولكن مفهوم الأخلاق الفلسفية تابع فى مقوماته للعقائد التى يدين بهاهؤلاء الفلاسفة فكل فريق يجعل الإلزام وفقا للعقيدة التى يبنى عليها فلسفته ويعتنقها هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لما كان الناس يختلفون من حيث القدرات والإمكانيات المادية والمعنوية والميول والرغبات فقد وضحت وحدة العقيدة الأعمال الخلقية وحددتها من ناحية نوعية الأعمال التى تلزم فى الدرجة الأولى والتى تكون مشتركة بين جميع المكلفين وعلى أساسها نميز بين الإنسان الأخلاقى واللا أخلاقى ومن هنا كان القانون الأخلاقى الإسلامى هو المعيار للأعمال التى هى الفروض من الناحية الإيجابية والكبائر من الناحية السلبية.

فالجانب الأول كما نرى فى ذلك أن الاسلام قد دعا إلى التسابق فى الخيرات والفضيلة فى الأعمال والتنافس فيها ولهذا قال تعالى ﴿فاستبقوا الخيرات﴾(١) ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾(٢) أى أن الإسلام يعطى المرء الحرية الكاملة فى أن يفعل مايشاء لأن فعله سيرد إليه أو عليه ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٣) ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(٤) من أجل هذا وعلى ضوئه ذهب القرآن الكريم إلى بيان الجانب الثانى فى الفرائض الأساسية للخير والواجب، ولا ينبغى أن تخضع هذه الواجبات الأساسية للتشريعات الإنسانية لأن ذلك سوف يترتب عليه غلو كبير سواء فى أداء هذه الفرائض أو البعد عنها ولذلك فقد أنقذ الإسلام الإنسان من الحيره والتردد فى ذلك أى من الناحية التشريعية والناحية العملية، كما أنه كذلك لم يدع إلى

(١) سورة البقرة بعض من الآية (١٤٨).
(٢) سورة المطففين الآية ٢٦.
(٣) سورة فصلت الآية (٤٦).
(٤) سورة المدثر الآية (٣٨).

الالتزام ببعض الخبرات وعدم الالتزام بالبعض الآخر بل ان الخيرات كلها لازمة وعلى ذلك نجد أن الاعمال الاخلاقية فى الاسلام مراتب:

المرتبة الأولى من الناحية الإيجابية: هى الواجبات الأساسية التى يجب أن يقوم بها كل إنسان ومن هذه الواجبات الأساسية الصلاة والصوم.. الخ.

المرتبة الثانية: وهى مساحة مفتوحة لكل إنسان للمسابقة فى الازدياد منها وهى ما يمكن أن نسميه بالنوافل وهى أمور لم يلزم بها الله المرء لكنه ذكر أن أداءها خير من عدم أدائها وأن من يقوم بها سيجزيه الله جزاء حسنا.

المرتبة الثالثة: وهى الحد الأقصى الذى ينهى الإنسان عن تجاوزه بمخالفة قوانين الحياة الضرورية[1].

اما من الناحية الأخرى وهى التى نهى الله عنها فلا ينبغى للإنسان أن يقوم بفعلها ونذكر منها السرقة والغش والكذب والقتل.. الخ ومن هنا نستطيع أن نقرر أن للإلزام الأخلاقى فى الإسلام خصائص لايوجد مثلها فى الفلسفات الأخلاقية الأخرى منها:

١ - امكان العمل: وهو الإلزام بقدر الاستطاعة:

وذلك أن الإسلام قد راعى إستطاعة الإنسان فى إلزامه بالقوانين الأخلاقية ومن هنا لم يكلفه فوق طاقته، ومصداق ذلك أننا نرى ورود آيات كثيرة من النصوص

---

(١) فمثلا لاينبغى أن ينفق الإنسان جميع ماله وبتالى لايجد مأكلا ولا مأوى ولهذا قال تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ سورة الأسراء الآية ٢٩.
وكذلك لايجوز للإنسان ان ينقطع للصوم حتى يترك الكسب أو حتى يموت وكذلك لا تكون مواصلته لفضيلة ماتجعله يهمل الواجبات الأخرى ولذا نهى الرسول ﷺ بعض الذين عزموا على مواصلة بعض العبادات مثل الصلاة والصوم فقال الرسول ﷺ «لعبد الله عمرو بن العاص لما علم أنه يواصل العبادة صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقا وإن لبدنك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا وإن لزوارك عليك حقا..
راجع فتح البارى بشرح الخبارى (٥) ١٢٤ كتاب الصوم باب حق الجسم فى الصوم.

القرآنية تبين ذلك حيث يقول الحق تبارك وتعالى ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾[1] وقوله ﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[2] وقوله ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[3] والمناسبة التى نزل فيها هذا النص الأخير تعيننا على تحديد معنى هذه الإستحالة التى تبدو كأنها غير متفقه مع الإلزام ففى الآية السابقة عليه يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾[4] وذلك أنه قد أعتقد صحابة النبى ﷺ أن الله محاسبهم على كل مايدور فى النفس أفكارا أو عزائم أو رغبات أو هواجس أو تخيلات... الخ تمسكا منهم بحرفية هذا النص العام فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال «لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ إشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب فقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال مانطيق: الصلاة والصوم والجهاد والصدقة، وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله ﷺ «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»[5] وهنا نزل هذا النص التفسيرى المذكور آنفا ليقول لهم إن التكليف لايتوجه إلى الإنسان إلا فى حدود وسائله وهكذا أدركوا أن أحوال النفس التى لا تخضع للإرادة ليست فى الواقع مرادة ولا يمكن أن تكون موضوعا مباشرا للتكليف فضلا عن الوساوس والغرائز والشهوات والميول الفطرية[6] «ومن هنا كان البيان الكامل من الحق تبارك وتعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[7] وهذا المبدأ كما تقتضية الأخلاق السليمة تقتضية العدالة الإلهية إذ لايمكن أن تكون الأخلاق صالحة للتطبيق إلا بهذا الشرط كما أنه ليس من العدالة كذلك تكليف الإنسان مالا

---

(١) سورة الطلاق الآية (٧).
(٢) سورة المؤمنين الآية (٦٢).
(٣) سورة البقرة الآية (٢٨٦).
(٤) سورة البقرة الآية (٢٨٤).
(٥) رواه مسلم فى كتاب الإيمان باب ٥٦ وقد أخرجه أحمد وأبو داود والطبرى فى تفسيره جـ٣ ص٩٧.
(٦) راجع الدكتور محمد عبد الله دراز دستور الأخلاق فى القرآن ص٦٤.
(٧) سورة التغابن الآية (١٦).

يطيق بل هو ظلم والله تعالى قد وصف نفسه بالعدالة ونفى عن نفسه الظلم ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢) ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٣).

٢- اليسر العملى وسهولة التطبيق:

وذلك أن الأخلاق الإسلامية المنبثقة عن وحدة العقيدة متوافقة مع قدرات البشر واستطاعتهم فيما تأمر به ليس ذلك فحسب بل إنها أسهل مما يطيقونه حيث يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾(٤) وقوله ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾(٥). فنرى من مفهوم الآيتين أن الله سبحانه وتعالى لم يضع نظامه فوق طاقة الإنسان من عسر وضيق بل أراد هدايتنا وتيسير السبل أمام الانسان للوصول إلى حياة طيبة ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(٦) وقال تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(٧) فتبين من هاتين الآيتين أيضا الرحمة من الحق تبارك وتعالى بخلقه، لأنه لم ينزل رسالاته إلا رحمة للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٨) فرسالات الله كلها فى جوهرها واحدة تهدف إلى غاية واحدة ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعـــالى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(٩) وبذلك ندرك اليسر العملى وسهولة التطبيق للأخلاق الإسلامية القائمة على وحدة العقيدة وماتنفرد به عن الأخلاق الفلسفية(١٠) التى تتسم بالقسوة وعدم مراعاة الطبيعة الإنسانية.

٣ - قوة الإلزام:

وقفنا فيما سبق على عناصر الإلزام وقسمناها إلى قسمين الأول القوة الخارجية مثل الوحى وملاءمة الفطرة الإنسانية للعقيدة الاسلامية فى الجانب الايجابى والسلبى.

(١) سورة النساء الآية (٤٠). (٢) سورة يونس الآية (٤٤).
(٣) سورة الأنعام الآية ١١٥. (٤) سورة البقرة الآية (١٨٤).
(٥) سورة البقرة الآية (٢٨٦). (٦) سورة الحج الآية (٧٨) جزء منها.
(٧) سورة البقرة الآية (١٨٥) وراجع دكتور محمد عبد الله دراز دستور الأخلاق ص٧٤.
(٨) سورة الأنبياء الآية (١٠٧). (٩) سورة الشورى الآية (١٣).
(١٠) وذلك كالفلسفة الأخلاقية البرهمية وسائرها.

والثانى يرجع إلى القوة الداخلية وذلك كالقلب والعقل وهذه العناصر مجتمعة تشكل أقوى سلطة الزامية فى الأخلاق الإسلامية، ذلك أن الإسلام يعتبر الله مصدر الإلزام فى الدرجة الأولى فالله سبحانه وتعالى هو الخالق للظاهر والباطن، ولما كانت القوانين الخلقية الاسلامية تلبى فى الإنسان حاجتين حاجة خارجية تتمثل فى مرضاة الله تعالى، وحاجة باطنية داخلية قوامها الرضا والطمأنينة والسكينة للنفس الإنسانية. ولذا فإن الأخلاق الإسلامية تجمع بين السلطتين فى تركيب بديع. وذلك أنها قد جمعت فى الإلزام بين الذات والموضوع معا وربطت الفاعل بالفعل قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾[1] وقال تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2] وقال ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[3]. وفى الحديث الشريف «إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[4] وبذلك تكون الأخلاق الإسلامية قد اشتملت فى الإلزام الخلقى على جميع القوى التى يمكن أن تكون عامل إلزام فقد قلنا فيما تقدم إن مصادر الإلزام الأخلاقى هى الوحى والقلب وهذه المصادر والبصائر تقرر حرية الإنسان وتؤكدها لأن أفعاله وأعماله لن تكون أخلاقية إلا إذا انبثقت من أعماقه وكانت ثمرة يانعة لنيته وإرادته بلا تكلف أو التواء، ولولا الحرية هذه لم يكن للإنسانية عين ولا أثر.[5] كما أن الاعتماد على الظاهر والباطن فى الإلزام والالتزام يتناسب مع الفروق الفردية فى الطبيعة البشرية لأن الناس عادة يختلفون فى الالتزام بعناصر الإلزام المختلفة فمنهم من يلتزم بالعنصر الدينى أكثر من العنصر العقلى والآخر بالعكس والثالث بالحاسة الخلقية وهكذا وذلك كله نتيجة للعوامل الوراثية والإجتماعية ومن الحق أن نقول كما قال أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز ان الاخلاقية الحقة ليست خضوعا ولا ابتكارا مطلقا هى هذا وذاك فى وقت واحد.[6]

(١) سورة البينة الآية (٦، ٧). (٢) سورة الشعراء الآية (٨٩).
(٣) سورة فاطر جزء من الآية (١٠). (٤) التاج ط- كتاب النية والاخلاص ص٥٥.
(٥) وعلى ذلك فالحرية ليست ملكة موروثة عن الآباء والأجداد ولا صفة مكتسبة من التربية والبيئة، ولا هى ثمرة من ثمرات التطور التاريخى كما يقول الماركسيون دائما هى صفة ذاتية للإنسان لايمكنه التحرر منها وان حاول واجتهد وبالقدرة والحرية يسوغ الالزام والتكليف.
(٦) راجع دكتور محمد عبد الله دراز- دستور الأخلاق ص١٣٤.
وراجع دكتور مقداد يلجن الاتجاه الأخلاقى ص٢٣٥.



الفصل الثاني

المسئولية الخلقية

ويتكون هذا الفصل من العناصر الآتية:

- المسئولية بالمعنى العام.
- شروط المسئولية.
- أنواع المسئولية.
- قيمة المسئولية الخلقية.

المسئولية

ترتبط الأخلاق بالمسئولية ارتباطا وثيقا، ولانستطيع أن نتحدث عن الأخلاق إلا إذا كانت متضمنه للمسئولية، فلا أخلاق بدون مسئولية ولا مسئولية بغير أخلاق، وذلك أنه يرتبط بفكرة الإلزام ناتجان، يستلزم أحدهما الآخر بدوره ويؤيده ويدعمه هما فكرة المسئولية وفكرة الجزاء والواقع أن هذه الأفكار الثلاثة[1] تشد إلى بعضها شدا قويا ولا تقبل الانفصام[2] وذلك أن مدى المسئولية يتحدد بمدى الإلزام والالتزام فالصفات والخصائص هناك تؤثر فى الصفات والخصائص هنا، لأن الإلزام والإلتزام يسبقان على المسئولية وهى مبنية عليهما وبهذا يتبين معنا أن الإلزام والمسئولية والجزاء حلقات متماسكه متشابكه لا إنفصام لها ولا إنفصال ولبيان ذلك نقف أولا على تحديد معنى المسئولية ثم بيان الأساس الذى تقوم عليه، ثم بيان أنواعها:

فالمسئولية بوجه عام هى: «حال أو صفه من يسأل عن أمر تقع عليه تبعته يقال أنا برئ من مسئولية هذا العمل. وتطلق أخلاقيا على إلتزام الشخص بما يصدر عنه قولا أو عملا[3] وخير ما نعرف به المسئولية المتفرعة عن الإلزام قول الحق تبارك وتعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[4].

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[5] ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[6] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[7] فنرى هذه الآيات الكريمه قد ربطت عمل الإنسان بالسؤال عنه والحساب عليه والجزاء إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. والمسئولية

---

(١) راجع دكتور/ محمد عبد الله دراز. دستور الأخلاق ص١٣٦.

(٢) وذلك أنه اذا ماوجدت الاولى تتابعت الأخريان على أثرها واذا اختفت ذهبنا على الفور فى أعقابها فالالزام بلا مسئولية يعنى القول بوجود ألزام بلا فرد ملزم وليس بأقل استحاله من ذلك أن نفترض كائنا ملزما ومسئولا بدون أن تجد هذه الصفات ترجمتها وتحققها فى جزاء مناسب فإن معنى ذلك تعرية الكلمات من معانيها نقلا من دستور الأخلاق للدكتور/ محمد عبد الله دراز ص١٣٦.

(٣) المعجم الوسيط جـ١ ص٤١١ مجمع اللغة العربية ط الهيئة العامة للكتاب.

(٤) سورة المدثر الآية (٣٨).

(٥) سورة البقرة الآية (٢٨٦).

(٦) سورة القيامة الآية (٣٦).

(٧) سورة الحجر الآية (٩٢، ٩٣).

بهذا إنما تراعى دائما نتيجة الفعل أو بعباره أخرى فهى تتجه إلى الماضى وذلك أن المرء لايسأل إلا عما حدث منه لكن لا نستطيع أن نسأله عن أفعال لم تقع بعد.. وإن كان يقول صاحب المعجم الفلسفى: «إن لهذا الشعور بالمسئولية جانبين: أحدهما متعلق بالماضى وهو شعو المرء بالأخطاء التى ارتكبها فى بعض مراحل حياته والآخر يتعلق بالمستقبل وهو شعور المرء بوجوب اضطلاعه ببعض الأعمال المنتظرة وإقدامه على تحصيل بعض النتائج المرجوه»[1].

ومعنى المسئولية تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابيه والسلبية أمام الله فى الدرجة الأولى وأمام نفسه وقلبه فى الدرجة الثانية وأمام المجتمع فى الدرجة الثالثة ويبين ذلك أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز فيقول «إن هذه الفكره تشتمل على علاقة مزدوجة من ناحية الفرد المسئول: وذلك بعلاقته بأعماله وعلاقته بمن يحكمون على هذه الأعمال»[2] فالمسئولية لاتدل ابتداء على علاقه واقع بل على علاقة حق يلتزمه الإنسان ويقره، ومن هنا فهى قبل كل شئ استعداد فطرى يتمثل فى المقدره على أن يلزم الانسان نفسه أولا، والقدره على أن يعنى بعد ذلك بالتزامه الذاتى. فإذا أخذت المسئولية بهذا المعنى فلن تكون إلا سمه من السمات المميزه التى يأخذها الإنسان من جوهر ذاته، والأساس الذى تقوم عليه المسئولية هو أهلية الشخص المسئول للقيام بالمسئوليات التى يتحملها ولذا فلا يصح لنا أن نتحدث عن المسئولية إلا على ضوَ الحق والواجب. فالمسئولية تشير إليهما، لأن المسئولية تعنى وجود إلزام والتزام من الفرد تجاه نفسه وهذه هى المسئولية الخلقية، والتزام الفرد تجاه مجتمعه وهى المسئولية الإجتماعية، وإلتزام الفرد بواجباته تجاه الله وهذه هى المسئولية الدينية.

والمسئولية التى نتحدث عنها هنا تعنى بقاء الإنسان كما هو أى من حيث «الإمكان والضروره فهما الصفتان اللتان تكونان مجالى المسئولية[3] وعلى ذلك تقوم المسئولية الأخلاقية».

(١) المعجم الوسيط جـ١ ص٤١١– مجمع اللغة العربية ط الهيئة العامة للكتاب.

(٢) دكتور محمد عبد الله دراز. دستور الأخلاق ص١٣٧.

(٣) المرجع السابق ص١٣٨. للدكتور/ دراز.

رأينا أن الخلق هو السلوك الإرادى الذى يكون صالحا للحكم عليه بالخير والشر، ومصدره القلب والوجدان النقى الذى يستحسن من الخير ما يستحسن تلقائيا ويستهجن من الشر ما يستهجن بالفطره ويدرك أن هذا يجب أن يترك وذاك يجب أن يفعل فالمسئولية ،هى الناشئه عن إلزامية القانون الأخلاقى وعن كون الفاعل ذا إرادة حـرة،[1] ويترتب على ذلك أن يتحمل الإنسان نتائج مايقوم به من أعمال إن خيرا فخير وإن شرا فشر وتحمل الإنسان نتائج فعله يعرف بالتبعة أو المسئولية الأخلاقية وذلك أن الإنسان مسئول عن كل عمل يقوم به، وهذه المسئولية تكون أخلاقية حيث يرتكز الحكم على الفاعل من نفس الفاعل ويكون هو السائل والمسئول فى آن واحد كما قال عز من قائل: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[2] ويتبين من هذا أن الإرادة هى أساس المسئولية الأخلاقية، فهى إذا ناشئه عما يتمتع به الإنسان من نعمتى العـقل[3] والإرادة وذلك أن التمتع بنعم العقل والحريه[4] وإدراك الإنسان لأعماله

---

(١) راجع الاستاذ جميل صيليبا. المعجم الفلسفى جـ٢ ص٣٧٠.

(٢) راجع الاستاذ محمد جواد مغنيه. فلسفة الأخلاق فى الإسلام والآية رقم (١٤) من سورة الاسراء.

(٣) وذلك بأن يكون الإنسان فى يقظه تامه ووعى كامل هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يكون أهلا لأن يكون مسئولا عن تصرفاته وأن يكون المرء حرا حين يفعل أو يترك وأن يكون شاعرا بالالزام الأخلاقى ليكون مسئولا أمامه وذلك يستدعى اليقظه التامه والوعى الكامل بالفعل موضوع المسئولية الخلقية، فكل ماجاء فى القرآن الكريم من تشريعات تنظم الحياة الدنيا والآخره من مأمورات ومنهيات، إنما هى مسوقه للذين اكتملت لديهم شروط التكليف وهذه الشروط فى عمومها تساوى التكليف الخلقى فى عمومه.

(٤) والمراد بها هنا المعنى المقابل للإكراه على الفعل ولذلك فقد رفع الإسلام التكليف عن المكره واعتبره غير مؤاخذ على فعله حتى ولو كان ذلك متعلقا بالعقيدة نفسها قال تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فلقد ساق القرآن الكريم هذا البيان للذين يكرهون على فعل شئ يعصى الله ورسول ولكن قلوبهم مطمئنه لخلافه فقال تعالى ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ففى الآية نهى عن الإكراه على البغاء عند إرادة التحصن وفى هذا تقرير لمعنى الحرية بالفعل أو فى الترك وبالنظر فى هذه الآية والتى قبلها نجد أن الأولى جاءت فى مقام الإكراه على الكفر وهذا أمر متصل بالاعتقاد والثانية جاءت فى الإكراه على فعل المنكر على فرض وقوعه وهذا أمر متصل بالعمل والسلوك ويفهم منهما أن الله وراء الفعل الظاهر قلبى أو حسى بالمغفره للفاعل فيؤاخذه على الحامل للفعل ومن هنا ندرك قيمة المسئولية الخلقية فى حرية الاعتقاد والسلوك– نقلا من أصول الأخلاق فى القرآن الكريم محمد نصار– مجلة الفكر الإسلامى. السنة الرابعة العدد الخامس. ربيع الثانى سنة ١٩٧٣. الآية الأولى النحل (١٠٦) والثانية النور (٣٣).

ونتائجها إدراكا كاملا يستتبع أن يكون مسئولا عن كل عمل يعمله ويتحمل نتائجه. قال تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1] والقرآن الكريم يشير إلى تلك القدرة التى زود بها الإنسان على الاختيار بين مافيه سعادته أو ما فيه تعاسته قال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[2] أما الأمور التى تخرج عن حرية الإختيار فلا مجال للمسئولية الأخلاقية معها ويسقط التكليف بها، حيث يقول الحق تبارك وتعالى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[3] وقوله ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[4] وقوله ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[5] وهكذا فإن محور المسئولية الأخلاقيه الإراده الحره المستنيره. ومعناها أن يتحمل الإنسان تبعة ما يصدر عنه من سلوك[6] ويبين ذلك أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز فيقول «إن المسئولية ترتبط ارتباطا وظيفيا بالشخصية، ولذلك لا يطيقها غير الإنسان البالغ العاقل الواعى بتكاليفها، وبحيث يتمثلها أمام ناظره فى لحظة العمل، فإذا ماتحددت صفات الشخص تعين بعد ذلك أن يكون مسئولا عن الأفعال التى يأتيها بإرادته الحره. ولذا فالإراده والحرية من الناحية العملية مترادفان وليس لأى قوة فى الطبيعة باطنة وظاهرة، سلطة كافية لكى تحرك أو توقف النشاط الجوانى لارادتنا[7] ومن كل ماسبق نستوضح شروط المسئولية:

١ - أهلية التصرف: وذلك أن يكون الشخص واعيا بطبيعة ذاته وبسلوكه وأهدافه ونتائج تصرفاته مما يعود على نفسه أو على غيره من نفع، أو ضرر إن عاجلا أو

(١) سورة الزلزلة الآية (٧، ٨).
(٢) سورة الشمس الآية (٧- ١٠).
(٣) سورة البقرة بعض من الآية (٢٨٦).
(٤) سورة الاحزاب جزء من الآية (٥).
(٥) سورة النحل جزء من الآية (١٠٦).
(٦) راجع دكتور/ ماهر كامل وعبد المجيد عبد الرحيم مبادئ الأخلاق ص٧٢ ط الاولى عام ١٩٥٨.
(٧) راجع دكتور محمد عبد الله دراز. دستور الأخلاق ص٤٢١.

أجـلا[1]، ولهذا جعل الشرع العقل والبلوغ أساسا للتكليف لأن العقل معيار التميز بين الخير والشر، والشعور بالواجب ومناط التكليف والمساءلة وتحمل النتائج والجزاء[2].

٢ – العلم وهو ثمرة العقل والقلب الذى يميز به الإنسان بين الصواب والخطأ فى الأقوال، وبين الحق والباطل فى الاعتقاد وبين الحسن والقبيح فى الأفعال ومن هنا نرى أن العلم هو المحـرك للإرادة فى الاخـتـيـار بين الأخـذ والتـرك وبذلك كـانت المسئولية وثيقة الصلة بالحرية.

٣ – الاراده: فـالإراده والنيـة والقـصـد بمعنى واحـد، وهى مـحـور المسـئـوليـة الأخلاقية فمتى وجدت الإراده وجدت المسئولية الأخلاقية وذلك أن القانون الأخلاقى لايعنيه سوى نية الفاعل وقصده بخلاف القانون الوضعى الذى يهتم فى المقام الأول بالفعل وصلته بصاحبه ولهذا كانت عناية الدين بالنية التى تتجه إليها إرادة الفاعل وعلى ذلك فقيمة العمل إنما تقدر حسب النيه فيه لا بحسب العمل ذاته فالذى يقصد ارتكاب جـريمة مـا لكنه لا يتـمكن من إتمامـهـا لمانع خارج عن إرادته كان مـسئـولا أخلاقيا عن قصده وإرادته ويوضح ذلك قول الرسول ﷺ «إنما الأعمال بالنيات»[3] كما أن النيه المعتبره فى الفعل هى المصحوبه بالعزم والتصميم على إنفاذها أما النية التى لاتخرج عن أن تكون حديث نفس وليس لها قوة العزم والتحول إلى التطبيق والنفاذ مع خلو المانع من انفاذها فلا اعتبار لها ولا يستحق صاحبها مدحا أو ذماً وعلى ضوْ ذلك يتبين لنا أن الاستطاعة والإرادة التامة المستنيره بالعلم هى محور المسئولية الأخلاقية يقول استاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز «الشروط الضرورية والكافية لمسئوليتنا أمام الله وأمام أنفسنا هى أن يكون العمل شخصيا إراديا تم أداؤه بحرية، وأن تكون على وعى كامل وعلى معرفه بالشرع والقانون[4]، أى أن شروط المسئولية الأخلاقية كما

---

(١) راجع دكتور مقداد يلجن. الاتجاه الأخلاقى ص١٣٨.

(٢) وذلك أن المجنون لا يؤاخذ على ما يحدثه من إضرار بنفسه أو بالغير كما لا يتوجه إليه بالثناء إذا أثمرت أعماله العفوية نتائج طيبه لنفسه ولغيره وفى حكمه الطفل والنائم والمغمى عليه وذلك أن أعمالهم فقدت الضابط لها وقوة التميز بين الخير والشر ومن ثم الشعور بالواجب.

(٣) البخارى جـ١ ص١٠ كتاب بدء الوحى ص١، ص٢٠ ط الشعب.

(٤) دكتور/ محمد عبد الله دراز. دستور الأخلاق ص٢٢٢.

قلنا هى أهلية العمل والقدره على التمميز، وعلم الإنسان بحدود الخير والشر فيما يقوم به من عمل، والإراده الحرة التامة، أى التى لا يحول دون إنفاذها حائل وقد جمع الإمام الغزالى شروط المسئولية الأخلاقية فى قوله «النية والإرادة والقصد عبارات متوارده على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل العلم يقدمه لانه أصلة وشرطة، والعمل بتبعه لأنه ثمرته وفرعه»[1] هذه الشروط مجتمعه تعد أساس المسئولية ولا يمكن الاستغناء عن أى واحد منها[2] وعلى ذلك ننظر هل تتوافر هذه الشروط فى الكائنات الأرضيه جميعا، بالنظر نرى أنها لا تتوفر إلا فى الإنسان وعلى ذلك فما نقولة هنا ليس مجرد دعوى بدون دليل لتبرير المسئولية الأخلاقية التى تحملها الإنسان فهى احدى السمات الرئيسيه التى تميز النوع الانسانى عما عداه من الموجودات ذلك أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى له القدرة على الفكر والتصور وهو وحدة قادر على تحمل ذلك بالإلزام والالتزام حيث يقول الحق تبارك وتعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[3] من ذا الذى يستأهل إذن أن يتصدى لحمل هذه الأمانات، ويدعى لنفسه القدره على التزام النهوض بها وعلى الوفاء بالتزاماته، من بين سائر العوالم التى يقع عليها حسنا؟

لاشك أنه هو الكائن المجهز بجهاز يستطيع أن يصرفه باختياره ذات اليمين وذات الشمال فى استقامة واعتدال، أو فى انحراف واعوجاج، لاشك أنه هو الكائن

---

(١) الإمام الغزالى احياء علوم الدين ص١٥٩.

(٢) ذلك أن المسئول إذا لم يكن واعيا بذاته ومقاصده من أفعاله وما سينجم عنها فلا معنى لجعله مسئولا عن تصرفاته، ولهذا لم يجعل الإسلام الحيوانات مسئوله ولم يجعل كذلك الأطفال مسئولين عن تصرفاتهم كذلك فمتى لم يكن الانسان حرا فى إرادته واختياره وتصرفاته فلا معنى عندئذ لجعله مسئولا عن أعماله واذا كانت هذه الشروط كلها ضرورية فهى ضروريه أيضا من حيث اتصال بعضها ببعض فإنه لا يعقل أن يحاسب كائن عن عمل لا يستطيع اختيار غيره، أو يستطيع الاختيار ولكنه لا يستطيع تنفيذ ما يختاره أو كان لا يعرف طبيعة الأعمال المختاره أهى خير أم شر وأنه مطالب بالخير ومنهى عن الشر نقلا من الاتجاه الاخلاقى ص٢٣٨. مع تقديم وتأخير.

(٣) سورة الأحزاب الآية (٧٢).

الموذود بمؤهلات الخطاب، وقوى الفهم والبيان، والحرية والإمكان ذلكم هو الإنسان، لأنه ذو عقل وإرادة واقتدار، فهو إذن الذى رشحته فطرته لهذه الاعباء فأصبح ذا مسئولية، وموضع أمانه وصاحب نفوذ وسلطان، ومصدر انشاء وابتكار، وهذا هو معنى ختام آية الأمانه «وحملها الإنسان»[1] فالمسئولية إذن تقع كما هو واضح داخل نطاق الإمكان وداخل نطاق الحرية حرية الاختيار بين هذا وذاك ففى هذه الدوائر دائرة الحرية أو الامكان توجد الأخلاق وتكمن المسئولية وعلى ذلك «فالمسئولية صفة يستمدها كل امرئ من فطرته الإنسانيه قبل أن يتلقاها من واضعى الشرائع والقوانين وهى كما قلنا صفه لازمه للإنسان بحكم أنه ذو عقل وإراده واقتدار»[2] والآية السابقة توجهنا إلى فهم طبيعة التفكير الأخلاقى فى الإسلام وطبيعة موقف الإنسان من الأخلاق لذا يجدر بنا أن نقف عندها وقفه قصيره لابراز أهم ما تحمل من المفاهيم الهامه: فمن هذه المفاهيم: مفهوم الأمانة الذى حددته الآية السابقة لها وهى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[3] فالأمانه إذن هى الصدق فى الكلام والخير فى العمل وأن يتم هذا وذاك بروح الطاعة والتقوى لله. إذن المراد من الأمانه باختصار الأخلاق لأن الأخلاق ليست أكثر- فى جملتها من الصدق فى الأقوال كلها والعمل الصالح فى السلوك كله وأن يكون كل ذلك بروح الطاعة لله وعلى أنه مكلف بها من قبله تعالى. والمراد من السموات والأرض والجبال هو أهلها مثل وأسأل القريه. والمراد من الحمل قبول القيام بهذه التكاليف وعدم الخروج عليها ثم تحمل مسئوليتها فى الحالتين معا وسبب اشفاق أهل السموات والأرض هو المسؤليات الكبيره التى تترتب على قبول هذه الأمانه والعذاب الشديد الذى يعاقب به من يخونها ولا يؤديها[4] فالإنسان فى هذا كله وفى سائر تصرفاته الإختياريه سيد مسئول ومسئوليته مشتقه من سيادته، إنه سيد بتسويد الله إياه منذ جعله خليفه فى الأرض فمكنه منها واستعمره

(١) راجع دكتور محمد عبد الله دراز. أساس الشعور بالمسئولية ص٢٨٤- دعوة التقريب من خلال رسالة الإسلام ط. المجلس الأعلى سنة ١٩٦٦ والاية من سورة الأحزاب جزء من الآية (٧٢).

(٢) راجع المراجع السابق. للدكتور دراز.

(٣) سورة الأحزاب الآية (٧٠، ٧١) وراجع دكتور مقداد يلجن الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام ص٢٣٩.

(٤) راجع المصدر السابق.

فيها، وأنه مسئول بموجب هذه السيادة التى عليه أن يؤدى حقها،[1] وهكذا كل شئ فى الكون ينادينا منذ نشأتنا بأننا مسئولون، لابمعنى أننا متهمون محاسبون بل بمعنى أننا مقصودون مأمولون وان من أكبر دواعى الفخار للإنسانيه أن تكون هى محط هذا السؤال العالمى، ومناط ذلك الأمل الكونى. وهكذا يتبين لنا أن المسئولية فى أساسها ليست خطاب تعنيف وتخويف وإنما هى لقب تشريف وخطاب تكليف، وهى تشريف من حيث هى تكليف إذ لا يكلف بحمل الأعباء إلا من هو أهل لحملها[2] ولهذا قال الحق تبارك وتعالى عقب تحمل الإنسان للأمانه ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[3].

وبعد بيان معنى المسئولية وأساسها وشروط الكائن المسئول ننتقل إلى بيان أقسام المسئولية ومجالها.

أنواع المسئولية:

تبين فيما مضى أن المسئولية تفترض مقدما قيام الإلزام لأنها عنه تنبثق ومن هنا نرى أن المسئولية بطبيعتها تستلزم سائلا يكون الإنسان مسئولا أمامه، عن فعل ما يجب فعله وترك مايجب تركه «فنوع المسئولية يحدده مصدر الإلزام فى الفعل أعنى القوه التى تطلب العمل من الإنسان وهو يبغى رضاها إن أحسن، ويخشى عقابها إن أساء فإذا كان الله هو مصدر الإلزام فالمسئولية دينية، وإن كان المجتمع فالمسئولية اجتماعية وأما إذا كان المصدر فى الإلزام هو شعور القلب ووجدانه فالمسئولية أخلاقية،[4] ومعنى ذلك بعباره أخرى أن المسئولية ينبغى أن تنصب أساسا على الماضى وليس على المستقبل فتتعلق بتقرير عن عمل الفرد يقدمه إما إلى نفسه وإما إلى الآخرين[5] فهناك إذن ثلاث أنواع من المسئولية:

(١) دكتور محمد عبد الله دراز. أساس الشعور بالمسئولية ص٢٨٦– دعوه التقريب من خلال رسالة الإسلام. ط المجلس الأعلى سنة ١٩٦٦ .

(٢) المرجع السابق ص٢٨٧ .

(٣) سورة الأحزاب الآية (٧٣) .

(٤) راجع دكتور حمدى حيا الله الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ص٣١ بتصرف يسير.

(٥) فإذا كان تقرير الفرد صادرا منه إليه أى إلى نفسه. كانت المسئولية خلقيه فى المقام الأول أما إذا كان هذا التقرير صادرا من الفرد تجاه الآخرين كانت هذه المسئولية مسئولية اجتماعية وأخيرا فإن المسئولية الدينيه هى التى تتوجه نحو الله والتى يحاسب الله الإنسان عليها.

١ - مسئولية دينية.

٢ - مسئولية اجتماعية.

٣ - مسئولية أخلاقية.

والقرآن الكريم يذكر هذه الثلاثة مجتمعه فى هذا النظام قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١) ونستطيع أن نقول إن كل مسئولية أخلاقية متى ارتضاها الإنسان فالمسئولية التى يحملنا إياها غيرنا تصبح بمجرد قبولنا لها مطلبا صادرا عن شخصنا. كما أنه رغم تعدد أنواع المسئوليه تبعا لمصدر الإلزام فيها فإن تلك المسئولية تصبح أخلاقيه، فهى التى يشرع الإنسان فيها لنفسه قوانينه ويحاسب نفسه عليها بمجرد الرضا بالوفاء بها، فهذا القبول ينقل الإلزام من مصدره الخارجى إلى إلزام داخلى شخصى، ويكون بمثابة عهد بالوفاء، والوفاء بالعهد واجب أخلاقى يستكمل بشكل كامل عناصر الفعل الأخلاقى وهذا مانبهت إليه الآية الكريمة ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾(٢) وقال تعالى ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾(٣) وقال ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾(٤) فعلى حين نستطيع أن نتصور بالنسبه إلى غير المؤمن مسئولية تفرض عليه من خارج ذاته. دون أن تكون لديه مسئولية أخرى صادرة من نفسة. نجد المؤمن على العكس لايمكن أن توجد إحدى المسئوليتين لديه دون الأخرى لأن العمل الأول للإيمان يستلزم معرفة الله والعمل بما أمر به ولكن تحديد المسئولية الأخلاقية بهذا المعنى يشترط عدم فرض واجب من خارج الذات كى يصبح هذا الواجب من واجبات الأخلاق. هل هذا يقره الإسلام؟ مما سبق يتبين أن الإسلام يطلب من المسلم أن يكون هواه تبعا لما جاء به بمعنى أن يكون راضيا غير مكره وهو يطيع الله ولكن لابد من رعاية النية للواجب المفروض من قبل الله حتى يكون الخير طاعه يثاب عليها المسلم.

---

(١) سورة الأنفال الآية (٢٧).
(٢) سورة الإسراء الآية (٣٤).
(٣) سورة الحديد جزء من الآية (٨).
(٤) سورة المائدة جزء من الآية (٧).

وبهذا يجمع الإسلام بين هذين الأمرين دون أدنى تأثير تحس به الإرادة الحرة فى الإنسان ونقصد بهذين الأمرين التكليف من الخارج مع الرغبة والرضا بهذا التكليف قال تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(١) وقد بين النبى ﷺ ذلك فى كلمته الجامعة «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»(٢).

ومن هنا نرى دلالة القرآن الكريم والسنة النبويه على أسمى وأعلى درجات الرضا والاقتناع من داخل المؤمن بطاعة الله سبحانه والتزامه بتعاليمه وأوامره، فإن ذلك لا يقتضى من قريب أو بعيد إنكار الواجب المفروض من خارج الذات، بل هو على العكس من ذلك تماما يقتضى العبوديه لمن يملك وحده التشريع والإيجاب. لأن الإنسان عاجز فى الحقيقة عن تشريع واجب لنفسه(٣) أو لغيره على أننا إذا كنا قد أشرنا من قبل إلى أن مصدر التشريع الإسلامى واحد فإن المسئولية هنا أيضا ينبغى أن ترد إلى مصدر واحد وهو المصدر الدينى فالنص الدينى هو الذى يحدد للإنسان مسئولياته وواجباته وقد رأينا كيف أن المرء لوترك وشأنه لأدى ذلك إلى تفريط فى جانب أو إفراط فى الجانب الأخر فمصدر التكليف والإلزام إذن ينبغى أن يرد فى النهايه إلى السلطة الدينية ومن أجل هذا قلنا أن المسئولية الخلقية تتضمن المسئولية الدينية والأجتماعية. لكن المسئوليتين الاجتماعية والخلقية تردان من حيث مصدر التشريع إلى السلطة الدنية، وبعباره أخرى فإن مصدر التشريع يرد إلى الدين بينما يرد التنفيذ إلى الفرد ومن هنا نجد أن المسئولية التى نادى بها الإسلام مسئولية شاملة كما يتبين أن المسئولية الأخلاقية أشمل من المسئولية الاجتماعية أو الدينية، إن أريد بالدين الأحكام والقوانين الشرعية التى يلتزم بها الانسان خشيه العقاب أو طمعا فى الثواب

(١) سورة الحجرات جزء من الآية (٧).
(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان- باب بيان خصال من اتصف بها وجد حلاوه الإيمان ص١٣ جـ٢ صحيح مسلم شرح النووى ط حجازى والنسائى فى كتاب الإيمان كما أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب حلاوة الإيمان ص٦٦.
(٣) راجع دكتور حسن صالح العنانى. المسئولية والجزاء فى السنة المطهره ص٩٣ رساله بكلية أصول الدين رقم ٩٨٨.

وهذا البيان يسوغ لنا أن نرجع المسئولية إلى نوعين فقط. مسئولية أخلاقية ومسئولية قانونية.

أما المسئولية الأخلاقية فهى:

التى يكون مصدر الإلزام فيها وجدان المراء وايمانه. والمسئولية القانونية هى التى يكون مصدر الإلزام فيها خارجيا مثل السلطه والقانون والعرف والضغط الاجتماعى.

ومن هذا يتضح لنا أن المسئولية الأخلاقية تختلف عن المسئولية القانونية من عدة وجوه منها:

١ – المسئولية الأخلاقية أشمل وأوسع دائره من المسئولية القانونية وذلك أنه هناك أعمال كثيرة لاتدخل تحت طائلة القانون(١).

٢ – المسئولية الأخلاقية تتعلق بالقصد والنية وقبل هذا وذاك تتعلق بالإيمان فعلى حين نتصور بالنسبه إلى غير المؤمن أن المسئولية تفرض عليه من خارج ذاته دون أن تكون لديه مسئولية أخرى صادره من نفسه نجد المؤمن على العكس تماما. فلا يمكن أن توجد إحدى المسئوليتين الداخلية والخارجية– لدية دون الأخرى لأن أساس العمل الخلقى هو الإيمان فالمرء محاسب مع ذلك على إرادته وبواعثه أخلاقيا. أما القانونيه فيلزمها فى المقام الأول الفعل المادى عند وقوعه.

٣ – المسئولية الأخلاقية تعلو على القانونيه لأن الأولى تتناول العدل والإحسان فى حين لاتهتم الثانية إلا بالعدل فقط فبينما يحثنا القانون على أداء ماعلينا من دين فى ميعاده المحدد يحث القانون الأخلاقى الدائن على النظر بعين العطف والرحمه فى حال المدين، فإنه إذا كان من العدل أن يسترد ماله فى ميعاده، إلا أن من الإحسان والتعاطف إمهال مدينه إن كان معسرا، أوإعفاؤه نهائيا إن عجز عن الوفاء ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٢).

(١) وذلك كالحسد والبغض والغيبة والشح والبخل والتبذير.. فكل هذه أفعال لا يعاقب عليها القانون الوضعى ولكنها شر بمقياس القانون الأخلاقى يستحق فاعلها الذم والعقاب الأدبى؛ نقلا من كتاب الأخلاق ومعيارها بين الوضعيه والدين. ص٣٣ دكتور حمدى حيا الله.

(٢) راجع دكتور حمدى حيا الله وسورة البقرة الآية (٢٨).

وبذلك نرى أن مجال المسئولية الخلقية[1] هو مجال الحياه كلها ونرى أن الإسلام يختلف فى نظرته إلى المسئولية عن كثير من المذاهب الأخلاقية وعن نظرة القوانين الوضعيه، ذلك أن نظرة هذه المذاهب والقوانين لاتجعل مجال الإرادة الداخلية مالم تنفذ فى العمل الخارجى -مجال المسئولية إطلاق- كما تختلف عن نظرة بعض الأديان السابقة على الإسلام التى كانت تعتبر الإنسان مسئولا عما تتحدث به نفسه. كما يفهم ذلك من قول الحق تبارك وتعالى ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾[2].

أما المجال الظاهرى للمسئولية فهو السلوك المادى المحسوس سواء أكان قولا أو فعلا بشرط أن يكون ناتجا عن قصد واختيار قال تعالى ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾[3] وفى آية أخرى ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[4] وقول الرسول «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى»[5] وعلى ذلك فلا يكون الإنسان مسئولا عن سلوكه الناتج عن اكراه وأضطرار ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[6] ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[7] وكذلك السلوك الناتج عن الخطأ والنسيان ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[8].

وبذلك يتبين لنا أن المسئولية الأخلاقية لها مجالان. المجال الداخلى والمجال الخارجى فالأول مسئولية الإرادة والقصد والتصميم.

والثانى مسئولية العمل والسلوك وعلى ذلك يتأكد ماقررناه سابقا بأن المسئولية الأخلاقية هى مسئولية الحياة كلها.

---

(١) وذلك أن المسئولية صفه تلازم صاحبها فى فترة ممتده ذات طرفين بدايه ونهايه وأن لها فى كل طرف منهما معنى خاصا ودلاله معينه فالمسئوليه تبدأ حين يطالبنا الواجب وينادينا منادى العمل وتنتهى بعد أن يقدم الإنسان حسابه عما صنعه فى جواب ذلك الدعاء وبين هذين الطرفين برزخ يطول أو يقصر على حسب المده المقدره، نقلا من أساس الشعور بالمسئولية للدكتور/ دراز ص٢٨٢- دعوة التقريب ط. المجلس الأعلى سنة ١٩٦٦.

(٢) سورة البقرة الآية (٢٨٦). (٣) سورة المائدة الآية (٨٩). (٤) سورة البقرة الآية (٢٢٥).

(٥) فتح البارى بشرح البخارى جـ١ باب الوحى ص١٣.

(٦) سورة النور جزء من الآية (٣٣).

(٧) سورة البقرة ١٧٣ وقال الرسول ﷺ أيضا فى هذا المقام رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ وعن المبتلى حتى يبرأ وعن الصبى حتى يكبر «سنن أبى داود- كتاب الحدود».

(٨) سورة البقرة الآية (٢٨٦).



الفصل الثالث

الجزاء الخلقى

ويشتمل على العناصر الآتية:

- الجزاء بالمعنى العام.
- اقسام الجزاء.
- خصائص الجزاء الخلقى.

الجــزاء

تمهيد:

تكلمنا آنفا عن المسئولية وكان لابد لكى نستكمل بحث الأخلاق الإسلامية أن نتحدث عن اثبات الجزاء الأخلاقى. وهنا نجد أن الجزاء من جنس المسئولية، فالمسئولية الخلقية يقابلها الجزاء الأخلاقى والمسئولية الدينية يقابلها الجزاء الإلهى والثالثة يقابلها الجزاء القانونى.

واذا كانت المسئولية هى نتيجة طبيعية للإلزام، فإن الجزاء نتيجة طبيعية لها، والجزاء بهذه الصورة يمثل أهمية مزدوجة وذلك باعتباره دافعا إلى التمسك بالقيم الأخلاقية وأيضا لأن العدالة تقتضية. فالجزاء يقتضى العدالة والعدالة تقتضى الجزاء وهما يجعلان للأخلاق معنى وأثرا وبدونهما تفقد الأخلاق مفهومها فتصبح أمرا لا أثر له.

معنى الجزاء: «هو المكافآة على الشئ والمكافأة مقابلة نعمة بنعمة»[1] وبعبارة أخرى نرى أن الجزاء «مثوبة» على عمل الخير أو عقوبة على عمل الشر[2]، ومدلول الجزاء بهذا المعنى أونحوه أمر يسهل إدراكه ويقل التنازع فيه حتى عند أولئك الذين لا يقولون به فى عالم الأخلاق الطبيعية. حيث ينكرون على الطبيعة المدرسة من القانون الأخلاقى أن تجعل للنشاط الإنسانى غاية أخرى غير أداء الواجب لذاته، وهناك أيضا من استبعد فكرة اللذة والألم بما فى ذلك اللذة الباطنية المحضة وبداهة فهم يستبعدون كل فكرة للثواب أوالعقاب تؤثر فى حواسنا الخارجية.

ولذا فقد وجب أن يظل مدلول كلمة الجزاء يدورعند الجميع حول الثواب والعقاب مهما اختلفت تفاسيرهما. وهذا التعريف يتمشى أيضا مع المتخصصين فى الأخلاق كالقانونيين والإجتماعيين والطبيعيين فإذا أردنا أن نقف على تعريف الجزاء فى اصطلاحات المتخصصين قلنا بايجاز شديد: إن الجزاء الإجتماعى «هو احترام الجماعة

(١) راجع المعجم الفلسفى، الاساذ جميل صليبيا، جـ١ ص٣٣٩ وراجع الفيروزأبادى جـ٢ ص٣٨١.
(٢) راجع الدكتور أبو بكر ذكرى، الأخلاق النظرية، ص١٣٤ط الاولى مطبعة الشعب.

واكبارها لصانعى الخير وفاعلى المعروف والمراد به هنا حب الناس وولاؤهم وتقديرهم واحترامهم لمن يعمل لخدمة الانسانية، أو احتقارها وازدراؤها لذوى الخصال الرديئة والأعمال السيئة، فجزاؤه عندهم السخط والمقت والازدراء والاحتقار»[1].

والجزاء الطبيعى هو: «ما نلقاه بالفطره من الأذى أو المضره أو ما نلقاه من المنفعة والمسرة نتيجة لاعمالنا»[2].

أما الجزاء الأخلاقى: فهو ما نشعر به من طمأنينة القلب وراحة النفس والباطن عند عمل الخير أو ما نحس به من الضيق والقلق والحزن والتعاسة عند ارتكاب الشرور والآثام[3].

أما الجزاء عند القانونيين: فإذا ما تركنا اصطلاحات الأخلاقيين واختلافاتهم إلى اصطلاحات القانونيين نجده «مجموعة من القواعد العامة الملزمة لتنظيم سلوك الأفراد فى المجتمع وهو يعاقب المسئ، ولا يثيب المحسن لأنه يستهدف الردع والتحذير من ارتكاب الجرائم، ليس ذلك فحسب بل نجد أنه لا ينص على عقوبة الكذب والنفاق والغيبة وعقوق الوالدين، وينص صراحة على أنه لا عقوبة بلا نص. إذ يصبح أمر الجزاء هنا مجرد اجراءات تأديبية وعقابيه لا مجال فيها إلا إلى تطبيق القانون على الأحوال المختلفة للمسئولين أمام هذا القانون.

أقسام الجزاء:

مما تقدم يتبين لنا أن الجزاء قسمان: مثوبة وعقوبة، وأنه بحسب مصدره أنواع، وفى هذا المقام نشير إلى نقطة هامة وهى أننا بتقسيمنا هذا لا ندعى وجود فصل بين هذه الأنواع بل نرى بينها اتصالا فى وقت واحد[4]. والجــزاء الإلهى هو الأصل والأساس وينقسم هذا الجزاء بحسب النوع إلى ثواب وعقاب. فالثواب فى حالة الالتزام

(١) راجع د. أبو بكر ذكرى، الأخلاق النظرية، ص١٣٧.
(٢) راجع المرجع السابق.
(٣) راجع دكتور أبو بكر ذكرى- الأخلاق النظرية ص١٣٧ بتصرف وراجع الأستاذ محمد جواد مغنيه- فلسفة الأخلاق فى الإسلام ص١١٢.
(٤) اى أن الجزاء الأخلاقى يشمل الجزاء الإلهى والوجدانى، والطبيعى، والإجتماعى.

بما أمر الله سبحانه وتعالى به. والعقاب فى حالة الانحراف والبعد عما نهى الله عنه. وينقسم بحسب الوقت إلى دنيوى وأخروى. وقد ورد فى القرآن الكريم على أوجه نذكر منها أنه جاء بمعنى المكافأة والمقابلة قال تعالى ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾(١) وقد قرر القرآن الكريم أن هذا الجزاء يكون فى حياتين: الحياة الدنيا. وفيها ينعم الإنسان براحة القلب ورضا النفس والأمن والاستقرار ويرشد إلى هذه المعانى قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(٢).

والحياة الآخره: وفيها أعد الله للمحسنين المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾(٣) والأعمال الصالحة لن تضيع سدى، قال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾(٤). فاطمئنان القلب فى الحياة الدنيا منبعه الأمن، والثواب المنتظر فى الحياة الآخرة وهما حافزان قويان يضاعفان العمل الصالح ويدفعان إلى الزيادة فيه،(٥) فإذا ما تركنا وجهات النظر الفلسفية والقانونية لمعنى الجزاء إلى منطق الإسلام الشامل وجدنا أن الإسلام يعالج هذا الموضوع على نحو متكامل ففيه أجمل الثمرات لمكارم الأخلاق ومحاسنها وفيه خير ما فى التقنينين من عدالة وعلاج. وفيه الجزاء المعنوى والحسى والباطنى والظاهرى والدنيوى الذى يتولاه العباد أو رب العباد والأخروى الذى لا يتولاه إلا الله سبحانه وتعالى وقبل بيان الجزاء الأخروى نرى ضرورة بيان الثواب والعقاب فى الدار الأولى. فمن حيث الثواب فقد قطع الله على نفسه إثابة المحسن على إحسانه قليلا كان إحسانه أو كثيرا، ووعد الله حق لا يتخلف. قال تعالى ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا

---

(١) سورة الليل الآية (١٩) وراجع بصائر ذوى التمييز للفيروزابادى جـ٢ ص٣٨٠.
(٢) سورة النور جزء من الآية (٥٥).
(٣) سورة الكهف الآية (١٠٧، ١٠٨).
(٤) سورة الكهف الآية (٣٠).
(٥) راجع د. محمد عبد الستار نصار، أصول الاخلاق فى القرآن الكريم، ص٣٨، الفكر الإسلامى، العدد الخامس، عام ١٩٧٣.

﴿يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] وقال تعالى ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾[2] ولا يكتفى باثابة المحسن بقدر أحسانه بل يضاعفه إلى ماشاء الله ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾[3].

أما عقاب المسئ ففيه تفصيل لأن هناك ذنوبا لابد من أن يعاقب عليها صاحبها مثل الكفر والإشراك بالله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[4] ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[5] ولا يغفر الله كذلك إذا كانت الإساءة إلى العباد لأن هذا حق الناس لاحق الله ولا يغفر الله ما للناس على الناس ولهذا قال الرسول من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شئ فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه[6] وقال تعالى ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾[7] وعلى هذا تصبح كلمة الجزاء فى الإسلام واضحة بينة وضوح الشمس مع نفاذ وأقناع ويمضى الجزاء من واقع الفطرة الإنسانية، نية، وسلوكا ولكنه فى نفس الوقت يأخذ بيد الإنسانية إلى اسمى مراتب الواجب ويرتقى بها إلى أكمل المبادئ وأكرم الأخلاق.

وفى ختام بيان الجزاء الآخروى بين الله تبارك وتعالى ذلك حيث قال ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[8].

---

(١) سورة الروم الآية ٦.
(٢) سورة الزمر الآية ٢٠.
(٣) سورة البقرة الآية (٢٦١).
(٤) سورة محمد الآية (٣٤).
(٥) سورة النساء الآية (٤٨).
(٦) راجع، التاج، جامع الاصول الحديث جـ٥، اعظم الظلم واضراره ص٢٠.
(٧) سورة ابراهيم الآية (٤٢).
(٨) سورة هود الآية (١٠٥ – ١٠٨).

ويتبين ذلك فى قول الرسول ﷺ «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع الناس عليه»[1] فتأمل كلمة (حسن الخلق) وما تشمله من رضا النفس وطمأنينة القلب وبشاشة الوجه فهى كلمة جامعة تشمل السلام والجمال والكمال مع النفس والغير. ثم تأمل كلمة (حاك) فى النفس وما تشمله من المستويات المتعددة من القلق والحيرة والاكتئاب والحزن وقت حالات الذنب والخطأ وتفاوتها ثم هذا الميزان الدقيق فى قوله «وكرهت أن يطلع الناس عليه» ومن البديهى أن الإسلام لا يتقيد فى توضيحه المعجز بهذه الاصطلاحات التى يطلق الناس عليها جزاءا اجتماعيا أو قانونيا، وإنما يعنى الإسلام بتجلية الحقائق النفسية والإنسانية متكاملة فى إطارها الاصطلاحى النافع من أيسر الطرق وأقصرها وابعدها عن الشدائد والحرج والتكلف. وما ذلك إلا لأنها تستهدف النفس الإنسانية بكل قواها»[2] وعلى ذلك فالجزاء الأخلاقى إما عقابى: ويتمثل فى الندم والأرق، الذى يشعر به من يخالفه ويفقد الأمن والطمأنينة الروحية ويعيش فى الألام النفسية من احساسه بفقدان قيمته وعدم احترامه لذاته وما يترتب على ذلك من شعور بالشقاء والتعاسة وارتباك حياته العملية.

وإما ثوابى: ويتمثل فى احساس المطيع بالطمأنينة والثقة والتوازن النفسى والشعور بالسعادة واحساس المرء بقيمته الذاتية واحترامه لنفسه. وثمرة هذا كله شعور الإنسان بالأمن الداخلى والسلام الروحى ونجاحه فى الحياة العملية. ولقد وضحت الأية الكريمة كل ذلك فى قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[3] والجزاء الأخلاقى بذلك ينفرد عن غيره من الجزاءات الأخرى، بأنه باطنى ذاتى، يتضمن داخله السلطة والجزاء فكما أن قيمته مستمدة من ذاته فكذلك جزاؤه جزء من قيمته، فهو متضمن

---

(١) رواه الترمذى فى الزهد وقال: هذا حديث حسن صحيح، ص ٦٤، جـ٧ تحفة الاحوذى واخرجه البخارى فى الأدب المفرد. واخرجه مسلم فى البر والصلة باب تفسير البر والاثم ص١١٠- ١١١، جـ١٦ ط حجازى.

(٢) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق، ص٤١٦.

ولذلك قال الرسول ﷺ «البر ما انشرح له صدرك والإثم ما حاك فى صدرك وإن أفتاك عنه الناس» مسند الإمام أحمد، جـ٤ ص٢٢٨.

(٣) سورة الشمس الآية (٩- ١٠).

المسئولية والجزاء معا وعقابه أو ثوابه فورى لا يعتمد فى هذا عند المؤمن على سلطة خارجية سوى ذاته. ومن هنا يمكننا أن نستخلص الخصائص الأخلاقية الإسلامية المتعلقة بالجزاء:

(١) أن الإسلام ربط الأخلاق بالجزاء ربط لا انفصام له سواء كان هذا الجزاء عاجلا أو آجلا فى الدنيا أو فى الآخرة فالجزاء نتيجة تنتجها الأخلاق كما تنتج الشجرة الثمر، وربط الأخلاق بالجزاء أمر ضرورى لأنه يزيد قيمة الأخلاق كما تزيد قيمة الشجرة ثمرتها. وبذلك اختلفت الأخلاق الإسلامية عن الأخلاق الفلسفية.

(٢) أن الأخلاق الإسلامية- شملت الإنسان من حيث الظاهر والباطن وقد راعى الإسلام الجانبين معا عندما قرر للسلوك الأخلاقى الجزاء المادى والمعنوى.

(٣) ربط الإسلام مصير الإنسان من حيث السعادة والشقاوة فى الحياة الدنيا والآخرة بالعمل الأخلاقى. وعلى ذلك فنتيجة الأخلاق الحسنة السعادة فى الحياتين ونتيجة الأخلاق السيئة الشقاوة والتعاسة فى الدارين معا.

وبذلك تميزت الأخلاق الإسلامية عن كل من: الأخلاق النفعية والأخلاق الكانتية. فالأخلاق النفعية ربطت الأخلاق بالمنافع المادية الدنيوية وجعلتها وسيلة لها فحسب، والأخرى لا تربط الأخلاق بالجزاء لأنها ترى أن الأخلاق يجب أن تطبق بصرف النظر عما يترتب عليها من جزاء أو مكافأة. فإن مثل هذه الأخلاق إن كانت تصلح لفئة خاصة أمثال كانت فإنها لا تصلح لجميع الفئات، والأخلاق الإسلامية جاءت لجميع الفئات مراعية لجميع النفوس ولجميع الفروق الفردية بين أفراد الجنس البشرى جميعا. من حيث السعادة والشقاوة فى الحياة الدنيا والآخرة.

الخاتمة

فى رسالتنا هذه التى بين أيديكم طوفنا بين ثنايا العقيدة والأخلاق، وهذه الرسالة تعالج موضوع العلاقة بين العقيدة والأخلاق فى الإسلام، ولما كانت العقيدة هى الوشيجة التى يتجمع عليها المؤمنون، وهى وشيجة فريدة متميزة وشيجة وحيدة تتعلق بالمنهج الربانى المتمثل فى هدى القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ فالسنة هى الأصل الثانى والتفسير الصحيح للقرآن الكريم.

والقرآن هو كتاب الله لخلقه- وعلى ذلك فأصدق الفضائل والقيم مانبع من التصور الإلهى الحق الذى يعلم الدقيق والجليل ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات والأرض، فالبذرة فى الحياة الإنسانية بذرة التوحيد- هى التى سمت بالروح وعمرت الوجدان وأذكت النفس، ورسمت الفضيلة وهدت إلى الحق والخير.

فبين العقيدة والأخلاق صلة قوية ورابطة وثيقة، وذلك أنهما ينبعان من منبع واحد هو النفس الانسانية ويتغذيان من التشريع الإلهى.

ومن هنا فقد أكد البحث على قوة العلاقة العضوية والموضوعية بين العقيدة والأخلاق، وهنا نستطيع أن نسجل أهم ما وصلنا إليه من نتائج:

أولا: أهم النتائج:

ان العقيدة فطرة فى الإنسان، وهى العهد المشدود والعروة الوثقى، وذلك لاستقرارها فى القلب ورسوخها فى الأعماق فهى قوة قائمة بذاتها ولا تغنى عنها سواها. ولذلك فهى قوة فى كيان الجماعة تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم.

وحدة العقيدة الإسلامية وذلك ببيان الأرتباط الزمنى والعقدى بين الأنبياء والرسل. فاسم هذا الدين الذى حمله الأنبياء هو الإسلام، وكما اتفقت كلمتهم جميعا- صلوات الله وسلامه عليهم- أجمعين فى اسم الدين اتفقت كلمتهم جميعا فى جوهر الدين وذلك بتوحيد الله والإيمان باليوم الآخر.

ان المتأمل لما جاء به الإسلام يراه يشتمل على أمور كثيرة ومسائل متعددة ولكنه يمكن ارجاعها إلى أسس ثلاثة هى:-

أولا العقيدة: وأساس العقيدة هو الإيمان بالله واليوم الآخر.

ثانيا الشريعة: وهى ما منَّ الله به على عباده من الدين وأمر به كالصلاة والصوم، والزكاة والحج وسائر أعمال البر، فهى تطلق على ما شرعه الله لعباده، ولذلك كانت الأديان السماوية السابقة للإسلام تقوم على اصلاح فساد المجتمعات الانسانية ومرد ذلك إلى عجز الإنسانية عن ادراك الكمال.

ثالثا الأخلاق: وهى المحور الاساسى الذى ترتكز عليه انسانية الإنسان والسياج الذى يحمى صاحبه وبذلك تشمل عقيدة التوحيد الأعمال الباطنة والظاهرة، وقصدنا بالأعمال الباطنة تصديق القلب وبالأعمال الظاهرة أفعال الجوارح. فالعقيدة أصل يدفع إلى الشريعة، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة والأخلاق ثمرة لهما.

عرض البحث لبيان العوامل النفسية لتكوين العقيدة الإسلامية وأثبت أن ينابيع العقيدة الإسلامية موجودة فى النفس الإنسانية وهى العقل، والإرادة، والوجدان وذلك على خلاف ما ذهب إليه الكثيرون، ولذلك فإننا نجد أن العقيدة فى الواقع ونفس الأمر ليست ثمرة لجانب واحد من جوانب النفس الإنسانية وإنما تتضامن جميعا على تحقيق ذاتية الإنسان.

تناول البحث بالبيان خصائص العقيدة الإسلامية ومن خلال هذا العرض تبين أن خصائص العقيدة الإسلامية كثيرة ولكن يمكن تركيزها على النحو التالى:-

الربانية- التوحيد- الفطرة- العقل والوضوح.

أثبت البحث أن الخلق: يدل على الصفات الفطرية فى خلقة الإنسان، وأن للأخلاق الإسلامية جانبا نفسيا باطنيا، وجانبا سلوكيا ظاهريا.

أن الأخلاق الإسلامية هى القواعد والمبادئ المنظمة للسلوك الإنسانى ثم إن لهذا النظام الأخلاقى الإسلامى طابعين مميزين:

الأولى: طابع إليه من حيث أنه مراد الله.

والثانى: طابع انسانى

كما أن الأخلاق الإسلامية تتضح من جانبين:

الجانب الأول: باعتباره عملا وذلك أن الأعمال إما داخلية وإما ظاهرية، ولهذا فقد نص الرسول ﷺ على أن الإيمان عمل فقال عندما سأله رجل أى العمل أفضل فقال: «ايمان بالله وجهاد فى سبيله» لأنه عمل ايجابى من أعمال القلوب.

والجانب الآخر: أن الإيمان فى حقيقته عمل القلب، بالإيمان بالحقيقة الإلهية، والاعتراف والتصديق بالحقيقة فضيلة وعدم الاعتراف مكابره، وهى بعد عن الخلق الحسن. ولهذا بين الحق تبارك وتعالى أن الإيمان به بر، وبذا فقد ربط الإسلام بين جوانبه برباط أخلاقى لتحقيق غاية أخلاقية.

أثبت البحث أن الأخلاق الاسلامية ضرورة لأنها تدعو كل انسان إلى أن يكون إنسانا فى الدنيا والآخرة، وهذا التكامل يقوم على أساس الايمان والتقوى، وبذلك يكون التكامل فى ميدان العلم والعمل، ومن هنا كانت الأخلاق الإسلامية ضرورة وغاية فى الأهمية.

عرض البحث للمعيار الخلقى فى دراسة الظواهر والمشكلات الخلقية وحدد المعايير الخلقية بين الاتجاهات المختلفة، ولأن الباحث يثق بشمول الأخلاق الإسلامية وتكاملها فقد عمل إلى تحليل الآراء ومناقشتها ومن خلال هذا العرض تبلورت مجموعة من النتائج أبرزها:

أ – أن المعايير الأخلاقية تختلف فيما بينها خطأ وصوابا، وما يصح منها يتفاوت ما هو عليه من درجات الصواب.

ب – أن المعايير الأخلاقية بوجه عام تقيس الأعمال الأخلاقية بالمعايير الخارجية التى لا تمت إلى باطن الإنسان بصلة ولهذا كان الاقتصار على واحد منها غير المعيار الدينى الشامل للظاهر والباطن مؤديا إلى القصور وعدم الاحاطة الشاملة.

جـ - الاقرار بأثر العوامل الداخلية الذاتية والخارجية الموضوعية فى بناء الأخلاق الإسلامية، ومن هنا فالمادة الحقيقية للأخلاق الإسلامية هى الإسلام فى أخص مصادره: القرآن والسنة.

د - أن المعيار الدينى قام على التكامل بين الظاهر والباطن وعلى ذلك فصورة الأخلاق الإسلامية نابعة من السماء ومادتها نابعة من الأرض، ولكن لما كان خالق الصورة وخالق المادة هو الله فمصدر الأخلاق الاسلامية ومنبعها هو الله الذى خلق الصورة وفقا للمادة، والمادة وفقا للصورة وبذلك نقرر أن معيار الأخلاق الحق هو الوحى الالهى.

عرض البحث لبيان سمات الأخلاق الاسلامية وانتهى الباحث فيها إلى سمات خاصة بها وحدها وهى:

العموم، والثبات- والكمال- والإلزام السماوى.

أثبت البحث أصالة الأسس التى أقام عليها الاسلام بناءه الأخلاقى وقد انتهينا إلى أن الأخلاق الإسلامية تستمد طبيعتها وصبغتها من طبيعة الإيمان، وبذلك فقد شمل الإسلام مفهوم الأخلاق وحقيقة العمل بها فمن حيث المفهوم وقفنا على أن الأخلاق كل سلوك إرادى صادر من إنسان مكلف، كما أنه ليس السلوك هو الفعل الظاهر فقط بل إن عمل القلب من النية والإرادة والاعتقاد يدخل فى السلوك وتترتب عليه المسئولية والجزاء كما تترتب على العمل الظاهر سواء كان هذا السلوك ينظم علاقة الإنسان بنفسه أو بالأمة أفرادا وجماعات، أو بالكائنات الأخرى وبذلك تصطبغ معاملاته وتصرفاته وجميع نواحى سلوكه بالصبغة الدينية الإسلامية ليجمع إلى معنى الإيمان معنى التقوى وهذا هو جوهر الأخلاق الإسلامية.

وتبين من هذا اتفاق الأخلاق والاسلام على معيار الحق والباطل والخير والشر، ولذا فقد ارتبطت الأخلاق الإسلامية بالإلزام كما أنه يرتبط بالإلزام ناتجان يستلزم أحدهما الآخر، وذلك أن الإلزام والالتزام يسبقان المسئولية وهى مبنية عليهما. كما أن المسئولية الأخلاقية تشمل الظاهر والباطن، أما الباطن فبالإرادة والقصد والتصميم،

وأما الظاهر فهو العمل والسلوك وعلى ذلك فالمسئولية الأخلاقية هى مسئولية الحياة الأولى والثانية وكذا الجزاء الخلقى.

ومن هنا نتبين العلاقة العضوية والموضوعية بين العقيدة والأخلاق.

ثانيا- التوصيات:

يوصى الباحث بضرورةاستعمال عبارة «الأخلاق الإسلامية» بدل عبارة:

«الأخلاق فى الفكر الإسلامى»

بمعنى أن تسمى مادة الأخلاق الإسلامية بأسمها وتدرس على هذا الأساس الواسع لتلك العبارة فالمادة الحقيقية للأخلاق الإسلامية هى الإسلام فى أخص مصادره: «القرآن والسنة».

كما يوصى الباحث بعدم استعمال عبارة الأخلاق الفلسفية فيما يخص الأخلاق الإسلامية، لأن هذه فى رأيى أخلاق الفلاسفة أما الأخلاق الإسلامية فمصدرها الحق الوحى الإلهى.

التأكيد على دراسة مادة الأخلاق الإسلامية بهذا المفهوم السابق فى جميع مراحل التعليم.

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم.

٢ – ابراهيم:
الدكتور زكريا– المشكلة الخلقية ط الثالثة– دار مصر للطباعة.

٣ – ابن الاثير:
جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ ١٢ جزء ط الأولى المطبعة المحمدية.

٤ – ابن خلدون:
عبد الرحمن– المقدمة ط كتاب التحرير– القاهرة ١٩٦٦م.

٥ – ابن الشريف:
الدكتور محمود– الأديان فى القرآن– ط المعارف ١٩٧٠م.

٦ – ابن كثير:
ابى الفداء اسماعيل– تفسير القرآن العظيم– ط كتاب الشعب.

٧ – ابن كثير:
ابى الفداء اسماعيل– البداية والنهاية– ط الأولى.

٨ – ابن مسكويه:
أحمد بن محمد بن يعقوب– تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق– ط المطبعة المصرية.

٩ – ابن منظور:
محمد بن بكر– لسان العرب– دار المعارف بمصر ١٩٨١م.

١٠ – أبو زهرة:
الشيخ محمد– العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن الكريم– ط مجمع البحوث ١٩٦٩م.

١١ – أبو زهرة:
الشيخ محمد– المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام– بحث بالمؤتمر الثالث– مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية.

١٢ – أبو زهرة:
الشيخ محمد– الوحدة الإسلامية– سلسلة الثقافة الإسلامية عام ١٩٥٨.

١٣ – أبو وافية:

الدكتوره سهير فضل الله– الفلسفة الإنسانية فى الإسلام ط– الأولى.

١٤ – أبى سلمى:

زهير– الديوان شرح ثعلب– ط الأولى.

١٥ – أرسطو:

مقدمة علم الأخلاق لأرسطو– سانتهلير– ترجمة الأستاذ أحمد لطفى السيد.

١٦ – اسماعيل:

المستشار محمد عزت– التبشير والأستشراق– ط مجمع البحوث.

١٧ – أصول الدين:

لجنة من أساتذة كلية أصول الدين– فى العقيدة والأخلاق– ط الدار المحمدية.

١٨ – أمين:

الأستاذ أحمد– كتاب الأخلاق– ط الثالثة ١٩٣١م.

١٩ – الأهوانى:

الدكتور أحمد فؤاد– التربية فى الإسلام– ط الحلبى بمصر.

٢٠ – الايجى:

عضد الدين– بشرحه المحقق للسيد الشريف الجرجانى على بن محمد– المواقف، مكتبة كلية أصول الدين– ط الأولى.

٢١ – ايوب:

الأستاذ حسن– تبسيط العقائد الاسلامية– ط الثانية ١٩٧٨ الاعتصام.

٢٢ – الباقورى:

الشيخ أحمد حسن– الأزهر فى خدمة الإسلام– بحث فى التوجيه الاجتماعى فى الإسلام ط مجمع البحوث الإسلامية.

٢٣ – البخارى:

شرح صحيح البخارى للشيخ زروق– ط حسان بالقاهرة.

٢٤ – بدوى:

الدكتور عبد الرحمن– الأخلاق النظرية– ط الثانية وكالة المطبوعات ١٩٧٦.

٢٥ – بركة:
الدكتور عبد الفتاح عبد الله– فى الأخلاق والتصوف ط الأولى– دار الطباعة المحمدية.
٢٦ – البصرى:
أبو الحسن– أدب الدنيا والدين– ط الأولى– دار الكتب المصرية.
٢٧ – البهى:
الدكتور محمد– الدين والدولة من توجيهات القرآن الكريم ط الثانية– ١٩٨٠ مكتبه وهبه.
٢٨ – البهى:
الدكتور محمد– الإسلام فى حياة المسلم– ط الخامسة ١٩٧٧ مكتبة وهبة.
٢٩ – البوطى:
الأستاذ محمد سعيد– ضرورة الدين لايجاد ذاتية الأخلاق دعوة الحق– مجلد٧– المغرب.
٣٠ – بيصار:
الدكتور محمد عبد الرحمن– المختصر فى العقيدة والأخلاق ط الانجلو المصرية عام ١٩٧١.
٣١ – بيصار:
الدكتور محمد عبد الرحمن– العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع– ط الرابعة الانجلو المصرية ١٩٧٣م.
٣٢ – البيضاوى:
القاضى ناصر الدين الشيرازى– أنوار التنزيل وأسرار التأويل– ط الثانية– الحلبى ١٣٧٥هـ.
٣٣ – تفاحه:
الأستاذ أحمد زكى– الإسلام عقيدة وشريعة– ط الاولى بيروت ١٩٧٩.
٣٤ – التفتازانى:
سعد الدين– العقائد النسفية– ط الحلبى بمصر.
٣٥ – الجزائري:
الأستاذ أبو بكر– عقيدة المؤمن– ط الحلبى– القاهرة.

٣٦ – جيمس:
الأستاذ وليم– ارادة الاعتقاد ترجمة دكتور محمود حسب الله– ط عيسى البابى الحلبى.
٣٧ – جعفر:
الدكتور محمد كمال– الدين والتدين– ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٨٢.
٣٨ – جعفر:
الدكتور محمد كمال– الفلسفة والأخلاق– ط دار الكتب الجامعية عام ١٩٦٨.
٣٩ – جعفر:
الدكتور محمد كمال– مدخل إلى الأخلاق– ط– دار المعارف.
٤٠ – الجليند:
الدكتور محمد السيد– فى علم الأخلاق قضايا ونصوص– ط، مطبعة التقدم ١٩٧٩.
٤١ – الجندى:
الأستاذ أنور– قضايا العصر فى ضوء الإسلام ط– مجمع البحوث.
٤٢ – الجندى:
الأستاذ أنور– القيم الاساسية للفكر الإسلامى ط– الأولى.
٤٣ – الجندى:
الأستاذ أنور– مفاهيم العلوم الاجتماعية والأخلاق ط الأولى.
٤٤ – الجندى:
الاستاذ أنور– منهج الإسلام فى بناء العقيدة والشخصية ط دار الاعتصام.
٤٥ – الجيزاوى:
الدكتور سعد الدين– دورالعقيدة فى شخصية الفرد والامة– مجلة الأزهر مجلد رقم ٣٤– ١٣٨٢هـ.
٤٦ – الحسينى:
الشيخ أحمد محمد– نهاية الأحكام فى بيان ما للنية من الأحكام– ط الأولى المطبعة الأميرية.

٤٧ – حيا الله:
الدكتور حمدى– الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ط الثالثة ١٩٧٧ .
٤٨ – حب الله:
الدكتور محمود– الحياة والوجدانية والعقيدة الدينية ط الأولى– دار الكتب المصرية.
٤٩ – حجازى:
الدكتور عوض الله جاد– العقيدة الأسلامية والأخلاق بالاشتراك– ط الأولى عام ١٩٧٧ .
٥٠ – حسن:
الأستاذ عبد الحميد– الحياة المثالية للفرد والأمة كما وصفها القرآن الكريم– ط مجمع البحوث.
٥١ – حسن:
الأستاذ عبد الحميد– روح الإسلام أقوى دعامة لإصلاح المجتمع بحث بالتوجيه الاجتماعى فى الإسلام– مطبوعات مجمع البحوث.
٥٢ – حسن:
الأستاذ كامل محمد– أهداف الرسالة الإسلامية بحث بالتوجيه الاجتماعى فى الإسلام– ط مجمع البحوث.
٥٣ – الخياط:
الدكتور عبد العزيز– المجتمع المتكافل فى الإسلام ط مؤسسة الرسالة.
٥٤ – دراز:
الدكتور محمد عبد الله– أساس الشعور بالمسئولية– دعوة التقريب من خلال رسالة الإسلام– ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٦ .
٥٥ – دراز:
الدكتور محمد عبد الله– دستور الأخلاق فى القرآن الكريم– ترجمة عبد الصبور شاهين– ط الأولى بيروت.
٥٦ – دراز:
الدكتور محمد عبد الله– كتاب الدين– ط السعادة ١٩٦٢م.

٥٧ – دراز:
الدكتور محمد عبد الله– كلمات فى مبادئ علم الأخلاق ط الأولى– المطبعة العالمية ١٩٥٣م.
٦٣ – دراز:
الدكتور محمد عبد الله– المدخل إلى القرآن الكريم ط الأولى ١٩٧١م.
٦٤ – دراز:
الدكتور محمد عبد الله– نظرات فى الإسلام– ط الأولى مطبعة الجهاد ١٩٥٨م.
٦٥ – الدرديرى:
الاستاذ أحمد– أعرف دينك– المطبعة السلفية ١٩٧٤م.
٦٦ – الديدى:
الأستاذ عبد الفتاح– الفلسفة الاجتماعية عند العقاد ط الانجلو المصرية.
٦٧ – ديو:
الدكتور جون– تجديد فى الفلسفة– ط الانجلو المصرية.
٦٨ – ذكرى:
الدكتور أبو بكر– الأخلاق النظرية– مطبعة الشرق القاهرة.
٦٩ – الذهبى:
الدكتور محمد حسين– الدين والتدين– مجلة البحوث الأسلامية– العدد الأول من المجلد الاول– السعودية ١٣٩٥ هـ.
٧٠ – رجب:
الدكتور منصور– تأملات فى فلسفة الأخلاق– ط الثالثة الانجلو المصرية عام ١٩٦١م.
٧١ – رجب:
الدكتور منصور– نظام الإسلام– ط مكتبة الانجلو المصبرية ١٩٦٢م.
٧٢ – سابق:
الشيخ سيد سابق– العقائد الإسلامية– ط الثانية دار النصر للطباعة ١٩٦٧م.
٧٣ – سلامة:
الدكتور ابراهيم– كتاب خلق ودين– ط الأولى.

٧٤ - سلطان:
الدكتور محمد هشام- العقيدة الإسلامية- الندوة الأولى للدراسات الإسلامية- بجامعة أم درمان السودان- ط دار الفكر ١٩٨١م.
٧٥ - الوس:
الاستاذ محمد- معالم الأخلاق فى القرآن الكريم- دعوة الحق- العدد الخامس- السنة العاشرة ١٩٧٦م.
٧٦ - سيف النصر:
الدكتور عبد العزيز- مسائل العقيدة بين التفويض والتأويل- رسالة دكتوراه استنسل- كلية أصول الدين.
٧٧ - الشاعر:
الدكتور أحمد عبد الحميد- مناهج البحث الخلقى عند مفكرى الإسلام- ط الأولى ١٩٧٩.
٧٨ - الشرقاوى:
الدكتور محمود- الدين والضمير- ط بيروت.
٧٩ - الشعراوى:
الشيخ محمد متولى- العقيدة الإسلامية.
٨٠ - شلتوت:
الإمام الأكبر الشيخ محمود- الإسلام عقيدة وشريعة ط العاشرة ١٩٨٠م.
٨١ - شلتوت:
الإمام الأكبر الشيخ محمود- تفسير القرآن العظيم ط دار الشروق.
٨٢ - شلتوت:
الإمام الأكبر الشيخ محمود- من توجيهات الإسلام- ط دار الشروق ١٩٨٠.
٨٣ - الشهرستانى:
الملل والنحل- ط الاولى كلية أصول الدين.
٨٤ - صقر:
الاستاذ عطيه- دراسات اسلامية- ط الاولى توزيع الاهرام ١٩٨٠.

٨٥ – صليبيا:
الاستاذ جميل– المعجم الفلسفى– جـ١، ٢ دار الكتاب اللبنانى ط بيروت ١٩٧٨ .
٨٦ – الصويص:
اللورد دنيس لويد– فكرة القانون تعريب المحامى سليم مراجعة سليم بسيوس– عالم المعرفة– الكويت العدد ٤٧– ١٩٨١م.
٨٧ – طبارة:
الاستاذ عفيفى عبد الفتاح– روح الدين الإسلامى– ط بيروت ١٩٨٠م.
٨٨ – الطويل:
الدكتور توفيق– أسس الفلسفة ط النهضة المصرية.
٨٩ – الطويل:
الدكتور توفيق– الفلسفة الخلقية– ط دار النهضة المصرية– ١٩٦٧م.
٩٠ – الطويل:
الدكتور السيد رزق– العقيدة فى الإسلام منهج وحياة ط الملجس الأعلى للشئون الإسلامية– القاهرة ١٩٨٠م.

٩١ – عبد الباقى:
الشيخ محمد فؤاد– اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان– ط عيسى البابى الحلبى.
٩٢ – عبد الرحمن:
الإمام أحمد بن محمد– مختصر منهاج القاصدين ط مكتبة الدعوة الإسلامية– شباب الأزهر.
٩٣ – عبد العزيز:
الدكتور سيد– العقيدة السلفية بين الإمام ابن حنبل والإمام بن تيمية– رسالة بكلية أصول الدين– استنسل.
٩٤ – عبد العظيم:
الأستاذ على– ان الدين عند الله الإسلام– المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٧٧.

٩٥ - عبده:
الدكتور عبد السلام محمد- العقائد الإيمانية فى العقيدة الإسلامية- ط لطفى- القاهرة ١٩٧٨م.
٩٦ - عبد الواحد:
الدكتور مصطفى- العقيدة الإسلامية- ندوة محاضرات العالم الإسلامى- مكة المكرمة ١٩٧٢م.
٩٧ - عبود:
الدكتور عبد الغنى- العقيدة الإسلامية والأيديولجيات المعاصرة ط دار الفكر الأولى.
٩٨ - عثمان:
الأستاذ فتحى- الدين فى موقف الدفاع- ط بيروت.
٩٩ - عثمان:
الأستاذ عبد الكريم- معالم الثقافة الإسلامية- ط الثالثة مؤسسة الأنوار بالرياض.
١٠٠ - عفيفى:
الدكتور محمد صادق- الفكر الإسلامى مبادئه مناهجه قيمه وأخلاقه- ط الخانجى.
١٠١ - العقاد:
الأستاذ عباس محمود- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ط دار الكتاب اللبانى.
١٠٢ - العقاد:
الأستاذ عباس محمود- حياة قلم- ط دار الهلال.
١٠٣ - العقاد:
الأستاذ عباس محمود- كتاب الله- ط الثانية- دار المعارف بمصر.
١٠٤ - العقاد:
الأستاذ عباس محمود- المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد مجلد٧- ط دار الكتاب اللبنانى.

١٠٥ – العسقلاني:
شهاب الدين بن الفضل المعروف بابن حجر– فتح البارى بشرح البخارى– ط مصطفى البابى الحلبى.
١٠٦ – على:
العلامة مولانا محمد– الدين الإسلامى ترجمة محمد سعيد بك ٢ جزء– مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥١م.
١٠٧ – علوانى:
الأستاذ عبد الله– تربية الاولاد فى الإسلام ٢ جزء ط بيروت.
١٠٨ – العمادى:
الأستاذ محمد عبد القادر– هذا هو الإسلام– ط الثالثة– دار الفكر الحديث للطباعة ١٩٧٣م.
١٠٩ – العنانى:
الدكتور حسن صالح– المسئولية والجزاء فى السنة المطهرة– رسالة بكلية أصول الدين– استنسل تحت رقم ٩٨٨.
١١٠ – العويشق:
الأستاذ عبد الله محمد– الأدب فى خدمة الحياة والعقيدة– ط كلية اللغة العربية بالرياض.
١١١ – عون:
الدكتور فيصل بدر– محاضرات فى الفلسفة الخلقية– مكتبة سعيد رأفت– القاهرة.
١١٢ – عيش:
الدكتور عثمان عبد المنعم– الظاهرة الخلقية– ط الأولى مكتبة الأزهر ١٩٧٤م.
١١٣ – العينى:
الحافظ بدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد– عمدة القارئ– ط الأولى– مطبعة المنيره– القاهرة.

١١٤ – الغزالى:
الإمـام ابى حـامـد– المقـصـد الاسنى فى شـرح اسمـاء الله الحـسنى– ط– مكتب الجندى شركة الطباعة الفنية المتحدة ١٩٦٨م.
١١٥ – الغزالى:
الإمام أبى حامد– معارج القدس– مكتبة الجندى.
١١٦ – الغزالى:
الإمام أبى حامد– احياء علوم الدين– ٤ جزء ط صبيح.
١١٧ – الغزالى:
الشيخ محمد الغزالى– خلق المسلم– ط التاسعة ١٩٧٤م.
١١٨ – غلوش:
الدكتـور أحـمـد– الدعوة الإسلامـيـة اصولها ووسـائلها– ط دار الكتـاب اللبانـى– بيروت.
١١٩ – الفيروز ابادى:
مجـد الدين محـمد بن يعقوب– بصائر ذوى التمـييز– ٦ جزء– ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٣هـ.
١٢٠ – قاسم:
دكتـور محمـود– الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية– ليفى بريل– ترجمة الدكتـور محمود– مطبعة مصطفى البابى الحلبى.
١٢١ – قاسم:
الدكتور محمود– دراسات فى الفلسفة الإسلامية.
١٢٢ – القاسمى:
الأستاذ محمد– الاسلام كما فهمت– ط مطبعة التوفيق بدمشق ١٩٧٠م.
١٢٣ – قراعة:
الأستاذ محمود على– الأخلاق فى الإسلام من احاديث الرسول ﷺ ومن فتاوى ابن تيمية– دار مصر للطباعة ١٩٦٤م.
١٢٤ – القرضاوى:
الدكتور يوسف– الايمان والحياة– ط– السابعة ١٩٨٠م.

١٢٥ – القرضاوى:
الدكتور يوسف– الخصائص العامة للإسلام– ط الأولى مكتبة وهبة ١٩٧٧م.
١٢٦ – القرطبى:
ابى عبد الله محمد الانصارى– الجامع لأحكام القرآن ط الشعب.
١٢٧ – القطان:
الاستاذ مناع– لمحة من تاريخ التشريع الإسلامى– ندوة المحاضرات برابطة العالم الإسلامى. مكة المكرمة ١٣٨٦هـ.
١٢٨ – قطب:
الأستاذ سيد– خصائص التصور الإسلامى– ط دار الشروق.
١٢٩ – قطب:
الأستاذ سيد– فى ظلال القرآن– ٨جزء– ط بيروت.
١٣٠ – قطب:
الأستاذ سيد– هذا الدين– ط دار الشروق ١٩٧٩م.
١٣١ – قنديل:
الدكتور قنديل محمد– تحليل وتكميل تحقيق الاقتصاد فى الاعتقاد للإمام الغزالى– ط الأولى ١٩٨٢.
١٣٢ – قنديل:
الدكتور قنديل محمد– العقيدة والأخلاق بالاشتراك– ط الاولى– دار الطباعة المحمدية بالازهر ١٩٨١.
١٣٣ – كارل:
دكتور ألكسيس– تأملات فى سلوك الانسان– ط الاولى ١٩٤٩م.
١٣٤ – كارل:
دكتور ألكسيس– الإنسان ذلك المجهول– مكتبة المعارف بيروت– ط الثالثة ١٩٨٠م.
١٣٥ – كامل وعبد الرحيم:
الدكتور ماهر– الدكتور عبد المجيد– كتاب مبادئ الأخلاق– ط الأولى مكتبة الانجلو ١٩٥٨.

١٣٦ – الكوردى:
الدكتور محمد ضياء الدين– دراسات فى علم الأخلاق ط الاولى ١٤٠١هـ.
١٣٧ – كريسون:
الكاتب أندريه– المشكلة الأخلاقية والفلاسفة– ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود– الاستاذ أبو بكر ذكرى ط– الثالثة.
١٣٨ – اللبان:
الشيخ عبد المجيد– كتاب الأخلاق الدينية الإسلامية مكتبة الأزهر.
١٣٩ – الالبانى:
الأستاذ وهبى سليمان– اركان الإيمان– ط بيروت.
١٤٠ – الماوردى:
أبو الحسن– ادب الدنيا والدين– ط دار الشعب ٣ جزء ١٩٧٩م.
١٤١ – مبارك:
الدكتور زكى– الأخلاق عند الغزالى– ط الحلبى ١٩٦٨م.
١٤٢ – المجلس الأعلى:
الأحاديث القدسية ٢ جزء ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١٤٣ – مجمع اللغة العربية:
معجم الفاظ القرآن الكريم– الجزء الأول والثانى– ط التراث للجميع– الهيئة المصرية العامة.
١٤٤ – مجمع اللغة العربية:
المعجم الفلسفى– ط الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية– ١٣٩٩هـ.
١٤٥ – مجمع اللغة العربية:
المعجم الوسيط– الجزء الأولى والثانى– ط الهيئة المصرية.
١٤٦ – محمود:
الإمام الدكتور عبد الحليم– الإسلام وتنظيم المجتمع ط الاولى– **مطبعة الأزهر.**
١٤٧ – محمود:
الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم– المنقذ من الضلال ط السادسة دار النشر والطباعة ١٩٦٨م.

١٤٨ – محمود:
الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم– كتاب الرسول ﷺ– ط مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٢م.
١٤٩ – محمود:
الدكتور جمال الدين– قضايا إسلامية– ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٨٢م.
١٥٠ – المجذوب:
الشيخ محمد– الأخلاق بين الفلسفة والإسلام– ندوة المحاضرات– مكة المكرمة.
١٥١ – المرزوق:
الشيخ محمد– الأخلاق بين الفلسفة والإسلام– ندوة المحاضرات– رابطة العالم الإسلامى– مكة المكرمة.
١٥٢ – المرصفى:
الدكتور سعد محمد محمد الشيخ– معالم فى السلوك الإسلامى– ط دار الشعاع للنشر ١٩٨١م.
١٥٣ – مزروعة:
الدكتور محمود– دراسات فى علم الأخلاق– ط الرياض.
١٥٤ – مزروعة:
الدكتور محمود– دراسات فى العقيدة الإسلامية والإخلاق ط الاولى– مطبعة العاصمة بالقاهرة– ١٩٧٢.
١٥٥ – مزروعة:
الدكتور محمود– الدين وحاجة الإنسان إليه– رسالة دكتوراه استنسل بكلية اصول الدين.
١٥٦ – المصباح المنير:
الفيوس صاحب كتاب المصباح المنير– ط السادسة ١٩٢٥م.
١٥٧ – المودودى:
الأستاذ أبو الأعلى– نظام الحياة فى الإسلام.

١٥٨ – موسى:
الدكتور محمد يوسف– تاريخ الأخلاق– ط الثالثة ١٩٤٧م.
١٥٩ – موسى:
الدكتور محمد يوسف– الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ط الثانية– دار الفكر العربى– ١٣٧٩ هـ.
١٦٠ – موسى:
الدكتور محمد يوسف– العقيدة وخطر الانحراف– سلسلة الثقافة الإسلامية ١٩٦٣م.
١٦١ – المولى:
الأستاذ محمد جاد– كتاب الخلق الكامل– ٢ جزء ط الأولى ١٩٦٩م بيروت.
١٦٢ – الميدانى
الأستاذ عبد الرحمن حنبكه– العقيدة الإسلامية واسسها ٢ جزء– ط الاولى ١٩٦٩م بيروت.
١٦٣ – النجار:
الأستاذ عبد المجيد– صلة العقيدة والسلوك فى المفهوم الإسلامى– جوهر الإسلام العدد ٤، ٥ عام ١٩٧٧م.
١٦٤ – النجار:
الشيخ عبد الوهاب– قصص الانبياء– ط مؤسسة الحلبى.
١٦٥ – نجاتى:
الدكتور محمد عثمان– القرآن وعلم النفس– ط الاولى دار الشروق ١٩٨٢.
١٦٦ – نصار:
الدكتور محمد عبد الستار– أصول الأخلاق فى القرآن الكريم– مجلة الفكر الإسلامى– السنة الرابعة العدد الخامس ١٩٧٣م.
١٦٧ – نصار:
الدكتور محمد عبد الستار– العقيدة الإسلامية والأخلاق بالاشتراك– ط الاولى ١٩٧٢ دار الطباعة المحمدية.

١٦٨ - نصار:

الدكتور محمد عبد الستار- فى الفلسفة الإسلامية- ط الانجلو المصرية ١٩٨٢ .

١٦٩ - النسائى:

سنن النسائى- الإمام النسائى- ط مصطفى البابى الحلبى ١٩٦٤ .

١٧٠ - هاشم:

الدكتور الحسينى عبد المجيد- الدين القيم- ٢جزء ط الاولى- مجمع البحوث الإسلامية .

١٧١ - هراس:

الدكتور محمد خليل- شرح العقيدة الواسطية- ط السلفية .

١٧٢ - هيكل:

الدكتور محمد حسن- حياة محمد- الطبعة السابعة القاهرة .

١٧٣ - وصفى:

الدكتور محمد- الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة .

١٧٤ - وصفى:

الدكتور مصطفى- بحث عن كفاية الشريعة الإسلامية بالتوجية التشريعى بالإسلام- الجزء الثالث- مؤتمرات مجمع البحوث ١٩٧٢م .

١٧٥ - يلجن:

الدكتور مقداد- الاتجاه الاخلاقى فى الإسلام دراسة مقارنة- ط الاولى مكتبة النانجى القاهرة ١٩٧٣ .

فهرس الموضوعات